التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة النمل

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر/ طنطا

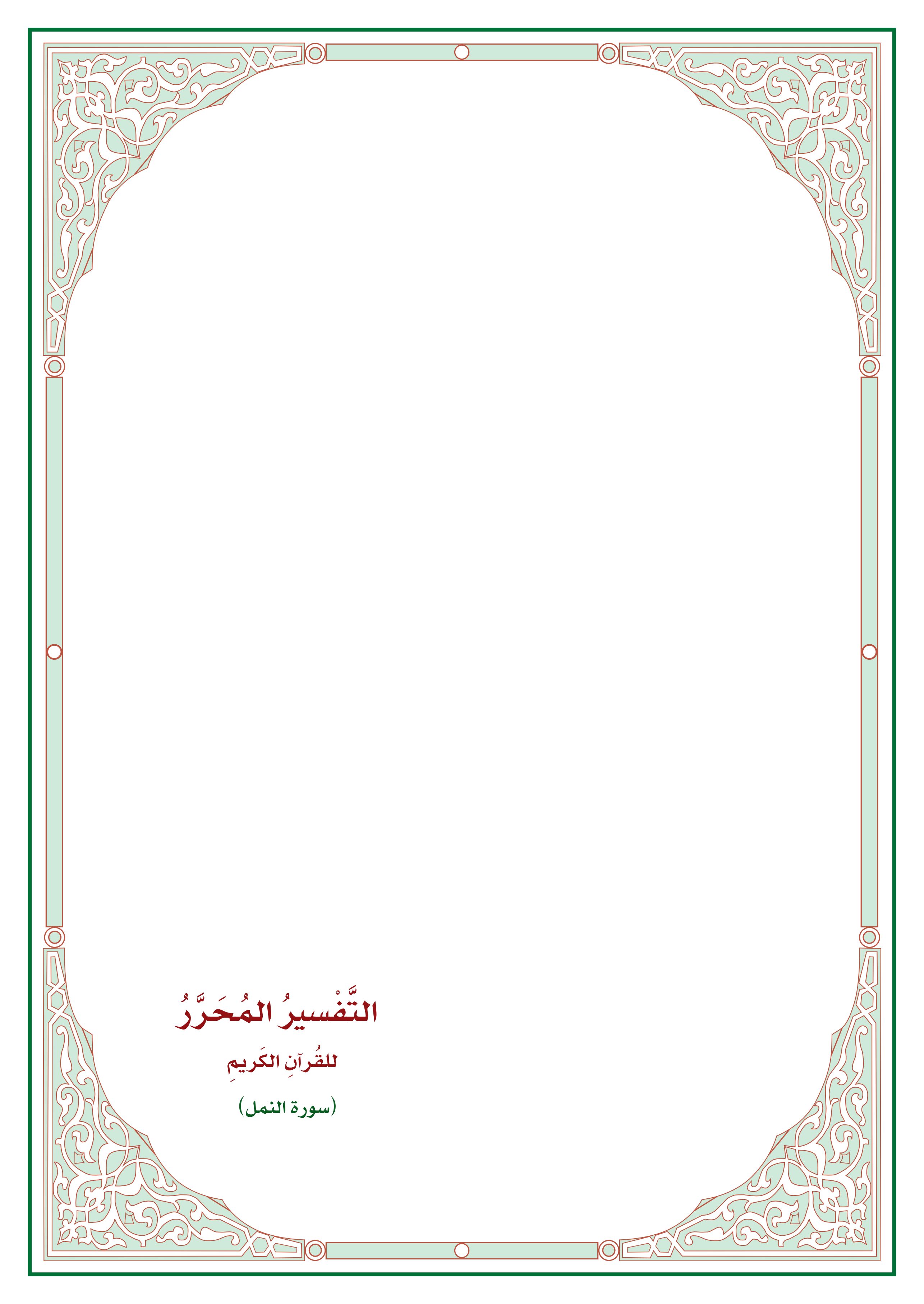
الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني والعشرون

الدرر السنية
www.dorar.net





التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النمل)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثاني والعشرون - سورة النمل/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٥٤-٨٨-٥

١- القرآن - تفسير　　أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣٢　　١٤٤٢/٣٧٥٠

رقم الإيداع: ٩٧٨-٦٠٣-٨١٥٤-٨٨-٥

ردمك: ١٤٤٢/٣٧٥٠

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م





التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النمل)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

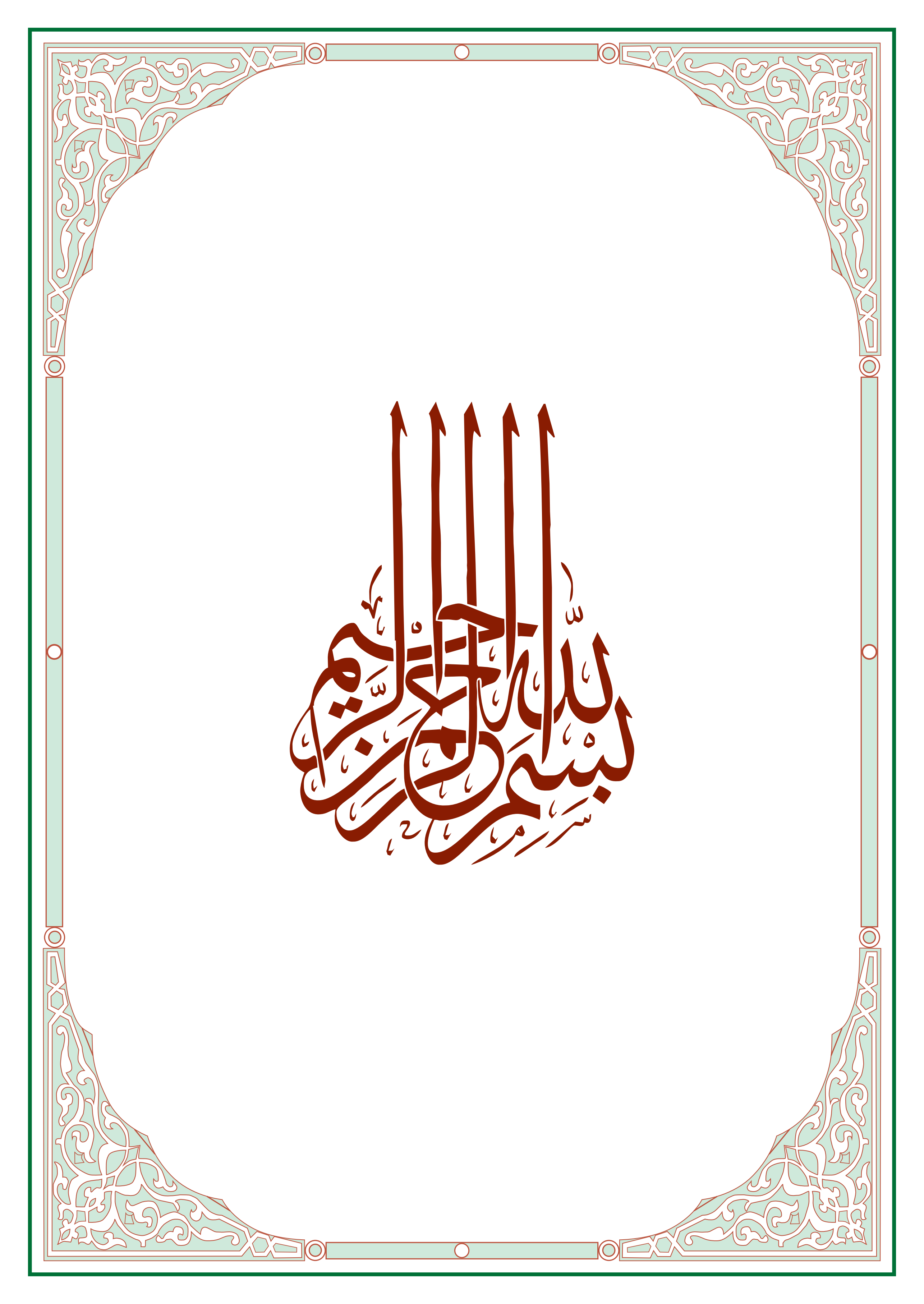
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

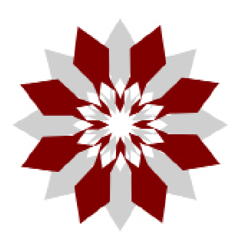
المجلد الثاني والعشرون

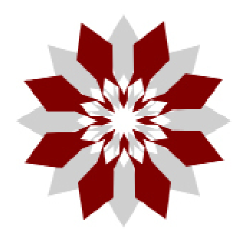


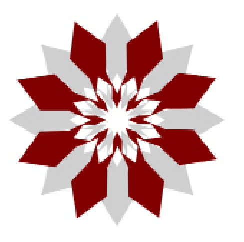

بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ

سُورَةِ النَّملِ







سورةُ النَّملِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ سُورةَ (النَّملِ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ النَّملِ مكِّيَّةٌ[٢]، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

الحديثُ عن أدلَّةِ وحدانيَّةِ الله تعالى وقدرتِه، وعن مظاهرِ فضلِه تعالى على عبادِه[٤].

موضوعاتُ السورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

١- الإشارةُ والتنبيهُ إلى إعجازِ القُرآنِ الكريمِ، ببلاغةِ نَظمِه وعلوِّ معانيه؛

---

(١) سُمِّيت هذه السورةُ بسورةِ (النَّملِ)؛ ووجهُ التسميةِ بذلك أنَّ لفظَ النَّملِ لم يُذكَرْ في سورةٍ مِنَ القرآنِ غيرِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٥).

وقد ورَدت بعضُ الآثارِ عن الصحابةِ فيها تسميتُها بهذا الاسمِ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٦).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: القرطبي، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبِقاعيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٢٩٦).

وعِظَمِ شأنِه.

٢- بيانُ صفاتِ المؤمنينَ وجزائِهم، وصفاتِ الخاسرينَ وجزائِهم.

٣- ذِكرُ شَيءٍ من قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ.

٤- ذِكرُ قِصَّةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ مع النَّملةِ، ومع الهُدهدِ، ومع ملكةِ سَبأٍ وقَومِها.

٥- ذِكرُ قِصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه.

٦- ذِكرُ قِصَّة لوطٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه.

٧- بيانُ البراهينِ الدالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ، وإبطالُ دينِ المشركين وعبادتِهم لغيرِ الله، وإثباتُ البَعثِ.

٨- إخبارُ القُرآنِ الكريمِ عن أنباءِ السَّابقين، وأنَّه مُهيمِنٌ على الكتُبِ السَّابقةِ.

٩- خَتْمُ السُّورةِ بذِكرِ بعضِ أشراطِ الساعةِ، وبَعضِ مشاهِدِ القيامةِ، وما يَنتظِرُ المكَذِّبين بالسَّاعةِ في ذلك اليومِ العظيمِ.



الآيات (١-٦)

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَيَّنَّا﴾: أي: حَسَّنَّا، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[١].

﴿يَعۡمَهُونَ﴾: أي: يَتمادَونَ، ويَتردَّدونَ متحَيِّرينَ، وأصلُ (عمه): يدُلُّ على حَيرةٍ وتردُّدٍ[٢].

﴿لَتُلَقَّى﴾: أي: تأخُذُ وتتلَقَّنُ، والإلقاءُ: طَرحُ الشَّيءِ حيثُ تَلْقاه، أي: تراه، ثمَّ صار اسمًا لكلِّ طرحٍ، وأصلُ (لقي) هنا: يدُلُّ على طرحِ شَيءٍ[٣].

﴿لَّدُنۡ﴾: بمعنى: عِندَ، وهو أبلَغُ مِن عندَ وأخَصُّ[٤].

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٢)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

المعنى الإجماليُّ:

ابتدأت السُّورةُ ببَعضِ الحُروفِ المقَطَّعةِ، التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ، وتُبرِزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثون بها. تلك الآياتُ آياتُ القرآنِ وهو نفْسُه كتابٌ ظاهرٌ صِدقُه، ومُظهِرٌ كذلك الحقَّ ببيانِه، هُدًى للمُؤمِنينَ، وبِشارةٌ لهم.

ثمَّ وصَف سبحانَه هؤلاءِ المؤمنينَ، فقال: هؤلاء المؤمِنونَ هم الذين يُقيمون الصَّلاةَ بأركانِها وشُروطِها وحُدودِها، ويُعطونَ الزَّكاةَ، وهم بالآخرةِ يُؤمِنونَ إيمانًا يقينيًّا.

ثمَّ قال تعالى، مبيِّنًا ما عليه غيرُ المؤمنينَ مِن ضلالٍ وحَيرةٍ: إنَّ الذين لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ حسَّنَّا لهم أعمالَهم السيِّئةَ فرَأَوْها حَسَنةً؛ جزاءً لهم على كُفرِهم، واستحبابِهم العمَى على الهدَى، فهم يَتردَّدُون حائِرينَ في ضلالِهم، ولا يَهتَدونَ للحَقِّ.

ثمَّ أخبَر عن سوءِ عاقبتِهم، فقال: أولئك لهم أشدُّ العذابِ، وهم في الآخرةِ هم الأخسَرون؛ لأنَّهم اشتَرَوا الضَّلالةَ بالهدى.

ثُمَّ مَهَّد سبحانَه لِمَا سيَذكُرُه بعدَ ذلك مِن الأخبارِ العجيبةِ بقولِه: وإنَّك تتلقَّى هذا القُرآنَ -يا محمَّدُ- وتتلقَّنُه مِن جبريلَ المُرسَلِ إليك مِن قِبَلِ الحَكيمِ الذي يضَعُ الأشياءَ في مَواضِعِها الصَّحيحةِ، العليمِ الذي يعلَمُ ظاهِرَ الأمورِ وباطِنَها.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾.

﴿طسٓ﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: تلك[٢] الآياتُ العَظيمةُ العاليةُ المقام: آياتُ القُرآنِ وكِتابٍ واضحٍ صِدقُه، وأنَّه مِن عندِ اللهِ، ومُظهِرٍ الحقَّ ببَيانِه[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) قيل: المشارُ إليه جميعُ القرآن. وممَّن قال بذلك: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٩).
قال الزجاج: (معنى ﴿تِلْكَ﴾ أنَّهم كانوا وُعِدوا بالقرآنِ في كتبِهم، فقيل لهم هَذِه «تلك» الآياتُ التي وُعِدتُم بها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٠٧).
وقيل: المشارُ إليه سورةُ النمل. وممَّن قال بذلك: القرطبي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٨٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١).
وقال الزمخشري: (و﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى آياتِ السورةِ، والكتابُ المبينُ: إمَّا اللَّوحُ، وإبانتُه: أنَّه قد خُطَّ فيه كُلُّ ما هو كائنٌ، فهو يبيِّنُه للناظرين فيه إبانةً. وإمَّا السُّورةُ. وإمَّا القرآنُ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢، ١٣).
ذكر ابنُ عثيمينَ أنَّ كلمةَ ﴿مُّبِينٍ﴾ يجوزُ أن تكونَ مِن (أبان) اللازمِ بمعنى (بان)، ومِن (أبان) المتعدِّي بمعنى (أظهر) وأنَّ هذا مِن المشتركِ المستعمَلِ في معنييه على وجهٍ لا تعارضَ فيه، قال: (فالقرآنُ بيِّنٌ والقرآنُ أيضًا مظهِرٌ. وعلى هذا التفسيرِ تكونُ دلالةُ ﴿مُّبِينٍ﴾ على أنَّ القرآنَ بيِّنٌ دلالةَ مطابقةٍ، يعني: إذا جعَلْنا ﴿مُّبِينٍ﴾ مستعملةً في المعنيينِ فالدلالةُ مطابقةٌ، لكن لو =

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

أي: هُدًى[١] للمُؤمِنينَ يَهديهم إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ، وهو بِشارةٌ لهم بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا والآخرة[٢].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبلَها:

لَمَّا كان وصْفُ الإيمانِ خفيًّا، وصَفَهم بما يُصدِّقُه مِن الأمورِ الظاهِرةِ، فقال[٣]:

= قلنا: إنَّ «مُبِين» بمعنى: مظهِر فدلالتُه على كونه بيِّنًا مِن بابِ دلالةِ الالتزامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢).

(١) و﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ قيل: هما حالانِ مِنَ الآياتِ أو مِنَ الكتابِ، أي: تلك آياتٌ هاديةٌ ومبشِّرةٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ في محلِّ رفعٍ على الابتداءِ، أي: هو هُدًى، أو هما خبرانِ آخرانِ لـ﴿تِلْكَ﴾، أو هما مصدرانِ منصوبانِ بفعلٍ مُقدَّرٍ، أي: يَهدي هدًى ويُبشِّرُ بُشْرَى. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٦-١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٦).

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ هُدًى وبُشرَى للمُؤمِنينَ الذين يُحافِظونَ على أداءِ الصَّلَواتِ[١] بأركانِها وشُروطِها وحُدودِها[٢].

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: ويُعطُونَ الزَّكاةَ المفروضةَ عليهم مُستحقِّيها[٣].

---

(١) قيل: المرادُ بها: الصلاةُ المفروضةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨).
وقيل: الصلاةُ هنا تشمَلُ الفرائِضَ والنوافِلَ. وممَّن قال بذلك: السعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).
قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بجميع حُدودِها الظَّاهرةِ والباطِنةِ؛ مِن المواقيتِ، والطَّهاراتِ، والشُّروطِ والأركانِ، والخُشوعِ والخُضوعِ، والمراقبةِ والإحسانِ؛ إصلاحًا لِما بيْنَهم وبيْنَ الخالقِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٢٦).
وقال ابنُ عثيمين: (وإقامةُ الصَّلاةِ نوعان: نوعٌ لا بدَّ منه، وهو الإتيانُ بالأركانِ والواجباتِ والشُّروطِ، ونوعٌ يكونُ على وجهِ الكمالِ، وهو الإتيانُ بالمكَمِّلاتِ مِن السُّنَنِ وغيرِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سُلَيمان)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢).
وممن قال بأنَّ المرادَ بالزكاةِ هنا: الصدقةُ المفروضةُ: مقاتل بن سُلَيمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سُلَيمان)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢).
قال ابن عطية: (الزكاةُ هنا يحتَمِلُ أن تكونَ غيرَ المفروضةِ؛ لأنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ قديمةٌ، ويحتَمِلُ =

﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

أي: وهم يُؤمِنونَ إيمانًا يقينيًّا بالدَّارِ الآخرةِ، ووقوعِ البَعثِ والجزاءِ يومَ القيامةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢- ٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④﴾.

= أن تكونَ المفروضةَ مِن غيرِ تفسيرٍ [أي: مِن غيرِ تفصيلٍ لأحكامِها]. وقيل: الزكاةُ هنا بمعنى الطهارةِ مِن النقائصِ، وملازمةِ مكارمِ الأخلاقِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٨).

وقال ابن عثيمين: (السورةُ -كما تقدَّم- مكيَّةٌ، فهل معنى ذلك أنَّ الزكاةَ فُرِضَت بمكَّةَ أو في المدينة؟

المعروفُ عندَ أهلِ العلم أنَّها فُرِضتْ في المدينة، ولكنَّ الصحيحَ أنها فُرِضَت بمكَّةَ، ولكنْ تقديرُ أنصبائِها وبيانُ الأموالِ على وجهِ التفصيلِ كان ذلك في المدينة، هذا هو الصَّحيحُ، وهو الذي به تجتَمِعُ الأدلَّةُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨).

قال السعدي: (يقينُهم بالآخرةِ يقتضي كمالَ سَعيِهم لها، وحَذَرَهم من أسبابِ العذابِ ومُوجِباتِ العقابِ، وهذا أصلُ كُلِّ خيرٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٦، ١٢٧).

وقال ابنُ عثيمين: (كُلُّ ما أخبر اللهُ تعالى به ممَّا يكونُ في هذا اليوم، أو أخبَرَ به رسولُه؛ فإنَّه داخِلٌ في الآخرةِ، بل إنَّ شيخَ الإسلام رَحِمَه الله يقولُ: إنَّه يدخُلُ في الإيمانِ باليوم الآخِرِ كُلُّ ما أخبر به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ممَّا يكونُ بعدَ الموتِ. فعلى هذا يكونُ المرادُ بالآخرةِ: ما بعْدَ الدُّنيا؛ فتشمَلُ عذابَ القبرِ ونعيمَ القبرِ، وتشمَلُ كذلك الموازينَ في يومِ القيامةِ، والحوضَ الموروثَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ...). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤، ٢٥). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٣/ ١٤٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه ما للمُؤمِنينَ مِن البُشرى، أتبَعَه بما على الكُفَّارِ مِن سوءِ العذابِ، فقال[١]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾.

أي: إنَّ الذين لا يُؤمِنونَ بالدَّارِ الآخرةِ، ووُقوعِ البَعثِ بعْدَ الموتِ، والجزاءِ على الأعمالِ يومَ القيامةِ: حسَّنَّا لهم أعمالَهم السيِّئةَ القبيحةَ، وحَبَّبْناها إليهم، وسَهَّلْنا عليهم فِعلَها؛ جزاءً لهم على كُفرِهم[٢].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وقال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨-١٠].

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أي: فهُم في ضَلالِهم وأعمالِهم الخَبيثةِ القَبيحةِ يتردَّدُون حائرينَ، لا يَهتَدونَ للحَقِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خَصَّ المؤمنينَ بما عُلِمَ منه أنَّ لهم حُسنَ الثَّوابِ، وأنَّهم في الآخرةِ هم الفائِزونَ؛ ذكَرَ ما يَختصُّ به هؤلاء مِن ضدِّ ذلك، فقال[(١)]:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: أولئك لهم أشدُّ العذابِ وأسوَؤُه وأعظمُه[(٢)].

= عطية)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

ممن اختار أنَّ المرادَ سوءُ العذابِ في الدَّنيا، وهو القتلُ يومَ بدرٍ: ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري -وزاد على القتلِ الأسْرَ-، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٢).

قال ابن عاشور: (والظَّاهرُ أنَّ المرادَ به عذابُ الدُّنيا، وهو عذابُ السَّيفِ وخِزيُ الغَلَبِ يومَ بدرٍ وما بعْدَه؛ بقرينةِ عطفِ: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٢).

وقال ابنُ جزي: (ويحتملُ أن يريدَ عذابَ الآخرةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ به: سوءُ العذابِ في الدُّنيا والآخرةِ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والبِقاعيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣).

﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

أي: وهم يومَ القيامةِ المُختَصُّونَ بأنَّهم أشدُّ النَّاسِ خَسارةً؛ لفَواتِ المَثوبةِ، واستِحقاقِ العُقوبةِ باشترائِهم الضَّلالةَ بالهُدى[1].

كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ * لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤- ٤٦].

ثُمَّ مَهَّد سبحانَه مُقَدِّمةً نافعةً لِمَا سيَذكُرُه بعدَ ذلك مِن الأخبارِ العجيبةِ[2]، فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَف الله تعالى القرآنَ بما اقتضى بيانَ أهلِ الفَوزِ والخُسرانِ، وكان حاصِلُ حالِ الكَفَرةِ أنَّهم يتلَقَّونَ كُفرَهم الذي هو في غايةِ السَّفَهِ إمَّا عن الشَّياطينِ الذين هم في غايةِ الشَّرِّ، وإمَّا عن آبائِهم الذين هم في غايةِ الجَهلِ؛ وصَفَ النبيَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٥).



صلَّى الله عليه وسلَّمَ بضِدِّ حالِهم، فذكَر جلالةَ المنَزَّلِ عليه والمُنزِّلِ؛ ليكونَ أدعى إلى قَبولِه، فقال[1]:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

أي: وإنَّك لَتتلقَّى القُرآنَ -يا محمَّدُ- فتأخُذُه وتتلقَّنُه وتَعلَمُه بواسطةِ جِبريلَ مِن عندِ مَن له كَمالُ الحِكمةِ في خَلقِه وشَرعِه، فيَضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها الصَّحيحةِ اللَّائقةِ بها، ومَن له كَمالُ العِلمِ، فيَعلَمُ أسرارَ الأمورِ وظاهِرَها وباطِنَها، ومصالِحَ عبادِه؛ وإذا كان القرآنُ مِن عندِ الحكيمِ العليمِ عُلِم أنَّه كُلَّه حِكمةٌ وعِلمٌ، وصَلاحٌ للعبادِ في دُنياهم وأُخراهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٤- ١٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ إقناعُ النَّاسِ بما يقضيه اللهُ تبارك وتعالى مِن قَضاءٍ قَدَريٍّ أو قَضاءٍ شَرعيٍّ، وجْهُ ذلك: أنَّنا إذا عَلِمنا أنَّه صادِرٌ عن حكمةٍ فإنَّنا نُسَلِّمُ ونَرضى، ولا نقولُ: لِمَ وكيف؟ فإنْ عَلِمْنا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٢/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

الحِكمةَ فلا شَكَّ أنَّه يَزيدُنا طُمأنينةً، وإذا لم نَعلَمْ؛ فإنَّنا نجزِمُ أنَّه لحِكمةٍ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سؤالٌ: أنَّه إنْ قلتَ: الكتابُ المبينُ هو القرآنُ، فكيف عَطَفَه عليه مع أنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ؟

الجوابُ: المغايرةُ تصْدُقُ بالمغايرةِ لفظًا ومعنًى، وباللَّفظِ فقط، وهو هنا مِن الثاني، وقيل غير ذلك[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سؤالٌ: كيف صحَّ أنْ يُشارَ لاثنين -أحدِهما مؤنَّثٌ والآخَرِ مُذَكَّرٌ- باسمِ الإشارةِ المؤنثِ! ولو قلتَ: (تلك هندٌ وزيدٌ) لم يَجُزْ؟!

الجوابُ مِن ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدها: أنَّ المرادَ بالكتاب هو الآياتُ؛ لأنَّ الكتابَ عبارةٌ عنِ الآياتِ المجموعةِ، فلمَّا كانا شيئًا واحدًا صحَّتِ الإشارةُ إليهما بإشارةِ الواحدِ المؤنَّثِ.

الثاني: أنَّه على حذْفِ مضافٍ، أي: (وآياتُ كتابٍ مبينٍ).

الثالث: أنَّه لَمَّا وَلِيَ المؤنَّثَ ما تصحُّ الإشارةُ به إليه اكتُفِيَ به وحَسُنَ، ولو وَلِيَ المذكَّرَ لم يَحْسُنْ، أَلَا ترى أنَّك تقولُ: (جاءتني هندٌ وزيدٌ) ولو أُخِّرَتْ هندٌ لم يَجُزْ تأنيثُ الفعلِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٧).

ويُنظرُ ما سيأتي في البلاغةِ مِن تفصيلٍ.

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤١).

٣- قال الله تعالى: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في التَّصريحِ بهذا الحالِ تلويحٌ بأنَّ القرآنَ فِتنةٌ وإنذارٌ للكافرين(١).

٤- القرآنُ هدًى للناسِ، والمرادُ هدايةُ الإرشادِ، فكلُّ الناسِ يَسترشِدون به لو شاؤوا، يعني أنَّ القُرآنَ لا نَقصَ في دَلالتِه، لكنَّ هدايةَ التوفيقِ خاصَّةٌ بالمؤمِنينَ؛ قال تعالى: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لَمَّا كان الشيءُ قد يَهدي إلى مقصودٍ يُكَدِّرُ حالَ قاصدِه، قال نافيًا لذلك، وعَطَفَ عليه بالواوِ دَلالةً على الكمالِ في كلٍّ مِن الوصفَينِ: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي: عَظيمةً(٣).

٦- قال الله تعالى: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يُستفادُ مِن ذلك أنَّه كلَّما كَمَلَ الإيمانُ في العبدِ كَمَلَ اهتداؤه بالقُرآنِ؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ زاد بزيادةِ ذلك الوَصفِ، ونَقَصَ بنَقصِه(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أنَّ الأعمالَ مِن الإيمانِ، وأنَّ تضييعَ الصَّلاةِ والبُخلَ بالزكاةِ يُنافي الإيمانَ؛ لأنَّ اللهَ جَعَلَ مِن أوصافِ المؤمنينَ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ، فمَن لم يكُنْ يُقيمُ الصَّلاةَ ولم يُؤتِ الزكاةَ فهو ناقِصُ الإيمانِ، وقد يكونُ مَعدومَ الإيمانِ بالكليَّةِ، كما في ترْكِ الصَّلاةِ(٥)، على خلافٍ بينَ أهلِ العلمِ في ذلك.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥، ٢٦).

ﱡﭐﱂﱠ أنَّ الإنسانَ إذا آمَنَ بالشَّرائعِ المنزَّلةِ فهو كاملُ الإيمانِ، وإنْ لم يُدرِكِ الفرائضَ المتأخِّرةَ؛ فالذين ماتوا مِن الصحابةِ قبْلَ فرْضِ الصِّيامِ إسلامُهم كاملٌ، بل إنَّ الرجُلَ يمكِنُ أنْ يؤمِنَ ويموتَ قبلَ أن يُصلِّيَ صلاةً واحدةً، ويكونُ بذلك كاملَ الإيمانِ، يعني: إيمانُه كاملٌ وإنْ كان غيرُه -الذي أدركَ- أكمَلَ منه، لكنَّه هو بالنِّسبةِ إليه لا يُقالُ: إيمانُه ناقصٌ، أي: نقصًا يُخِلُّ به[١].

٩- في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنَّ مَحلَّ الثَّناءِ على المُصلِّينَ هو في إقامتِها والإتيانِ بها على الوَجهِ الأكمَلِ[٢].

١٠- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أشارت الآيةُ إلى معنًى دقيقٍ جدًّا، وهو أنَّ تفاوُتَ الناسِ في قَبولِ الخيرِ كائنٌ بمقدارِ رسوخِ ضدِّ الخيرِ في نفوسِهم، وتَعَلُّقِ فِطرتِهم به؛ وذلك من جرَّاءِ ما طرأ على سَلامةِ الفِطرةِ التي فطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها مِن التطوُّرِ إلى الفَسادِ[٣].

١١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فأحيانًا يَحذِفُ فاعِلَ التَّزيينِ، وأحيانًا يَنسُبُه إلى سَبَبِه ومَن أجراه على يَدِه، وأحيانًا يُضيفُه اللهُ إليه، وهذا التَّزيينُ منه سُبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتلاءٌ واختبارٌ؛ ليتميَّزَ المطيعُ منهم من العاصي، والمؤمنُ مِن الكافرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الكهف: ٧]، وهو من الشَّيطانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٠).

قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثَرَ القبيحَ واختاره وأحبَّه ورَضِيَه لنَفسِه، زيَّنَه سُبحانَه له وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعد أن رآه قبيحًا، وكُلُّ ظالمٍ وفاجرٍ وفاسِقٍ لا بدَّ أن يُرِيَهَ اللهُ تعالى ظُلمَه وفُجورَه وفِسقَه قَبيحًا، فإذا تمادى عليه ارتفَعَت رؤيةُ قُبحِه مِن قَلبِه، فربَّما رآه حسَنًا عُقوبةً له؛ فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ، وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لهدى خَلْقَه أجمعين، والمعصومُ مَن عَصمَه اللهُ، والمخذولُ من خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] [الأعراف: ٥٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ حُجَّةٌ قاطعةٌ مُسكِتةٌ على المعتزلةِ والقدَريَّةِ؛ إذْ قد أخبرَ عن نَفسِه جلَّ جلالُه أنَّه مُزيِّنُ أعمالِ الكُفَّارِ -نصًّا بلا تأويلٍ- ففيه دَليلٌ على أنَّ ما أخبرَ مِن تزيينِ الشَّيطانِ فهو تَبَعٌ لتزيينِه سُبحانَه -كما أنَّ مَشيئةَ عبادِه في المعصيةِ تابعةٌ لمشيئتِه فيهم- إذ مُحالٌ أنْ تكونَ مشيئةُ الخالقِ تَبَعًا لمشيئةِ مخلوقٍ، أو تزيينُه تبعًا لتزيينِ الشَّيطانِ، فإمَّا أنْ يجعلوهما تَبَعًا ويَكفُروا، أو يَجحَدوا هذه الآيةَ فيَكفروا أيضًا، وإمَّا أنْ يُقِرُّوا بما قُلْناه ويُسَلِّموا، ويَكِلوا عِلمَ العدلِ فيه إلى مَن لم يَتعبَّدْهم بمعرفتِه، ولم يُلْزِمْهم مزاحمتَه في سِرِّه[2]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤٠).

عُقوبةُ مَن لم يؤمِنْ بالآخرةِ بهذه العُقوبةِ العظيمةِ، وهي تزيينُ الأعمالِ السيِّئةِ لا الحَسَنةِ، وكلَّما ضعُف الإيمانُ بالآخرةِ ازداد تزيينُ القبيحِ في عينِ الإنسانِ، وكلَّما ازداد إيمانُه بالآخرةِ عرَف القبائِحَ وكرِهها واتَّضَح له الحقُّ؛ لأنَّ الإيمانَ بالآخرةِ يَستلزِمُ أنَّ الإنسانَ يرى الحقَّ حقًّا، ويرى الباطِلَ باطلًا، فلا يُزَيَّنُ له الباطِلُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[١]!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمَلِ؛ لأنَّهم لَمَّا لم يُوقِنوا بالآخرةِ -مع وضوحِها- اشتبَه عليهم الحقُّ مع وضوحِه[٢].

١٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ في قَولِه: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فيه نسبةُ الأفعالِ للعبدِ، ففيه ردٌّ على الجَبْريَّة؛ لأنَّ الجَبْريَّةَ لا يَنسُبون العملَ للإنسانِ إلَّا على سبيلِ المجازِ؛ إذْ إنَّهم يَرون أنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على العَمَلِ[٣]! والحقُّ أنَّ الأعمالَ حادثةٌ بمشيئةِ الله وقُدْرَتِه وخَلْقِه، ومَفعولةٌ للفاعِلِ مُباشَرةً، والعبدُ فاعِلٌ لِفعلِه حقيقةً لا مجازًا، فتُنسَبُ لله عزَّ وجلَّ تقديرًا وخَلْقًا، وتُنسَبُ إلى الفاعِلِ كَسبًا وعَمَلًا[٤].

١٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ في قَولِه: ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أنَّ عدمَ الإيمانِ بالآخرةِ سببٌ للحَيرةِ، وعلى هذا فالإيمانُ بالآخرةِ سببٌ لليقينِ والنورِ، وهذا أيضًا أمرٌ مُشاهَدٌ، والإنسانُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٩، ٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٢).

يصابُ بعدمِ اليقينِ إلَّا بسببِ أعمالِه، ونقْصِ إيمانِه، وكلَّما قَويَ الإيمانُ فإنَّ معرفةَ الإنسانِ تزدادُ حتى في الأمورِ غيرِ العِلميَّةِ الشَّرعيةِ، فيُعطيه اللهُ تبارك وتعالى فِراسةً يَتبيَّنُ بها الأشياءَ[١].

١٧- قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾ في قَولِه: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ الرَّدُّ على الخوارجِ والمُعتزِلةِ؛ لأنَّنا لو قلنا: إنَّ أهلَ الكبائرِ الذين يؤمِنون بالآخرةِ مُخَلَّدون في النَّارِ لاتَّصفوا بهذا الوَصفِ وكانوا مِن الأخسَرينَ، مع أنَّ اللهَ إنما حَصَرَ الأخسرَ في الذين لا يُؤمِنون بالآخرةِ[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ؛ لأنَّه نَزَل مِن لَدُنْه، والقرآنُ صِفةُ المتكَلِّمِ[٣].

١٩- قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ في قَولِه: ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ سؤالٌ: وهو أنه قَدَّمَ (الحكيمَ) على (العليمِ)؛ وأكثرُ ما يَرِدُ في القرآنِ تقديمُ (العليمِ) على (الحكيمِ)! فما الجوابُ؟

الجوابُ: أنَّه قَدَّمَ اسمَ الحكيمِ -الذي يدُلُّ على وصفِ اللهِ تعالى بالحكمةِ في هذا المقامِ- لأنَّ ما يُلَقَّاه الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن القرآنِ مُشتمِلٌ على التشريعِ الذي يَحتاجُ إلى بيانِ الحِكمةِ فيه حتى يَقتَنِعَ به المرءُ؛ فلذلك قُدِّمَتِ الحِكمةُ على العلمِ، أمَّا العلمُ فإنَّه مفهومٌ من كلمةِ (تُلَقَّى)؛ إذْ إنَّه إذا لُقِّيَ القرآنَ فقد عُلِّمَ؛ لذلك صار العِلمُ في المرتبةِ الثانيةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢).

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ تجِدُ في القرآنِ أنَّ الحكيمَ مَقرونٌ بالعليمِ كثيرًا، فما الحِكمةُ مِن الجمعِ بيْنَهما؟

الجوابُ مِن أوجهٍ:

الأول: أنَّ الحِكمةَ قد تخفَى على بعضِ النَّاسِ، فخَفاؤُها علينا لا يقتضي أنَّها ليست معلومةً عندَ الله، فكأنَّه جمَع بيْنَهما لِيَتبيَّنَ أنَّ هذه الحِكمةَ مَعلومةٌ عند الله، فهو حَكيمٌ عليمٌ يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها، وإن خَفِيَ علينا ذلك. فلا نقولُ: إنَّه إذا شَرَع اللهُ شَيئًا أو قضى بشَيءٍ، فهذا ليس عن علمٍ، بل هو عن عِلمٍ، حتى لو فُرِض أنَّنا نحن لم نعلَمْ حِكمَتَه ووجهتَه[١].

الثاني: أنَّ وجهَ الجمعِ بينهما -معَ أنَّ وصفَه نفسَه سبحانَه بكونِه حكيمًا يُعلمُ منه كونُه عليمًا- أنَّ العلمَ الذي يدخُلُ في الحكمةِ هو العلمُ العمليُّ، وهو الذي يتعلَّقُ بكيفيةِ عملٍ، والعلمُ أعمُّ منه، فكأنَّه قيل: مصيبٌ في أفعالِه، لا يفعلُ شيئًا إلا على وَفْقِ علمِه، عليمٌ بكلِّ شيءٍ، سواءٌ كان ذلك العلمُ مؤديًا إلى العملِ أم لا[٢]، فجُمِع بيْنَهما لِعمومِ العِلمِ، ودَلالةِ الحِكمةِ على إتقانِ الفعلِ، والإشعارِ بأنَّ علومَ القرآنِ منها ما هو كالعقائدِ والشَّرائعِ، ومنها ما ليس كذلك؛ كالقَصصِ، والإخبارِ عن المغَيَّباتِ[٣].

الثالث: أنه سبحانه يَذكرُ هذين الاسمينِ (الحكيم العليم) عندَ ذِكرِ مصدرِ خلقِه وشرعِه؛ تنبيهًا على أنَّهما إنَّما صدَرا عن حكمةٍ مقصودةٍ مقارِنةٍ للعلمِ المحيطِ التامِّ[٤]، فصِفَتَا الحكمةِ والعِلمِ هما مَصدرُ الخَلقِ والأمرِ، فجميعُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٣/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٠٠).

خلَقَه سبحانه صادرٌ عن عِلمِه وحِكمتِه، وكذلك أمرُه وشرعُه مصدرُه عن عِلمِه وحِكمتِه.

الرابع: أنَّ العِلمَ والحِكمةَ مُتضَمنانِ لجميعِ صِفاتِ الكمالِ؛ فالعِلمُ يَتضمَّنُ الحياةَ ولَوازِمَ كمالِها مِن القَيُّوميَّةِ والقُدرةِ والبقاءِ والسَّمعِ والبصرِ، وسائرَ الصِّفاتِ الَّتي يَستلزِمُها العِلمُ التَّامُّ، والحِكمةُ تَتضمَّنُ كمالَ الإرادةِ والعدلِ والرَّحمةِ والإحسانِ والجُودِ والبرِّ، ووضْعِ الأشياءِ في مَواضِعِها على أحسَنِ وُجوهِها، وتَتضمَّنُ إرسالَ الرُّسلِ، وإثباتَ الثَّوابِ والعِقابِ[١].

الخامس: أنَّ اقترانَهما يحصُلُ منه صِفةُ كمالٍ أخرى، وذلك قَدْرٌ زائدٌ على مُفرَدَيْهما، وهكذا عامَّةُ الصِّفاتِ المُقترِنةِ والأسماءِ المُزدوَجةِ في القُرآنِ؛ كالغَنيِّ الحميدِ، العفُوِّ القديرِ، الحميدِ المَجيدِ؛ فإنَّ الغنى صِفةُ كمالٍ، والحمدَ كذلك، واجتماعُ الغِنى مع الحمدِ كمالٌ آخَرُ؛ فلَهُ ثَناءٌ مِن غِناهُ، وثَناءٌ مِن حمدِه، وثَناءٌ مِن اجتِماعِهما، وكذلك العفُوُّ القديرُ، والحميدُ المَجيدُ، والعزيزُ الحكيمُ، فتأمَّلْهُ؛ فإنَّه مِن أشرَفِ المَعارِفِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾

- ﴿طسٓ﴾ في افْتتاحِ السُّورةِ بالحروفِ المُقطَّعةِ: تَعريضٌ بالتَّحدِّي بإعجازِ القرآنِ، وأنَّه مُؤْتلِفٌ مِن حُروفِ كلامِهم[٣].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿تِلۡكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٧).

لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه في الفضلِ والشَّرفِ[(١)].

- وإضافةُ الآياتِ إلى القرآنِ والكتابِ المُبينِ في قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: على سَبيلِ التَّفخيمِ لها والتَّعظيمِ؛ لأنَّ المُضافَ إلى العظيمِ يَعظُمُ بالإضافةِ إليه[(٢)].

- ولما كان في التنكيرِ نوعٌ مِن الفخامةِ، وفي التعريفِ نوعٌ آخرُ، وكان الغرضُ الجمعَ للاستيعابِ الكاملِ؛ عرَّف القرآنَ ونكَّر الكتابَ، وقدَّم المعرفَ لزيادةِ التنويهِ، ولمَّا عقَّبه سبحانَه بالحديثِ عن الخصوصِ هاهنا قدَّم كونَه قرآنًا؛ لأنَّه أدلُّ على خصوصِ المنزَّلِ على محمدٍ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم للإعجازِ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ نكَّرَ الكتابَ المُبينَ؛ لِيُبْهَمَ بالتَّنكيرِ؛ فيَكونَ أفخَمَ له[(٤)]. ولقد فخَّمَ شأْنَه الجليلَ بما جَمعَ فيه مِن وصْفِ القُرآنيَّةِ المُنبئةِ عن كَونِه بَديعًا في بابِه، مُمتازًا عن غيرِه بالنَّظمِ المُعجزِ، كما يُعْرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، ووَصْفِ الكتابيَّةِ المُعربةِ عن اشتمالِه على صِفاتِ كَمالِ الكُتبِ الإلهيَّةِ، فكأنَّه كلُّها[(٥)].

- وعَطْفُ الكِتابِ على القرآنِ مع أنَّه هو القرآنُ نفْسُه في قولِه: ﴿تِلْكَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧١).

﴿ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ من بابِ عطْفِ إحدى الصِّفتينِ على الأُخرى؛ لِتَغايُرِهما في المدلولِ عليه بالصِّفةِ، مِن حيث إنَّ مَدلولَ القرآنِ الاجتماعُ، ومَدلولَ الكتابِ الكتابةُ؛ لأنَّ القرآنَ هو المُنزَّلُ المُبارَكُ المُصدِّقُ لِمَا بيْن يدَيهِ، فكان حُكْمُه حُكْمَ الصِّفاتِ المُستقلَّةِ بالمدْحِ، فكأنَّه قيل: تلك الآياتُ آياتُ المُنزَّلِ المُبارَكِ، وآيُ كتابٍ مُبينٍ. وقيلَ: القرآنُ والكتابُ اسمانِ عَلَمانِ على المُنزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فحيث جاء بلفظِ التَّعريفِ فهو العَلَمُ، وحيث جاء بوصْفِ النَّكرةِ فهو الوصْفُ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث خالَفَتْ آيةُ سُورةِ (النَّملِ) هنا ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ سابِقَتَها في سُورةِ (الشُّعراءِ) في قولِه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢] بثلاثةِ أشياءَ: بذِكْرِ اسمِ القرآنِ، وبعطْفِ ﴿وَكِتَابٖ﴾ على القرآنِ، وبتَنكيرِ (كِتاب)؛ فأمَّا ذِكْرُ اسمِ (القرآنِ)؛ فلأنَّه عَلَمٌ للكتابِ الَّذي أُنزِلَ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ للإعجازِ والهُدى، وهذا العلَمُ يُرادِفُ الكتابَ المُعرَّفَ بلامِ العهْدِ المَجعولَ عَلَمًا بالغَلَبةِ على القُرآنِ، إلَّا أنَّ اسمَ القرآنِ أَدخَلُ في التَّعريفِ؛ لأنَّه عَلَمٌ مَنقولٌ. وأمَّا (الكتابُ) فعَلَمٌ بالغَلبةِ؛ فالمُرادُ بقولِه: ﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ القرآنُ أيضًا. ولمَّا كان في كلٍّ مِن ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ شائبةُ الوصْفِ؛ فالأوَّلُ باشتقاقِه مِن القراءةِ، والثَّاني بوَصْفِه بـ ﴿مُّبِينٍ﴾، كان عطْفُ أحدِهما على الآخَرِ راجعًا إلى عطْفِ الصِّفاتِ بعضِها على بَعضٍ، وإنَّما لم يُؤْتَ بالثَّاني بدَلًا؛ لأنَّ العطْفَ أعلَقُ باستقلالِ كِلَا المُتعاطفَينِ بأنَّه مَقصودٌ في الكلامِ بخِلافِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦، ٣٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٤).

البدَلِ[١].

- ونَظيرُ هذه الآيةِ آيةُ سُورةِ (الحِجْرِ) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]؛ فإنَّ (قرآن) في تلْك الآيةِ في معنَى عطْفِ البَيانِ مِن الكتابِ، ولكنَّه عطْفٌ لقَصْدِ جمْعِهما بإضافةِ (آياتٍ) إليْهما، وإنَّما قُدِّمَ في هذه الآيةِ القرآنُ وعُطِفَ عليه (كِتَابٍ مُبِينٍ) على عكْسِ ما في طالعةِ سُورةِ (الحِجْرِ)؛ لأنَّ المقامَ هنا مَقامُ التَّنويهِ بالقُرآنِ ومُتَّبعيهِ المُؤمنينَ؛ فلذلك وُصِفَ بأنَّه ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]، فكان الأهمُّ هنا للوحْيِ المُشتمِلِ على الآياتِ هو استحضارَهُ باسْمِه العَلَمِ المنقولِ مِن مَصدرِ القِراءةِ؛ لأنَّ القِراءةَ تُناسِبُ حالَ المُؤمنينَ به والمُتقبِّلينَ لآياتِه؛ فهُمْ يَدْرُسونَها؛ ولأجْلِ ذلك أُدخِلَتِ اللَّامُ لِلَمْحِ الأصْلِ؛ تَذكيرًا بأنَّه مَقروءٌ مَدْروسٌ. ثمَّ عُطِفَ عليه (كِتَابٍ مُبِينٍ)؛ لِيَكونَ التَّنويهُ به جامعًا لِعُنوانَيْه، ومُستكمِلًا للدَّلالةِ بالتَّعريفِ على معنَى الكمالِ في نَوعِه مِن المَقروءاتِ، والدَّلالةِ بالتَّنكيرِ على معنَى تَفخيمِه بيْن الكُتبِ. وأمَّا ما في أوَّلِ سُورةِ (الحِجرِ) فهو مَقامُ التَّحسيرِ للكافرينَ مِن جرَّاءِ إعراضِهم عن الإسلامِ؛ فناسَبَ أنْ يُبْتَدَؤوا باسمِ الكتابِ المُشتقِّ مِن الكتابةِ دونَ القرآنِ؛ لأنَّهم بمَعزلٍ عن قِراءتِه، ولكنَّه مكتوبٌ، وحُجَّةٌ عليهم باقيةٌ على مَرِّ الزَّمانِ[٢].

- وقيل: إنَّ تقدُّمَ (القُرآن) على (الكِتاب) هاهنا، وتأخُّرَه في (الحِجْرِ) لا فرْقَ بيْنَهما إلَّا ما بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه مِن التَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ، جريًا على قاعدةِ العربِ في تفنُّنِهم في الكلامِ، وهذا كالمُتعاطِفَينِ في نحوِ: ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢١٧، ٢١٨).

جاء زيدٌ وعمرٌو. فتارةً يَظهَرُ ترجيحٌ كقولِه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وتارةً لا يَظهَرُ كقولِه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾(١) [الأعراف: ١٦١].

وقيل: قُدِّمَ الوصفُ الأوَّلُ هاهنا؛ نظَرًا إلى تَقدُّمِ حالِ القُرآنيَّةِ على حالِ الكتابيَّةِ، وعُكِسَ في سُورةِ (الحِجرِ)؛ لأنَّ المُرادَ تفخيمُه من حيثُ اشتمالُه على كمالِ جنسِ الكُتبِ الإلهيَّةِ حتَّى كأنَّه كلُّها، ومِن حيثُ كَوْنُه ممتازًا عن غيرِه نسيجَ وحْدِه بديعًا في بابِه، ولِمَا أنَّ الإشارةَ إلى امتيازِه عن سائرِ الكُتبِ بعْدَ التَّنبيهِ على انطوائِه على كَمالاتِ غيرِه مِن الكُتبِ- أَدخَلُ في المدْحِ؛ كيْلَا يُتوَهَّمَ مِن أوَّلِ الأمْرِ أنَّ امتيازَهُ عن غيرِه لاستقلالِه بأوصافٍ خاصَّةٍ به مِن غيرِ اشتمالِهِ على نُعوتِ كَمالِ سائرِ الكُتبِ الكريمةِ(٢).

- و﴿مُّبِينٍ﴾ اسمُ فاعلٍ مِن (أبان) القاصرِ بمعنَى (بان) -على قولٍ-؛ لأنَّ وصْفَه بأنَّه بيِّنٌ واضحٌ: له حَظٌّ مِن التَّنويهِ به ما ليس مِن الوصْفِ بأنَّه مُوضِّحٌ مُبيِّنٌ؛ فالمُبينُ أفادَ مَعنيين؛ أحدَهما: أنَّ شواهدَ صِدْقِه وإعجازِه وهدْيِه واضحةٌ لكلِّ مُتأمِّلٍ، وثانيَهما: أنَّه مُرشِدٌ ومُفصِّلٌ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ في حيِّزِ النَّصبِ على الحاليَّةِ مِن الآياتِ، على أنَّهما مَصدرانِ أُقيمَا مُقامَ الفاعلِ؛ للمُبالَغةِ، كأنَّهما نفْسُ الهُدَى والبِشارةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٣) و (٦/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨).

- قولُه: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تَخصيصُ المُؤمنينَ بالذِّكْرِ؛ لِكَونِهم المُنتفعينَ به دونَ غيرِهم(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

- وَصْفُ المُؤمنينَ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾؛ لِتَمييزِهم عن غَيرِهم؛ لأنَّهم عُرِفُوا يومَئذٍ بإقامةِ الصَّلاةِ، وإعطاءِ الصَّدقاتِ للفُقراءِ والمساكينِ؛ فقد عرَّفَ اللهُ الكُفَّارَ بقولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، على القولِ بأنَّ الزكاةَ هنا زكاةُ المالِ. ولأنَّ في الصِّلةِ إيماءً إلى وجْهِ بناءِ الإخبارِ عنهم بأنَّهم على هُدًى مِن ربِّهم ومُفلِحون(٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صِفَةٌ مادحةٌ لهم، وتَخصيصُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّهما قَرينَتَا الإيمانِ، وقُطْرَا العِباداتِ البَدَنيَّةِ والماليَّةِ، مُسْتتبِعانِ لسائرِ الأعمالِ الصَّالحةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ مِن جُملةِ صِلَةِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾؛ فيكونَ مِن تَتِمَّةِ الصِّلةِ، والواوُ حاليَّةٌ أو عاطفةٌ له على الصِّلةِ الأُولى، وتَغييرُ نَظْمِه للدَّلالةِ على قوَّةِ يَقينِهم وثَباتِه، وأنَّهم أوحَديُّونَ فيه. ويَحتمِلُ أنْ تَتِمَّ الصِّلةُ عندَه، ويكونَ جُملةً اعتراضيَّةً، كأنَّه قِيلَ: وهؤلاء الَّذينَ يُؤمِنون ويَعملُون الصَّالحاتِ مِن إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، هم المُوقِنون بالآخرةِ حقَّ الإيقانِ، لا مَن عداهُم؛ لأنَّ تَحمُّلَ مَشاقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢).

العباداتِ لخَوفِ العقابِ ورَجاءِ الثَّوابِ، وهذا الاحتمالُ يدُلُّ عليه أنَّه عُقِدَ جُملةً ابتدائيَّةً، وكُرِّرَ فيها المُبتدأُ الَّذي هو (هُمْ) -وتكريرُ الضَّميرِ للاختِصاصِ- حتَّى صار معناها: وما يُوقِنُ بالآخرةِ حقَّ الإيقانِ إلَّا هؤلاء الجامعونَ بيْن الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ لأنَّ خوفَ العاقبةِ يَحمِلُهم على تحمُّلِ المَشاقِّ، وإيقاعُ الضَّميرِ مُبتدأً يُفيدُ الحصرَ. ولَمَّا كان جَدوى الاعتراضِ تأكيدُ معنَى المُعترضِ فيه، ودلَّ مفهومُ قولِه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ على أنَّ مَن أيقَنَ بالآخرةِ حقَّ الإيقانِ لا بُدَّ أنْ يَخافَ تَبعاتِها، ومَن خاف تَحمَّلَ المَشاقَّ والمتاعبَ، وكان بهذا الاعتبارِ مُؤكِّدًا لقولِه: ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ صحَّ كونُه مُعترضًا. وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ الضَّميرُ الأوَّلُ وُضِعَ مَوضِعَ اسمِ الإشارةِ، وصار مِثلَ قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٣- ٥]، وفائدتُه: الإشعارُ بأنَّ ما يَرِدُ عَقِيبَ اسمِ الإشارةِ فالمَذْكورونَ قبْلَه أهلٌ لِاكتسابِه؛ مِن أجْلِ الخِصالِ الَّتي عُدِّدَت لهم، فالمعنى: هم أحِقَّاءُ بأنْ يُوقِنوا بالآخرةِ؛ لأنَّهم هم الَّذين جَمَعوا بيْن الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ. وهذه المعاني مِن التَّخصيصِ والتَّوكيدِ والتَّعليلِ إنَّما يُفيدُها التَّركيبُ إذا جُعِلَ مُعترِضًا؛ لاستقلالِه، وأمَّا إذا أُدخِلَ في حيِّزِ الصِّلةِ بأنْ جُعِلَ حالًا أو عطْفًا على ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النمل: ٣] على التَّأويلِ، لم يُحتَجْ إلى هذه العبارةِ، فتَفوتَ تلك الفوائدُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٥٥، ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٤، ١٦٥).

- وتَقديمُ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لِرعايةِ الفاصلةِ، وللاهتمامِ بها[١].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقولِه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ ممَّا يَتجدَّدُ ولا يَستغرِقُ الأزمانَ؛ فجاءتِ الصِّلةُ معهما فِعْلًا في قولِه: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولمَّا كان الإيمانُ بالآخرةِ بما هو ثابتٌ عندَهُم مُسْتقِرٌّ الدَّيمومةِ، جاءتِ الجُملةُ اسميَّةً، وأُكِّدَ المُسنَدُ إليه فيها بتَكرارِه، فقيل: ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾، وجاء خبَرُ المبتدأ فِعْلًا؛ لِيدُلَّ على الدَّيمومةِ[٢]. وعلى القولِ بأنَّهما عطْفٌ على الصِّلةِ، وليستْ مِن الصِّلةِ؛ فخُولِفَ بيْنَ أُسلوبِها وأُسلوبِ الصِّلةِ، فأُتِيَ له بجُملةٍ اسميَّةٍ؛ اهتمامًا بمَضمونِها ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾؛ لأنَّه باعثٌ على فِعلِ الخيراتِ، على أنَّ ضميرَ (هم) الثَّاني يجوزُ أنْ يُعتبَرَ ضَميرَ فصْلٍ دالًّا على القصْرِ، أي: ما يُوقِنُ بالآخرةِ إلَّا هؤلاء. والقصْرُ إضافيٌّ بالنِّسبةِ إلى مُجاوِرِيهم مِن المُشركينَ، وإلَّا فإنَّ أهلَ الكتابِ يُوقِنون بالآخرةِ، إلَّا أنَّهم غيرُ مَقصودٍ بيانُ حالِهم للمُخاطَبينَ مِن الفريقَينِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لِبَيانِ سَببِ استمرارِهم على ضَلالِهم؛ فكونُ الكتابِ المبينِ هُدًى وبُشرَى للَّذين يُوقِنون بالآخرةِ يُثِيرُ سُؤالًا في نفْسِ السَّامعِ عن حالِ أضْدادِهم الَّذين لا يُوقِنون بالآخرةِ: لماذا لا يَهْتدون بهَدْيِ هذا الكتابِ البالغِ حدًّا عظيمًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٣/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٩).

في التَّبيُّنِ والوُضوحِ؟ فلا جَرَمَ أنْ يَصلُحَ المَقامُ للإخبارِ عمَّا صرَفَ هؤلاء الأضْدادَ عن الإيمانِ بالحياةِ الآخرةِ؛ ذلك بأنَّ اللهَ يَعلمُ خُبْثَ طواياهُم، فحرَمَهُم التَّوفيقَ، ولم يَصرِفْ إليهم عِنايةً تَنْشُلُهم مِن كَيْدِ الشَّيطانِ لحِكمةٍ عَلِمَها اللهُ مِن حالِ ما جُبِلَت عليه نُفوسُهم؛ فوقَعَ هذا الاستئنافُ بتَوابعِه مَوقعَ الاعتراضِ بيْن أخبارِ التَّنويهِ بالقرآنِ بما سبَقَ، والتَّنويهِ به بمَن أُنزِلَ عليه بقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾[1] [النمل: ٦].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ فيه تأْكيدُ الخبرِ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لِلاهتمامِ به؛ لأنَّه بحيث يَلتبِسُ على النَّاسِ سبَبُ افتراقِ النَّاسِ في تَلقِّي الهُدى بيْن مُبادرٍ ومُتقاعِسٍ ومُصِرٍّ على الاستمرارِ في الضَّلالِ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ في مُجيءِ المُسنَدِ إليه مَوصولًا ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: إشارةٌ إلى أنَّ الصِّلةَ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عِلَّةٌ في المُسنَدِ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾[3]، وأيضًا أشارَ جَعْلُ صِلَةِ الموصولِ مُضارِعًا إلى أنَّ الحُكْمَ مَنوطٌ بالاستمرارِ على عَدمِ الإيمانِ، وأَوْمَأَ جَعلُ الخبرِ ﴿زَيَّنَّا﴾ ماضيًا إلى أنَّ هذا التَّزيينَ حُكْمٌ سبَقَ وتقرَّرَ مِن قبْلُ، وحسْبُكَ أنَّه مِن آثارِ التَّكوينِ بحَسَبِ ما طرَأَ على النُّفوسِ مِن الأطوارِ[4]!

- قولُه: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يَتحيَّرون ويَتردَّدون على التَّجدُّدِ والاستمرارِ في الاشتغالِ بها، والانهماكِ فيها، مِن غيرِ مُلاحظةٍ لِمَا يَتْبَعُها مِن نفْعٍ وضُرٍّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٢١).

والفاءُ لتَرتيبِ المُسبَّبِ على السَّببِ(١).

- وأيضًا فُرِّعَ على تَزيينِ أعمالِهم لهم أنَّهم في عَمَهٍ مُتمكِّنٍ منهم بصَوغِ الإخبارِ عنهم بذلك بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، وأفادَتْ صِيغةُ المُضارعِ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أنَّ العَمَهَ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ فيهم، أي: فهمْ لا يَرجِعون إلى اهتداءٍ؛ لأنَّهم يَحْسَبون أنَّهم على صَوابٍ(٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ وِزانَ فاتحةِ هذه السُّورةِ إلى هاهنا وِزانُ فاتحةِ سُورةِ (البقرةِ)؛ فقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٦]، وقولُه: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كقولِه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، والتَّركيبُ مِن بابِ تَحقيقِ الخَبرِ، وأنَّ المعنى استمرارُهم على الكُفرِ، وأنَّهم بحيث لا يُتوقَّعُ منهم الإيمانُ ساعةً فساعةً، أمَارةٌ لِرَقْمِ الشَّقاوةِ عليهم في الأزَلِ، والخَتْمِ على قُلوبِهم، وأنَّه تعالى زيَّنَ لهم سُوءَ عَمَلِهم؛ فهمْ لذلك في تِيهِ الضَّلالةِ يَتردَّدون، وفي بَيداءِ الكُفرِ يَعْمَهون. دلَّ على هذا التَّأويلِ إيقاعُ لَفظِ المُضارعِ في صِلَةِ الموصولِ، والماضي في خَبرِ الموصولِ، وترتُّبُ ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ بالفاعليَّةِ، واختصاصُ الخِطابِ بما يَدلُّ على الكِبرياءِ والجبروتِ(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قُصِد باسمِ الإشارةِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ زيادةُ تَمييزِهم؛ فَضْحًا لِسُوءِ حالِهم، مع ما يُنَبِّهُ إليه اسمُ الإشارةِ في مِثْلِ هذا المَقامِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٥٧، ٤٥٨).

مِن أنَّ استحقاقَهم ما يُخْبَرُ به عنهم ناشِئٌ عمَّا تقدَّمَ اسمَ الإشارةِ، كما في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ في سُورةِ (البقرةِ) [الآية: ٥]، وعُزِّز ما نُبِّهَ عليه باسمِ الإشارةِ، فأعقِبَ باسمِ الموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لِمَا فيه مِن الإيماءِ إلى وجْهِ بناءِ الخبرِ[١].

- وجِيءَ بلامِ الاختصاصِ في ﴿لَهُمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم في حالتِهم هذه قدْ هُيِّئَ لهم سُوءُ العذابِ؛ فلِكَونِ نَوالِ العذابِ الأوَّلِ إيَّاهم قابلًا للتَّخلُّصِ منه بالإيمانِ قُبَيلَ حُلولِه بهم، جِيءَ في جانبِه بلامِ الاختِصاصِ، المُفيدةِ كَوْنَه مُهيَّأً تَهْيئةً -وذلك على القولِ بأنَّ العذابَ في الدُّنيا-، أمَّا أصالةُ جَزاءِ الآخرةِ إيَّاهم فلا مَندوحةَ لهم عنه إنْ جاؤوا يومَ القيامةِ بكُفْرِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ صِيغَ الخبَرُ عنهم بالخُسرانِ في صِيغةِ الجُملةِ الاسميَّةِ، وقُرِنَ بضَميرِ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ مَضمونِ الجُملةِ، وعلى انحصارِ مَضمونِها فيهِمْ[٣].

- وتقديم ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للفاصلةِ، أو للحصرِ؛ لأنَّ الأخسَريَّةَ والأشَدِّيَّةَ بالنِّسبةِ إليها لا إلى ما في الدُّنيا[٤].

- وإنَّما تكرَّرَتْ لفظةُ (هم)؛ للإيذانِ بتَحقيقِ الخَسارِ، والأصلُ فيها: وهم في الآخرةِ الأخسَرون، لكنْ لَمَّا أُريدَ تأكيدُ ذلك جيءَ بتَكريرِ هذه اللَّفظةِ[٥].

- وجاء المُسنَدُ ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ اسمَ تَفضيلٍ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أوْحدونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٢٣).
(٤) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣).
(٥) يُنظر: ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ١٥١).

في الخُسرانِ لا يُشْبِهُه خُسرانُ غيرِهم؛ لأنَّ الخُسرانَ في الآخرةِ مُتفاوِتُ المِقدارِ والمُدَّةِ، وأعظَمُه فيهما خُسرانُ المُشركينَ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ سِيقَ بعْدَ بَيانِ بعضِ شُؤونِ القرآنِ الكريمِ؛ تَمهيدًا لِمَا يَعْقُبُه مِن قَصصِ الأُممِ الخاليةِ، وما في ذلك مِن لطائفِ حِكْمتِه ودقائقِ عِلْمِه تعالى[٢]؛ ففيه نَوعٌ مِن التَّخلُّصِ والانتقالِ إلى نَوعٍ آخَرَ مِن الإعجازِ، وهو الإخبارُ عن المُغيَّباتِ، ومِن مَدْحِ الكتابِ إلى قَصصِ الأنبياءِ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [النمل: ١]، وهو انتقالٌ مِن التَّنويهِ بالقرآنِ إلى التَّنويهِ بالَّذي أُنزِلَ عليه بأنَّ القُرآنَ آياتٌ دالَّةٌ على أنَّه كِتابٌ مُبينٌ، وذلك آيةٌ على أنَّه مِن عندِ اللهِ، ثمَّ بأنَّه آيةٌ على صِدْقِ مَن أُنزِلَ عليه؛ إذ أنبَأَهُ بأخبارِ الأنبياءِ والأُمَمِ الماضينَ الَّتي ما كان يَعلمُها هو ولا قومُه قبْلَ القرآنِ، وما كان يَعلمُ خاصَّةُ أهلِ الكتابِ إلَّا قليلًا منها أكثَرُه مُحرَّفٌ[٤].

- وتَصديرُ قولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ بحَرْفَي التَّأكيدِ: (إنَّ)، واللَّامِ في ﴿لَتُلَقَّى﴾؛ لإبرازِ كَمالِ العنايةِ بمَضمونِه[٥]؛ فتأكيدُ الخبرِ لمُجرَّدِ الاهتمامِ؛ لأنَّ المُخاطَبَ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو لا يَتردَّدُ في ذلك. أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).



يكونُ التَّأكيدُ مُوجَّهًا إلى السَّامعينَ مِن الكفَّارِ على طَريقةِ التَّعريضِ(١).

- وبُنِيَ الفِعلُ ﴿لَتُلَقَّى﴾ للمفعولِ، وحُذِفَ الفاعلُ، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ؛ للدَّلالةِ عليه في قولِه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣](٢)، أو بُنِيَ الفِعلُ إلى غيرِ مَذكورٍ؛ للعِلْمِ بأنَّه اللهُ جلَّ جلالُه أو جِبريلُ عليه السَّلامُ، والمعنى واحدٌ: وهو أنَّك مُؤْتًى الوحْيَ مِن لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ(٣).

- وفي إقحامِ ﴿لَّدُنْ﴾ بيْن ﴿مِن﴾ و﴿حَكِيمٍ﴾: تَنبيهٌ على شِدَّةِ انتسابِ القرآنِ إلى جانبِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ أصْلَ (لَدُنْ) الدَّلالةُ على المكانِ مِثْلَ (عندَ)، ثمَّ شاعَ إطلاقُها على ما هو مِن خصائصِ ما تُضافُ هي إليه؛ تَنويهًا بشأنِه(٤).

- وفي تَنكيرِ ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ إيذانٌ بتَعظيمِ هذا الحكيمِ العليمِ؛ كأنَّه قِيلَ: مِن حَكيمٍ أَيِّ حَكيمٍ، وعَليمٍ أيِّ عليمٍ، والتَّنوينُ للتَّعظيمِ(٥). وفي تَفخيمِهما تَفخيمٌ لشأْنِ القرآنِ، وتَنصيصٌ على عُلوِّ طَبقتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَعرفتِه والإحاطةِ بما فيه مِن الجلائلِ والدَّقائقِ؛ فإنَّ مَن تلقَّى العلومَ والحِكَمَ مِن مِثْلِ ذلك الحكيمِ العليمِ يكونُ عَلَمًا في رَصانةِ العلْمِ والحِكمةِ(٦).

- وكذلك في الوصفينِ الشَّريفينِ مُناسبةٌ للمعطوفِ عليه وللمُمهَّدِ إليه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

فإنَّ ما في القُرآنِ دَليلٌ على حِكمةِ مَن أَوحَى به وعِلْمِه، وأنَّ ما يُذكَرُ هنا مِن القَصصِ وما يُستخلَصُ منها مِن المَغازي والأمثالِ والموعظةِ مِن آثارِ حِكمةٍ وعِلْمِ حَكيمٍ عليمٍ، وكذلك ما في ذلك مِن تَثبيتِ فُؤادِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[(١)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

الآيات (٧-١٤)

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ءَانَسْتُ﴾: أي: أبصَرتُ مِن بعيدٍ، والإيناسُ: الرُّؤيةُ والعِلمُ والإحساسُ بالشَّيءِ[(١)].

﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾: أي: بشُعلةِ نارٍ في رَأسِ عُودٍ، والقَبَسُ: المتناوَلُ مِن الشُّعلةِ[(٢)].

﴿تَصْطَلُونَ﴾: أي: تَستَدفِئون، والصَّلا: النَّارُ العظيمةُ، والصِّلاءُ: ما يُصطَلى به، وأصلُ (صَلَى) هنا: النَّارُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦).

﴿جَآنٌّ﴾: جِنسٌ مِن الحيَّاتِ خَفيفٌ سَريعٌ، وسمِّيت الحيةُ بذلك تشبيهًا لها بالواحدِ مِنَ الجانِّ، وأصلُ (جنن): السَّترُ والتَّستُّرُ(١).

﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾: أي: جرَى هارِبًا، والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ(٢).

﴿يُعَقِّبۡ﴾: أي: يَرجِعْ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعْدَ غيرِه(٣).

﴿جَيۡبِكَ﴾: أي: طَوقِ قميصِك(٤)، وهو مدخَلُ الرأسِ منه المفتوحُ إلى الصَّدرِ، وهو مِن الْجَوْبِ: وهو الْقَطْعُ(٥).

﴿سُوٓءٖ﴾: أي: عَيبٍ أو آفةٍ، وفُسِّرَ بالبَرَصِ، والسُّوءُ: كلُّ ما يَغمُّ الإنسانَ(٦).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣).

(٤) قال الألوسي: (أي: جيبِ قميصِك، وهو مدخَلُ الرَّأسِ منه المفتوحُ إلى الصدرِ، لا ما يوضَعُ فيه الدراهمُ ونحوُها كما هو معروفٌ الآنَ؛ لأنَّه مُوَلَّدٌ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٢).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

﴿مُبۡصِرَةٗ﴾: أي: بيِّنةً، واضِحةَ الدَّلالةِ، وأصلُ البصَرِ: العِلمُ بالشَّيءِ[١].

﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾: أي: تيقَّنَتْها، مِن اليَقينِ، وهو أبلَغُ عِلمٍ وأوكَدُه، وأصلُه: يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[٢].

﴿وَعُلُوّٗا﴾: أي: تكبُّرًا واستِعلاءً، وأصلُه: يدُلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

قولُه: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، و(إلَّا) بمعنى (لكنْ)، و﴿مَن﴾ مُستثنى في مَحَلِّ نَصبٍ، أو مُبتدَأٌ خبَرُه ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، والجُملةُ الاسميَّةُ في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المُنقَطِع. وقيلَ: الاستِثناءُ هنا متَّصِلٌ. وقيل غيرُ ذلك[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ موسَى عليه السلامُ، فيقولُ: اذكُرْ -يا محمَّدُ-

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٢٧).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٧٧)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٩/ ١٤٤).

حينَ قال موسى لأهلِه: إنِّي أبصَرتُ نارًا، سآتيكم منها بخبَرٍ، أو آتيكم بشُعلةٍ أقتَبِسُها مِن تلك النَّارِ؛ كي تستَدفِئوا بها مِن البردِ.

ثمَّ ذكَر سبحانَه ما حدَث عندَما اقترَب موسى عليه السَّلامُ من النَّارِ، فقال: فلمَّا جاء مُوسى إلى النَّارِ ناداه اللهُ تعالى بأنْ بُورِكَ مَن في النَّارِ، وبُورِكَ مَنْ حَوْلَها، وتنزيهًا لله رَبِّ العالَمينَ مِن كُلِّ نَقصٍ وسُوءٍ.

يا موسى، إنَّه أنا اللهُ المستحِقُّ للعبادةِ وَحْدي، الغالِبُ الذي لا يُقهَرُ، الحَكيمُ في تدبيرِه، وارْمِ عَصاك، فرماها فانقلَبَت ثُعبانًا عظيمًا، فلمَّا رآها موسى تتحَرَّكُ بسُرعةٍ وكأنَّها حيَّةٌ صَغيرةٌ، هرب منها مُسرِعًا ولم يرجِعْ، فقُال الله تعالى له: يا موسَى لا تخَفْ؛ لأنِّي لا يخافُ عندي المُرسَلون، لكِنْ مَن ظلَم نفْسَه بارتكابِ السُّوءِ ثمَّ تاب وعَمِلَ صالِحًا بعْدَ عَمَلِه السيِّئِ، فإنِّي غفورٌ لِذَنْبِه، ورحيمٌ به.

ثمَّ أرشَد الله تعالى موسَى عليه السَّلامُ إلى معجزةٍ أخرَى، فقال: وأَدْخِلْ يدَك يا موسى في جَيبِ قَميصِك ثمَّ أخرجْها، تخرُجْ بيضاءَ مِن غيرِ بَرَصٍ ولا آفةٍ، وهي آيةٌ مِن جملةِ تِسعِ آياتٍ، نُرسِلُك بها إلى فِرعَونَ وقَومِه؛ لأنَّهم كانوا قَومًا كافرينَ باللهِ.

ثمَّ قال تعالى مبيِّنًا موقفَ فِرعونَ وقومِه مِن هذه المعجزاتِ: فلمَّا جاءت فِرعَونَ وقَومَه آياتُنا التِّسعُ المُظهِرةُ للحَقِّ، الواضِحةُ الدَّلالةِ على صِدقِ موسى ورسالتِه، قالوا: هذا سِحرٌ واضِحٌ، وأنكروا الآياتِ أن تكونَ مِن عندِ اللهِ مع تيقُّنِ قُلوبِهم أنَّها مِن عِندِه سُبحانَه؛ اعتِداءً وتكبُّرًا، فانظرْ -يا محمَّدُ- كيف كانت عاقِبةُ هؤلاء المُفسِدينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] فوصَفَ نفسَه بتَمامِ الحِكمةِ وشُمولِ العِلمِ؛ دلَّ على كلٍّ مِن الوَصفَينِ، وعلى إبانةِ القُرآنِ وما له مِن العَظَمةِ التي أشار إليها أوَّلَ السُّورةِ بما يأتي في السُّورةِ مِن القَصَصِ وغيرِها[١].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾.

أي: اذكُرْ -يا محمَّدُ- حين قال موسَى لأهلِه -وهو مسافِرٌ مِن مَدْيَنَ إلى مِصرَ في لَيلةٍ مُظلِمةٍ باردةٍ: إني أبصَرْتُ نارًا[٢].

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾.

أي: سآتيكم مِنَ النَّارِ بخبَرٍ[٣].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤، ٢٢٥).

قال ابن عاشور: (الإيناسُ: الإحساسُ والشُّعورُ بأمرٍ خفيٍّ، فيكونُ في المرئيَّاتِ وفي الأصواتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ هذه الآيةَ متَّصِلةٌ بقولِه تعالى قبْلَها: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ والمعنى: عليم حينَ قال موسى لأهلِه: إنِّي أبصرتُ نارًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

قيل: المرادُ: بخبرٍ عن الطريقِ. وممَّن قال بذلك: السمعانيُّ، والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير =

﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

أي: أو أجيئُكم بشُعلةٍ أقتَبِسُها مِن تلك النَّارِ؛ كي تستَدفِئوا بها مِن البَردِ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

أي: فلمَّا جاء مُوسى إلى النَّارِ[2]...

= ((الجلالين)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠).

قال ابن عثيمين: (فالخبرُ الذي يريدُ هو خبرُ مَن يَدُلُّه على الطَّريقِ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسلامُ كان قد ضَلَّها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠).

وقيل: المرادُ بالخبر: خبَرُ المكان الذي تَلوحُ منه النَّارُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

قال ابنُ عاشور: (ولعلَّه ظنَّ أنَّ هنالك بيتًا يرجو استضافتَهم إيَّاه وأهلَه تلك اللَّيلةَ). ((المصدر السابق)).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨، ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

(٢) والمرادُ بالنَّارِ: النُّورُ، وممَّن قال بذلك: يحيى بن سلام، وابن عطية، والقرطبي، والبِقاعي، والعُلَيْمي، وجعله الواحديُّ مذهبَ المفسِّرين، ونسَبَه البَغَويُّ لأكثرِهم. يُنظر: ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧، ١٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٤)، ((الوسيط)) =

ناداه الله تعالى[(١)] ....

= للواحدي (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٠).

وممَّن قال مِن السَّلفِ أنَّ المرادَ بالنَّارِ النُّورُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بن جُبَيرٍ في رواية، وعِكْرِمةُ، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٣).

قال الواحدي: (مذهبُ المفسِّرينَ أنَّ المرادَ بالنَّارِ هو النورُ، وذلك أنَّ موسى رأى نورًا عظيمًا فظنَّه نارًا؛ لذلك ذُكِر بلفظِ النَّارِ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٩).

قالوا: لأنَّ النَّارَ لا تخلُو من النُّورِ، والعربُ تضَعُ أحدَهما موضِعَ الآخَرِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨).

والمرادُ بالنُّور هو حِجابُ النُّورِ؛ فعن أبي عُبَيْدةَ، عن أبي موسى رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُه، حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَها لَأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِه كلَّ شَيءٍ أدرَكَه بصَرُه))، ثمَّ قرأ أبو عُبَيْدةَ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨].

أخرجه ابن ماجه (١٩٦)، وأحمد (١٩٥٨٧)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (١٦٣). وقال الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)): إسناده صحيح. والحديث أصلُه في ((صحيح مسلم)) (١٧٩) دون قراءة أبي عبيدةَ. وفي روايةِ أحمدَ: ((النار)) بدل ((النور))، والمرادُ واحدٌ.

وينظر: رسالة ((إزالة الإشكال عن آية بورك من في النار)) لمنصور العيدي (ص: ٩).

وقيل: هي نارٌ، كما هو ظاهِرُ اللَّفظِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: السمرقنديُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٧، ٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ في روايةٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠، ١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٣).

(١) المنادِي هو الله تبارك وتعالى. وممَّن نصَّ على ذلك: ابن عطية، والقرطبي، وابنُ تيميَّة، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٥/ ٤٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٤٦٣)، =

بأنْ بُورِكَ[١] مَنْ في تلكَ النَّارِ[٢]، ....

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٥، ٥٦).

(١) قيل: ﴿بُورِكَ﴾ أي: قُدِّس، وقيل: أي: تبارك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦).

وقال ابن عطية: (وقوله: ﴿بُورِكَ﴾ معناه: قُدِّسَ وضُوعِفَ خيرُه ونُميَ، والبَرَكَةُ مُختصَّةٌ بالخيرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٠).

وقال البقاعي: (﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ أي: ثبَت تثبيتًا يحصُلُ منه مِن النَّماءِ والطَّهارةِ وجميعِ الخَيراتِ ما لا يُوصَفُ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٢).

(٢) المرادُ بقولِه تعالى: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾؛ هو الله سبحانَه وتعالى عنَى به نفْسَه، وكانت النَّارُ نورَه تعالَى ذِكرُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠).

ممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والحسنُ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، وأبو صَخْرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٥).

فاللهُ تعالى دنا مِن موسى عليه السَّلامُ لَمَّا كلَّمه مِن الشَّجرةِ، وقرَّبَه نَجيًّا، فناداه وناجاه، وهو سبحانه فوقَ العرشِ ويَقرُبُ مِن خَلْقِه كيف شاء، وقُربُه ودُنُوُّه مِن بعضِ مخلوقاتِه لا يَستلزِمُ أن تخلوَ ذاتُه مِن فوقِ العرشِ، ولا يُفهمُ مِن كلامِ السَّلفِ أنَّ الله تعالى قد حلَّ في مخلوقٍ أو أحاط به مخلوقٌ ونحو ذلك مما لا يليقُ نسبتُه لله سبحانَه وتعالى. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٤٦٠، ٤٦٣)، ((إزالة الإشكال)) لمنصور العيدي (ص: ٢٣).

وهو سبحانَه (يفعلُ ما يَشاءُ، ولا يُشْبِهُ شيئًا مِن مخلوقاتِه، ولا يحيطُ به شيءٌ مِن مَصْنوعاتِه، وهو العليُّ العظيمُ، المبايِنُ لجميعِ المخلوقاتِ، ولا يَكْتَنِفُه الأرضُ وَالسَّمواتُ، بل هو الأحدُ الصَّمَدُ، المُنَزَّهُ عن مُماثلةِ المُحْدَثاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠).

قال البَغَويُّ: (ورُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ والحسَنِ في قولِه: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يعني: قُدِّس مَن في النَّارِ، وهو اللهُ، عنَى به نفْسَه، على معنَى أنَّه نادى موسى منها، وأسمَعه كلامَه مِن جِهتِها). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩١). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٣٢).

ونسَبَ السَّمْعانيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: نورُ الربِّ سُبحانَه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨). =

= وقيل: المُرادُ بمَن في النَّار: موسى عليه السَّلامُ، وممَّن اختار هذا القولَ: السَّمَرْقَنْديُّ، والثَّعلبيُّ، والواحديُّ، والرازيُّ، والعُلَيميُّ، والشربينيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦).

قال الواحدي: (واختَلَفوا فيمَن في النَّارِ؛ فالأحسَنُ: أنَّ الآيةَ مِن باب حَذفِ المضاف، على تقدير: بُورِكَ مَن في طلَبِ النَّارِ، وهو موسى عليه السَّلامُ، وكأنَّه تحيَّةٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ لموسى بالبَرَكةِ، كما حيَّا إبراهيمَ بالبَرَكةِ على ألسِنَةِ الملائكةِ حينَ دخَلوا عليه). ((البسيط)) (١٧/ ١٦٤).

وقيل: التَّقديرُ: مَن في مكانِ النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨).

وعلى هذا القولِ فالفائدةُ مِن حذفِ كلمةِ مكانٍ شَيْئان:

الأوَّل: القُربُ التَّامُّ منها.

والثَّاني: أنَّ شُعاعَ النَّارِ قد وصَل هذا القريبَ منها؛ لأنَّ النَّارَ كما هو معروفٌ لها شُعاعٌ، والإنسانُ القريبُ منها يكونُ في نفْسِ الشُّعاع؛ فكأنَّه لقُربه ووُصولِ شُعاعِ النَّارِ إليه صار كأنَّه فيها نفْسِها، وإلَّا فليس هو في نفْسِ الشُّعلةِ، هذا لا يُمكِنُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٧).

وقال السَّمْعانيُّ: (فإنْ قيل: لم يكُنْ موسَى في النَّارِ. قُلْنا: قد كان قَريبًا مِنَ النَّارِ، والعربُ تُسمِّي مَن قَرُب مِن الشَّيءِ: في الشَّيءِ، يقولونَ: إذا بلَغْتَ ذاتَ عِرْقٍ فأنت في مكَّةَ؛ قالوا هذا لأجْلِ القُربِ مِن مكَّةَ، وموسى قد كان قَرُب مِنَ النَّارِ، فجَعَله كأنَّه في النَّارِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨).

وقيل: المُرادُ بمَن في النَّارِ: الملائكةُ، وممن قال به: مقاتلُ بن سليمان، والفَرَّاء -ونسَبه إليه السمعاني-، والبَغَوي، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٧)، ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٤).

قال الشنقيطيُّ: (وأقربُ الأقوالِ في معنَى الآيةِ إلى ظاهرِ القرآنِ العظيم قولُ مَنْ قالَ: إنَّ في النَّارِ الَّتي هي نورٌ ملائكةً، وحَوْلَها ملائكةٌ ومُوسَى، وأنَّ معنَى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: الملائكةُ الَّذينَ هم في ذلك النُّورِ، ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: وبُورِكَ الملائكةُ الَّذينَ هم حَوْلَها، وبُورِكَ مُوسَى؛ لأنَّه حَوْلَها معهم. ومِمَّنْ يُروَى عنه هذا: السُّدِّيُّ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٣٣). =

وبُورِكَ مَنْ حَوْلَها(١).

= وقيل: هذه البَرَكةُ راجعةٌ إلى النَّارِ نفْسِها. والمعنَى: بُورِكَتِ النَّارُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨).

قال الثعلبي: (وتقديرُ هذا التَّفسيرِ أنَّ «مَن» تأتي في الكلامِ بمعنى «ما» ... و«ما» قد تكونُ صِلَةً في كثيرٍ مِن المواضِعِ؛ كقَولِه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ [ص: ١١]، و﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠]. فمعنى الآيةِ: بُورِكَ في النَّارِ، وفيمَن حَوْلَها، وهم الملائكةُ وموسى عليه السَّلامُ، فسَمَّى النَّارَ مُبارَكةً، كما سمَّى البُقْعةَ مُبارَكةً فقال: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾[القصص: ٣٠]). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه ومُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١).

وذكر الشنقيطيُّ أنَّه بعيدٌ عن ظاهِرِ القرآنِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩- ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧- ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٣، ٤٣٤).

المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: موسى والملائكةُ. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وابنُ عاشور، والشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٤).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ هم الملائكةُ وموسى، في قولِ الجميعِ). ((البسيط)) (١٧/ ١٦٨).

وممن قال به مِن السَّلفِ: محمد بنُ كَعْب. ينظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٤١).

وقيل: المراد بقولِه تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: الملائكةُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ، والفرَّاءُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثَّعلبيُّ، والواحديُّ، والرازيُّ، والبقاعي، والشربيني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، والحسنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٧). =

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وتنزيهًا لله رَبِّ العالَمينَ مِن كُلِّ نَقصٍ وسُوءٍ وعَيبٍ[1].

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

أي: يا موسى، إنَّه أنا اللهُ المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدي، القويُّ الغالِبُ الذي لا يُقهَرُ، الحكيمُ في أمرِه وقَولِه وفِعلِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى

= قال ابن عاشور: («ومَن حَوْلَ النَّار» هو جبريلُ الذي أُرسِلَ إليه بما نودِيَ به، والملائكةُ الذين وكِّلَ إليهم إنارةُ المكانِ وتقديسُه، إنْ كان النِّداءُ بغيرِ واسطةِ جبريلَ، بل كان مِن لَدُنِ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وقال البقاعي: (... ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من جميعِ الملائكةِ -عليهم السَّلامُ- وتلك الأراضي المقدَّسة على ما أراد اللهُ في ذلك الوقتِ وفي غيرِه.

وحُقَّ لتلك الأراضي أن تكونَ كذلك؛ لأنَّها مَبعَثُ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَهبِطُ الوحيِ عليهم، وكِفاتُهم أحياءً وأمواتًا). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٣٢).

وقيل: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ المرادُ به: موسى عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: النَّسَفي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٢).

وقيل: هو عامٌّ في كلِّ مَن كان في تلك الأرضِ وفي ذلك الوادي وحوالَيْهما مِن أرضِ الشَّام. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٣).

قال السعدي: (ومِن حِكمتِه أنْ أَرسَلَ عبْدَه موسى بنَ عِمْرانَ الَّذي عَلِمَ اللهُ منه أنَّه أهلٌ لرسالتِه ووَحْيِه وتكليمِه. ومِن عِزَّتِه أن تعتمدَ عليه ولا تَستوحِشَ مِن انفرادِك وكثرةِ أعدائِك وجبروتِهم؛ فإنَّ نواصيَهم بيدِ الله، وحرَكاتِهم وسكونَهم بتدبيرِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٣، ١٤].

﴿ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ ﴾.

﴿ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ ﴾.

أي: وارْمِ عصاك، فرماها فانقلَبَت ثُعبانًا عظيمًا، فلمَّا رآها موسَى تتحَرَّكُ وتَضطرِبُ بخِفَّةٍ وسُرعةٍ، وكأنَّها حيَّةٌ صَغيرةٌ؛ هرَب منها مُسرِعًا ولم يرجِعْ ولم يلتَفِتْ[(١)].

﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾.

أي: فقُلْنا: يا موسى، لا تخَفْ مِمَّا ترى[(٢)]؛ لأنِّي لا يَخافُ عندي الرُّسلُ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢).

(٢) قال القرطبي: (﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ ﴾ أي: مِن الحيَّةِ وضررِها). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٧).

قال الشوكاني: (﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ أيْ: لا يَخافُ عِنْدي مَنْ أرسَلْتُه برِسالَتي، فلا تَخَفْ أنت. قِيلَ: ونَفْيُ الخوفِ عن المرسلينَ ليسَ في جميعِ الأوقاتِ، بل في وقتِ الخطابِ لهم، لأنَّهم إذْ ذاكَ مُستغرقونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٧).

ممن اختار القولَ الأولَ، أي: لا يخافُ عندي رسلي وأنبيائي: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والزجاج، وابن الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

أي: لَكِنْ[1] مَن ظلَمَ نفْسَه بارتكابِ السُّوءِ، والوُقوعِ في الذَّنبِ، ثمَّ تاب

= قال ابنُ جرير: (﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يقولُ: إنِّي لا يَخافُ عندي رُسلي وأنبيائي الذين أختصُّهم بالنبوَّةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عباس: لا يخافُ عندي مَن أرسلتُه برسالتي، والمعنَى: لا يُخيف الله الأنبياءَ، أي: إذا أمَّنهم فلا يخافونَه، فيكف يخافُ الحيةَ؟! فنهَى عن الخوفِ مِن الحيةِ، ونبَّه على أمنِ المرسلينَ عندَ الله ليُعلمَ أنَّ مَن أمَّنه الله مِن عذابِه بالنبوةِ ودرجةِ الرسالةِ لا يستحقُّ أن يخافَ الحيةَ). ((البسيط)) (١٧/ ١٧٣).

وقال القاسمي: (﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لحِفْظي لهم وعِنايتي بهم وعِصْمتي إياهم مما يُؤْذيهم). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٨٧).

وقال النيسابوري: (وسببُ نفيِ الخوفِ عن الرسلِ مشاهدةُ مزيدِ فضلِ الله وعنايتِه في حقِّهم). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٢٩٤).

وممن ذهب إلى أنَّ قولَه: ﴿لَدَىَّ﴾ يعني: حينَ الوحيِ وتلَقِّي الرِّسالةِ في حضرةِ الربِّ تعالى: البقاعي، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٩).

قال السعدي: (﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لأنَّ جميعَ المخاوِفِ مُندَرِجةٌ في قضائِه وقَدَرِه، وتصريفِه وأمْرِه، فالذين اختصَّهم اللهُ برسالتِه واصْطَفاهم لوَحْيِه لا ينبغي لهم أن يخافوا غيرَ اللهِ، خصوصًا عندَ زيادةِ القُربِ منه، والحُظوةِ بتكليمِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

وقال الكرماني: (قوله: (لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)، أي، في الموضعِ الذي يُوحي فيه إليهم؛ لأنَّ المرسلينَ أخوفُ مِن الله). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٤٣).

وممن اختار أنَّ معنى: ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: إذا أمَّنتهم: السمعاني، والبغوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٦).

قال البغوي: (﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، يريدُ إذا آمَنهم لا يخافونَ، أمَّا الخوفُ الذي هو شرطُ الإيمانِ فلا يفارقُهم). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩١).

(١) الاستثناءُ هنا منقطِعٌ بمعنى: لَكِنْ. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، وابن =

= عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٣).

قال ابنُ عثيمين: (إنَّ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ لَمَّا قال الله له: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لعلَّه تذكَّرَ أنَّه قد وقع منه خطيئةٌ، والخطيئةُ أنَّه قتَل نفْسًا، وكأنَّه عندَما يتذكَّرُ هذا قد يستبعِدُ في نفْسِه أن يكونَ مِن الرُّسلِ، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾؛ لِيُذَكِّرَه بما مَنَّ به عليه مِن التَّوبةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٢).

وقال أيضًا: (الاسثناءُ في ﴿إِلَّا﴾ هنا منقطعٌ؛ لأنَّه يشمَلُ الرُّسلَ وغيرَ الرُّسلِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٤).

وقيل: المعنى: لَكِنْ مَن ظلَمَ مِن سائرِ النَّاسِ، لا مِنَ المُرسَلينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩).

وقيل: الاستثناءُ هنا متَّصِلٌ. والمعنى: لا يَخافُ لدَيَّ المُرسَلون إلَّا مَن ظلَم منهم. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٩).

قال الشوكاني: (والمعنَى: إلَّا مَن ظَلَم مِن المرسَلينَ، بإتيانِ الصَّغائرِ الَّتي لا يَسلَمُ منها أحدٌ. واختارَ هذا النَّحَّاسُ، وقالَ: عَلِم مَن عصَى منهم، فاسْتَثْناه فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ وإنْ كنتُ قد غَفَرْتُ له؛ كآدَمَ وداودَ ... وموسَى بقتلِه القِبْطِيِّ. ولا مانِعَ مِن الخَوفِ بعْدَ المغفرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٧). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦١).

وقال السمعاني: (وقَولُه: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ فيه أقوالٌ؛ أحدُها: ولا مَن ظَلَم ثمَّ بدَّل حُسنًا بعْدَ سوءٍ، أي: تاب ونَدِم. وهذا القولُ ضعيفٌ عندَ أهلِ النَّحوِ. والقولُ الثَّاني: أنَّ معنى الآيةِ: إنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ المرسَلونَ، وإنَّما يَخافُ غيرُ المرسَلينَ، إلَّا مَن ظَلَم ثمَّ بدَّل حُسنًا بعْدَ سوءٍ فإنَّه لا يَخافُ. والقولُ الثَّالثُ: أنَّ الاستثناءَ هاهنا منقطِعٌ، ومعناه: لَكِن مَن ظلَم فخافَ فإنْ بدَّل حسنًا بعْدَ سوءٍ فإنَّه لا يخافُ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٠).

وقال النَّحَّاسُ: (فإنْ قال قائلٌ: فما معنى الخَوفِ بعْدَ التَّوبةِ والمغفرةِ؟

قيل له: هذه سبيلُ العلماءِ بالله جلَّ وعزَّ؛ أن يكونوا خائفينَ مِن معاصيه، وَجِلينَ، وهم أيضًا لا يَأْمَنون أن يكونَ قد بقِيَ مِن أشراطِ التَّوبةِ شَيءٌ لم يأتوا به، فهم يخافونَ مِن المطالبةِ به). ((إعراب القرآن)) (٣/ ١٣٧). =

وعَمِلَ صالِحًا بعْدَ عَمَلِه السيِّئ؛ فإنِّي غفورٌ لِذَنْبه -أستُرُه عليه، وأتجاوَزُ عن مؤاخَذتِه به-، ورحيمٌ به[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (١٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أراه سُبحانَه تلك الخارِقةَ فيما كان في يدِه بقَلْبِ جوهرِها إلى جوهرِ شَيءٍ آخَرَ حيوانيٍّ، أراه آيةً أُخرى في يدِه نفْسِها بقَلْبِ عَرَضِها الذي كانت عليه إلى عَرَضٍ آخرَ نُورانيٍّ؛ فقال[(٢)]:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

أي: وأدخِلْ يدَك في جَيبِ قَميصِك ثمَّ أخرِجْها، تخرُجْ بَيضاءَ اللَّونِ مِن غيرِ بَرَصٍ أو غيرِه مِنَ الآفاتِ[(٣)].

= وقال ابنُ القيِّم: (الخوفُ ثابتٌ له حالَ ظلمِه وحالَ تبديلِه الحسنَ بعدَ السوءِ، أمَّا حالَ ظلمِه فظاهرٌ، وأمَّا حالَ التَّبديلِ فلأنَّه يخافُ أنَّه لم يَقُمْ بالواجبِ، وأنَّه لم يُقبَلْ منه ما أتَى به... فمَن ظلَمَ ثمَّ تاب فهو أَوْلَى بالخَوفِ، وإنْ لم يكُنْ خَوْفٌ عليه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٧١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠، ٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٤)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٢، ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ * ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣١، ٣٢].

﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾.

أي: وهي آيةٌ مِن جُملةِ تِسعِ آياتٍ[(١)] ....

= النسفي)) (٢/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٦، ٧٧).

(١) قوله: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ (في) بمعنى (من). وقيل: بمعنى (مع). يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٥).

قال ابنُ عطيةَ في بيانِ الآياتِ التِّسعِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ من سورة الإسراء: (اتَّفَق المتأوِّلونَ والرُّواةُ أنَّ الآياتِ الخَمسَ التي في سورةِ الأعرافِ هي مِن هذه التِّسعِ، وهي: الطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، واختلَفوا في الأربَعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨).

وقال الواحدي: (قال المفسِّرون: هي الطوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضفادعُ، والدَّمُ، والعصا، ويدُه، والسِّنونَ، ونقصٌ مِن الثَّمَراتِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٧، ٧٨).

ونسَبه الشوكانيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١١).

وذكر ابنُ كثير الخلافَ في عدِّ الآياتِ التِّسعِ في آيةِ الإسراءِ، وأنَّ منهم مَن قال: إنَّها (العصا، واليَدُ، والسِّنونَ، والبَحرُ، والطُّوفانُ، والجرادُ، والقمَّلُ، والضَّفادعُ، والدَّمُ؛ آياتٌ مُفَصَّلاتٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. وقال محمَّدُ بنُ كعبٍ: هي اليدُ، والعصا، والخمسُ في الأعرافِ، والطمسةُ، والحجرُ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والشعبيُّ، وقَتادةُ: هي يدُه، وعصاه، [والسِّنون]، ونقصُ الثمراتِ، والطوفانُ، والجرادُ، والقمَّلُ، والضَّفادعُ، والدَّمُ. وهذا القولُ =

نُرسِلُك بها إلى فِرعَونَ وقَومِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۞ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ...﴾ [هود: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾.

أي: فأرسَلْناك بتلك الآياتِ إليهم؛ لأنَّهم كانوا قَومًا كافرينَ باللهِ، خارجينَ عن طاعتِه(٢).

= ظاهرٌ جليٌّ حسنٌ قويٌّ. وجعَل الحسنُ البصريُّ «السنينَ ونقصَ الثمراتِ» واحدةً، وعندَه أنَّ التاسعةَ هي: تلقُّفُ العصا ما يَأْفِكون... فهذه الآياتُ التِّسعُ التي ذكَرها هؤلاء الأئمَّةُ، هي المرادةُ هاهنا، وهي المَعنيَّةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۞ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۞ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠- ١٢] فذَكَرَ هاتينِ الآيتَينِ: العصا واليَدَ، وبَيَّنَ الآياتِ الباقياتِ في «سورة الأعراف» وفصَّلَها. وقد أُوتيَ موسى عليه السَّلامُ آياتٍ أُخَرَ كثيرةً؛ منها: ضَرْبُه الحَجَرَ بالعصا، وخروجُ الأنهارِ منه، ومنها تظليلُهم بالغَمامِ، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوى، وغيرُ ذلك ممَّا أُوتيَه بنو إسرائيلَ بعْدَ مُفارقتِهم بلادَ مِصرَ، ولكنْ ذَكَر هاهنا التِّسعَ الآياتِ التي شاهَدَها فِرعَونُ وقَومُه مِن أهلِ مِصرَ، وكانت حُجَّةً عليهم، فخالفوها وعانَدوها كُفرًا وجُحودًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤، ١٢٥). ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٥٧، ٥٨) و (٩/ ٩٥، ٣٤٥-٣٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٩).

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾.

أي: فلمَّا جاءت فِرعَونَ وقَومَه آياتُنا التِّسعُ مضيئةً ظاهِرةً واضِحةَ الدَّلالةِ على صِدقِ موسى ورسالتِه، واحدةً بعْدَ أُخرَى؛ قالوا: هذا الذي أَرانا موسى سِحرٌ واضِحٌ لا يخفَى على أحَدٍ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ * وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ * فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ * وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧- ٥٠].

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٣).
قال ابن عثيمين: (فهذه الآياتُ هي بنفْسِها ظاهرةٌ وواضِحةٌ، والذي يَراها يُبصِرُ بها؛ ولهذا نقول: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ يعني: أنَّها باصرةٌ بنفْسِها، ومُوجِدةٌ للإبصارِ في غيرِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٣).

أي: وكذَّب فِرعَونُ وقَومُه بالآياتِ، وأنكروا بألسِنتِهم أن تكونَ مِن عندِ اللهِ، مع تيقُّنِ قُلوبِهم أنَّها مِن عندِ اللهِ تيقُّنًا تامًّا لا شَكَّ فيه، ولكِنَّهم كذَّبوا وأنكروا؛ اعتِداءً وتكبُّرًا عن اتِّباعِ الحَقِّ[١].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: فانظُرْ[٢] -يا محمَّدُ- إلى نهايةِ أمرِ الذين يُفسِدونَ في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي، كيف أهلَكَهم اللهُ ودمَّرَهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٨).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿فَٱنظُرْ﴾... المرادُ: نظَر اعتبارٍ؛ لأنَّ نظرَ الإبصارِ هنا متعذِّرٌ؛ لسَبقِ زمَنِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٠-٩٢).

قال ابنُ كثير: (فحوى الخطابِ [وهو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى] يقولُ: احذَروا -أيُّها المكَذِّبون بمحمَّدٍ- الجاحِدون لِما جاء به مِن ربِّه: أن يصيبَكم ما أصابَهم بطريقِ الأَولى والأحرى؛ فإنَّ محمدًا -صلواتُ الله وسلامُه عليه- أشرَفُ وأعظَمُ مِن موسى، وبرهانَه أدَلُّ وأقوى مِن بُرهانِ موسى؛ بما آتاه اللهُ مِن الدَّلائلِ المقتَرِنةِ بوجودِه في نفسِه وشمائِلِه، وما سبقَه من البِشاراتِ مِن الأنبياءِ به، وأخْذِ المواثيقِ له، عليه مِن رَبِّه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨١).

وقال السعدي: (﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أسوأَ عاقبةٍ؛ دمَّرَهم اللهُ، وغرَّقَهم في البَحرِ، وأخزاهم، وأورَثَ مساكِنَهم المُستضعَفينَ مِن عبادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، وقال جلَّ ثناؤُه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، وقال سُبحانَه: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، في هذا خدمةُ الرَّجُلِ أهْلَه، وكان نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ في بيتِه في مِهْنةِ أهْلِه[١]، أي: في خِدمتِهم. ومِن ذلك قولُه: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥].

وخِدمةُ الرَّجُلِ أهْلَه إحسانٌ وصِلةٌ وتَواضُعٌ، وما هذا مِن أخلاقِ الجبَّارينَ المتكبِّرينَ، وعلى الحقيقةِ سيِّدُ القَومِ خادمُهم؛ لأنَّه فاز بالمناقبِ الدِّينيَّةِ، وأفادهم أعراضًا دُنيويَّةً[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أنَّه ينبغي إيناسُ المستوحِشِ، فينبغي أنْ تقولَ له أو تَفعَلَ معه ما يُؤنِسُه؛ لِيطمئنَّ، ويكونَ قابلًا لِمَا يُلقى إليه؛ لأنَّ المستوحِشَ لا يَقبَلُ ما يُلقَى إليه، بمعنى: أنَّه لا يتمكَّنُ مِن قَبولِه؛ فإنَّ إثباتَ البَرَكةِ لِمَن في النَّارِ ومَن حَوْلَها يَزدادُ به طمأنينةً بلا شَكٍّ؛ ولهذا أوَّلَ ما خاطبَه اللهُ في هذه الآيةِ قال: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في قَولِه: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ أنَّ

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٠).

تَعيينَ الشَّخصِ بالنِّداءِ له فائدةٌ، وهي: التَّطمينُ والإيناسُ؛ لأنَّك إذا قلتَ: (يا فلانُ) طمأنْتَه بلا شكٍّ؛ لأنَّه يقولُ: هذا يعرفُني، ما ينالُني بسوءٍ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن أراد تعيينَ نفْسِه أنْ يُبيِّنَ اسمَه، فلم يَقُلْ مثلًا: (أنا مُكَلِّمُك)، (أنا)، أو ما أشبَهَ ذلك، بل بَيَّنَ مَن الذي يُكَلِّمُه[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ أنَّه ينبغي الاحترازُ في الكَلامِ عندَما يُوهِمُ الشَّيءُ أمرًا يُحتَرَزُ منه؛ لقَولِه: ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾، ففي الآيةِ دَليلٌ على مبدأِ الاحترازِ في الكلامِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ أنَّ الاتِّصافَ بهذين الوصفَينِ (الظُّلم والعُلوِّ) يَجعَلُ الإنسانَ مِن الأُمَّةِ الفِرعونيَّةِ، وما مِن صفةٍ يَخرجُ بها العبدُ عن سواءِ السبيلِ إلَّا وله فيها إمامٌ مِن أهلِ الكُفرِ؛ ولهذا أخبَر النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّنا سنَركَبُ سَنَنَ مَن كان قَبْلَنا[4]؛ فجَحْدُ الحقِّ مِن الأئمَّةِ فيه فرعونُ وقَومُه، والحسدُ مِن الأئمَّةِ فيه اليَهودُ، وهكذا[5].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ الوصفُ إذا كان مَذمومًا وفِرعونيًّا؛ فإنَّ عكسَه محمودٌ، والعكسُ هو التواضعُ للحقِّ وقَبولُه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

وما أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد (٢١٨٩٧) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٤).

هذا لا شكَّ أنَّه ممدوحٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أثنَى بالسُّوءِ على وصْفٍ، فإنَّ ضِدَّه يُثنَى عليه بالحُسنِ[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ذَمُّ التَّرَفُّعِ عن الحقِّ؛ لِقَولِه: ﴿وَعُلُوًّا﴾، ومِنَ النَّاسِ مَن إذا عُرِضَ عليهم الدَّليلُ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ تركوه تقليدًا لإمامٍ يَرَوْنَ أنَّه أكثرُ عِلمًا، وهذه الطريقةُ مذمومةٌ أيضًا، وإن كانت عن حُسنِ نيَّةٍ[(٢)]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ حُسنُ خُلُقِ موسى صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ وذلك لمكالَمتِه لأهلِه ومُراجعتِه إيَّاهم بما يَهُمُّهم قبْلَ ذهابِه[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ دَليلٌ على أنَّ الزَّوجةَ مِن الأهلِ، وهذا هو القَولُ الصَّحيحُ، فعلى هذا آلُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَدخُلُ فيهم أزواجُه؛ لأنَّ الزَّوجةَ مِن الأهلِ[(٤)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أنَّ الأحوالَ البشريةَ تطرأُ حتَّى على الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ؛ فإنَّ موسى في تلك اللَّيلةِ كان قد ضَلَّ الطريقَ ولم يَهتدِ إليه، وقد أصابَه البَرْدُ هو وأهله، والأنبياءُ والرُّسلُ لا يختَلِفون عن غيرِهم إلَّا في الرِّسالةِ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦]، فالأوَّلُ: المماثَلةُ في البشريَّةِ، والثَّاني: الاختصاصُ بالوحيِ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يُلامُ على اتِّخاذِ الوقايةِ الدَّافعةِ أو الرَّافعةِ، وهذه الوقايةُ دافِعةٌ رافِعةٌ؛ رافعةٌ للبرْدِ السَّابقِ، ودافعةٌ للبرْدِ اللَّاحِقِ، بل إنَّه رُبَّما يُؤمَرُ به أمرَ إيجابٍ أو أمرَ استِحبابٍ حسَبَ ما تقتضيه الحالُ التي يريدُ أنْ يَرفَعَها أو يدفَعَها[(٢)].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أنَّ هذا التَّبريكَ تبريكُ ذوَاتٍ لا تبريكُ مكانٍ، بدليلِ ذِكرِ (مَن) الموصولةِ في الموضِعَين[(٣)].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المنادي لموسَى هو الله ربُّ العالمينَ لا غيرُه، وإذا كان المنادي هو اللهَ رَبَّ العالَمينَ، وقد ناداه مِن مَوضِعٍ مُعَيَّنٍ وقَرَّبَه إليه؛ دَلَّ ذلك على ما قاله السَّلَفُ مِن قُربِه ودُنُوِّه مِن موسى عليه السَّلامُ، وهو سبحانه يَقرُبُ مِن خَلقِه كيف شاء[(٤)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ دَليلٌ على تكليمِه سبحانَه لموسى بصَوتٍ مَسموعٍ؛ فالنِّداءُ لا يكونُ إلَّا صَوتًا مَسموعًا، ولا يُعقَلُ في لغةِ العربِ لفظُ النِّداءِ بغيرِ صوتٍ مسموعٍ، لا حقيقةً ولا مَجازًا[(٥)].

٨- ثَناءُ اللهِ سبحانه وتعالى على نفْسِه، وأنَّ ذلك مِن كمالِه؛ فإنَّه أثنى على نفسِه بقَولِه: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أثنى على نفْسِه بنفيٍ وإثباتٍ؛ النفيُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٠- ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٣/ ٩٧).

(سُبْحَانَ اللهِ)، والإثباتُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومِن هنا نَعرفُ أنه لا يَتِمُّ كمالُ الأوصافِ إلَّا بهذينِ الأمْرينِ، وهما: النَّفيُ والإثباتُ؛ لأنَّ إثباتَ الكَمالاتِ فقط لا يدُلُّ على نفيِ النَّقائِصِ، ونفْيَ النَّقائصِ فقط لا يدُلُّ على إثباتِ الكَمالاتِ، وباجتماعِهما يحصلُ الكمالُ المطلَقُ؛ ولهذا قالوا: لا بُدَّ مِن تخليةٍ وتحليةٍ[1].

٩- إثباتُ الحُكْمِ المطلَقِ لله سبحانَه وتعالى؛ لِقَولِه: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ الحكيمَ هو ذو الحُكْمِ والحِكمةِ[2].

١٠- كانت معجِزةُ كلِّ نبيٍّ في زمانِه بما يُناسِبُ أهلَ ذلك الزَّمانِ؛ فذكَروا أنَّ موسى عليه السَّلامُ كانت مُعجِزتُه ممَّا يُناسِبُ أهلَ زمانِه، فكانوا سحَرةً أذكياءَ، فبُعِث بآياتٍ بهَرَتِ الأبصارَ، وخضَعَتْ لها الرِّقابُ[3]؛ فقولُه تعالى: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وقولُه: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ دلَّ على حِكمةِ اللهِ تعالى في آياتِ الرُّسلِ، وأنَّها تُناسِبُ العصرَ الذي بُعِثوا فيه؛ فلذلك أُوتيَ موسى صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن الآياتِ ما يَقضي على سِحْرِهم[4].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أنَّ هذه العصا لم تكُنْ مجرَّدَ حيوانٍ يتحرَّكُ! ولكنَّها أبلَغُ مِن ذلك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، ومعلومٌ أنَّ الجانَّ بنَفْسِه مُروِّعٌ، فالحيَّةُ بنفْسِها مروِّعةٌ، فإذا كانت مِن عظيمِ الحَيَّاتِ صارتْ أشَدَّ وأبلَغَ[5].

١٢- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجانُّ هو الحيَّةُ الصغيرةُ، وقد جاءت آيةٌ أخرى تدُلُّ على خِلافِ ذلك، وهي قولُه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٨، ٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

﴿هِىَ ثُعۡبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، وهذه الآيةُ تدُلُّ على شَبَهِ العصا بالثُّعبانِ، وهو لا يُطلَقُ إلَّا على الكبيرِ مِن الحيَّاتِ.

والجوابُ عن هذا: أنَّه شَبَّهها بالثعبانِ في عِظَمِ خِلقتِها، وبالجانِّ في اهتِزازِها وخِفَّتِها، وسرعةِ حرَكتِها؛ فهي جامعةٌ بيْنَ العِظَمِ وخِفَّةِ الحركةِ على خِلافِ العادةِ(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ جوازُ أنْ يعتريَ الأنبياءَ الخَوفُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾، وأنَّ ذلك لا يُعَدُّ نقصًا فيهم؛ لأنَّه مِن مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ، وهذا الذي يكونُ مِن مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ لا يُلامُ عليه أحدٌ، فالأنبياءُ يَجوعون ويَعطَشون، ويَبْرُدون ويمرَضون، ويموتون أيضًا؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾(٢) [الكهف: ١١٠].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ جوازُ توجيهِ الأحكام الشرعيَّةِ إلى الأمورِ الفِطريَّةِ، يعني -مثلًا- أنت إذا قلتَ لإنسانٍ: (لا تَخَفْ)، والخَوفُ طبيعيٌّ، فكيف يَدفَعُه عنه؟ فهل يَتوجَّهُ الحُكْمُ إلى مِثْلِ هذه الأمورِ الطبيعيَّةِ؟

نقولُ: نعم يمكنُ؛ لأنَّ الخوفَ -وإنْ كان أمرًا طبيعيًّا غيرَ شعوريٍّ؛ لأنَّه يأتي الإنسانَ بغيرِ اختيارِه- لكِنَّه يمكنُه معالجتُه بالمدافعةِ؛ ولهذا جاء رجلٌ إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقال: أوصني، فقال: ((لا تغضَبْ))(٣)، والغضبُ مِن طبيعةِ الإنسانِ، لكنْ معنى (لا تغضَبْ): يعني: حاولْ أنْ تُقَلِّلَ مِن

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

غضَبِك، وأنْ تكونَ دائمًا هادئًا، ثمَّ إنْ غضِبتَ فلا تُنْفِذْ مقتضَى هذا الغضَبِ، فإذَن الأمورُ الطبيعيَّةُ البشريَّةُ التي هي مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ يجوزُ أنْ يُوَجَّه الحُكمُ إليها أمرًا أو نهيًا، ويكونُ ذلك مِن بابِ مُدافَعتِها قبْلَ وُجودِها، أو من بابِ تقليلِ آثارِها، فلا يقالُ: إنَّ الإنسانَ أُمِرَ بما لا يستطيعُ، فأُمِرَ بعدمِ الغضَبِ وهو لا بُدَّ أنْ يغضَبَ، وأُمِرَ بعدمِ الخَوفِ وهو لا بُدَّ أنْ يَخافَ ممَّا هو مَخُوفٌ[١]!

١٥- في قَولِ الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ أخْذَ الأحكامِ مِن مُقتضى أسماءِ اللهِ تعالى وصفاتِه؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أغفِرُ له، وهذا حُكمٌ، وأخذُ الأحكامِ مِن مُقتضى الأسماءِ والصِّفاتِ هذا مِن أحسَنِ ما يكونُ مِن الاستِدلالِ. ذُكِرَ أنَّ رجلًا قرَأ عندَ أعرابيٍّ: (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كَسَبَا نكالًا مِن اللهِ واللهُ غفورٌ رحيمٌ)! فقال الأعرابيُّ -وهو لم يَقرأِ القرآنَ: أعِدِ الآيةَ؛ أخطأتَ فيها، فأعادها مرَّةً ثانيةً، وقال: (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كَسَبَا نكالًا مِن اللهِ واللهُ غفورٌ رحيمٌ)! قال له: أعِدِ الآيةَ، فأعادها في الثَّالثةِ على الصَّوابِ، قال: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، قال: الآنَ؛ فإنَّه عَزَّ وحَكَمَ فقَطَعَ، ولو غَفَرَ ورَحِمَ ما قَطَعَ. وهذا صَحيحٌ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٠). ويُنظر أيضًا: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (١/ ٣٦٤).
والقاعدةُ: أنَّ متعلقَ الخطابِ إذا كان مقدورًا حُمل عليه، وإن كان غيرَ مقدورٍ صُرف الخطابُ لثمرته أو سببه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٧٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٤).
وتُنظر قصَّةُ الأعرابيِّ في: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٦)، ((الوافي بالوَفَيات)) للصَّفَدي (٢٧/ ٢٢٧)، ((خِزانة الأدب)) للحَمَوي (١/ ١٧٦)، ((الكشكول)) للعاملي (٢/ ١١٢).

١٦- أنَّه من الفَصاحةِ والبلاغةِ قَرنُ الحُكم بتعليلِه؛ لِقَولِه: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾، وتعليلُ هذا الحُكمِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾، وإنَّ قَرْنَ الحُكْمِ بتعليلِه له فوائدُ؛ منها:

الأُولى: بيانُ حِكمةِ اللهِ سُبحانَه في تشريعِه وقضائِه.

الثَّانية: التعميمُ بعُمومِ العلَّة.

الثالثةُ: أنَّ المخاطَبَ يَزدادُ طمأنينةً إذا عَلِمَ حِكمةَ الحُكم[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أنَّ الفِسقَ يُطلَقُ على الكُفر، والفِسقُ نوعان: فِسقٌ مُطلَقٌ، ومُطلَقُ الفسقِ؛ فالفِسقُ المطلقُ هو الكُفرُ، ومُطلَقُ الفِسقِ هو العصيانُ مِن المؤمِنينَ؛ إذْ إنَّ أصلَ الفِسقِ هو الخُروجُ عن الطَّاعة، فإنْ كان خُروجًا كاملًا شاملًا فهو فِسقٌ مُطلَقٌ، وإنْ كان بعضَ خروجٍ فهو مُطلقُ فِسقٍ[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: (هذه)؛ لأنَّه -واللهُ أعلمُ- رَدٌّ على الجائي بالآياتِ، أو يكونُ المرادُ بقولِهم: ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي نراه، ثم قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ برَدِّه على الآياتِ[٣].

وقيل: إنَّه قال هنا: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ مِن أجْلِ أن يَشمَلَ كلَّ ما جاء؛ حتى يَشمَلَ موسى نفْسَه، واتِّهامَه بالسِّحرِ[٤].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ مبالَغةُ صاحبِ الباطلِ بدعْواه؛ حيث قالوا: ﴿سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ يعني: بيِّنًا ظاهرًا، ما فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٦).

إشكالٌ، وهكذا المُدَّعي يأتي بالكَلِماتِ التي تُشَبِّهُ على الخلْقِ حتى يَصِلَ إلى ما يريدُ مِن الباطلِ[١].

٢٠- نصوصُ القُرآنِ في غيرِ موضِع تدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ كانوا في الدُّنيا مُصَدِّقينَ بالرَّبِّ، حتى فِرعَونُ -الذي أظهَرَ التَّكذيبَ- كان في باطِنِه مُصَدِّقًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٢].

٢١- مَن عَرَفَ اللهَ بقلبِه ولم يُقِرَّ بلِسانِه، لم يكنْ مُؤمِنًا، كما قال الله تعالى عن قَومِ فِرعَونَ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٣].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ لَمَّا كان الجَحدُ معناه إنكارُ الشَّيءِ مع العلمِ به؛ حقَّقَ ذلك بقَولِه: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾[٤].

٢٣- الجَحدُ لا يكونُ إلَّا بعدَ الاعترافِ بالقَلبِ أو اللِّسانِ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٥].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بيانُ شأنِه سُبحانَه في كلِّ مَن أنعمَ عليه بنِعمةٍ فكَفَرَها؛ فإنَّه يَسْلُبُه إيَّاها بعدَ أنْ كانت نصيبَه وحظَّه، فهم جَحَدوا بآياتِ اللهِ بعدَ أنْ تيقَّنوا صِحَّتَها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١١٨).

(٦) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٠).

٢٥- المعرفةُ بالحقِّ إذا كانت مع الاستِكبارِ عن قَبولِه والجَحدِ له، كانت عَذابًا على صاحِبِها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

٢٦- قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مجرَّدُ عِلْمِ القلبِ بالحقِّ إنْ لم يقتَرِنْ به عمَلُ القلبِ بموجَبِ عِلمِه -مثلُ: محبَّةِ القلبِ له، واتِّباعِ القلبِ له- لم ينفَعْ صاحِبَه، بل أشدُّ الناسِ عذابًا يومَ القيامةِ عالِمٌ لم يَنفَعْه اللهُ بعلْمِه[2].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ دليلٌ على فضيلةِ التأمُّلِ والتفَكُّرِ في أخبارِ مَن مضى، وأنَّ دراسةَ علمِ التاريخِ مِن الأشياءِ التي جاء بها الشَّرعُ؛ فإنَّنا لا يمكِنُ أنْ ننظُرَ كيف كان عاقبتُهم إلَّا بدراسةِ أخبارِهم وتَتَبُّعِها، فعِلْمُ التاريخِ إذَن مِن الأمورِ المقصودةِ[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، ومُناسَبةُ مَوقعِها إفادةُ تَنظيرِ تَلقِّي النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ القرآنَ بتلقِّي مُوسى عليه السَّلامُ كلامَ اللهِ؛ إذ نُودِيَ ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، وذلك مِن بَديعِ التَّخلُّصِ إلى ذِكْرِ قَصصِ هؤلاء الأنبياءِ عَقِبَ التَّنويه بالقرآنِ، وأنَّه مِن لَدُنْ حَكيمٍ عليمٍ، والمعنى: أنَّ اللهَ يقُصُّ عليك مِن أنباءِ الرُّسلِ ما فيه مَثَلٌ لك ولقَومِك، وما يُثبِّتُ به فُؤادَك.

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٦).

وفي ذلك انتقالٌ لنَوعٍ آخَرَ مِن الإعجازِ؛ وهو الإخبارُ عن المُغَيَّباتِ[١].

- و﴿إِذْ﴾ مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بمُضمَرٍ خُوطِبَ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأُمِرَ بتِلاوةِ بعضٍ مِن القرآنِ الَّذي يُلقَّاهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن لَدُنْه عزَّ وجلَّ؛ تَقريرًا لِمَا قبْلَه، وتَحقيقًا له، أي: اذكُرْ لهم وقتَ قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِأهلِه...[٢].

- وجُملةُ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ تَمهيدٌ لجُملةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ...﴾ إلخ [النمل: ٨]، وزمانُ قولِ مُوسى لأهلِه هذه المقالةَ هو وقْتُ اجتِلابِه للمُبادَرةِ بالوحيِ إليه؛ فهذه القصَّةُ مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ لحالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع قَومِه، ابْتُدِئَت بما تقدَّمَ رِسالةَ مُوسى مِن الأحوالِ؛ إدْماجًا للقصَّةِ في الموعظةِ[٣].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ إمَّا للدَّلالةِ على نَوعِ بُعْدِ مسافةِ النَّارِ في الجملةِ حتَّى لا يَستَوحِشوا إنْ أبطأ عنهم؛ لأنَّ السِّينَ حرفُ تنفيسٍ، أي: توسيعٌ لمدَّةِ الفعلِ الضَّيِّقةِ بنقلِه مِن الحالِ إلى الاستقبالِ. وإمَّا لأنَّه قد يُمكِنُ أنْ يُبطِئَ لما قدَّرَ أنَّه قد يَعرِضُ له ما يُبْطِئُه، وإنْ لم تَطُلِ المسافةُ[٤]. وقد يُقالُ: إنَّ السِّينَ لِما فيها مِن تقريبِ المدَّةِ أتى بها دُونَ (سوف)؛ لدفعِ الاستيحاشِ عن أهلِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣).

- وإنْ صحَّ أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ لم يكُنْ معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا امرأتُه؛ فيكونُ عُبِّرَ في قولِه: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ بالجمْعِ؛ لَمَّا كنَّى عنها بالأهلِ، أو للتَّعظيمِ؛ مُبالَغةً في التَّسليةِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء هنا: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، وهو خبرٌ، وفي (طه): ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]، وفي القَصصِ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩]، وهو تَرجٍّ، ومعنى التَّرجِّي مُخالِفٌ لمعنى الخبرِ، ولكنَّ الرَّجاءَ إذا قَوِيَ جازَ للرَّاجي أنْ يُخبِرَ بذلك، وإنْ كانت الخَيبةُ يجوزُ أنْ تقعَ. وآثَرَ (أو) على الواوِ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ رائعةٍ؛ فإنَّ (أو) تُفيدُ التَّخييرَ، وقد بنى الرَّجاءَ على أنَّه إنْ لم يَظفَرْ بحاجتَيهِ جميعًا لم يَعدَمْ واحدةً منهما: إمَّا هِدايةَ الطَّريقِ، وإمَّا اقتباسَ النَّارِ؛ هضْمًا لنفْسِه، واعترافًا بقُصورِه نحوَ ربِّه. وما أدراهُ حينَ قال ذلك أنَّه ظافِرٌ على النَّارِ بحاجَتيهِ الكُلِّيَّتينِ جميعًا، وهما العِزَّانِ: عِزُّ الدُّنيا، وعِزُّ الآخرةِ(٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، وقال في سُورةِ (طه): ﴿بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]، وفي سُورةِ القصصِ: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]؛ لأنَّ الجَذوةَ مِن النَّارِ: خَشبةٌ في رأْسِها قَبَسٌ به شِهابٌ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٧٣).

فهي في السُّورِ الثَّلاثِ عبارةٌ عن مُعَبَّرٍ واحدٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- ابتداءُ خِطابِ اللهِ مُوسى بذلك عندَ مَجيئِه: بِشارةٌ له بأنَّه قد قُضِيَ أمْرٌ عظيمٌ تَنتشِرُ منه في أرضِ الشَّامِ كلِّها البَرَكةُ، وتأنيسٌ له، ومُقدِّمةٌ لِمُناجاتِه[٢].

- وأنَّثَ ضَميرَ ﴿جَآءَهَا﴾ جرْيًا على ما تَقدَّمَ مِن تَسميةِ النُّورِ نارًا بحَسَبِ ما لاحَ لِمُوسى[٣].

- وقولُه: ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ على القَولِ بأنَّ المُرادَ به مُوسى عليه السَّلامُ؛ فإنَّه لَمَّا حلَّ في مَوضعِ النُّورِ صار مُحيطًا به، فتلك الإحاطةُ تُشبهُ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ، فعُبِّرَ عنه بـ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ وهو نفْسُه. والعُدولُ عن ذِكْرِه بضَميرِ الخِطابِ -كما هو مُقْتضى الظَّاهرِ- أو باسمِه العَلَمِ -إنْ أُريدَ العدولُ عن مُقْتضى الظَّاهرِ-؛ لأنَّ في معنى صِلَةِ الموصولِ إيناسًا له وتلطُّفًا. وهذا الكلامُ خبرٌ هو بِشارةٌ لِمُوسى عليه السَّلامُ ببَركةِ النُّبوَّةِ[٤].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جاء هنا ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ﴾، وفي (القصصِ) و(طه): ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ﴾ [طه: ١١] [القصص: ٣٠]؛ لأنَّه قال في هذه

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السُّورة: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧]، فكُرِّرَ ﴿آتِيكُمْ﴾، فاسْتُثْقِلَ الجمعُ بيْنَهما وبينَ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، فعُدِلَ إلى قولِه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ بعدَ أنْ كانَا بمعنًى واحدٍ، وأمَّا في السُّورتينِ فلمْ يكنْ إلَّا ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه: ١٠] [القصص: ٢٩]، ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾[1] [طه: ١١] [القصص: ٣٠].

- وقولُه: ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ تَعجيبٌ لمُوسى مِن ذلك الأمرِ العظيمِ، وهو إحداثُ أمْرٍ دِينيٍّ مِن تَكليمِه واستِنبائِه، وإعلامٌ له بأنَّ مُرِيدَ ذلك الأمرِ هو ربُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، فأعظِمْ بأمْرٍ مُريدُه مَن هو ربُّ العالَمينَ! فقولُه: ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ كالتَّذييلِ والتَّأكيدِ لِمَا تضمَّنَ قولُه: ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ مِن المعاني؛ تَنبيهًا على جَلالةِ الأمْرِ الحادثِ[2].

- وهو عطْفٌ على ما نُودِيَ به مُوسى على صَريحِ معناهُ؛ إخبارًا بتَنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا لا يَليقُ بإلهيَّتِه مِن أحوالِ المُحْدَثاتِ؛ لِيَعلَمَ مُوسى أمْرينِ؛ أحدهما: أنَّ النِّداءَ وحْيٌ مِن اللهِ تعالى، والثَّاني: أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عمَّا عسَى أنْ يَخطُرَ بالبالِ أنَّ جلالتَه في ذلك المكانِ[3].

- وفي حَذْفِ مُتعلَّقِ التَّنزيهِ إيذانٌ بالعُمومِ المُناسِبِ لمَصدرِ التَّنزيهِ، وهو عمومُ الأشياءِ الَّتي لا يَليقُ إثباتُها للهِ تعالى[4].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ آثارِ البَرَكةِ المذكورةِ[1].

- قولُه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ صِفتانِ للهِ مُمَهِّدَتانِ لِمَا أراد أنْ يُظهِرَهُ؛ تَنبيهًا على فَخامتِه، يُريدُ: أنا القويُّ القادرُ على ما يَبعُدُ مِن الأوهامِ؛ كقَلْبِ العصَا حيَّةً، الفاعلُ كلَّ ما أفعَلُه بحِكمةٍ بالغةٍ، وتَدبيرٍ رَصينٍ[2].

- قولُه: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تَقديمُ هذا بيْنَ يدَيْ ما سيُلْقَى إليه مِن الأمرِ لإحداثِ رِباطةِ جأْشٍ لمُوسى؛ لِيَعلَمَ أنَّه خُلِعَت عليه النُّبوَّةُ؛ إذْ أُلْقيَ إليه الوحْيُ، ويَعلَمَ أنَّه سيَتعرَّضُ إلى أذًى وتألُّبٍ عليه، وذلك كِنايةٌ عن كَونِه سيَصيرُ رسولًا، وأنَّ اللهَ يُؤيِّدُه ويَنصُرُه على كلِّ قَويٍّ، ولِيَعلَمَ أنَّ ما شاهَدَ مِن النَّارِ وما تلقَّاهُ مِن الوحْيِ، وما سيُشاهِدُه مِن قلْبِ العصَا حيَّةً: ليس بعَجيبٍ في جانبِ حِكمةِ اللهِ تعالى. فتلك ثَلاثُ كِناياتٍ[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

- فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾، وفي القَصصِ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١]؛ لأنَّه قال في هذه السُّورةِ: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٧).

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾، فحِيلَ بيْنَهما بهذه الجُملةِ، فاسْتُغْنِيَ عن إعادةِ (أنْ)، وفي القصصِ: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣٠، ٣١]، فلم يكُنْ بيْنَهما جُملةٌ أُخرى عُطِفَ بها على الأوَّلِ؛ فحَسُنَ إدخالُ (أنْ)[(١)].

- وقيل: لأنَّ ما هنا تقدَّمَهُ فِعلٌ بعْدَ (أنْ)، وهو ﴿بُورِكَ﴾؛ فحَسُنَ عطْفُ الفِعلِ عليه، وما هناك لم يَتقدَّمْه فِعلٌ بعْدَ (أنْ)؛ فذُكِرَتْ (أنْ) لِتكونَ جُملةُ (أنْ أَلْقِ عَصَاكَ) مَعطوفةً على جُملةِ ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾[(٢)].

- وقيل: بلْ قولُه: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ مَعطوفٌ على قولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، عطفَ جُملةِ الأمْرِ على جُملةِ الخبرِ[(٣)].

- والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فَصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن جُملةٍ قد حُذِفَت؛ ثِقةً بظُهورِها، ودَلالةً على سُرعةِ وُقوعِ مَضمونِها، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١] بعْدَ قولِه تعالى: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ كأنَّه قِيلَ: فألْقاها فانْقلَبَتْ حيَّةً تسْعى، فأبصَرَها، فلَّما أبصَرَها مُتحرِّكةً بسُرعةٍ واضْطِرابٍ...[(٤)].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ شبَّهَ العَصَا حالةَ اهْتزازِها بالجانِّ -قيل: وهو صِغارُ الحيَّاتِ-؛ شبَّهها بها في سُرعةِ اضْطِرابِها وحَركَتِها، مع عِظَمِ

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

جُثَّتِها[١]؛ فالتَّشبيهُ في سُرعةِ الاضطرابِ؛ لأنَّ الحيَّاتِ خَفيفةُ التَّحرُّكِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ لعلَّ قصْدَ إفادةِ قوَّةِ تَولِّيه لَمَّا رأى عَصاهُ تهتزُّ هو الدَّاعي لتأكيدِ فِعلِ ﴿وَلَّىٰ﴾ بقولِه: ﴿مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾؛ فقولُه: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ تأكيدٌ لشِدَّةِ تولِّيه، أي: ولَّى تولِّيًا قويًّا لا تَردُّدَ فيه[٣].

- وقولُه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قُلْنا له... والنَّهيُ عن الخوفِ مُسْتعمَلٌ في النَّهيِ عن استِمرارِ الخوفِ؛ لأنَّ خوفَه قد حصَلَ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾، وقال في سورة (القَصصِ): ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡ﴾ [القصص: ٣١]؛ فخُصَّتْ هذه السُّورةُ بقولِه: (لَا تَخَفْ)؛ لأنَّه بُنِيَ على ذِكرِ الخَوفِ كلامٌ يَليقُ به، وهو قولُه: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، وفي سُورةِ (القَصصِ) اقتُصِر على قولِه: ﴿لَا تَخَفْ﴾، ولم يُبْنَ عليه كَلامٌ فَزيدَ قبْلَه ﴿أَقۡبِلۡ﴾؛ لِيَكونَ في مُقابلةِ ﴿مُدْبِرًا﴾، أي: أقْبِلْ آمِنًا غيرَ مُدْبِرٍ ولا تَخَفْ؛ فخُصَّتْ هذه السُّورةُ به[٥].

- قولُه: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الخوفِ، وتَحقيقٌ لِمَا يَتضمَّنُه نَهْيُه عن الخَوفِ مِن انتفاءِ مُوجِبِه. وهذا كِنايةٌ عن تَشريفِه بمَرتبةِ الرِّسالةِ؛ إذ عُلِّلَ بأنَّ المُرسَلينَ لا يَخافون لَدى اللهِ تعالى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨، ٢٢٩).

- قوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هذا تَعليمٌ لِمُوسى عليه السَّلامُ التَّخلُّقَ بخُلقِ المُرسَلينَ مِن رباطةِ الجأْشِ، وليس في النَّهيِ حَطٌّ لمَرتبةِ مُوسى عليه السَّلامُ عن مَراتبِ غيرِه مِن المُرسَلينَ، وإنَّما هو جارٍ على طريقةِ: مِثلُك لا يَبخَلُ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ عَطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ١٠]، وما بيْنَهما اعتراضٌ، بعْدَ أنْ أراهُ آيةَ انقلابِ العصَا ثُعبانًا أَراهُ آيةً أُخرى؛ لِيَطمئِنَّ قلْبُه بالتَّأييدِ[2].

- قيل: في الكلامِ حَذْفٌ، تقديرُه: وأدخِلْ يدَكَ في جَيبِك تَدخُلْ، وأخرِجْها تَخرُجْ، فحُذِفَ مِن الأوَّلِ ما أُثبِتَ مُقابِلُه في الثَّاني، ومِن الثَّاني ما أُثبِتَ مُقابِلُه في الأوَّلِ[3]. وعلى هذا فيكونُ مِن الاحتباكِ.

- قولُه: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، وحرْفُ الجرِّ فيه يَتعلَّقُ بمَحذوفٍ، والمعنى: اذهَبْ في تِسعِ آياتٍ إلى فِرعونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: وألْقِ عصاكَ، وأدخِلْ يدَكَ في تِسعِ آياتٍ؛ فعَلى هذا هو حالٌ مِن المفعولِ، وهو ﴿يَدَكَ﴾، أي: أدخِلْ يدَكَ في جَيبِك تَخرُجْ بيضاءَ مُسفِرةً في تِسعِ آياتٍ، مَعدودةً في جُملَتِهنَّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((حاشية =

- قوله: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ صِفةٌ لـ ﴿ءَايَٰتٍ﴾، أي: آياتٍ مَسوقةٍ إلى فِرْعونَ، وفي هذا إيذانٌ بكلامٍ مَحذوفٍ إيجازًا؛ وهو أمْرُ اللهِ مُوسى بأنْ يَذهَبَ إلى فرعونَ كما بُيِّنَ في سُورةِ (الشُّعراءِ)(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا بلفْظِ: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾، وفي (القَصصِ) بلفظِ: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢]؛ لأنَّ (الملأ) أشرافُ القومِ، وكانوا في هذه السُّورةِ موصوفينَ بما وصَفهم اللهُ به مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ * وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ الآيةَ [النمل: ١٤، ١٥]، فلَمْ يُسَمِّهم مَلأً، بل سمَّاهم قَومًا، وفي (القَصَصِ) لم يَكونوا موصوفينَ بتلك الصِّفاتِ فسمَّاهم مَلأً، وعقَّبه: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]؛ فناسَبَ ذِكْرُ القَومِ هنا، وذِكْرُ المَلأِ هناك(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تَعليلٌ للإرسالِ، أي: خارجينَ عن الحُدودِ في الكُفْرِ والعُدوانِ(٣).

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أُوجِزَ بَقيَّةُ القصَّةِ، وانتُقِلَ إلى العِبرةِ بتَكذيبِ فِرعونَ وقَومِه الآياتِ؛ لِيُعْتبَرَ بذلك حالُ الَّذين كذَّبوا بآياتِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقُصِدَ مِن هذا الإيجازِ طَيُّ

= الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٥).

بِساطِ القِصَّةِ؛ لِيُنتقَلَ منها إلى قِصَّةِ داودَ، ثمَّ قِصَّةِ سُليمانَ عليهما السَّلامُ المبسوطةِ في هذه السُّورةِ(١).

- وفي قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قُوبِلَ بيْن المُبصِرةِ والمُبينِ؛ فكما وَصَفَ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ بقولِه: ﴿مُبْصِرَةً﴾، قُوبِلَ وَصْفُ السِّحرِ بالمبينِ؛ للتَّطابُقِ بيْن اللَّفظينِ. ويَجوزُ أنْ يُعتبَرَ معنى التَّضادِّ مِن كَونِهما وَصْفينِ للمُتضادَّينِ: الآياتِ والسِّحرِ؛ فيُفِيدُ بُلوغَ كلٍّ مِن الحقِّ والباطلِ غايتَه(٢).

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في هذا تَمثيلٌ لكُفَّارِ قُريشٍ؛ إذ كانوا مُفسدينَ مُستعلِينَ، وتَحذيرٌ لهم أنْ يَحُلَّ بهم مِثلُ ما حَلَّ بمَن كان قبْلَهم(٣).

- قولُه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ فائدةُ ذِكْرِ الأنفُسِ: أنَّهم جَحَدوها بألْسِنَتِهم، واستَيْقَنوها في قُلوبِهم وضَمائرِهم(٤).

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾؛ للمُبالَغةِ(٥)، والاستيقانُ أبلَغُ مِن الإيقانِ(٦).

- ويَحسُنُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ حاليَّةً؛ فقولُه: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ نَشْرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢).

على تَرتيبِ اللَّفِّ[١]؛ فالظُّلمُ في الجَحدِ بها، والعُلوُّ في كَونِهم مُوقِنين بها[٢].

- وجُعِل ما هو مَعلومٌ مِن حالِهم فيما لَحِقَ بهم من العَذابِ بمَنزلةِ الشَّيءِ المُشاهَدِ للسَّامِعينَ، فأمَر بالنَّظرِ إليه بقولِه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، والخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ تَسليةً له بما حلَّ بالمُكذِّبينَ بالرُّسلِ قبْلَه؛ لأنَّ في ذلك تَعريضًا بتَهديدِ المشركينَ بمِثْلِ تلك العاقبةِ. و﴿كَيۡفَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُجرَّدًا عن معنَى الاستِفهامِ مَنصوبًا على المفعوليَّةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ استِفهامًا مُعلِّقًا فِعلَ النَّظرِ عن العَملِ، والاستِفهامُ حينَئذٍ للتَّعجُّبِ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: ما آلَ إليه فِرعونُ وقومُه

---

(١) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا، بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ، ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ من المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ من السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين؛ الوجه الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِ، ويُسَمَّى (اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ). الوجه الثاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ (اللَّف والنَّشر المُشَوَّش)، أو (المعكوس). يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢٣١، ٢٣٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الإغراقِ على الوَجْهِ الهائلِ الَّذي هو عِبرةٌ للعالَمينَ؛ وإنَّما لم يُذكَرْ تَنبيهًا على أنَّه عُرضةٌ لكلِّ ناظرٍ، مَشهورٌ فيما بيْنَ كلِّ بادٍ وحاضرٍ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٥).

الآيات (١٥ - ١٩)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾: أي: نُطْقَه، وكلامَه، فجعَله كمَنطقِ الرجُلِ إذ فُهِم، والنُّطقُ هو الأصواتُ المُقَطَّعةُ التي يُظهِرُها اللِّسانُ، وتَعِيها الآذانُ، وتُعرَفُ بها المعاني، وأصلُ (نطق) هنا: كلامٌ أو ما أشْبَهَه[(١)].

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُدفَعونَ، ويُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، وأصلُ (الوَزْع): الكفُّ والمنعُ[(٢)].

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾: أي: لا يَقتُلَنَّكم ولا يكسِرَنَّكم، مِن الحَطمِ: وهو كَسرُ الشَّيءِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٨٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢).

﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: أي: ألهِمْني، و(الإيزاع): الإغراءُ بالشَّيءِ، يُقالُ: أوزَعْتُه بكذا، أي: أغرَيْتُه به، و: فلانٌ مُوزَعٌ بكذا، ومُولَعٌ به، بمعنًى واحدٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا جانبًا ممَّا أنعَم به على نَبيَّيْنِ مِن أنبيائِه، وهما داودُ وسُلَيمانُ عليهما السَّلامُ: ولقد آتَيْنا داودَ وسُلَيمانَ ابنَه عِلمًا، وقالا: الحَمدُ لله الذي فضَّلَنا على كثيرٍ مِن عبادِه المؤمِنينَ، ووَرِثَ سُلَيمانُ أباه داودَ في النُّبوَّةِ والعِلمِ والملك، وقال لبني إسرائيلَ: يا أيُّها النَّاسُ، عَلَّمَنا اللهُ كلامَ الطُّيورِ، وأعطانا مِن كُلِّ النِّعَمِ، إنَّ هذا لَهُوَ الفَضلُ الظَّاهِرُ الواضِحُ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى مظاهرَ ملك سليمانَ، فيقولُ: وجُمِعَ لسُلَيمانَ عساكِرُه مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطُّيورِ، فهم يُنظَّمونَ في مَسيرِهم، فيُرَدُّ أوَّلُهم على آخِرِهم؛ لِيبَقَوا مُجتَمِعينَ مُرتَّبينَ، حتى إذا مرَّ سُلَيمانُ وجُنودُه بوادِي النَّملِ، قالت نملةٌ منهم لَمَّا رأتِ الجَيشَ: يا أيُّها النَّملُ ادخُلوا بيوتَكم مُسرِعينَ؛ لا يَهشِمنَّكم سُلَيمانُ وجَيشُه وهم لا يَشعُرونَ بذلك. فتبسَّم سُلَيمانُ ضاحِكًا مِن كَلامِ النَّملةِ، وقال: ربِّ ألهِمْني شُكرَ نِعمَتِك الَّتي أنعَمْتَ بها علَيَّ وعلى والدَيَّ، وأنْ أعمَلَ عَمَلًا صالِحًا مَرْضيًّا، وأدخِلْني برَحمتِك في عبادِك الصَّالحينَ في جَنَّتِك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تمَّ بقصَّةِ موسى عليه السلامُ الدَّليلُ على حِكمتِه تعالى، توقَّعَ السَّامعُ الدَّلالةَ على عِلمِه سبحانه[1].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾.

أي: ولقد أعطَيْنا داودَ وابنَه سُلَيمانَ عِلمًا[2].

﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وقال داودُ وسُلَيمانُ: الحَمدُ للهِ الَّذي فضَّلَنا على كثيرٍ مِن عِبادِه المُؤمِنينَ، بما اختَصَّنا به[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قيل: المرادُ: عِلمُ كَلامِ الطَّيرِ والدَّوابِّ، وغيرِ ذلك ممَّا خصَّهما اللهُ بعِلمِه. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٩).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: عِلْمًا بالقَضاءِ، وبكلامِ الطَّيرِ والدوابِّ، وتسبيحِ الجبالِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٥).

ممَّن قال: المرادُ: العِلمُ بالقضاءِ، وبكلامِ الطَّيرِ والدَّوابِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨١).

ومِن المفسِّرينَ مَن زاد إلى ما سبق: تسبيحَ الجبالِ؛ منهم: البَغَويُّ، وابنُ عادل، والعُلَيْمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ١٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٨).

وقال ابنُ عثيمين: (العِلمُ الَّذي مَنَّ اللهُ به على داودَ وسُلَيْمانَ وأثنى عليهما به هو عِلمُ الشَّريعةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٨١)، ((البسيط)) =



﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان كلٌّ منهما عليهما السَّلامُ قد أُوتيَ ما ذُكِرَ، أشار إلى فضْلِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ بأنَّه جَمَع إلى ما آتاه ما كان مُنِحَ به أبوه، فقال[1]:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾.

أي: ووَرِثَ سُلَيمانُ أباه داودَ في النُّبوَّةِ والعِلمِ ومُلكِ بني إسرائيلَ[2].

= للواحدي (١٧/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قال ابن جرير: (يقول جَلَّ ثناؤه: وقال داودُ وسُليمانُ: الحمدُ لله الذي فضَّلَنا بما خَصَّنا به مِن العِلمِ الذي آتاناه دونَ سائرِ خَلقِه مِن بني آدمَ في زمانِنا هذا، على كثيرٍ مِن عبادِه المؤمنينَ به في دَهرِنا هذا). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤).

وقال الواحدي: (﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ أي: بالنُّبوَّةِ والكتابِ، وإلانةِ الحديدِ، وتسخيرِ الشَّياطينِ والجِنِّ والإنسِ، والمُلكِ الذي أعطاهما اللهُ وفضَّلهما به). ((البسيط)) (١٧/ ١٨٠).

ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

مِنَ المفسِّرينَ مَن قصَرَ الوِراثةَ على العِلمِ والمُلكِ، ومنهم: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٨١).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أباه داودَ العِلمَ الذي كان اللهُ آتاهُ في حياتِه، والمُلكَ الذي كان خَصَّه به على سائرِ قَومِه، فجعَلَه له بعدَ أبيه داودَ دُونَ سائرِ ولَدِ أبيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤). =

﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾.

أي: وقال سُلَيمانُ لِبَني إسرائيلَ مُتحَدِّثًا بنِعمةِ الله عليه: يا أيُّها النَّاسُ، علَّمَنا اللهُ كلامَ الطُّيورِ، وفهَّمَنا معانيَ أصواتِها[1]!

= ومنهم مَن زاد النُّبوَّةَ إلى العِلمِ والمُلكِ، ومنهم: الثعلبيُّ، والبَغَويُّ، وابن الجوزي، والخازن، وابن جُزَي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٩).

ومِن المفسِّرينَ مَن قصَر الوراثةَ على النُّبوَّةِ والمُلكِ، ومنهم: الزمخشريُّ، وابن عطية، والنسفي، وابن كثير، والعليمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٦).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: في المُلْكِ والنُّبوَّة، وليس المرادُ وِراثةَ المالِ؛ إذ لو كان كذلك لم يُخَصَّ سُلَيمانُ وحْدَه مِن بينِ سائرِ أولادِ داودَ، فإنَّه قد كان لداودَ مئةُ امرأة. ولكِنَّ المرادَ بذلك وراثةُ المُلكِ والنُّبوَّةِ؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تُورَثُ أموالُهم، كما أخبَرَ بذلك رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢).

وقال ابن القيِّم: (وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ فهو ميراثُ العِلمِ والنُّبوَّةِ لا غيرُ، وهذا باتِّفاقِ أهلِ العِلمِ مِن المفسِّرينَ وغيرِهم). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٦٧). ويُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

ذهب مقاتِلُ بنُ سُلَيمان، وابنُ العربي، وابنُ كثير، وابنُ عاشور: إلى أنَّ سُليمانَ كان يعلَمُ منطِقَ الطُّيورِ والحيواناتِ كلِّها. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سُلَيمان)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٥٥، ٢٨٥٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٧).

قال ابن كثير: (﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ يعني: أنَّه عليه السَّلامُ كان يَعرِفُ ما تَتخاطَبُ به الطُّيورُ بلُغاتِها، ويُعَبِّرُ للنَّاسِ عن مَقاصِدِها وإراداتِها... وكذلك ما عَداها مِن الحَيَواناتِ، وسائرِ صُنوفِ المخلوقات). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥). =

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾.

أي: وأعطانا اللهُ مِن كُلِّ النِّعَمِ والخَيراتِ[(١)].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

أي: إنَّ هذا الذي أُوتِيناهُ لهو الفَضلُ الظَّاهِرُ الواضِحُ[(٢)].

= وقال الشوكاني: (قال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: إنَّه عُلِّمَ مَنطِقَ جميعِ الحيواناتِ، وإنَّما ذُكِرَ الطَّيرُ؛ لأنَّه كان جندًا مِن جُندِه، يسيرُ معه لتظليلِه مِن الشَّمسِ. وقال قَتادةُ والشَّعْبيُّ: إنَّما عُلِّمَ مَنطِقَ الطَّيرِ خاصَّةً، ولا يُعترَضُ ذلك بالنَّملةِ؛ فإنَّها مِن جملةِ الطَّيرِ، وكثيرًا ما تخرُجُ لها أجنحةٌ فتَطيرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٠). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قال البقاعي: (﴿وَأُوتِينَا﴾ ممَّن له العَظَمةُ بأيسَرِ أمرٍ مِن أمْرِه ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي: يكملُ به ذلك من أسبابِ المُلكِ والنُّبوَّةِ وغيرِهما، وعبَّرَ بأداة الاستغراقِ تعظيمًا للنِّعمةِ، كما يُقالُ لِمن يَكثُرُ تَردُّدُ الناس إليه: فلانٌ يَقصِدُه كُلُّ أحدٍ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٠).

وقال ابن كثير: (﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي: مِن كلِّ ما يَحتاجُ الملِكُ إليه؛ مِنَ العُدَدِ، والآلاتِ، والجُنودِ، والجُيوشِ، والجماعاتِ مِنَ الجِنِّ، والإنسِ، والطُّيورِ، والوُحوشِ، والشَّياطينِ السَّارِحاتِ، والعُلومِ، والفُهومِ، والتَّعبيرِ عن ضمائرِ المخلوقاتِ، مِنَ النَّاطِقاتِ والصَّامِتاتِ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٢٥).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ عمومٌ معناه الخصوصُ، والمرادُ بهذا اللَّفظِ التَّكثيرُ). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٣١٥).

وقال ابنُ عثيمين: (اللهُ سبحانه وتعالى أعطى سليمانَ مِن كُلِّ شَيءٍ يَتِمُّ به المُلكُ... إذا قَيَّدْنا ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ يتمُّ به المُلكُ؛ فـ﴿مِن﴾ لبيانِ الجنسِ، وإذا قُلْنا: إنَّ ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ عامٌّ لكلِّ شَيءٍ؛ فإنَّ ﴿مِن﴾ تكونُ للتَّبعيضِ؛ لأنَّهما ما أُعطُوا كُلَّ شَيءٍ، بل بعضَ كُلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢). =

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ما سبَقَ مجرَّدَ خبرٍ؛ أتبَعَه ما يُصَدِّقُه، فقال[1]:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ ﴾.

أي: وجُمِعَ لسُلَيمانَ عَساكِرُه الكثيرةُ المتنَوِّعةُ مِن الجنِّ والإنسِ والطُّيورِ[2]، فهم يُنظَّمونَ في مَسيرِهم، فيُرَدُّ أوَّلُهم على آخِرِهم؛ لِيَبقَوا مُجتَمِعين مُرتَّبينَ[3].

= قال البقاعي: (﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي أُوتيناه ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: البَيِّنُ في نفْسِه لكُلِّ مَن ينظُرُه، الموضِّحُ لعلُوِّ قَدْرِ صاحِبه، ووحدانيَّةِ مُفيضِه ومُؤتِيه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤١).

(٢) قال ابن عثيمين: (سكت عن بقيَّةِ الحيواناتِ، فهل هي داخِلةٌ في جنودِه أو لا؟ قد نقولُ: إنَّها داخِلةٌ مِن بابِ الأَولى، وقد نقولُ: ليست بداخلةٍ. ما وجْهُ قولِنا: مِن بابِ الأَولى؟ وجهُ قولِنا أن نقولَ: إذا كان الطَّيرُ -وهو لا يمكنُ السَّيطرةُ عليه لطيرانه- يُحشَرُ ويُجمَعُ، فغيرُه من بابٍ أَولى، وقد تقولُ: إنَّه ليس بلازمٍ؛ لأنَّه يمكنُ أنَّ سُلَيمانَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لا يَستخدِمُ مِن الحيواناتِ سِوى الطَّيرِ، وإذا لم يستخدِمْ سِواها فلا حاجةَ له في أن يجمَعَ الباقيَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥، ٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١١).

قال ابن كثير: (يُخبِرُ تعالى عن عبدِه ونبيِّه وابنِ نبيِّه سُلَيمانَ بن داودَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، أنَّه رَكِبَ يومًا في جيشِه جميعِه مِنَ الجنِّ والإنسِ والطَّيرِ؛ فالجنُّ والإنسُ يَسيرون معه، والطَّيرُ سائرةٌ معه تُظِلُّه بأجنحتِها مِنَ الحرِّ وغيرِه، وعلى كلٍّ مِن هذه الجُيوشِ الثَّلاثةِ وَزَعةٌ، أي: نُقَباءُ يَرُدُّون أوَّلَه على آخِرِه، فلا يَتقدَّمُ أحدٌ عن مَوضِعِه الَّذي يسيرُ فيه، ولا يَتأخَّرُ عنه). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٢٥، ٣٢٦).

وقال أبو السعود: (﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحبَسُ أوائلُهم على أواخِرِهم، أي: يُوقَفُ سُلَّافُ العَسكرِ حتى يلحَقَهم التَّوالي فيكونوا مجتَمِعينَ لا يتخَلَّفُ منهم أحدٌ؛ وذلك للكثرةِ العظيمةِ، =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾.

أي: فساروا حتى إذا مرَّ سُلَيمانُ وجنودُه بوادي النَّملِ[١] قالتْ نملةٌ منهم[٢] محذِّرةً لهم بعْدَ أن رأتِ الجَيشَ[٣]: يا أيُّها النَّملُ ادخُلوا بيوتَكم مُسرِعينَ

= ويجوزُ أن يكونَ ذلك لترتيبِ الصُّفوفِ، كما هو المعتادُ في العساكِرِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧).

وقال ابن عاشور: (الوَزْعُ: الكَفُّ عمَّا لا يُرادُ، فشَمِلَ الأمرَ والنَّهيَ، أي: فهم يُؤمَرونَ فيأتَمِرون، ويُنهَون فيَنتَهونَ، فقد سَخَّر اللهُ له الرعيَّةَ كُلَّها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

(١) قال ابنُ عاشور: (وادي النَّملِ يجوزُ أن يكونَ مرادًا به الجنسُ؛ لأنَّ للنَّملِ شُقوقًا ومسالِكَ هي بالنِّسبةِ إليها كالأوديةِ للساكنينَ مِن النَّاسِ، ويجوزُ أن يُرادَ به مكانٌ مُشتَهِرٌ بالنَّملِ غَلَبَ عليه هذا المضافُ، كما سُمِّيَ وادي السِّباعِ: مَوضِعٌ معلومٌ بينَ البصرةِ ومكَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

وقال ابنُ عثيمينَ: (قَولُه: ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ظاهِرُ الكلامِ أنَّ هذا الواديَ معروفٌ بهذا اللَّقَبِ، أي: أنَّه يُسمَّى واديَ النَّملِ، ويحتَمِلُ -لكن خلاف الظاهر- أن يكونَ هذا الوادي واديًا فيه نَملٌ، يعني: يكونُ التَّقديرُ: حتَّى إذا أتَوا على وادٍ فيه نملٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١٤).

(٢) قال ابن عاشور: (...كلمة نملةٍ لا تدُلُّ إلا على فردٍ واحدٍ مِن هذا النَّوعِ، دونَ دَلالةٍ على تذكيرٍ ولا تأنيثٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤١).

وقال الرسعني: (ظاهرُ القرآنِ يدلُّ على أنَّها كانت أُنثَى). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٤٥).

يُنظر تفصيلُ الخلافِ في ذلك: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٧٢).

(٣) قال ابنُ العربي: (لا خِلافَ عند العُلَماءِ في أنَّ الحيواناتِ كُلَّها لها أفهامٌ وعُقولٌ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٧٢).

مُحترِزينَ[(١)].

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: لا يَكسِرَنَّكم ويَهشِمَنَّكم سُلَيمانُ وجَيشُه حينَ يمُرُّونَ بِواديكم، وهم لا يَشعُرونَ بذلك التَّحطيمِ ولا يَقصِدونَه[(٢)].

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

أي: فتبسَّم سُلَيمانُ ضاحِكًا[(٣)]؛ ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٢)، ((الفواتح الإلهية)) لعلوان (٢/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قال السعدي: (فنصحَتْ هذه النَّملةُ وأسمَعَت النَّملَ؛ إمَّا بنَفسِها، ويكونُ الله قد أعطى النَّملَ أسماعًا خارِقةً للعادةِ؛ لأنَّ التَّنبيهَ للنَّملِ الذي قد ملأ الواديَ بصَوتِ نملةٍ واحدةٍ: مِن أعجَبِ العجائبِ. وإمَّا بأنَّها أخبَرت مَن حوْلَها مِن النَّملِ ثمَّ سرى الخبَرُ مِن بَعضِهنَّ لبعضٍ، حتى بلَغ الجميعَ، وأمرَتْهنَّ بالحَذَرِ، والطَّريقِ في ذلك وهو دخولُ مَساكِنِهنَّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٣) قيل: المرادُ: أنَّه شرَع في الضَّحِك آخِذًا فيه، ولكِنْ لم يبلُغْ حَدَّ القهقهةِ وكَمالِ الضَّحِكِ. وممَّن قال بذلك: الزمخشري، والرازي، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٠٠).

وقيل: كان أوَّلُه التبسُّمَ، وآخرُه الضَّحِكَ، وممَّن اختاره: الكرماني، وجلال الدين المحلي، وابن عجيبة. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٤). =

تعجُّبًا وسُرورًا مِن كَلامِ النَّملةِ[1].

= وقيل: المرادُ: بيانُ أنَّه تبسَّمَ تبسُّمَ الضاحِكِ، وليس تبسُّمَ المُغضَب، فأكَّد هذا المعنى وحقَّقَه بقَولِه: ﴿ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٤).

قال ابن عثيمين: (ويحتملُ أن يكونَ معنى قولِه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أنَّه ضَحِك مُتبَسِّمًا، يعني أنَّه ما ظهَر له صوتٌ ولكنَّه تبسَّم تبسُّمًا، والله أعلم. وعلى هذا التَّقدير تكونُ ﴿ضَاحِكًا﴾ حالًا مبيِّنةً للنَّوعِ، يعني أنَّ ضَحِكَه كان تبسُّمًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٤).

وممَّن اختار هذا المعنى: الزجاجُ، والسمعاني، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

قال السعدي: (وهذا حالُ الأنبياء عليهم الصلاةُ والسلامُ؛ الأدبُ الكاملُ، والتعَجُّبُ في موضِعِه، وألَّا يَبلُغَ بهم الضَّحِكُ إلَّا إلى التبسُّم، كما كان الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ جُلُّ ضَحِكِه التبَسُّم؛ فإنَّ القهقهةَ تدُلُّ على خِفَّةِ العَقلِ وسُوءِ الأدبِ، وعَدَمَ التبسُّمِ والعَجَبِ ممَّا يُتعجَّبُ منه: يدُلُّ على شَراسةِ الخُلُقِ والجبروتِ. والرُّسلُ مُنزَّهونَ عن ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣). ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ١٧٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٩٥-٢٩٧).

قال ابنُ حجر في بيانِ الفرقِ بينَ التبسم والضحكِ والقهقهةِ: (قال أهلُ اللُّغةِ: التبسُّمُ مبادئُ الضَّحِك، والضَّحِكُ انبساطُ الوجه حتَّى تظهَرَ الأسنانُ مِنَ السُّرورِ، فإنْ كان بصَوتٍ وكان بحيثُ يُسمَعُ مِن بُعدٍ فهو القَهْقَهةُ، وإلَّا فهو الضَّحِكُ، وإنْ كان بلا صَوتٍ فهو التبسُّمُ). ((فتح الباري)) (١٠/ ٥٠٤). ويُنظر: ((فقه اللغة وسر العربية)) للثعالبي (ص: ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

قال ابنُ عطية: (وكان تبسُّمُه سُرورًا، واختُلِفَ بِمَ كان؛ فقالت فِرقةٌ: بنِعمةِ الله في إسماعِه وإفهامِه ونحوِ ذلك، وقالت فرقةٌ: بثناءِ النَّملةِ عليه وعلى جنودِه في أن نَفَت عنهم تعمُّدَ القَبيحِ مِن الفِعلِ، فجعلَتِ الحَطْمَ وهم لا يَشعُرونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٤).

وقال البيضاوي: (تبسَّم ضاحِكًا مِن قَولِها؛ تعجُّبًا من حَذَرِها وتحذيرِها، واهتدائِها إلى مصالحِها، وسرورًا بما خصَّه الله تعالى به مِن إدراكِ هَمسِها، وفَهْمِ غَرَضِها). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧).

وقال السعدي: (﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ إعجابًا منه بفصاحتِها ونصحِها وحُسنِ تعبيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣). =

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

أي: وقال سُليمانُ: ربِّ ألهِمْني ووفِّقْني إلى شُكرِ نعمتِك علَيَّ وعلى والدَيَّ، بحيثُ أكونُ مُلازِمًا لشُكرِ نِعَمِك الدينيَّةِ والدُّنيويَّةِ علينا(١).

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا عُلِمَ مِن كلامِه أنَّ الشَّاكرَ هو المُستغرِقُ في الثَّناءِ على المُنعِم بما يجبُ عليه مِن العَمَلِ بحَسَبِ ما يَقدِرُ عليه، وكان ذلك العَمَلُ ممَّا يجوزُ أنْ يكونَ زُيِّنَ لذلك العبدِ كونُه حَسَنًا، وهو ليس كذلك- قال عليه السَّلامُ مشيرًا إلى هذا المعنى(٢):

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

أي: وأن أعمَلَ في بقيَّةِ عُمري عَمَلًا خالِصًا لك، مُتَّبِعًا فيه شَرْعَك، مُوافِقًا لِمَرضاتِك(٣).

= وقال ابنُ عاشور: (إنما تعجَّب مِن أنَّها عرَفت اسمَه، وأنَّها قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فوَسَمَتْهُ وجندَه بالصَّلاحِ والرَّأفةِ، وأنَّهم لا يَقتلون ما فيه رُوحٌ لغيرِ مصلحةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣١-١٣٣).

﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: وأدخِلْني في الآخرةِ برَحمتِك -لا بعَمَلي- في جملةِ عِبادِك الصَّالحينَ في جَنَّتِك[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على شَرَفِ العِلمِ وإنافةِ محَلِّه، وتقَدُّم حمَلَته وأهلِه، وأنَّ نعمةَ العِلمِ مِن أجَلِّ النِّعَم، وأجزَلِ القِسَم، وأنَّ مَن أُوتيَه فقد أُوتيَ فَضلًا على كثيرٍ من عبادِ الله، كما قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١][2]، فقد ابتُدِئَ الحديثُ عن المُلْكِ العظيم بذِكْرِ العِلم، وقُدِّمَتِ النِّعمةُ به على سائرِ النِّعَم؛ تنويهًا بشأنِ العِلم، وتنبيهًا على أنَّه هو الأصلُ الذي تنبني عليه سعادةُ الدُّنيا والأخرى، وأنه هو الأساسُ لكلِّ أمْرٍ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا، وأنَّ الممالكَ إنَّما تنبني عليه وتُشادُ، وأنَّ المُلْكَ إنما يُنَظَّمُ به ويُساسُ، وأنَّ كلَّ ما لم يُبْنَ عليه فهو على شفَا جُرُفٍ هارٍ، وأنَّه هو سياجُ المملكةِ ودِرْعُها، وهو سلاحُها الحقيقيُّ، وبه دفاعُها؛ وأنَّ كلَّ مملكةٍ لم تُحْمَ به فهي عرضةٌ للانقراضِ والانقضاضِ[3].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗا﴾ إلى قَولِه: ﴿وَأُوتِينَا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).
قيل: المرادُ بقولِه: ﴿عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: الأنبياء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٤).

كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يَذْكُرُ اللهُ تعالى لنا في شأنِ هذا النَّبيِّ الكريم ما أعطاه مِن علم، وما مَكَّنَه منه مِن عظيمِ الأشياءِ؛ ترغيبًا لنا في طَلَبِ العلمِ، والسَّعيِ في تحصيلِ كلِّ ما بنا حاجةٌ إليه مِن أمورِ الدُّنيا، وتشويقًا لنا إلى ما في هذا الكونِ مِن عوالمِ الجمادِ، وعوالمِ الأحياءِ، وبعثًا لِهِمَمِنا على التحلِّي بأسبابِ العظَمةِ مِن العلمِ والقوَّةِ، وحثًّا لنا على تشييدِ الملْكِ العظيمِ الفخمِ على سَنَنِ مُلْكِ النُّبوَّةِ، فقد كان سليمانُ عليه السلام نبيًّا، وما كان ملْكُه ذلك إلَّا بإذنِ اللهِ ورِضاه، فهو -فيما ذَكَره اللهُ مِن أمْرِه- قدوةٌ، وأيُّ قدوةٍ! مثلُ سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ عليهم الصلاةُ والسلامُ أجمعينَ[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في الآيةِ التَّذكيرُ بالتَّواضُعِ، وأن يعتَقِدَ العالِمُ أنَّه وإنْ فُضِّلَ على كثيرٍ فقد فُضِّلَ عليه مِثلُهم[(٢)]؛ فلا يتكبَّرْ، ولا يفتَخِرْ، ويَشكرُ اللهَ تعالى على ما آتاه مِن فضلِه، وينفعُ به المسلمينَ، كما نَفَعه اللهُ تعالى به[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنَّ مِن أدبِ مَقامِ الفَرَحِ بنعمةِ اللهِ وحمْدِه عليها: ذِكْرَ نعمتِه العامَّةِ عليه وعلى غيرِه، والإشارةَ إلى مَن فُضِّلوا عليه؛ فيَكبَحُ مِن نفْسِه بتذكيرِها بقصورِها، ويُرضي اللهَ باعترافِه لذي الفضلِ بفَضْلِه، وحِكمةِ اللهِ وعدْلِه، وبوُقوفِه كواحدٍ ممن أَنْعَمَ عليهم مِن عبادِه[(٤)].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٥).

أنَّ الإنسانَ إذا رأى أنَّه أفضَلُ مِن غيرِه بنِعمةِ اللهِ عليه، فإنَّ هذا لا يُنافي التواضعَ، ولا يعني أنَّه تَرَفَّعَ وتكَبَّرَ! بل إنَّ الإنسانَ لا يمكِنُ أنْ يُدرِكَ نعمةَ اللهِ عليه حتى يعْرِفَ ضِدَّها في غيرِه، فإذا رأى مثلًا إنسانًا مُبْتَلًى في بدنِه -واللهُ تعالى قد عافاه-؛ عرَفَ فضلَ نعمةِ اللهِ، فيقولُ: الحمدُ للهِ الذي عافاني ممَّا ابتَلاهُ به، وفضَّلني عليه، ولا يُعَدُّ هذا مِن بابِ التَّرَفُّعِ والاستِهانةِ بالغيرِ، ولهذا قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنْ كان قولُهما هذا جَهْرًا -وهو الظَّاهرُ- كان حُجَّةً على أنَّه يجوزُ للعالِمِ أنْ يَذكُرَ مَرتبتَهُ في العلْمِ لِفَوائدَ شرعيَّةٍ تَرجِعُ إلى أنْ يَحذَرَ النَّاسُ مِن الاغترارِ بمَن ليستْ له أهْلِيَّةٌ مِن أهْلِ الدَّعوى الكاذبةِ والجَعْجعةِ الجالبةِ، وهذا حُكمٌ يُستنبَطُ مِن الآيةِ؛ لأنَّ شرْعَ مَن قبْلَنا شَرعٌ لنا، وإنْ قالاهُ في سِرِّهما لم يكُنْ فيه هذه الحُجَّةُ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تحريضٌ للعالِمِ أنْ يحمدَ اللهَ تعالى على ما آتاه مِن فضْلِه[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مشروعيَّةُ التحَدُّثِ بنعمةِ اللهِ، لكنْ لا على سبيلِ الافتِخارِ والعلوِّ على الغَيرِ، فالإنسانُ إذا تحدَّثَ بنعمةِ اللهِ غيرَ مفتخِرٍ بها، فإنَّه لا بأسَ بذلك، بل قد يكونُ هذا مشروعًا؛ لأنه ثناءٌ على اللهِ سُبحانه وتعالى بما أنعَمَ به عليه[٤].

٩- لا يُسنِدُ عِبادُ الله الصالحونَ ما يَعمَلونَه إلى أنفُسِهم، ولكِنَّهم يُسنِدونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٤).

إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وإلى فَضْلِه؛ ولهذا لَمَّا قالت النَّملةُ حينَ أقبلَ سُليمانُ بجُنودِه على وادي النَّملِ، وقد قامت خطيبةً فَصيحةً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾- قال سليمانُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ عِظَةٌ بالغةٌ؛ فإنَّ هذه نملةٌ وَفَتْ لقَومِها، وأدَّتْ نحوَهم واجبَها؛ فكيف بالإنسانِ العاقلِ فيما يجِبُ عليه نحوَ قومِه؟! هذه عِظَةٌ بالغةٌ لِمَن لا يَهتمُّ بأمورِ قَومِه، ولا يؤدِّي الواجبَ نحوَهم، ولِمَن يرى الخطرَ داهمًا لقومِه، فيَسكتُ ويَتعامى! ولِمَن يقودُ الخطرَ إليهم، ويَصُبُّه بيَدِه عليهم! فما أحوَجَنا -معشرَ المسلمينَ- إلى أمثالِ هذه النَّملةِ[(٢)]!

١١- في قولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنَّ عاطفةَ (الجنسيَّةِ) غريزةٌ طبيعيَّةٌ؛ فهذه النَّملةُ لم تَهتَمَّ بنَفسِها فتنجوَ بمفردِها، ولم يُنْسِها هولُ ما رأتْ من عظَمةِ ذلك الجندِ إنذارَ بني جنْسِها؛ إذْ كانت تُدرِكُ بفِطرتِها أنْ لا حياةَ لها بدُونِهم، ولا نجاةَ لها إذا لم تَنجُ معهم، فأنذرَتْهم في أشدِّ ساعاتِ الخطرِ أبلغَ الإنذارِ، ولم يُنْسِها الخوفُ على نفْسِها وعلى بني جنْسِها مِن الخطرِ الدَّاهِمِ أنْ تَذكُرَ عُذْرَ سليمانَ وجُنْدِه؛ فهذا يُعَلِّمُنا أنْ لا حياةَ للشخصِ إلَّا بحياةِ قَومِه، ولا نجاةَ له إلَّا بنجاتِهم؛ وأنْ لا خيرَ لهم فيه إلَّا إذا شَعَرَ بأنَّه جزءٌ منهم. ومَظْهَرُ هذا الشُّعورِ أن يَحرِصَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٣).

خيرِهم كما يَحرِصُ على نفْسِه، وألَّا يكونَ اهتمامُه بها دونَ اهتمامِه بهم[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ أنَّ نِعَمَ اللهِ على العبدِ تُدخِلُ عليه السُّرورَ بجِبلَّةِ الفِطرةِ. والفرحُ بنعمةِ اللهِ مِنَ الاعتِرافِ بفَضْلِه، والإكبارِ لنوالِه، ومن أدَبِ العبدِ حينَئذٍ أنْ يَسألَ اللهَ التَّوفيقَ لشُكرِ تلك النِّعمةِ بصرْفِها في الطَّاعةِ، والتَّوفيقَ بشُكرِها بما يقومُ به مِن أعمالٍ صالحةٍ في رِضا اللهِ، كما فَعَلَ سُليمانُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ هذا مِن تمامِ برِّ الوالِدَينِ، كأنَّ هذا الولدَ خاف أنْ يكونَ والداه قَصَّرا في شُكْرِ الربِّ عزَّ وجلَّ، فسأَلَ اللهَ أنْ يُلهِمَه الشُّكرَ على ما أنعمَ به عليه وعليهما؛ لِيقومَ بما وَجَبَ عليهما مِن الشُّكرِ إنْ كانا قَصَّرا[3]، فقَولُه: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ تنبيهٌ على برِّ الوالدَين في سُؤالِ القيامِ عنهم بما لم يَبلُغاه مِن الشُّكرِ[4].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ دليلٌ على الاعترافِ بنعمةِ اللهِ، وأنَّه ليس مِن الافتخارِ؛ لأنَّ سُلَيمانَ عليه السلام ذَكَر نعمةَ اللهِ عليه؛ لكنَّه لا يقصدُ بذلك الافتخارَ والعُلوَّ على غيرِه! وقد قال اللهُ تعالى للرَّسولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٤).

(٣) هذه الفائدةُ للوزير ابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب الحنبلي (٢/ ١٤٧).
والقاعدةُ: أنَّ النِّعمةَ الحاصلةَ للآباءِ واصلةٌ للأبناءِ؛ ولهذا يمتَنُّ الله عزَّ وجلَّ كثيرًا على بني إسرائيلَ بما أنعَم على آبائِهم، فالشُّكرُ على هذا شكرٌ على إنعامٍ نالَه الأبناءُ وإنْ حصَل لآبائِهم. ويُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣١٦- ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٥).

صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ لكنْ لا على سبيلِ الافتخارِ والعلوِّ! لأنَّها حينئذٍ تنقلبُ إلى نقمةٍ(١).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أنَّ الغايةَ التي يسيرُ إليها الأنبياءُ ومَن تَبِعَهم هي رِضا اللهِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن عَملِ الإنسانِ الوُصولُ إلى رِضا اللهِ سبحانه وتعالى، بل إنَّ رِضا اللهِ غايةٌ فوقَ كُلِّ شَيءٍ؛ قال الله سبحانَه وتعالى في امتِداحِ المؤمنينَ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧١، ٧٢] يعني: أكبَرُ من كُلِّ شَيءٍ، وإذا حلَّ على الإنسانِ رِضا الله فهذا غايةُ ما يريدُ(٢)! وشُعورُ العبْدِ برِضَا اللهِ عنه هو أعظَمُ لَذَّةٍ رُوحيَّةٍ تَعجِزُ عن تَصويرِها الألْسُنُ؛ فالغايةُ الَّتي يَسْعى إليها السَّاعونَ ويَعمَلُ لها العاملونَ هي رِضَا اللهِ، فالعملُ الصَّالحُ تَرتضيهِ العُقولُ، وتَستعذِبُه الفِطَرُ، ولكنَّه لا يُفِيدُ صاحبَه إذا لم يَبْغِ به مَرضاةَ اللهِ؛ ولهذا قال سُليمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿تَرْضَاهُ﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قولُه: ﴿وَقَالَا﴾ أفاد أنَّ قولَهما متسَبِّبٌ وناشئٌ عنِ العلمِ، لكِنَّه لو قيلَ: (فقالا) -بالفاء- لَمَا أفاد أنَّ غيرَ القولِ تَسَبَّبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٥).

منهما عنِ العلمِ، فلَمَّا عَطَفَ بالواو دَلَّ على أنَّ هنالك أعمالًا كثيرةً عظيمةً كانت منهما في طاعةِ اللهِ وشُكرِه نشأتْ عنِ العلمِ، وعليها عُطِفَ قولُهما هذا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه يجوزُ لِمَن أنعَمَ اللهُ عليه بنعمةٍ، وفَضَّلَه بفضيلةٍ أن يَفرَحَ بتلك النعمةِ، ويُظهِرَ فَرَحه بها، في مَعرِضِ حَمْدِ اللهِ عليها، من حيثُ إنها كرامةٌ مِن اللهِ؛ لا مِن حيثُ إنَّها مَزِيَّةٌ مِن مزاياه فاق بها سِواه! مِثلُ فِعْلِ هذين النبيَّينِ الكريمَينِ، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[٢] [يونس: ٥٨]، ويَشرُفُ الفرحُ بشَرَفِ المفروحِ به؛ فالفرحُ بفضلِ الله ورحمتِه في أفضَلِ رُتَبِ الفرحِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالقَولِ، كما هو أيضًا بالفِعلِ؛ فيكونُ بالقولِ وبالفعلِ، ويكونُ أيضًا بالعَقيدةِ، أي: بالاعتقادِ، فالشُّكرُ له ثلاثةُ محلَّاتٍ: القلبِ واللِّسانِ والجَوارحِ[٤].

٤- تواضُعُ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ، ومعرفتُهما للحَقيقةِ؛ لِقَولِه: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فما ذكَرا التَّفضيلَ المطْلَقَ على جَميعِ المؤمنينَ، بل على كثيرٍ مِن عِبادِه المؤمنينَ[٥].

٥- أنَّ مَن عَلِمَ لغةَ غيرِه فله ميزةٌ على غَيرِه؛ لأنَّه تَمَدَّحَ بقَولِه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، إذَن: تَعَلُّمُ اللُّغةِ غيرِ العربيَّةِ هو في الحقيقةِ مِن نعمةِ اللهِ على العبدِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٣، ٢٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٥).
(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٣).

لكنْ إنِ استعملَها مكانَ اللُّغةِ العربيَّةِ فإنَّه مُخطِئٌ[(١)]، وكان عُمَرُ رضيَ اللهُ عنه يَضرِبُ على ذلك، وإنِ استعملَها لِمصلحةٍ دينيَّةٍ فهذا له أجرٌ في ذلك، كما لو استعملَها في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وتفهيمِ الخلْقِ الذين لا يَفهَمونَ اللُّغةَ العربيَّةَ؛ فهي وَسيلةٌ. المهمُّ: أنَّه لا شكَّ أنَّ الإنسانَ الذي يَتعلَّمُ لغةَ غيرِه فله ميزةٌ على غيرِه في هذا، ولكنْ كونُه محمودًا أو غيرَ محمودٍ يَرجعُ إلى ما يُتوصَّلُ به بهذه اللُّغةِ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى حكايةً عن سليمانَ عليه السَّلامُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وكذا في قولِه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦]: ذِكرُ الرجُلِ مناقِبَ نفْسِه -إذا كان ذلك لغرضٍ صحيحٍ-، ومِثلُه قولُ هودٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقولُ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقولُ يعقوبَ عليه السَّلامُ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]، وقولُ شعيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وقولُ يوسفَ عليه السَّلامُ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. وذِكرُ سليمانَ عليه السلام ما آتاه الله وسيلةٌ إلى المهابةِ الموجبةِ لطاعتِه فيما يدعو إليه مِن طاعةِ اللهِ، وذِكرُ الرسل أمانتَهم ونصحهم ترغيبٌ في إجابتِهم إلى ما دعَوا إليه[(٣)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أنَّ سُليمانَ لم يَرِثْ مِن داودَ ما وَرِثَه منه لأنَّه ابنُه، وإنَّما كان ذلك تفضُّلًا مِنَ اللهِ ونِعمةً؛ ولهذا لَمَّا دعا سليمانُ الناسَ لم يَذكُرْ لهم أبُوَّةَ داودَ، وإنَّما ذَكَرَ لهم

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٥٢٠-٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٩٣).

ما كان به أهلًا لمقامِه ممَّا خَصَّه اللهُ به مِن علمٍ وقوَّةٍ، ومظاهرِ المُلكِ، ومُعجِزةِ النُّبوَّة[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ أنَّ الطيرَ تَنْطِقُ[(٢)]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ البهائمَ لها لغةٌ معروفةٌ فيما بيْنَها مِن جنْسِها[(٣)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ حِكمةُ اللُّغةِ العربيَّةِ الشَّريفةِ؛ حيثُ سَمَّتْ أصواتَ الحيواناتِ نطقًا، كما سَمَّتْ -في المتعارَفِ- اللَّفظَ الذي يُعَبَّرُ به عمَّا في الضميرِ نطقًا؛ لأنَّ الأصواتَ لغيرِ الإنسانِ تقومُ مقامَ الألفاظِ للإنسانِ، فهي طريقُ تفاهمِها، وطريقُ فَهْمِ ما يمكِنُ للإنسانِ فَهْمُه عنها، فللَّهِ هذه اللُّغةُ! ما أعمَقَ غَوْرَها، وما أدقَّ تعبيرَها[(٤)]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ جمْعَ الجنودِ وتدريبَها هو مِن واجباتِ المُلوكِ؛ ليكونَ الجنودُ مُتعَهَّدينَ لأحوالِهم وحاجاتِهم؛ لِيشعروا بما يَنقُصُهم، ويتذكَّروا ما قد يَنسَونَه عند تشَوُّشِ الأذهانِ عندَ القِتالِ وعندَ النَّفيرِ[(٥)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ جوازُ استِعمالِ السَّاقَةِ في الجُندِ والجيشِ، بأنْ يكونَ لهم سائِقٌ كما أنَّ لهم قائدًا دَليلًا[(٦)].

١٢- نَستفيدُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١٣).

يُوزَعُونَ﴾ صورةً تامَّةً لنظامِ الجُنديَّةِ في مُلكِ سليمانَ؛ فقد كان الجنودُ يُسَرَّحُون مِن الخدمةِ ويُجمَعون عندَ الحاجةِ، وكانت أعيانُهم معروفةً مضبوطةً، وكانت لهم هيئةٌ تعْرِفُهم وتضْبِطُهم وتجْمَعُهم عندَ الحاجةِ، وكان لهم ضبَّاطٌ يتولَّون تنظيمَهم، وكان النظامُ محكَمًا لضبطِ تلك الكثرةِ، ومنْعِها مِن الاضطرابِ والاختلالِ والفوضى، تَعرِضُ علينا الآيةُ هذه الصُّورةَ التاريخيَّةَ والواقعيَّةَ؛ تعليمًا لنا، وتربيةً على الجُنديَّةِ المضبوطةِ المنظَّمةِ، ولا شكَّ أنَّ الخُلفاءَ الأوَّلينَ قد عَمِلوا على ذلك في تنظيمِ جيوشِهم، إنَّ مِثْلَ هذه الآيةِ كان له الأثرُ البليغُ السَّريعُ في نفوسِ العربِ لَمَّا أسلَموا؛ فسُرعانَ ما تحوَّلوا إلى جنودٍ مُنَظَّمةٍ ممَّا لم يكُنْ معروفًا عندَهم في الجاهليَّةِ، وبَقِيَتِ الآيةُ -على الدَّهرِ- مُذَكِّرةً لنا بأنَّ النِّظامَ أساسُ كلِّ مجتَمَعٍ واجتماعٍ، وأنَّ القوَّةَ والكثرةَ وحْدَهما لا تُغْنيانِ بدونِ نظامٍ، وأنَّ النِّظامَ لا بُدَّ له مِن رجالٍ أكْفَاءٍ يقومون به، ويَحمِلونَ الجُموعَ عليه، وأولئك هم الوازِعون[1].

١٣- قولُه تعالى: ﴿يُوزَعُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّهم مع كثْرتِهم وتَفاوُتِهم لم يَكونوا مُهْمَلينَ ومُبْعَدينَ كما يكونُ الجيشُ الكثيرُ المُتأذِّي بمَعرَّتِهم، بلْ كانوا مَسُوسِينَ ومَقْموعينَ[2].

١٤- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ قال أهلُ التَّفسيرِ: عَلِمَ النَّملُ أنَّ سُلَيمانَ مَلِكٌ ليس له جَبريَّةٌ وظُلمٌ، ومعنى الآيةِ: أنَّكم لو لم تَدخُلوا المساكِنَ وَطِئُوكم، ولم يَشعُروا بكم، ولو عَرَفوا لم يَطَؤوا[3]، ففي قولِه: ﴿وَهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٠).
(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٦).

﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ دَلالةٌ على عِلمِ النَّملِ بأنَّهم لو شَعروا بهم ما آذَوْهم؛ لأنَّهم أتْباعُ نبيٍّ، فهُم رُحماءُ[1].

١٥- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ نظيرُ قَولِ النَّملةِ في جُندِ سُليمانَ: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ قَولُ اللهِ تعالى في جُندِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الفتح: ٢٥]؛ التفاتًا إلى أنَّهم لا يَقصِدونَ هَدرَ مُؤمِنٍ. إلَّا أنَّ المُثنِيَ على جُندِ سُليمانَ هي النَّملةُ بإذنِ الله تعالى، والمُثنِيَ على جُندِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ بنَفْسِه؛ لِمَا لجنودِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِنَ الفَضلِ على جُندِ غَيرِه مِن الأنبياءِ، كما لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فَضلٌ على جميعِ النبيِّينَ صَلَّى الله عليهم وسلَّم أجمعينَ[2].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ إضافةُ المكانِ إلى سكانِه، كما يُقالُ الآنَ في الأحياءِ في البلدِ: هذا حيُّ بني فلانٍ، كما هو معروفٌ مِن قديمِ الزمانِ أنَّ الأحياءَ تُضافُ إلى ساكنيها[3]، وذلك على أحدِ القولَينِ في التَّفسيرِ.

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ أنَّ للحشراتِ نطقًا؛ وأنَّ قولَها أيضًا مسموعٌ؛ يَسمَعُه بنو جنسِها؛ لأنَّه لو لم يكونوا يَسمَعونها لم يكن في قَولِها فائدةٌ، فهم يَسمَعون قولَها، وقد يُسْمِعُه اللهُ تبارك وتعالى مَن يشاءُ[4].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ هي قُرى النَّملِ التي يَسكُنُها تحتَ وجهِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٢). ويُنظر أيضًا: ((الحيوان)) للجاحظ (٤/ ٢٦٣، ٢٦٤).

الأرض، المُحكمةُ الوضعِ والتركيبِ والتَّقسيمِ؛ ولذلك قيلَ فيها: (مساكن)، ولم يَقُلْ: (غيران)[١].

١٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ فيه تعيينُ المساكِنِ وهي الملاجئُ، وهذا مِثلُ صَفَّاراتِ الإنذارِ عندَ النَّاسِ، فإذا صفرت صفَّارةُ الإنذارِ لا يذهبون إلى السُّطوحِ، ولكن يذهبونَ إلى الملاجئِ، وهي أيضًا أرشدَتْهم إلى ملاجِئِهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾، ثمَّ فيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ هذه المساكِنَ كما أنَّها أكنانٌ يَكتَنُّ بها الإنسانُ فهي أيضًا حصونٌ يَحترِزُ بها الإنسانُ؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾[٢] [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

٢٠- رُبَّما ذُكِر لِما لا يعقِلُ فِعلٌ يكونُ الأغلبُ فيه أن يكونَ لِمَا يعقِلُ، فيُجعَلُ لفظُه كلفظِ ما يعقِلُ تشبيهًا، قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، ولم يقُلْ: ادخُلْن مساكنَكنَّ لا يحطمنَّكنَّ؛ لأنَّه أخبَرَ عنهنَّ بالخطابِ الذي يكونُ لِما يعقِلُ، ومِن ذلك أيضًا قولُه عزَّ وجلَّ حكايةً عن يوسفَ عليه السلامُ: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، فجمَع الشَّمسَ والقمرَ والكواكبَ بالياءِ والنونِ؛ وذلك لأنَّه وصَفها بالسجودِ الذي يكونُ مما يعقِلُ، ولو أجراها على معناها وحقِّها مِن اللفظِ لقال: رأيتُها لي ساجداتٍ[٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٢/ ٤٧)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (١/ ١٥٤، ١٥٥)، ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٢٠٣) و(٢/ ٤٩).

﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تنويهٌ برَأْفته وعَدْله الشَّامل لكلِّ مَخلوقٍ لا فسادَ منه، أجْراهُ اللهُ على نَملةٍ؛ لِيَعلَمَ شَرفَ العدْلِ ولا يَحتقِرَ مواضِعَهُ، وأنَّ وليَّ الأمرِ إذا عَدَلَ سَرَى عدلُه في سائرِ الأشياءِ، وظهَرتْ آثارُه فيها، حتى كأنَّه معلومٌ عندَ ما لا إدراكَ له، فتسيرُ جَميعُ أمورِ الأمَّةِ على عَدلٍ[١].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أنَّه لا بأسَ بالتبَسُّمِ والضَّحِكِ عندَ قيامِ أسبابِهما مِنَ التعَجُّبِ وغيرِه[٢]. فيجوزُ ذلك عندَ وجودِ سببِه؛ فهذا مِن فعلِ نبيٍّ، وفعلُ الأنبياءِ حُجَّةٌ -حتَّى وإنْ كان غيرَ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ-؛ إلَّا ما وردَ شرعُنا بنسخِه، فهذا لا يُعتبرُ، والدَّليلُ على أنَّ فِعلَ الأنبياءِ حُجَّةٌ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقولُه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣] [يوسف: ١١١].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ طلَب سُلَيمانُ عليه السَّلامُ ما يكونُ وسيلةً إلى ثوابِ الآخرةِ أوَّلًا، ثمَّ طلب ثوابَ الآخرةِ ثانيًا؛ أمَّا وسيلةُ الثَّوابِ فهي أمْرانِ:

أحدُهما: شُكرُ النِّعمةِ السَّالفةِ، والثاني: الاشتغالُ بسائرِ أنواعِ الخِدمةِ؛ أمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٦)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٣).

قال ابن عثيمين: (يقولون: إنَّ الضَّحِكَ ثلاثةُ أنواعٍ: ابتِدائيٌّ ووسَطٌ وانتِهائيٌّ؛ الابتِدائيُّ التبسُّمُ، والوسَطُ الضَّحِكُ، والمنتهي القَهْقَهةُ، والقهقهةُ لا تليقُ بالإنسانِ العاقلِ الرَّزينِ، والتبسُّمُ هو أكثَرُ ضَحِكِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، والضَّحِكُ يكونُ مِنَ الأنبياءِ أحيانًا، فهنا تبسَّمَ ضاحكًا...). ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٤).

الاشتغالُ بشُكرِ النِّعمةِ السَّالفةِ، فهي قَولُه تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، وأمَّا الاشتغالُ بسائرِ أنواعِ الخِدمةِ، فقَولُه: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

وأمَّا طلَبُ ثوابِ الآخرةِ فقَولُه: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ رَدٌّ على المُعتزلةِ والقدَريَّةِ؛ إذْ كان سُلَيمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَسألُ اللهَ أن يُلهِمَه الشُّكرَ، ويُنهضَه للعَمَلِ الصالحِ، ويُدخِلَه برحمتِه في صالحِ عبادِه. وهل يخلو مِن أنْ يكونَ دعا بما هو مُستَغنٍ به فيُنسبَ إلى أنَّ دعاءَه حَشْوٌ، ومعاذَ اللهِ! أو دعا وهو يُوقِنُ أنَّه لا يَقدِرُ على شَيءٍ البَتَّةَ إلَّا به أو بمعونتِه، فإذا عَدِمَه لم يَقدِرْ؟ فكيف يزعمونَ أنَّ العبدَ قادرٌ على عملِه مُنفَرِدًا به، ونبيُّ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَبرأُ مِنَ الحَولِ والقوَّةِ هذا التبرُّؤَ، ويَستَلْهِمُ اللهَ جلَّ جلالُه ما لا يَتِمُّ أمرُه إلَّا به[2]؟!

٢٥- أنَّ نِعمةَ اللهِ على الوالِدَينِ نِعمةٌ على الولَدِ؛ لِقَولِه: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، ولا سيَّما نعمةُ الإسلامِ؛ فإنَّها مِن أكبرِ النِّعَمِ على الولدِ؛ فلو مات طِفلٌ وأبواه كافِران، لكان هذا الطِّفلُ في الدُّنيا في حكمِ الكافرينَ، وفي الآخرةِ اللهُ أعلمُ بحالِه، ولو مات طفلٌ بيْنَ أبوينِ مُسلِمَينِ لكان هذا الطِّفلُ مُسلمًا في الدُّنيا والآخرةِ، وعلى هذا فنِعمةُ اللهِ على الوالدينِ -ولا سيَّما في الدِّينِ- نعمةٌ على الولدِ، وهذا هو وَجهُ قَولِه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٤).

وأيضًا فإنَّ نعمةَ اللهِ على الولدِ هي نعمةٌ على والديه؛ فهو مِن أثَرِهما، ومِثْلُ حسناتِه في ميزانِهما؛ لأنَّهما أصلُ ذلك وسببُه، ويدعو له الناسُ؛ فيَدْعُون لهما كُلَّما دَعَوا له، ويقولون: رضيَ اللهُ عنك وعن والِدَيك، ويدعو هو لهما، وقد يُؤْذَنُ له فيَشْفَعُ لهما، فالنِّعمةُ على الوالدِ هي نعمةٌ مُزدَوجةٌ بيْنَهما؛ ولهذا ذَكَرَ سُليمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ نعمةَ اللهِ على والديه مع نعمتِه عليه[1].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّ مِن العقلِ والعَدلِ والشَّرعِ إضافةَ المِنَّة إلى المانِّ بها؛ لِقَولِه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ وهذا اعترافٌ، وأبلغُ مِن أنْ يقولَ الإنسانُ: أوزِعْني أنْ أشكرَ النِّعمةَ فقط؛ لأنَّ قَولَه: ﴿نِعْمَتَكَ﴾ واضحٌ جدًّا في خُضوعِ هذا الإنسانِ بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ التي أنعَمَ اللهُ بها عليه، فهذه فيها دليلٌ أنَّه مِن العَقلِ والعَدلِ والشَّرعِ إضافةُ المِنَّةِ إلى المانِّ بها، حتى ولو كان آدميًّا[2].

٢٧- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، في قَولِه: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كغَيرِهم مُفتَقِرون إلى توفيقِ اللهِ، وأنَّهم بِدُونِ توفيقِ اللهِ سبحانه وتعالى ما يَسيرون سيرًا يُرضي اللهَ[3]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٧).
وقال الرازي: (ولَمَّا كان الإنعامُ على الآباءِ إنعامًا على الأبناءِ؛ لأنَّ انتسابَ الابنِ إلى أبٍ شَريفٍ نعمةٌ مِن الله تعالى على الابنِ- لا جَرَمَ اشتغَلَ بشُكرِ نِعَمِ اللهِ على الآباءِ بقَولِه: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢٨- قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ العملُ غيرُ الصَّالحِ ليس فيه فائِدةٌ، بل هو دائرٌ بينَ أمْرَينِ: إمَّا الإثم، وإمَّا السَّلامةِ فقط، فإنْ صدرَ عن عِلمٍ فهو إثمٌ، وإنْ صدَرَ عن جَهلٍ فالإنسانُ سالمٌ، ولكِنْ لا فائدةَ له فيه؛ كما لو صلَّى الإنسانُ مَثلًا صلاةً باطِلةً بحَدَثٍ، فإنَّه إن تعَمَّد ذلك كان آثِمًا، وإنْ كان جاهِلًا لم تُفِدْه في إبراءِ الذِّمَّةِ، ويُطالَبُ بإعادتِها، أمَّا الأجرُ فقد يؤجَرُ عليها مِن أجْلِ النِّيَّةِ والعملِ الذي حَصَل والمشَقَّةِ، ولكِنْ مِن حيثُ الفائدةُ لا يَستفيدُ منها في إبراءِ ذِمَّتِه، ولا تَسقُطُ عنه[1].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الرَّدُّ على الجَبْرِيَّةِ؛ لأنَّه أضاف العمَلَ إليه، وقولُه: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ معناه أنَّه يمكنُ أنْ يعملَ غيرَ صالحٍ؛ فهو مُختارٌ[2].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّ دخولَ الجنةِ هو برحمتِه وفضْلِه سُبحانَه، لا باستِحقاقٍ مِن جانبِ العبدِ[3]، فالإنسانُ لا يَصِلُ إلى غايتِه ومقصودِه إلَّا برحمةِ اللهِ في كلِّ شيءٍ -الجنَّةِ وغيرِ الجنَّةِ- يعني: إذا لم يَرحمْك اللهُ فلن تَنالَ شيئًا أبدًا[4]، فهذه الآيةُ مُناديةٌ بأعلَى صوتٍ، وأوضَحِ بيانٍ بأنَّ دُخولَ الجنَّةِ الَّتي هيَ دارُ المؤمنينَ بالتَّفضُّلِ مِنَ اللهِ، لا بالعملِ من العِبادِ، كما قال الصادقُ المصدوقُ فيما ثَبَت عنه في الصَّحيحِ: ((سَدِّدُوا وقارِبوا واعْلَموا أنَّه لن يدخُلَ أحدٌ الجنَّةَ بعملِه، قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللَّهِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٥).

قالَ ولا أنا إلَّا أنْ يتغَمَّدَني اللَّهُ برحمتِه))[١]، فإذا لم يَكُنْ إلَّا تفضُّلُ اللهِ الواسعُ فتركُ طلبِه منه عجزٌ، والتَّفريطُ في التَّوسُّلِ إليه بالإيصالِ إليه تضييعٌ[٢].

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ جوازُ التوسُّلِ بصِفاتِ اللهِ؛ لقولِه: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾[٣].

٣٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ في قَولِه: ﴿فِي عِبَادِكَ﴾ أنَّ العبادةَ مَرتَبةٌ شَريفةٌ عظيمةٌ يَسألُها حتَّى الأنبياءُ؛ ولهذا يَذكُرُ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ بوصفِ العبوديَّةِ في أعلَى مقاماتِه؛ عندَ إنزالِ القرآنِ، وعندَ الدفاعِ عنه، وما أشبَهَ ذلك[٤].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّه قال اللهُ تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] فأفاد أنَّ الأعمالَ سببٌ في دخولِ الجنَّةِ، وفي هذه الآيةِ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ أفاد أنَّ الدخولَ بالرَّحمةِ!

الجوابُ: لا مُنافاةَ بيْنَهما؛ فالأعمالُ سببٌ شرعيٌّ لدُخولِ الجنَّةِ، والهدايةُ إليه والتَّوفيقُ فيه وقَبولُه: هو رحمةٌ مِن اللهِ جزاءً؛ لأنَّه لا يَنتفِعُ به؛ إذْ هو الغَنيُّ عن خلْقِه، وإنما تفضَّلَ فجعلَه سببًا في نَيلِ ثوابِه، ثم تفضَّلَ فجَعَلَ الجزاءَ مُضاعَفًا، ووفَّى الصَّابرينَ أجرَهم بغيرِ حسابٍ[٥]!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ١٣٦). ويُنظر أيضًا: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٨٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٦) و(٦/ ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٧٠، ٧١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٨٧، ٨٨).

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أنَّ الصَّالحينَ -بما امتازوا به مِن كَمالٍ- صاروا كأنَّهم في حِمًى خاصٍّ بهم، لا يَدخُلُ عليهم فيه إلَّا مَن كان مِثْلَهم، فلهُم مقامُهم في الرَّفيقِ الأعلى، ولهم مَنازِلُهم في الجنَّةِ، ولهم ذِكرُهم الطَّيِّبُ عندَ اللهِ وعندَ العِبادِ، وهذه المنازلُ والمقاماتُ لا يَدخُلُها العبدُ إلَّا برحمةٍ مِن اللهِ بتيسيرٍ لأسبابِها، وتفضُّلٍ عظيمٍ[1].

٣٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أنَّ الأرواحَ النُّورانيَّةَ الطَّاهرةَ السَّاميةَ لا لَذَّةَ لها حقيقيَّةً في هذا العالَمِ الفاني المادِّيِّ المنحَطِّ، وإنَّما لَذَّتُها الحقيقيَّةُ في عالَمِها العالي الأقدَسِ، وفي الرَّفيقِ الأعلى الأطْهَرِ، وفي معاشَرةِ أمثالِها مِنَ النُّفوسِ الطَّيِّبةِ الزَّكيَّةِ في ذلك القُدسِ الأَسْنى؛ فهي دائمةُ الشَّوقِ إليه، والانجذابِ نحوَه؛ ولذا كان مِن دعواتِ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- الدُّخولُ في الصَّالحينَ، واللُّحوقُ بهم، مِثلُ قولِ سُليمانَ هنا، وقولِ إبراهيمَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، وقولِ يوسفَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2] [يوسف: ١٠١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ ما سبَقَ مِن أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُلقَّى القرآنَ مِن لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ؛ فإنَّ قِصَّتَهما عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن جُملةِ القرآنِ الكريمِ، لُقِّيَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن لَدُنْهُ تعالى كقِصَّةِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ تَصديرُه بالقسَم؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بتَحقيقِ مضمونِه(1). وقيل: افتِتاحُ الجُملةِ بلامِ القَسمِ وحَرفِ التَّحقيقِ (قد)؛ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ به مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك؛ لأنَّهم جَحَدوا نُبوَّةَ مِثلِ داودَ وسُليمانَ؛ إذ قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(2) [سبأ: ٣١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ تَقديمُ ذِكْرِ داودَ لِيُبْنَى عليه ذِكْرُ سُليمانَ؛ إذ كان مُلْكُه وَرِثَه مِن أبيهِ داودَ، ولأنَّ في ذِكْرِ داودَ مَثَلًا لإفاضةِ الحِكمةِ على مَن لم يكُنْ مُتصدِّيًا لها، وما كان مِن أهلِ العلْمِ بالكتابِ أيَّامَ كان فيهم أحبارٌ وعلماءُ. فما كان عجَبٌ في نُبوَّةِ محمَّدٍ الأُمِّيِّ بيْن الأُمِّيِّينَ؛ لِيَعلَمَ المُشركونَ أنَّ اللهَ أعْطى الحِكمةَ والنُّبوَّةَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولم يكُنْ يَعلَمُ ذلك مِن قبْلُ، ولكنْ في قَومِه مَن يَعلمُ ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا﴾ [هود: ٤٩]؛ فهذه القصَّةُ تَتَّصِلُ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]؛ فيصِحُّ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ مَعطوفًا على ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ [النمل: ٧] إذا جعَلْنا (إذ) مفعولًا لفِعلِ (اذْكُرْ) مَحذوفٍ. ويصِحُّ أنْ تكونَ الواوُ للاستئنافِ، فالجُملةُ مُستأنَفةٌ. ومُناسَبةُ الذِّكْرِ ظاهرةٌ. وبعْدُ ففي كلِّ قصَّةٍ مِن قَصصِ القرآنِ عِلْمٌ وعِبْرةٌ وأُسوةٌ(3).

- وفي فِعلِ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ ما يُؤْذِنُ بأنَّه عِلْمٌ مُفاضٌ من عندِ اللهِ؛ لأنَّ الإيتاءَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٣٣، ٢٣٤).

أخَصُّ مِن (علَّمْناهُ)؛ فلذلك استُغْنِيَ هنا عن كلمةِ (مِن لَدُنَّا)[١].

- وتَنكيرُ ﴿عِلْمًا﴾ لإفادةِ التَّعظيمِ والتَّكثيرِ؛ فظاهِرُ قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ في سِياقِ الامتنانِ تَعظيمُ العِلْمِ الَّذي أُوتِيَاه، كأنَّه قال: (عِلْمًا أيَّ عِلْمٍ)، وهو كذلك؛ فإنَّ عِلْمَهما كان ممَّا يُستغرَبُ ويُستعظَمُ، ومِن ذلك عِلْمُ مَنطقِ الطَّيرِ وسائرِ الحيواناتِ، على أنَّ كلَّ عِلْمٍ بالإضافةِ إلى عِلْمِ اللهِ قليلٌ ضَئيلٌ. وقيل: قال: ﴿عِلْمًا﴾؛ لأنَّه طائفةٌ مِن العِلْمِ، فالتَّنوينُ على هذا للتَّقليلِ، وهو أوْفَقُ بكونِ القائلِ هو الله عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ كلَّ عِلمٍ عندَه سبحانه قليلٌ. وعلى الوجهِ الأولِ التَّنوينُ للتَّعظيمِ والتَّكثيرِ، وهو أوفَقُ بامتِنانِه جلَّ جلالُه؛ فإنَّه سبحانه الملكُ العظيمُ، فاللَّائقُ بشأنِه الامتِنانُ بالعظيمِ الكثيرِ؛ فلِكُلٍّ وِجْهةٌ، وكِلاهما مُناسِبٌ للمقامِ[٢].

- قولُه: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ حِكايةَ قَولَيْهما وقَعَتْ بالمعنى، بأنْ قال كلُّ واحدٍ منهما: (الحمْدُ للهِ الَّذي فضَّلَني)؛ فلمَّا حُكِيَ القَولانِ جُمِعَ ضَميرُ المُتكلِّمِ ﴿فَضَّلَنَا﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ شكَرَ اللهَ على مَنْحِه ومنْحِ قَرِيبِه، على أنَّه يَكثُرُ استعمالُ ضَميرِ المُتكلِّمِ المُشارِكِ لا لِقَصْدِ التَّعظيمِ، بلْ لإخفاءِ المُتكلِّمِ نفْسه بقَدْرِ الإمكانِ تَواضعًا، كما قال سُليمانُ عقِبَ هذا: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦]. وقولُه: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٦، ٢١٧)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٨١).

عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كِنايةٌ عن تَفضيلِهما بفضائلَ غيرِ العلْم؛ فإنَّه قال: ﴿ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ومنهم أهلُ العِلْم وغيرُهم، وتَنويهٌ بأنَّهما شاكرانِ نِعمتَه؛ ولأجْلِ ذلك عُطِفَ قولُهما هذا بالواوِ دونَ الفاءِ؛ لأنَّه ليس حمْدًا لِمُجرَّدِ الشُّكرِ على إيتاءِ العِلْم[1].

- وأيضًا على أنَّ عِبارةَ كلٍّ منهما (فضَّلني)، إلَّا أنَّه عبَّر عنهما عندَ الحِكايةِ بصِيغةِ المُتكلِّم مع الغيرِ إيجازًا؛ فإنَّ حِكايةَ الأقوالِ المُتعدِّدةِ سواءٌ كانتْ صادرةً عن المُتكلِّم أو عن غيرِه بعِبارةٍ جامعةٍ للكُلِّ ممَّا ليس بعَزيز، وبهذا ظهَرَ حُسْنُ مَوقعِ العطْفِ بالواو؛ إذ المُتبادَرُ مِن العطْفِ بالفاءِ ترتُّبُ حَمْدِ كلٍّ منهما على إيتاءِ ما أُوتِيَ كلٌّ منهما، لا على إيتاءِ ما أُوتِيَ نفْسُه فقط[2].

- وقيل: عطْفُ قولِه: ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ بالواوِ إشعارٌ بأنَّ ما قالاهُ بعضُ ما أحدَثَ فيهما إيتاءُ العلْمِ وشَيءٌ مِن مَواجِبِه؛ فأُضمِرَ ذلك، ثمَّ عُطِفَ عليه التَّحميدُ، كأنَّه قال: ولقدْ آتَيْناهما عِلْمًا، فعَمِلَا به، وعلَّماهُ وعرَفَا حقَّ النِّعمةِ فيه والفضيلةَ[3].

- وفي قولِهما: ﴿ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ جعَلَا تَفضيلَهما على كثيرٍ مِن المُؤمنينَ دونَ جَميعِ المُؤمنينَ؛ إمَّا لأنَّهما أرادَا بالعِبادِ المُؤمنينَ كلَّ مَن ثبَتَ له هذا الوصفُ مِن الماضينَ، وفيهم مُوسى وهارونُ، وكثيرٌ من الأفضلِ والمُساوي، وإمَّا لأنَّهما اقْتصَدَا في العبارةِ؛ إذ لم يُحِيطَا بمَن نالهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٣، ٢٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٩٥).

التَّفضيلُ، وإمَّا لأنَّهما أرادَا بالعِبادِ أهْلَ عصْرِهما؛ فعبَّرَا بـ ﴿كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ تواضُعًا للهِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ ...﴾ طُويَ خبَرُ مُلْكِ داودَ وبَعضِ أحوالِه إلى وَفاتِه؛ لأنَّ المقصودَ هو قصَّةُ سُليمانَ(٢).

- قولُه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ على القولِ بأنَّ سليمانَ عُلِّم منطقَ جميعِ الطيورِ والحيواناتِ فإنَّما نصَّ على الطَّيرِ؛ لأنَّه كان جُندًا مِن جُنودِه، يَحتاجُ إليه في التَّظليلِ مِن الشَّمسِ، وفي البعثِ في الأمورِ(٣)، وأيضًا الاقتصارُ على مَنطِقِ الطَّيرِ إيجازٌ؛ لأنَّه إذا عُلِّمَ مَنطِقَ الطَّيرِ -وهي أبعدُ الحيوانِ عن الرُّكونِ إلى الإنسانِ، وأسْرَعُها نُفورًا منه- عُلِمَ أنَّ مَنطِقَ ما هو أكثرُ اختلاطًا بالإنسانِ حاصلٌ له بالأحرى، كما يَدُلُّ عليه قولُه تعالى فيما يأْتي قريبًا: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]؛ فتدُلُّ هذه الآيةُ على أنَّه عُلِّمَ مَنطِقَ كلِّ صِنْفٍ مِن أصنافِ الحيوانِ(٤). وقيلَ: ذكَرَ سُليمانُ عليه السَّلامُ مَنطِقَ الطَّيرِ -وهو قد عُلِّمَ مَنطِقَ غيرِ الطَّيرِ أيضًا؛ فقد فَهِمَ نُطْقَ النَّملةِ-؛ لأنَّ الحيواناتِ -غَيرُ الإنسانِ- مَراتبُ: الزَّاحفةُ، والماشيةُ، والطَّائرةُ، وأشْرفُها الطَّائرةُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧).
لكن قال الألوسي: (لا يخفَى أنَّ الآيةَ لا تدلُّ على ذلك، فيحتاجُ القولُ به إلى نقلٍ صحيحٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٧).

فاقتَصَرَ على الطَّيرِ تَنبيهًا بالأعلى على الأَدْنى[١].

- قولُه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ ظاهرُه العمومُ، والمُرادُ الخصوصُ، أي: مِن كلِّ شَيءٍ يَصلُحُ لنا ونَتمنَّاهُ، وأُرِيدَ به كثرةُ ما أُوتِيَ؛ فكأنَّه مُستغرِقٌ لجميعِ الأشياءِ[٢]؛ فالمُرادُ بـ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ كلُّ شَيءٍ مِن الأشياءِ المُهمَّةِ؛ ففي ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ عُمومانِ: عمومُ (كلّ)، وعمومُ النَّكرةِ، وكِلاهُما هنا عُمومٌ عُرفيٌّ؛ فـ(كلّ) مُستعمَلةٌ في الكثرةِ، و(شَيءٌ) مُستعمَلٌ في الأشياءِ المُهمَّةِ ممَّا له عَلاقةٌ بمَقامِ سُليمانَ[٣].

- وبُنِيَ الفِعلانِ ﴿عُلِّمۡنَا﴾ و(أُوتِينَا) للمفعولِ، وحُذِفَ الفاعلُ؛ للعِلْمِ به، وهو اللهُ تعالى؛ فإنَّ هذا التَّعليمَ ليس مِن مُعتادِ البشرِ، ولا مِن طُرقِهم[٤].

- وضَميرُ ﴿عُلِّمۡنَا﴾ و(أُوتِينا) جاء به على صِيغَةِ المُتكلِّمِ المُشارِكِ؛ إمَّا لأنَّه أرادَ نفْسَه وأباهُ، وإمَّا لِقَصْدِ التَّواضُعِ؛ كأنَّ جماعةً عُلِّمُوا وأُوتُوا وليس هو وحْدَه، وإمَّا لأنَّه لمَّا كان مَلِكًا مُطاعًا خاطَبَ أهْلَ طاعتِه ومَمْلكتِه بحالِه الَّتي هو عليها، لا على سبيلِ التَّعاظُمِ والتَّكبُّرِ[٥]. وقِيل: عبَّرَ سُليمانُ عليه السَّلامُ عن نفْسِه بنُونِ العظمةِ، ونوَّهَ بذلك الفضلِ المُبينِ، وما كان عليه السَّلامُ لِيَتعظَّمَ بسُلطانٍ، ولا لِيَتطاوَلَ بفضْلٍ؛ فالأنبياءُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧، ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٨). ويُنظر أيضًا: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٦).

أشدُّ الخَلْقِ تواضُعًا للهِ، وأرحَمُهم بعِبادِه، وإنَّما أرادَ تَعظيمَ نِعمةِ اللهِ في عُيونِ النَّاسِ، وتَفخيمَ مُلْكِ النُّبوَّةِ في قُلوبِ الرَّعيَّةِ؛ لِيَمْلأَ نُفوسَهم بالجَلالِ والهَيبةِ، فيَدْعُوهم ذلك إلى الإيمانِ والطَّاعةِ؛ فيَنتظِمَ المُلْكُ، ويَهنَأَ العيشُ، وتَمتدَّ بهم أسبابُ السَّعادةِ إلى خيرِ الدُّنيا والآخرةِ، وهذا هو الَّذي توخَّاهُ سُليمانُ عليه السَّلامُ مِن المصلحةِ بإظهارِ العَظَمةِ. ولذا لم يقُلْ: (عَلِمْتُ)، ولا: (لي) و(عندي كلُّ شَيءٍ)، ولم يقُلْ: (فَضْلي)؛ فهو فضْلُ مَن علَّمَهُ وآتاهُ، فضَّلَه به عمَّن سِواهُ[1].

- والتَّأكيدُ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) ولَامِه الَّذي هو في الأصْلِ لامُ قَسمٍ، وبضَميرِ الفصْلِ (هو): مَقصودٌ به تَعظيمُ النِّعمةِ؛ أداءً للشُّكرِ عليها بالمُستطاعِ مِن العبارةِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾ فيه تَرتيبُ الجُنودِ في الذِّكرِ؛ مُراعاةً للأقْوى؛ فأعْلَاهم في ذلك الجنُّ، ثمَّ الإنسُ، ثمَّ الطَّيرُ[3]؛ فتَقديمُ الجنِّ على الإنسِ في البَيانِ؛ للمُسارَعةِ إلى الإيذانِ بكَمالِ قُوَّةِ مُلكِه وعِزَّةِ سُلطانِه مِن أوَّلِ الأمْرِ؛ لِمَا أنَّ الجنَّ طائفةٌ عاتيةٌ، وقَبيلةٌ طاغيةٌ ماردةٌ، بعيدةٌ مِن الحشْرِ والتَّسخيرِ[4].

- واقتُصِرَ على الجنِّ والطَّيرِ؛ لغَرابةِ كَونِهما مِن الجُنودِ؛ فلذلك لم يُذْكَرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧).

الخيلُ، وهي مِن الجيشِ[١].

- وفي قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ تجِدُ المعنى لا يستقيمُ إلَّا على ما جاء عليه مِن بناءِ الفعلِ على الاسمِ؛ فإنَّه لا يخفَى على مَن له ذوقٌ أنَّه لو جِيء في ذلك بالفعلِ غير مبنيٍّ على الاسم فقيل: (وحُشِر لسليمانَ جنودُه مِن الجنِّ والإنسِ والطيرِ فيُوزَعون)؛ لوجَد اللفظَ قد نبا عن المعنى، والمعنى قد زالَ عن صورتِه والحالِ التي ينبغي أن يكونَ عليها[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ (حتَّى) هنا هي الَّتي يُبْتدَأُ بها الكلامُ، ومع ذلك هي غايةٌ لِما قبْلَها كالَّتي في قولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠]، وهي هاهنا غايةٌ لِمَا يُنْبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ مِن السَّيرِ، كأنَّه قِيلَ: فساروا حتَّى إذا أتَوا... إلخ[٣]، ففيه إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ (حتَّى) للغايةِ؛ فلا بُدَّ أنْ يكونَ هناك شيءٌ محذوفٌ قبْلَها[٤].

- والإتيانُ بـ(إذا) وجَوابِها في قولِه: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾؛ لإفادةِ أنَّ قولَها كان بسَببِ إتيانِهم عندَ أوَّلِ ما أتَوْا[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((دلائل الإعجاز)) لعبد القاهر (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢).

- وفي قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ عُدِّيَ ﴿أَتَوۡاْ﴾ بحَرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ كان مِن فوق. أو يُرَادُ قطْعُ الوادي وبُلوغُ آخرِه، كأنَّهم أرادوا أنْ يَنزِلوا أُخرياتِ الوادي، مِن قولِهم: أتى على الشَّيءِ؛ إذا أنفَذَهُ وبلَغَ آخِرَه[١].

- قولُه: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾ إنْ جُعِلَت (لا) فيه ناهيةً، كانت الجُملةُ مُستأنَفةً؛ تَكريرًا للتَّحذيرِ، ودَلالةً على الفزَعِ؛ لأنَّ المُحذِّرَ مِن شَيءٍ مُفزِعٍ يأْتي بجُمَلٍ مُتعدِّدةٍ للتَّحذيرِ؛ مِن فَرْطِ المخافةِ، والنَّهيُ عن حَطْمِ سُليمانَ إيَّاهنَّ كِنايةٌ عن نَهْيِهنَّ عن التَّسبُّبِ فيه، وإهمالِ الحَذرِ منه، فالمعنى: لا تَكونوا حيثُ أنتم فيَحطِمَكم، كما يُقالُ: لا أعْرِفنَّك تَفعلُ كذا، أي: لا تَفعَلْه فأعْرِفَك بفِعْلِه، والنُّونُ توكيدٌ للنَّهيِ. وكان الأصلُ: (لا يَحْطِمَنَّكُم جُنودُ سُليمانَ)؛ فجاء بقولِه: ﴿سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨]، لِيَكونَ أبلَغَ؛ للإجمالِ والتَّفصيلِ والتَّكريرِ مع التَّبيينِ. وإنْ جُعِلَت (لا) نافيةً، كانت الجُملةُ واقعةً في جوابِ الأمرِ؛ فكان لها حُكْمُ جوابِ شَرطٍ مُقدَّرٍ؛ فالتَّقديرُ: إنْ تَدخُلوا مَساكِنَكم لا يَحطِمَنَّكم سُليمانُ، أي: يَنتَفِ حَطْمُ سُليمانَ إيَّاكنَّ، وإلَّا حَطَمَكم[٢].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ الْتفاتٌ حَسنٌ، أي: مِن عَدْلِ سُليمانَ وأتْباعِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٢).

ورَحمتِه ورِفْقِه: ألَّا يَحطِمَ نَملةً فما فوقَها، إلَّا بألَّا يكونَ لهم شُعورٌ بذلك[١]، وهذه الجُملةُ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حالٌ مِن فاعلِ ﴿يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾، مُفيدةٌ لِتَقييدِ الحَطْمِ بحالِ عَدمِ شُعورِهم بمَكانِهم، حتَّى لو شَعَروا بذلك لم يَحْطِمُوا، وأرادتْ بذلكَ الإيذانَ بأنَّها عارفةٌ بشُؤونِ سُليمانَ وسائرِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن عِصْمتِهم عن الظُّلم والإيذاءِ. وقيل: الجُملةُ استئنافٌ، أي: فَهِمَ سُليمانُ ما قالَتْه، والقومُ لا يَشْعُرون بذلك[٢].

- وما أحسَنَ ما أتَتْ به هذه النَّملةُ في قولِها، وأغْرَبَه وأفصَحَه، وأجْمَعَه للمعاني! أدرَكَتْ فَخامةَ مُلْكِ سُليمانَ؛ فنادَتْ وأمَرَتْ وأنذَرَتْ[٣]، وقد اشتمَلَ قولُها في هذه الآيةِ على أحَدَ عشَرَ نوعًا مِن البلاغةِ يَتولَّدُ بعضُها مِن بعضٍ؛ أوَّلُها: النِّداءُ بـ(يا). وثانيها: كنَّتْ بـ(أيُّ). وثالثُها: نبَّهَت بـ(ها) التَّنبيهِ. ورابعُها: سمَّت بقولِها: ﴿ٱلنَّمۡلُ﴾. وخامسُها: أمَرَتْ بقولِها: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾. وسادسُها: نصَّتْ بقولِها: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾. وسابعُها: حذَّرت بقولِها: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾. وثامنُها: خَصَّصَت بقولِها: ﴿سُلَيۡمَٰنُ﴾. وتاسعُها: عمَّمَت بقولِها: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾. وعاشِرُها: أشارَتْ بقولِها: ﴿وَهُمۡ﴾. وحادي عَشَرَها: عذَرَتْ بقولِها: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾!

وأدَّتْ خمْسَ حقوقٍ: حقَّ اللهِ، وحقَّ رسولِه، وحقَّها، وحقَّ رعيَّتِها، وحقَّ جُنودِ سُلَيمانَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٢٧)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٨٥).

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

- قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ لَمَّا كان التَّبسُّمُ يكونُ للاستهزاءِ وللغضَبِ، كما يقولونَ: تَبسَّمَ تبسُّمَ الغَضبانِ، وتبسَّمَ تَبسُّمَ المُستهزِئِ، وكان الضَّحِكُ إنَّما يكونُ للسُّرورِ والفَرحِ؛ أتى بقولِه: ﴿ضَاحِكًا﴾[١].

- ولأجْلِ أنَّ قولَه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ كان مَبْنيًّا على أمْرينِ: على شُهرةِ حالِه وحالِ جُنودِه في بابِ التَّقوى، وعلى إدراكِه بسَمعِه ما همسَ به بعضُ الحُكْلِ[٢] ومِن إحاطتِه بمعناه؛ أرْدَفه بقولِه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ لأنَّهما نِعمتانِ جَليلتانِ مُوجِبتانِ شُكْرَ مُنعِمِهما[٣].

- ولَمَّا سأَلَ ربَّه شيئًا خاصًّا، وهو شُكرُ النِّعمةِ، سأَلَ شيئًا عامًّا، وهو أنْ يَعمَلَ عملًا يَرْضاهُ اللهُ تعالى، فانْدرَجَ فيه شُكرُ النِّعمةِ؛ فكأنَّه سأَلَ إيزاعَ الشُّكرِ مرَّتينِ[٤].

- قولُه: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ وَصْفٌ مُؤكِّدٌ، وقد يكونُ للتَّقييدِ؛ لأنَّ العملَ الصَّالحَ يَرْضَى عنه اللهُ، وإنَّما ذَكَرَ الوَصفَ؛ لِيُفيدَ أنَّ رِضَا اللهِ مَقصودٌ بالعملِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ١٧٥) و(٣/ ٥٠٤).

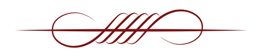
(٢) الحُكْلُ: ما لا يُسمَعُ له صَوتٌ؛ كالذَّرِّ والنَّملِ. يُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦٧٢)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَهْ (٣/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٢).

الصَّالحِ(١)، وأنَّ العملَ الصالحَ قد لا يرضاه المنعِمُ لنقصٍ في العاملِ(٢).

- قولُه: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: اجْعَلني مِن أهْلِ الجنَّةِ، فهو كِنايةٌ(٣). والإدخالُ في العِبادِ الصَّالحينَ بمَعنى جَعلِه واحدًا منهم؛ فشبَّه إلْحاقَه بهم في الصَّلاحِ بإدخالِه عليهم في زُمْرتِهم، وسُؤالُه ذلك مُرادٌ به الاستِمرارُ والزِّيادةُ مِن رَفْعِ الدَّرجاتِ؛ لأنَّ لعبادِ اللهِ الصَّالحينَ مَراتبَ كثيرةً(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٤).

الآيات (٢٠-٢٨)

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَتَفَقَّدَ﴾: التفقُّدُ: تَطَلُّبُ المفقود، وكُلُّ شَيءٍ غاب عنك ثم تتبَّعْتَه طالبًا له قُلْتَ: تَفَقَّدتُه، بُنِيَ على: تفعَّلَ؛ لأنَّه تكلُّفٌ في الطَّلَبِ، وأصلُ (فقد): يدُلُّ على ذَهابِ شَيءٍ وضَياعِه[1].

﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: أي: بعُذرٍ وحجةٍ، وأصل (سلط): القوَّةُ والقهرُ[2].

﴿فَمَكَثَ﴾: أي: انتظَر، والمكثُ: يدُلُّ على ثباتٍ مع انتظارٍ وتوقُّفٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

﴿أَحَطتُ﴾: أي: عَلِمتُ، وأصلُ ذلك راجعٌ إلى معنَى الحائطِ؛ لإحاطتِه بما يَدورُ عليه(١).

﴿عَرۡشٌ﴾: أي: العرشُ: سريرٌ وكرسيٌّ للمَلِك، وأصلُه يَدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبْنيٍّ(٢).

﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾: أي: الغائِبَ المستورَ، يُقالُ: خبأتُ الشَّيءَ خبْأً: إذا أخفَيتَه، وأصلُ (خبأ): يدُلُّ على سَترِ الشَّيءِ(٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾

(ألَّا) بتشديدِ اللامِ أصلُها (أنْ لا)، فأُدغِمَت النُّونُ في اللامِ، و﴿يَسۡجُدُواْ﴾ فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ بـ(أن) المصدريَّةِ، بدلٌ مِن ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، والتَّقديرُ: وزيَّنَ لهم الشيطانُ عدَمَ السُّجودِ لله تعالى. وقيل: (لا) زائدةٌ، و(أنْ) وما دخَلت عليه في تأويلِ مَصدرٍ بدلٌ من ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾، والتقديرُ: فصَدَّهم عن السُّجودِ لله تعالى. وقيل: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ﴾ مفعولٌ له متعلِّقٌ بـ(زَيَّن)، أي: زَيَّن لهم لِئلَّا يَسجدُوا. أو متعلِّقٌ بـ(صَدَّهم)، أي: صَدَّهم عن السَّبيلِ لئلَّا يَسجُدوا. وقيل: هو في محلِّ رَفْعٍ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، على تقديرِ: هي ألَّا يَسجُدوا، أو دأبُهم ألَّا يسجدوا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣).

وقيل غيرُ ذلك.

وقُرِئَ ﴿أَلَا يَسْجُدُواْ﴾ بتخفيفِ اللَّامِ[١]، وكان حَقُّ الخَطِّ على هذه القراءةِ أن يكونَ (ألَا يا اسْجُدوا) و (ألَا) للاستفتاحِ والتَّنبيهِ، و (يا) أيضًا حرفُ تنبيهٍ، وقد جُمِعَ بيْنَهما تأكيدًا. وقيل: (يا) حرفُ نداءٍ، والمنادى مَحذوفٌ، أي: يا هؤلاءِ، و(اسجُدوا) فِعلُ أمرٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: وتعاهَدَ سُليمانُ عليه السَّلامُ الطَّيرَ فلم يرَ الهُدهدَ، وعندَها قال: لِماذا لا أرى الهدهُدَ، أم هو غائِبٌ؟ واللهِ لَأُعَذِّبَنَّه عذابًا شديدًا، أو لأذبحنَّه، أو لَيأتيَنِّي بحُجَّةٍ ظاهرةٍ أعذِرُه بها. وما هو إلَّا زمنٌ يَسيرٌ ثمَّ جاء الهدهدُ إلى سُليمانَ، فقال له: عَلِمتُ بشَيءٍ لا تَعلَمُه، وأتيتُك مِن بلادِ سَبأٍ باليَمَنِ بخَبرٍ حقٍّ! إنِّي وجدتُ امرأةً تملِكُ أهلَ سَبأٍ، وأُعطِيَتْ من كلِّ شَيءٍ، ولها سريرُ مُلكٍ عَظيمٌ؛ وجَدْتُها وقَومَها يَسجُدونَ للشَّمسِ مِن دونِ اللهِ، وحسَّن الشيطانُ لهم عبادةَ الشَّمسِ وغَيرَها من الأعمالِ السَّيِّئةِ، فصرَفَهم الشَّيطانُ عن الطَّريقِ المستقيمِ، فهم لا يهتدون لطَريقِ الحَقِّ؛ ألَّا يَسجُدوا لله الَّذي يُخرِجُ المخبوءَ في السَّمواتِ وفي الأرضِ، ويَعلَمُ ما تُخفونَه في صُدورِكم، وما تُظهِرونَه مِن أقوالِكم وأفعالِكم! اللهُ لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، ربُّ العرشِ العظيمِ.

قال سُليمانُ للهُدهدِ: سَنَنظُرُ في عُذرِك؛ لنعلَمَ هل صدقْتَ أم أنَّك كاذِبٌ،

---

(١) سيأتي بيانُ القراءاتِ في هذه الآيةِ.

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٠٨)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٠٢).

اذهَبْ إليهم بهذه الرِّسالةِ المكتوبةِ فألْقِها إليهم، ثمَّ انصَرِفْ عنهم إلى موضِعٍ قَريبٍ وانظُرْ جَوابَهم وما يتراجَعون به بيْنَهم مِنَ الكَلامِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾.

أي: وتعاهَدَ سُلَيمانُ الطَّيرَ[1]، فقال حينَ لم يَرَ الهدهُدَ: ما لي لا أرَى الهُدهُدَ[2]؟ أهو حاضِرٌ فأخطأَه بَصَري، أمْ أنَّه غاب بلا إذْني فلم يَحضُرْ[3]؟!

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

أي: قال سُلَيمانُ متغيِّظًا: واللهِ لأُعَذِّبَنَّ الهُدهُدَ عذابًا شديدًا؛ لغيابِه بلا إذْنٍ[4].

---

(١) قيل: ظاهِرُ الآيةِ يفيدُ أنه تفقَّد جميعَ الطَّيرِ. وممَّن قال بذلك: ابن عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٢) قولُه: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ قيل: هذا من مقلوبِ الكلامِ، أي: ما للهُدهدِ لا أراه، وجاز مِثلُ ذلك لوُضوحِ المعنَى، كما تقولُ العربُ: ما لي أراك مكتئبًا، أي: ما لَكَ؟

وقيل: لا حاجةَ إلى ادِّعاءِ القلبِ، بل هو استفهامٌ عن المانعِ له من رؤيةِ الهدهدِ، كأنَّه قال: ما ليَ لا أراه، هل ذلك لساترٍ يستُرُه عنِّي، أو لشَيءٍ آخَرَ؟ يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٦).

قال السعدي: (﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دونَ القتلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤). =

﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾.

أي: أو[١] لأقتُلَنَّه[٢].

﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: أو[٣] ليأتيَنِّي بحُجَّةٍ واضحةٍ تبيِّنُ عُذرَه في غيابِه[٤].

﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾.

﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾.

أي: فبَقِيَ الهدهُدُ غائبًا زمنًا يَسيرًا[٥]، ثمَّ جاء إلى سُلَيمانَ فقال له: عَلِمتُ

= وقال ابنُ عثيمين: (فالصَّوابُ أنَّ هذا التعذيبَ الذي قاله سليمانُ غيرُ معلوم لنا، إنَّما هو عذابٌ شديدٌ، والله تبارك وتعالى لم يُبَيِّنْه، ولكنْ يكفي أن نعرِفَ أنَّه شديدٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٢).

(١) قال ابن عثيمين: (﴿أَوۡ﴾ هذه للتَّنويعِ؛ يعني: إمَّا هذا، أو هذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٥).

(٣) قال البقاعي: (أي: لَيكونَنَّ أحَدُ هذه الثلاثةِ الأشياء، أو تكونُ ﴿أَوۡ﴾ الثَّانيةُ بمعنى (إلَّا أنْ)، فيكون المعنى: ليكونَنَّ أحَدُ الأمْرَينِ: التَّعذيبُ أو الذَّبحُ، إلَّا أن يأتيَني ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي: حُجَّةٍ واضحةٍ في عُذرِه، فكأنَّه قال: واللهِ لَيُقيمَنَّ عُذرَه، أو لأفعلَنَّ معه أحَدَ الأمْرَينِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٩، ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٣).

(٥) قال ابن عاشور: (المُكثُ: البقاءُ في المكانِ وملازمتُه زمَنًا ما... و﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ صفةٌ لاسمِ زمانٍ أو اسمِ مكانٍ محذوفٍ منصوبٍ على الظَّرفيةِ، أي: مكَثَ زمنًا غيرَ بعيدٍ، أو في مكانٍ غيرِ بعيدٍ، وكِلا المعنيينِ يقتضي أنَّه رجَعَ إلى سُلَيمانَ بعد زمنٍ قليلٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

بشَيءٍ لا تعلَمُه أنتَ[١]!

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

أي: وأتيتُك مِن بلادِ سَبَأٍ باليمَنِ بخَبَرٍ حقٍّ، وصِدقٍ لا شكَّ فيه[٢].

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾.

أي: قال الهدهدُ: إنِّي وجدتُ امرأةً تملِكُ أهلَ سَبأٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).
ممَّن قال بأنَّ قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ﴾ عائدٌ على الهدهدِ: البيضاويُّ، والنسفي، وابن كثير، والشوكاني، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. ونسَبَه القرطبيُّ للأكثَر. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٢).
وقيل: المَكثُ هنا عائدٌ على سُلَيمانَ عليه السَّلامُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٩٣).
قال القرطبيُّ: (الضميرُ في «مكث» يحتملُ أن يكونَ لِسُليمانَ، والمعنى: بقِيَ سليمانُ بعدَ التفقُّدِ والوعيدِ غيرَ طويلٍ، أي: غيرَ وقتٍ طويلٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).
قال الشوكاني: (سبأٌ: اسمٌ لمدينةٍ باليمنِ كانت فيها بِلْقِيسُ، وهو أيضًا اسمُ رجُلٍ مِن قَحْطانَ، وهو سبأُ بنُ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطانَ...). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).
=

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: وأُعطِيَتْ هذه الملِكةُ مِن كلِّ شَيءٍ[١].

﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: وسريرُ مُلكِها الذي تجلِسُ عليه ضَخمٌ، عَظيمُ القَدرِ، بديعٌ، حَسَنُ المنظَرِ[٢].

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وجَدْتُ هذه الملِكةَ وقومَها يَسجُدونَ للشَّمسِ فيَعبُدونَها مِن دونِ الله

= قال ابن باديس: (هي بِلْقِيسُ بإجماعِ المفسِّرينَ والمؤرِّخينَ). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

قال ابن تيميَّةَ: (﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فإنَّ كلَّ أحدٍ يعلَمُ بعَقلِه أنَّ المرادَ: أُوتيَت مِن جنسِ ما يُؤْتاهُ مِثلُها). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٦١).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ عمومٌ يُرادُ به الخصوصُ فيما يحتاجه الملكُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠١).

وقيل: المعنَى: أُوتِيَتْ من كلِّ شَيءٍ في زمانِها شيئًا، فحَذَف (شيئًا)؛ لأنَّ الكلامَ قد دلَّ عليه. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

قال السعدي: (وعِظَمُ العُروشِ يدُلُّ على عَظمةِ المملكةِ، وقوَّةِ السُّلطانِ، وكثرةِ رجالِ الشُّورى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

المستَحِقِّ وَحْدَه للعبادةِ[١]!

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: وحسَّن الشَّيطانُ لهؤلاء القَومِ المُشرِكينَ عبادةَ الشَّمسِ وغَيرَها من قبائِحِ الأعمالِ، فصاروا يظُنُّونَها حَسَنةً[٢].

﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾.

أي: فصرَفَهم بذلك التَّزيينِ عن اتِّباعِ الطَّريقِ المستقيمِ، فهم لا يَهتَدونَ لطَريقِ الحَقِّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾.

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿أَلَا يَا﴾ بتخفيفِ اللَّامِ، ويجوزُ الوقفُ عليها، والابتداءُ بـ (اسْجُدُوا)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٤).



بهمزةٍ مضمومةٍ، على أنَّ معنى (ألا) تنبيهٌ واستِفتاحٌ، و (يا) بعدَها حرفُ نداءٍ، أو تنبيهٌ كُرِّر للتَّوكيدِ، و (اسجُدوا) فِعلُ أمرٍ، والمعنى: ألَا يا هؤلاءِ اسجدُوا. وقيل: هو فعلٌ مضارعٌ حُذِفت منه نونُ الرَّفعِ بلا ناصبٍ ولا جازمٍ، وحذفُها بلا موجبٍ لغةٌ صحيحةٌ[١].

٢- قِراءةُ ﴿أَلَّا﴾ بتشديدِ اللَّامِ، وجَعْلِ (أن) النَّاصبةِ مُدغَمةً في (لا) النَّافية، و﴿يَسْجُدُواْ﴾ بالياءِ في أوَّلِها، أي: لئلَّا يَسجُدوا، والمعنى: صَدَّهم الشَّيطانُ عن الهُدى؛ لئلَّا يَسجُدوا لله. وقيل: المعنى: وزيَّن لهم الشَّيطانُ ألَّا يسجُدوا لله. وقيل: (لا) صِلةٌ للتأكيدِ، والمعنى: فصَدَّهم عن السَّبيلِ عدَمُ سُجودِهم لله. أو المعنى: فهُم لا يهتدون لِأَنْ يَسجُدوا لله، أي: للسُّجودِ لله[٢].

﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألَّا[٣] يَسجُدوا لله الذي يُخرِجُ المخبوءَ في السَّمواتِ، كالمطَرِ، والمخبوءَ في الأرضِ، كالنَّباتِ والثِّمارِ والكنوزِ والمعادنِ، وكالأمواتِ الذين يُخرِجُهم مِن قُبورِهم[٤].

---

(١) قرأ بها الكسائي وأبو جعفر ورويس. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٢- ١١٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٧١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٠).

(٣) تقدَّم ذكرُ الأوجهِ المتعدِّدة في معناها بحسَبِ قراءاتها وإعرابها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١-٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٩، ١١٠). =

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

أي: ويعلَمُ ما تُضمِرونَه في صُدورِكم، وما تُظهِرونَه مِن أقوالِكم وأفعالِكم[1].

كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ * سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٩، ١٠].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾.

أي: اللهُ لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه، مالِكُ العَرشِ العَظيمِ الذي لا يُشبِهُه عَرشُ مَلِكةِ سَبأٍ ولا غَيرُه مِن العُروشِ؛ فهذا المَلِكُ العَظيمُ السُّلطانِ هو مَن تنبغي عبادتُه وطاعتُه وَحْدَه[2].

= قال القرطبي: (قراءةُ التَّشديدِ في ﴿أَلَّا﴾ تعطي أنَّ الكلامَ للهدهدِ، وقراءةُ التخفيفِ تمنعُه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٧).

وقال الشوكاني: (وعلى هذه القراءةِ [أي: التشديد] تكونُ جملةُ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ معترِضةً من كلامِ الهدهدِ، أو مِن كلامِ سليمانَ، أو مِن كلامِ الله سبحانه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٥).

وقال ابن كثير: (وهذا مناسِبٌ مِن كلامِ الهدهدِ، الَّذي جَعَل اللهُ فيه مِن الخاصِّيَّةِ ما ذَكَره ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه، مِن أنَّه يَرَى الماءَ يجري في تخومِ الأرضِ ودواخِلِها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٤).

قال القرطبي في قولِه تعالى: ﴿تُخْفُونَ﴾ ﴿تُعْلِنُونَ﴾: (قراءةُ العامَّةِ فيهما بياءٍ، وهذه القراءةُ تعطي أنَّ الآيةَ مِن كلامِ الهدهدِ، وأنَّ اللهَ تعالى خصَّه مِن المعرفةِ بتوحيدِه ووجوبِ السُّجودِ له، وإنكارِ سجودِهم للشَّمسِ، وإضافتِه للشَّيطانِ، وتزيينِه لهم، ما خصَّ به غيرَه من الطُّيورِ وسائرِ الحَيوانِ، مِن المعارفِ اللَّطيفةِ الَّتي لا تكادُ العقولُ الرَّاجحةُ تهتدي لها. وقرأ الجحدري وعيسى بنُ عمر وحفصُ والكِسائيُّ: ﴿تُخْفُونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾ بالتَّاءِ على الخطابِ، وهذه القراءةُ تعطي أنَّ الآيةَ مِن خطابِ الله عزَّ وجلَّ لأُمَّةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: قال سُليمانُ للهُدهُدِ: سننظُرُ في عُذرِك لنعلَمَ هل صدقْتَ فيه فنَعذِرَك، أم أنَّك كاذِبٌ مِنَ الكاذبينَ[(١)]؟

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾.

أي: قال سُليمانُ للهُدهُدِ: اذهَبْ إلى أهلِ سبَأٍ بهذه الرِّسالةِ المكتوبةِ، فارْمِها إليهم[(٢)].

﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾.

أي: ثمَّ انصَرِفْ وتَنَحَّ عنهم إلى موضِعٍ قَريبٍ مِن ملِكةِ سَبأٍ وقَومِها، وانظُرْ جوابَهم وما يتراجَعون به بيْنَهم مِن الكَلامِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧١).

قال البقاعي: (شرَعَ فيما يختبرُه به، فكتب له كتابًا على الفورِ في غايةِ الوجازةِ؛ قصدًا للإسراعِ في إزالةِ المنكَرِ على تقديرِ صِدقِ الهدهد، بحسَبِ الاستطاعة). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٥٥).

وقال ابنُ عثيمين: (إذا قال قائلٌ: قولُه: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا ﴾ يقتضي أنَّه صَدَّقَه؛ لأنَّ قولَه: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ يدُلُّ على أنَّه صَدَّقَه في ذلك؛ ولهذا كَتَب لهم. أو يقالُ: هذا مِن جملةِ الاختبارِ، يعني: أنَّه إذا كان كاذبًا فسيقولُ: ما وجدْتُ أحدًا، مثلًا، فيكونُ هذا من جملةِ وسيلةِ الاختبارِ العائدةِ على قولِه: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾. وقد يقالُ: إنَّ في قولِه: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ تقديرًا: فنظَرَ وتحقَّق صِدقَه فأعطاه الكتابَ. والله أعلمُ بما جرى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ هذا التفقُّدُ منه أدَبٌ للمُلوكِ والأكابرِ في تَفَقُّدِ جُندِهم، واستِشفافِ أمرِهم، ومُقابلةِ مَن أخَلَّ منهم بشَرطِه مِن الإنكارِ بما يستحِقُّه[١]، ففي هذه الآيةِ دَليلٌ على تفَقُّدِ الإمامِ أحوالَ رعيَّتِه، والمحافظةِ عليهم. فانظُرْ إلى الهدهُدِ مع صِغَرِه كيف لم يَخْفَ على سُلَيمانَ حالُه[٢]. ومِن حقِّ الرعيةِ على راعيها أنْ يَتَفَقَّدَها، ويَتَعَرَّفَ أحوالَها؛ إذْ هو مسؤولٌ عنِ الجليلِ والدَّقيقِ منها، يُباشِرُ بنَفْسِه ما استطاع مباشرتَه منها، ويضَعُ الوسائلَ التي تُطْلِعُه على ما غاب عليه منها، ويُنيطُ بأهلِ الخبرةِ والمقدرةِ والأمانةِ تَفَقُّدَ أحوالِها حتى تكونَ أحوالُ كلِّ ناحيةٍ معروفةً مباشرةً لِمَن كُلِّفَ بها، فهذا سليمانُ -على عَظَمةِ مِلْكِه، واتِّساعِ جيْشِه، وكثرةِ أتْباعِه- قد تولَّى التفقُّدَ بنَفْسِه، ولم يُهْمِلْ أمْرَ الهدهدِ على صِغَرِه وصِغرِ مكانِه! وقد كان عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه يقول: (لو ماتتْ سَخْلَةٌ[٣] على شاطئِ الفُراتِ ضيعةً لخِفْتُ أنْ أُسألَ عنها)[٤]! وهذا التفقُّدُ والتَّعرُّفُ هو على كلِّ راعٍ في الأممِ، والجماعاتِ، والأُسَرِ، والرفاقِ، وكلِّ مَن كانت له رعيةٌ[٥].

= قال السيرافي: (قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ليس التولِّي الانصرافَ عنهم، وإنَّما معناه: تنحَّ عنهم بعدَ إلقاءِ الكتابِ إليهم، بحيثُ يكونُ منك بمرأًى ومسمعٍ، فانظُرْ ماذا يرجِعون مِن جوابِ الكتابِ). ((شرح كتاب سيبويه)) (٢/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ١٠٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٧٨).

(٣) السَّخْلةُ: تُطلَقُ على الذَّكرِ والأنثى من أولادِ الضَّأنِ والمَعزِ ساعةَ تُولَدُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٦٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦/ ١٣٧)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧٤١٥)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٥/ ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٦).

٢- قيلَ: إنَّما قال سُلَيمانُ عليه السَّلامُ: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ لأنَّه اعْتَبَرَ حالَ نفْسِه؛ إذْ عَلِم أنَّه أُوتِيَ المُلْكَ العَظيمَ، وسُخِّر له الخَلقُ، فقد لَزِمه حَقُّ الشُّكرِ بإقامةِ الطَّاعةِ، وإدامةِ العدلِ، فلمَّا فَقَدَ نعمةَ الهدهدِ تَوَقَّع أنْ يكونَ قَصَّر في حَقِّ الشُّكرِ، فلأجْلِه سُلِبها، فجَعَل يَتَفَقَّدُ نفْسَه، فقالَ: ﴿مَا لِيَ﴾. وهذا يفعلُه بعضُ الشيوخِ إذا فقَدوا ما لهم[1]، تَفقَّدوا أعمالَهم، هذا في الآدابِ، فكيفَ بنا اليومَ ونحنُ نُقَصِّرُ في الفرائضِ[2]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ أنَّ جِرْمَ الهدهدِ صغيرٌ، وما كُلِّفَ إلَّا بما يستطيعُه مِن الوقوفِ في مكانِه، والبقاءِ في مَركزِه، ولكنَّ جُرْمَه بإخلالِه بهذا الواجبِ كان جُرمًا كبيرًا، فإنَّ الخللَ الصغيرَ مَجْلبةٌ للخَللِ الكبيرِ، فقُدِّرَتْ عقوبتُه على حسَبِ كِبَرِ ذنْبِه، لا على حَسَبِ صِغَرِ ذاتِه[3]، قال العلماءُ: وهذا يدُلُّ على أنَّ الحَدَّ على قَدرِ الذَّنْبِ، لا على قَدرِ الجَسَدِ[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ﴾ أنَّ استعمالَ ضميرِ الجمعِ للمخاطَبِ المُعَظَّمِ ليس بلازمٍ، وليس مِن شأنِ خطابِ الأنبياءِ والسَّلفِ أنَّه عندَما يكونُ الإنسانُ معظَّمًا أن يقولَ: أتيتُكم، جئتُكم، وما أشبهَ ذلك[5].

---

(١) في ((أحكام القرآن)) لابن العربي: (آمالهم)، وفي إحدَى نسخ ((تفسير القرطبي)) (مالهم).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٧٩).

قال ابن باديس: (مثل هذه المعاني الدَّقيقةِ القرآنيَّةِ الجليلةِ النَّفيسةِ مِن مِثلِ هذا الإمامِ الجليلِ مِن أجَلِّ علومِ القرآنِ وذخائرِه؛ إذْ هي مَعانٍ صحيحةٌ في نفْسِها، ومأخوذةٌ مِن التَّركيبِ القرآنيِّ أخذًا عربيًّا صحيحًا، ولها ما يَشهدُ لها مِن أدلَّةِ الشَّرعِ. وكلُّ ما استجمَع هذه الشُّروطَ الثَّلاثةَ فهو صحيحٌ مقبولٌ). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٨).

٥- قال الله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الصَّغيرَ يقولُ للكبيرِ والمتعلِّمُ للعالِم: عندي ما ليس عندَك، إذا تحقَّق ذلك وتيقَّنه؛ هذا عُمَرُ بنُ الخطَّابِ -مع جلالتِه رَضِيَ الله عنه وعِلمِه- لم يكُنْ عندَه علمٌ بالاستئذانِ[١]، وكان عِلمُ التيمُّم عند عمَّارٍ وغيرِه، وغاب عن عُمَرَ[٢] وابنِ مَسعودٍ[٣]. وكان حُكمُ الإذنِ في أن تنفرَ الحائِضُ عندَ ابنِ عبَّاسٍ[٤]، ولم يعلَمْه زيدُ[٥] بنُ ثابتٍ[٦]! فلِلصَّغيرِ أنْ يقولَ للكبيرِ، وللحقيرِ أنْ يقولَ للجليلِ: عَلِمتُ ما لم تَعلمْ! وعندي ما ليس عندَك! إذا كان مِن ذلك على يقينٍ، وكان لِقَصدٍ صحيحٍ، ومِن ذلك قولُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [مريم: ٤٣]. ومِن أدبِ مَن قيلَ له ذلك -ولو كان كبيرًا جليلًا- أنْ يَتقبَّلَ ذلك، ولا يُبادِرَ بردِّه، وعليه أنْ يَنظُرَ فيه لِيعرفَ مِقدارَ صِدْقِ قائلِه، فيَقبلَه أو يَرُدَّه بعْدَ النَّظرِ والتَّأمُّلِ؛ إذْ قد يكونُ في أصغرِ مخلوقاتِ اللهِ وأحقَرِها مَن يُحيطُ علمًا بما لم يُحِطْ مِثلُ سليمانَ عليه السَّلامُ في علْمِه وحكمتِه، واتِّساعِ مُدركاتِه! وكفَى بمِثْلِ هذا زاجرًا لكُلِّ ذي علمٍ عنِ الإعجابِ بعلْمِه، والاعتزازِ بسَعةِ اطِّلاعِه، والترفُّعِ عنِ الاستفادةِ ممَّن دونَه[٧]. وقد سُئِلَ بعضُ أهلِ العِلمِ عن مسألةٍ فقال: لا أعلَمُها، فقال أحَدُ تلامذتِه: أنا أعلَمُ هذه المسألةَ، فغَضِبَ الأستاذُ وهَمَّ به، فقال له: أيُّها

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٣٨).

(٣) يُنظر ما أخرجه مسلم (٣٦٨).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٢٩)، ومسلم (١٣٢٨).

(٥) يُنظر ما أخرجه مسلم (١٣٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٧).

الأستاذُ، لَسْتَ أعلَمَ مِن سُليمانَ بنِ داودَ ولو بلغْتَ في العلم ما بلغْتَ، ولستُ أنا أجهَلَ مِن الهُدهدِ، وقد قال لسُليمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾! فلم يَعتِبْ عليه، ولم يعنِّفْه[1].

٦- في قَولِه تعالى عن سُليمانَ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ * فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ أنَّ سُليمانَ لَمَّا توعَّد الهدهدَ بأنْ يعذِّبه عذابًا شديدًا أو يذبَحه إنَّما نجا منه بالعِلم، وأقدَمَ عليه في خطابه له بقَولِه: أحطتُ بما لم تُحِطْ به خُبْرًا، وهذا الخِطابُ إنما جرَّأه عليه العِلمُ، وإلَّا فالهدهدُ مع ضَعفِه لا يتمكَّنُ مِن خطابِه لسُليمانَ مع قوَّتِه بمِثلِ هذا الخِطابِ لولا سلطانُ العِلمِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّ اللهَ قد ألهَمَ الحيواناتِ إلى ما قد يخفَى عن بعضِ العُقَلاءِ؛ فهذا الهُدْهُدُ بيْنَ الهَداهِدِ له إلهامٌ خاصٌّ، يقتضيه تخصيصُه بهذا الموقفِ، واتِّصالُه بسليمانَ عليه السَّلامُ. وزمنُ الأنبياءِ زمنُ خرْقِ العوائدِ، وظهورِ الآياتِ، وقد كان في حُسْنِ بيانِه، وترتيبِ أخبارِه، وبديعِ تهَدِّيه عبارةً بالغةً لأولي الألبابِ؛ فقد تَحَصَّنَ بالعِلمِ، ونَوَّهَ بالنَّبأِ المتيقَّنِ، وفَصَّلَ النَّبأَ فشَرَحَ حاليها الدُّنيويَّةَ والدِّينيَّةَ، وتَنَقَّلَ مِن تشويقٍ إلى تشويقٍ أبلَغَ منه، فكان مُتثبِّتًا فيما أَخبرَ، بارعًا فيما صَوَّرَ، مستَدلًّا فيما قَرَّرَ وفيما أَنْكَر، بصيرًا بكيدِ الشيطانِ للإنسانِ، خبيرًا بترتيبِ الأدلَّةِ وحُسْنِ الاستنتاجِ، وفيما ذَكَر اللهُ لنا مِن هذه العِبَرِ البالغةِ مِن هذا الحيوانِ الأعجمِ حَثٌّ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لنا على أنْ نَسْلُكَ عندَما نُخبِرُ ونُبيِّنُ، أو نبحثُ وننظرُ، أو نستَدِلُّ ونرتِّبُ ونُعَلِّلُ؛ أنْ نَسْلُكَ هذا المسلَكَ، وإذا كان اللهُ تعالى قد بَعَثَ غرابًا لِيتعلَّمَ منه ابنُ آدمَ كيف يواري سَوْءَةَ أخيه؛ فكذلك ذَكَرَ لنا أمْرَ هذا الهُدْهُدِ الممتازِ بيْنَ الهَداهِدِ؛ لِنقتَديَ به؛ تنبيهًا لنا على أخْذِ العلمِ مِن كلِّ أحدٍ، وللاستِفادةِ مِن كلِّ مخلوقٍ، وللشُّعورِ دائمًا بالنَّقصِ؛ للسَّلامةِ مِن شَرِّ أدواءِ الإنسانِ: العُجْبِ، والكِبْرِ، والغرورِ، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1] [يوسف: ٧٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ استحسانَ المرءِ لأعمالِه هو أصلُ ضلالِه، وتزيينُ الشيطانِ لتلك الأعمالِ هو أحدُ أسلحةِ الشيطانِ؛ فعلى المرءِ أنْ يتَّهمَ نفْسَه في كلِّ ما تدعوه إليه، وأنْ يَزِنَ جميعَ أعمالِه بميزانِ الشرعِ الدَّقيقِ، خصوصًا ما تشتدُّ رغبتُه فيه، ويَعظُمُ حُسنُه في عينيه[2]!

٩- في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ النَّهيُ عن استِحسانِ القبائحِ، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال سبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]. واستحسانُ المرءِ للقبائحِ وسيلةٌ إلى العملِ بها[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ مِن أساليبِ الهدايةِ القرآنيةِ إلى العُلومِ الكونيَّةِ أن يَعرِضَ علينا القرآنُ صُوَرًا مِن العالَمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٠٤).

العُلويِّ والسُّفليِّ في بيانٍ بديعٍ جذَّابٍ؛ يُشوِّقُنا إلى التأمُّلِ فيها، والعُمقِ في أسرارِها، وهنا يَذكُرُ لنا ما خَبَّأه في السَّمواتِ والأرضِ لنشتاقَ إليه، وننبعثَ في البحثِ عنه، واستجلاءِ حقائقِه ومنافِعِه، بدافعِ غريزةِ حُبِّ الاستطلاعِ، ومعرفةِ المجهولِ، وبمِثلِ هذا انبعثَ أسلافُنا في خِدمةِ العلمِ، واستثمارِ ما في الكَونِ إلى أقصَى ما استطاعوا، ومَهَّدوا بذلك السَّبيلَ لِمَن جاء بعدَهم، ولن نَعِزَّ عِزَّهم إلَّا إذا فهمنا الدِّينَ فهْمَهم، وخَدَمنا العِلمَ خِدمَتَهم[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ تحذيرُ العبدِ مِن المخالفةِ علنًا أو سِرًّا؛ لأنَّك إذا عَلِمْتَ بأنَّ اللهَ يعلمُ ما تُخفي وما تُعْلِنُ، يَلزَمُ مِن ذلك ألَّا تُخالِفَه، والإنسانُ لو عَلِم أنَّ المُعظَّمَ عندَه يعلَمُ بأفعالِه لتَرَك ما لا يُرضيه، لو عَلِمْتَ مثلًا أنَّ أباك أو الرجلَ الذي تحترمُه يَعْلَمُ بما تفعلُ؛ فهل تَفْعَلُ ما يخالِفُ رضاه؟ لا تفعلُ، لا سيَّما إذا كان محبوبًا لديك ومُعَظَّمًا، فإذا كان كذلك فالربُّ مِن بابٍ أَولى، ولهذا ينبغي لك كلَّما دعَتْك نفسُك إلى معصيةٍ، بل إلى مخالفةٍ بتركِ أمرٍ أو فعلِ نهيٍ، يجبُ عليك أن تتذكَّرَ هذا الأمرَ؛ أنَّ الله سبحانَه وتعالى يعلمُ مخالفتَك، فيلزمُ مِن هذا أن ترتدعَ[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أنَّه ينبغي التثبُّتُ في الخبرِ، لا سيما عندَ قيامِ الشُّبهاتِ، وما هي الشبهةُ القائمةُ هنا؟ أنَّ الهدهدَ قال ذلك مُدافَعةً، وأنَّه كان بعيدًا؛ لأنَّه قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، لكن لَمَّا كان هذا مقامَ دفاعٍ فإنه ينبغي أنْ يَتثبَّتَ الإنسانُ أكثرَ؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ مع أنَّه قال: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٧).

١٣- قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ قال وهبٌ: (أمرُه بالتولِّي حسنُ أدبٍ ليتنحَّى حسَبَ ما يُتأدَّبُ به مع الملوكِ، بمعنى: وكن قريبًا بحيثُ تسمَعُ مراجعاتِهم)[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أنَّ تَفَقُّدَ سليمانَ عليه السَّلامُ للطيرِ، وفقْدَه الهدهدَ: يدلُّ على كَمالِ حزْمِه وتدبيرِه للمُلْكِ بنفْسِه، وكمالِ فِطنتِه حتى فَقَدَ هذا الطائرَ الصغيرَ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ أنَّ هذا الهدهدَ كان مِن جنودِ سليمانَ التي حُشِرَتْ له، وقد كان في مكانِه الذي عُيِّنَ له وأُقيمَ فيه، فلما فارقَ وتَرَكَ الفُرجةَ في صفِّه، وأَوقعَ الخللَ في جنْسِه، استحقَّ العقابَ الصارمَ الذي لا هَوادةَ فيه، وهذا أصلٌ في صرامةِ أحكامِ الجُنديَّةِ وشدَّتِها؛ لِعظَمِ المسؤوليةِ التي تحمَّلَتْها، وتوقُّفِ سلامةِ الجميعِ على قيامِها بها، وعِظَمِ الخطرِ الذي يَعُمُّ الجميعَ إذا أخلَّتْ بها[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ جوازُ عقابِ الجنديِّ إذا خالفَ ما عُيِّنَ له مِن عملٍ، أو تَغيَّبَ عنه[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ جوازُ تأديبِ الحيواناتِ والبهائمِ بالضَّربِ عند تجاوزِها المعتادَ في أحوالِها، كتَقصيرِها في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٦).

المشيِ وإسراعِها ونحوِ ذلك(١).

٥- قال الله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ هذه الآيةُ دَليلٌ على أنَّ الطَّيرَ كانوا مكَلَّفين؛ إذ لا يُعاقَبُ على تَركِ فِعلٍ إلَّا مَن كُلِّفَ ذلك الفِعلَ(٢).

٦- قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ في هذا ردٌّ على مَن قال: إنَّ الأنبياءَ تعلَمُ الغَيبَ(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أنَّه كان في جوابِ الهدهدِ حجةٌ بيِّنةٌ لسببِ غيابِه، وذلك لأنَّه لم يذهبْ عابثًا، ولا لغرضٍ خاصٍّ به، وإنما ذَهَبَ مُستطلِعًا مكتشِفًا، فحَصَّلَ علمًا، وجاء بخبرٍ عظيمٍ في زمنٍ قصيرٍ، فرَجَحَتْ هذه الفوائدُ العظيمةُ بتركِه لمركزِه في الجندِ، فسقطتْ عنه المؤاخذةُ. فإنْ قيلَ: إنَّ أصلَ مفارقتِه لمركزِه دون استئذانٍ كان مخالفةً يَستوجبُ عليها العُقوبةَ؟

فالجوابُ: أنَّ هذه المخالفةَ كانت لقَصدٍ حَسَنٍ وهو الاستطلاعُ، وأثمرتْ خيرًا، فاستَحقَّ العفوَ عن تلك المخالفةِ التي كانت عن نظَرٍ، ولم تكُنْ عن تهاونٍ وانتهاكٍ للحُرْمَةِ، وهذه الآيةُ مأخذٌ مِن مآخذِ الأصلِ القائلِ: (إنَّ المخالِفَ للأمرِ عن غيرِ انتهاكٍ للحُرمَةِ لا يُؤاخَذُ بتلك المُخالفةِ)(٤).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ضَعفُ إدراكِ الإنسانِ مهما بلَغَ مِن المُلكِ ومِن القوةِ، ويدلُّ لهذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ فإنَّ هذا يُبيِّنُ ضَعفَ الإنسانِ، فهو ضعيفٌ في كلِّ شيءٍ؛ في

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٦).
(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٠).

القوى العقليةِ، والقوى الجِسميةِ. وكلُّ ما يمكنُ أن يُوصَفَ بالقوَّةِ والضَّعفِ، فإنَّ حالَ الإنسانِ فيه الضَّعفُ(١).

٩- ليس مِن شرْطِ الأفضلِ ألَّا يُنبِّهَهُ المفضولُ لأمرٍ مِن الأمورِ؛ فقد قال الهدهدُ لسُلَيمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾، وقد قال موسى للخَضِرِ: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾(٢) [الكهف: ٦٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ إبطالٌ لقَولِ الرَّافضةِ: إنَّ الإمامَ لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يكونُ في زمانِه مَن هو أعلمُ منه(٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ دَليلٌ واضحٌ على قَبولِ خبرِ الواحدِ مِن أيِّ جنسٍ كان مِن النَّاسِ وغيرِهم، إذا عُرِفَ صِدقُه، ألَا ترى أنَّ سليمانَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إنما كَفَّ عن عذابِه حيثُ أتاه بسُلطانٍ مبينٍ -الذي كان استثنى- فهَلَّا عَذَّبَه لو لم يَقبَلْ خبرَه، وقال له: أنت واحدٌ لا أقبَلُ خبرَك عن سَبَأٍ حتى يُخبِرَ به معك غيرُك مِن الطَّيرِ؟! وليس في قَولِه: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ما يُوهِنُ ما قُلْناه، ألَا ترى ائتَمَنَه في حَملِ كتابِه ورَدِّ جوابِه وهو واحِدٌ(٤)؟!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ أنَّه ينبغي للمتكلِّمِ أن يُؤكِّدَ الخبرَ للمخاطَبِ عندَ الحاجةِ إليه؛ لِقَولِه: ﴿بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٨).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿مِن سَبَإٍ﴾ صُرِفَ؛ لأنَّه في الأصلِ اسمُ رجُلٍ غَلَبَ على اسمِ بلدٍ[١].

١٤- قولُه: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ لا يدلُّ على جوازِ أنْ تكونَ المرأةُ ملكةً؛ لأنَّ ذلك كان مِن فعلِ قومِ بلقيسَ، وهم كفَّارٌ، فلا حجَّةَ في ذلك، وفي الحديثِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لما بلَغه أنَّ أهلَ فارسَ قد ملَّكوا عليهم بنتَ كِسرَى قال: ((لن يُفلِحَ قومٌ ولَّوْا أمرَهم امرأةً))[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ وصفُ العرشِ بالعظمةِ دَليلٌ على أنَّ مِثلَ هذه الأوصافِ تَصِحُّ للهِ تعالى ولغيرِه، ولكنَّ اتِّصافَ اللهِ بها لا يُماثِلُه شيءٌ مِن اتِّصافِ المخلوقِ بها؛ فإنَّ صفاتِ الخالقِ تليقُ به، وصفاتِ المخلوقِ تليقُ به[٣].

١٦- إنْ قيل: كيف استعظَمَ عَرشَها مع ما كان يرى مِن مُلكِ سُلَيمانَ؟

فالجوابُ: أنَّه يجوزُ أن يستصغِرَ حالَها إلى حالِ سُلَيمانَ، فاستعظم لها ذلك العَرشَ، ويجوزُ ألَّا يكونَ لسُلَيمانَ مِثلُه وإن عَظُمَت مَملكتُه في كلِّ شَيءٍ، كما يكونُ لِبَعضِ أمراءِ الأطرافِ شَيءٌ لا يكونُ مِثلُه للمَلِكِ الذي يملِكُ عليهم أمْرَهم ويَستخدِمُهم[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الخلْقَ مفطورون على إنكارِ الشِّركِ؛ لأنَّ الهدهدَ أنكرَ عليهم شِرْكَهم، مع أنَّ الهدهدَ

---

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ١٠٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٧). والحديث أخرجه البخاري (٤٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥٤).

ليس مِن العُقلاءِ، لكنَّ جميعَ الحيواناتِ بل والمخلوقاتِ غيرِ الحيواناتِ مفطورةٌ على توحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[1] [الإسراء: ٤٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الإنسانَ يُذَمُّ على فِعلِه أو يُمدَحُ على فِعْلِه؛ لأنَّ الهدهدَ ساق ذلك على سبيلِ الذَّمِّ، والغَرَضُ مِن ذِكْرِ هذه الفائدةِ: الوصولُ إلى أنَّ فِعلَ الإنسانِ باختيارِه؛ إذ لو كان مُجبَرًا عليه لم يَصِحَّ أن يكونَ مَحَلًّا للذَّمِّ أو للمَدحِ؛ لأنَّ الذي يُجبَرُ على العَمَلِ لا يُمدَحُ عليه إنْ كان خَيرًا، ولا يُذَمُّ عليه إنْ كان سُوءًا، ولكِنَّه هو فَعَلَه. ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: إبطالُ قولِ الجبريةِ الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عملِه؛ لأنَّه إذا كان مُجبَرًا لم يكن أهلًا للثَّناءِ في الخيرِ أو في الشَّرِّ[2].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ * أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ﴾ النَّهيُ عن السجودِ للشَّمسِ هو نهيٌ عمَّا هو دونها بطريقِ الأَولى مِن الكَواكبِ والأشجارِ وغيرِ ذلك؛ فالشمسُ أعظمُ ما يُرى في عالَمِ الشَّهادةِ، وأعَمُّه نفعًا وتأثيرًا[3].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّ الأعمالَ السيئةَ مِن تزيينِ الشيطانِ، وهنا سؤالٌ: وهو كيف يُجمَعُ بين هذه الآيةِ وبين قَولِه تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [النمل: ٤] فأضاف اللهُ التَّزيينَ إليه، وهنا أضافه إلى الشَّيطانِ، وفي آيةٍ ثالثةٍ: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ [التوبة: ٣٧] مبيِّنًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٤٦).

للمجهولِ؟!

والجوابُ: هذه لا تُعارِضُ الآياتِ الأخرى، فيضافُ إلى اللهِ تقديرًا، وإلى الشَّيطانِ مُباشَرةً(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ سبيلَ اللهِ سبحانه وتعالى واحدٌ، وسُبُلَ الشَّرِّ متعَدِّدةٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ ولهذا قال العلماءُ: الإسلامُ ملةٌ، والكُفرُ مِلَلٌ؛ الكُفرُ: يهوديةٌ، نصرانيةٌ، وثنيَّةٌ، ومجوسيَّةٌ، إلى آخرِه. مِلَلٌ لأنَّها سُبُلٌ متعددةٌ، وأمَّا الحقُّ فسبيلُه واحدٌ(٢).

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ أنَّه إذا زُيِّنَ للإنسانِ سُوءُ عمَلِه فَصُدَّ بذلك عن السَّبيلِ -والعياذُ باللهِ سُبحانَه وتعالى- فإنَّه لا يهتدي ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾، وهذا هو البلاءُ: أنَّ الإنسانَ يرى القَبيحَ حَسَنًا، فهذا لا يَكادُ يُقلِعُ، لكِنْ مَن كان يرَى القبيحَ قَبيحًا فإنَّه يمكِنُه أن يُقلِعَ(٣).

٢٣- قال تعالى عن الهُدهُدِ يخاطِبُ نبيَّ اللهِ سُلَيمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٢، ٢٤] في هذا السِّياقِ عَشرُ قَضايا يُدرِكُها الهُدهُدُ ويُفصِحُ عنها لنبيِّ الله سُلَيمانَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأولى: إدراكُه أنَّه أحاط بما لم يكُنْ في عِلمِ سُلَيمانَ.

الثانية: معرفتُه لسبأٍ بِعَينِها دونَ غَيرِها، ومجيئُه منها بنبأٍ يقينٍ لا شَكَّ فيه.

الثالثة: معرفتُه لتوليةِ المرأةِ عليهم مع إنكارِه ذلك عليهم.

الرابعة: إدراكُه ما أوتِيَتْه سبأٌ مِن متاعِ الدُّنيا مِن كُلِّ شَيءٍ.

الخامسة: أنَّ لها عرشًا عظيمًا.

السادسة: إدراكُه ما هم عليه من السُّجودِ للشَّمسِ مِن دُونِ الله.

السابعة: إدراكُه أنَّ هذا شِركٌ بالله تعالى.

الثامنة: أنَّ هذا مِن تزيينِ الشَّيطانِ لهم أعمالَهم.

التاسعة: أنَّ هذا ضلالٌ عن السَّبيلِ القويمِ.

العاشرة: أنَّهم لا يهتدونَ.

وقد اقتنع سُلَيمانُ بإدراكِ الهُدهدِ لهذا كُلِّه، فقال له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]، وسَلَّمه رسالةً، وبعثه سفيرًا إلى بِلقيسَ وقَومِها: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨]، وكانت سِفارةً مُوفَّقةً(١).

٢٤- إنْ قيل: كيف خَفِيَ على سُليمانَ مكانُ تلك المملكةِ العظيمةِ؟

والجوابُ: لعَلَّ اللهَ تعالى أخفَى عنه ذلك لمصلحةٍ عَلِمَها، كما أخفَى مكانَ يوسُفَ على يعقوبَ عليهما السَّلامُ(٢).

٢٥- قولُه: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إلى قولِه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ

(١) يُنظر: ((تتمه أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٤).

﴿لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قد جمَعَ هذا القولُ الَّذي أُلْقِيَ إلى سُليمانَ أُصولَ الجُغرافيَّةِ السِّياسيَّةِ مِن صِفَةِ المكانِ والأدْيانِ، وصِبْغَةِ الدَّولةِ وثَروتِها، ووقَعَ الاهتمامُ بأخبارِ مَمْلكةِ سبَأٍ؛ لأنَّ ذلك أهمُّ لمُلْكِ سُليمانَ؛ إذ كانت مُجاورةً لِمَمْلكتِه؛ فأُمورُ هذه المملَكةِ أَجْدى بعَمَلِه[1].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ هذان الوصفانِ -إخراجُ الخبءِ، والعلمُ بما يُبطِنُ العبدُ وما يُعلِنُه- لا يكونان لأحدٍ مِن المخلوقين، لا للشَّمسِ ولا لغيرِ الشَّمسِ، وإنما ذلك خاصٌّ باللهِ تبارك وتعالى؛ ولهذا جَعَلَه الهدهدُ مِن الأسبابِ التي تَستلزِمُ أنْ تكونَ العبادةُ للهِ وحدَه؛ لأنَّه العالِمُ بها، ولا يمكِنُ أن يُؤتَى بوَصفٍ يَستلزِمُ العبادةَ إلَّا إذا كان خاصًّا بالله؛ لأنَّه يُؤتَى بهذا الوَصفِ استدلالًا على بُطلانِ عبادةِ ما سواه، ولو كان ممَّا يمكِنُ أن يكونَ لله، لم يكُنْ ذلك دليلًا على اختِصاصِ الله تعالى بالعبوديَّةِ؛ إذ قد يقولُ العابدُ للشَّيءِ: وهذا وصفٌ أيضًا موجودٌ في معبودي، فأنا أعبُدُه! فالمهِمُّ أنَّه لا يمكِنُ أن تُقامَ الحُجَّةُ إلَّا بدليلٍ خاصٍّ بالمحتَجِّ له، يعني: أنَّه لا يمكِنُ أن تقيمَ الحُجَّةَ بأنَّ العبادةَ لله وحده إلَّا بوصفٍ خاصٍّ باللهِ[2].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ الظواهرَ دلائلُ البواطنِ؛ فالمرءُ يُعرَفُ مِن سُبُحاتِ وَجهه وفلتاتِ لسانِه، وكثيرًا ما تدلُّ كلماتُه على مِهنتِه أو فكرتِه وعقيدتِه، كما تدلُّ هيئتُه أو لِبْستُه وشمائلُه؛ وما يباشِرُه المرءُ تنطبعُ به نفْسُه، ويصطبغُ خيالُه، فيجري على لسانِه في تشبيهاتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥٨).

وتمثيلاتِه وفنونِ قولِه، فقد تختلِفُ العباراتُ عن شيءٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ باختلافِ نفسياتِ المتكلِّمين عليه، وقد عُرِفَ الهدهدُ بينَ الطيورِ بثقوبِ البصرِ، والاهتداءِ إلى الماءِ في جَوفِ الأرضِ، خصوصًا هدهدُ سليمانَ الممتازُ بين الهداهدِ، فلمَّا استدلَّ ذَكرَ مِن صُنعِ اللهِ ما هو أقربُ إليه، وأغلبُ عليه، وهو إخراجُ الخبءِ الذي منه الماءُ المخبوءُ في جَوفِ الأرضِ[1].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ دَلالةَ الصَّنعةِ على الصانعِ نظريةٌ عقليةٌ قطعيةٌ؛ فكلُّ ذي صَنعةٍ في مُكْنتِه أنْ يَستدِلَّ بصنعتِه على وجودِ خالقِ هذا العالَمِ وكمالِه، يُشاهِدُ أنَّ صنعتَه ما كانت إلَّا به، وبما له مِن قُدرةٍ فيها وعِلْمٍ بها؛ فهداه ذلك إلى أنَّ هذا العالَمَ ما كان إلَّا مِن خالقٍ قادرٍ عالِمٍ، فالهدهدُ ذَكَرَ ما هو مِن عَمَلِه في الاستدلالِ على وجودِ الخالقِ تعالى ووحدانيَّتِه، ومِثلُه كلُّ ذي صنعةٍ.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدُلُّ على أنَّه الواحِدُ[2]

٢٩- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فيه سَعَةُ علمِ اللهِ، واستدلَّ به الشافعيُّ على ثبوتِ القَدَرِ؛ فثبوتُ علمِ اللهِ تعالى لأفعالِ العبدِ دَليلٌ على تقديرِه لها[3].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ سؤالٌ؛ مِن أين للهدهدِ التهدي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٩).

والبيت لأبي العتاهية. يُنظر: ((التمثيل والمحاضرة)) للثعالبي (ص: ١١)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (١٣/ ٤٥٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٤/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥٩). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٣٤٩)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٢٤٧).

إلى معرفةِ اللهِ، ووجوبِ السجودِ له، وإنكارِ السجودِ للشمسِ، وإضافتِه إلى الشيطانِ وتزيينِه؟!

الجوابُ: أنه لا يَبْعُدُ أنْ يُلْهِمَه اللهُ ذلك كما ألهمَه وغيرَه مِن الطيورِ وسائرِ الحيواناتِ المعارفَ اللطيفةَ التي لا يكادُ العقلاءُ الرجاح العقول يهتدون لها، خصوصًا في زمانِ نبيٍّ سُخِّرَتْ له الطيورُ، وعُلِّمَ منْطِقَها، وجُعِلَ ذلك معجزةً له[1]. فضلًا عن إخبارِ الله عزَّ وجلَّ أنَّه ما مِن شيءٍ إلا يُسبِّحُ بحمدِه سبحانَه؛ ومِن ذلك الطيرُ.

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ قَبولُ الوالي عُذرَ رعيَّتِه، وردُّ العُقوبةِ عنهم، وامتحانُ صدْقِهم فيما اعتَذَروا به[2].

٣٢- في قَولِه تعالى على لِسانِ سُلَيمانَ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أنَّ الحيواناتِ تَعقِلُ ما يُوَجَّهُ إليها مِن الأمرِ والنَّهي والاختبارِ والفَحصِ؛ لِقَولِه: ﴿ٱذْهَب﴾، وقَولِه: ﴿فَأَلْقِهْ﴾، وقَولِه: ﴿تَوَلَّ﴾، وقَولِه: ﴿فَٱنظُرْ﴾ كلُّ هذه أوامرُ للهدهدِ؛ مما يدلُّ على أنَّ هذه الحيواناتِ تَعقِلُ، ولكنْ ليس معنى قولنا: (إنها تَعقِلُ) أنْ تكونَ عاقلةً لكلِّ أحدٍ، صحيحٌ أنَّها تَعْقِلُ عقلًا محدودًا بالنِّسبةِ لعامَّةِ النَّاسِ؛ ولهذا تُزجَرُ البَهيمةُ فتنزَجِرُ، وتدعوها فتُقْبِلُ، ولكنْ ليس هذا كمِثلِ تسخيرِها لسليمانَ عليه الصلاةُ والسلامُ؛ فإنَّ تسخيرَها لسليمانَ أنَّها تُنَزَّلُ منه منزلةَ الإنسانِ العاقلِ الفاهمِ مِن كلِّ وجهٍ[3].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على إرسالِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧١).

الكُتُبِ إلى المُشرِكين مِن الإمام، يُبَلِّغُهم الدَّعوةَ، ويدعوهم إلى الإسلامِ، وقد كتب رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى كسرى وقيصرَ وغَيرِهما مِن مُلوكِ العَربِ[(١)].

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ أنَّه ينبغي تَحَسُّسُ الأخبارِ عندَ الحاجةِ لذلك، وهذا ما يُسمَّى بالمتابعةِ؛ لقوله: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾، فإنه إذا تولى وجَعَلَ يَنْظُرُ لا بُدّ أنْ تتبيَّنَ له الأخبارُ، فلو أنَّه ما تولَّى عنهم فألقاه وبقيَ فقد لا يتكلَّمون بالأشياءِ التي يتكلَّمون بها إذا كان حاضرًا لديهم، لكنْ إذا تولَّى عنهم حينئذٍ وجَدوا لأنفسهم مجالًا للكلامِ حسبَ ما يريدون، وهذا مِن السياقِ[(٢)].

٣٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ إرسالُ الطَّيرِ بالكُتُبِ[(٣)].

٣٦- تَخصيصُ سُليمانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الهُدهدَ بالرِّسالةِ في قولِه: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ دونَ سائرِ ما تحتَ مُلكِه مِن أُمَناءِ الجنِّ الأقوياءِ على التَّصرُّفِ والتَّعرُّفِ؛ لِمَا عايَنَ فيه مِن مَخايلِ العِلْمِ والحِكمةِ وصِحَّةِ الفراسةِ، ولئلَّا يَبْقى له عُذْرٌ أصلًا[(٤)]. ولأنَّه الذي وقَف على حالِهم.

بلاغةُ الآياتِ:

١ – قولُه تعالَى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾

– قولُه: ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ في الكلامِ مَحذوفٌ، أي: فَقَدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

الهُدهدَ حينَ تفقَّدَ الطَّيرَ، فقالَ: ...[١]. ومَقصدُ الكلامِ: الهُدهدُ غابَ، ولكنَّه أخَذَ اللَّازمَ عن مَغيبِه، وهو ألَّا يَراهُ؛ فاسْتَفهَمَ على جِهةِ التَّوقيفِ عن اللَّازمِ، وهذا ضَربٌ مِن الإيجازِ، والاستِفهامُ الَّذي في قولِه: ﴿مَالِيَ﴾ نابَ مَنابَ الألِفِ الَّتي تَحتاجُها (أمْ)، فعلى ذلك (أَمْ) مُتَّصلةٌ[٢]. وقيل: الأصحُّ أنَّ (أَمْ) مُنقطعةٌ[٣]؛ لأنَّها لم تقَعْ بعدَ هَمزةِ الاستِفهامِ الَّتي يُطلَبُ بها تَعيينُ أحدِ الشَّيئينِ؛ كأنَّه لَمَّا لمْ يَرَهُ ظنَّ أنَّه حاضرٌ، ولا يَراهُ لساترٍ أو غيرِه، فقال: ما لِيَ لا أَراهُ، ثمَّ احتاطَ، فَلَاحَ له أنَّه غائبٌ، فأضْرَبَ عن ذلك وأخَذَ يَقولُ: أهو غائِبٌ؛ كأنَّه يَسأَلُ عن صِحَّةِ ما لَاحَ له؛ فأفادَتْ (أم) هنا إضرابَ الانتقالِ من استِفهامٍ إلى استِفهامٍ آخَرَ[٤].

- وقيل: ﴿كَانَ﴾ هاهنا بمعنى صار؛ لأنَّه لم يستفهِمْ وهو حاضِرٌ، إنما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣).

ممَّن ذهب في الجملة إلى أنَّ أمْ هنا متصلةٌ: ابنُ جرير، وهو ظاهر كلام ابن عطية، وذهب إليه البقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٣) وممَّن ذهب إلى أن ﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة: المُبَرِّد، والزجاج، والزمخشري، والبيضاوي، وابن عثيمين، والمعنى عند الزجاج: بل كان مِن الغائبينَ. والمعنى عند المبردِ، والزمخشري، والبيضاوي، وابن عثيمين: بل أكان من الغائبين؟ يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٩٧، ١٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٥، ٢٤٦).

استفهَمَ عنه وهو غائِبٌ، وإذا حُمِلَت (كان) على لفظِها صار المعنى أنَّه استفهَمَ عنه وهو حاضِرٌ، ولم يكُنْ كذلك، بل كان غائبًا وقت الاستفهامِ، فـ﴿كَانَ﴾ محمولةٌ على معنى صار، وبذلك يتِمُّ المعنى[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أكَّدَ عَزْمَه على عِقابِه بتأْكيدِ الجُملتين ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ باللَّام المُؤكِّدةِ الَّتي تُسمَّى لامَ القسَمِ، وبنُونِ التَّوكيدِ؛ لِيَعلَمَ الجُندُ ذلك، حتَّى إذا فقَدَ الهُدهدَ ولم يَرجِعْ، يكونُ ذلك التَّأكيدُ زاجرًا لباقي الجُندِ عن أنْ يأْتوا بمِثلِ فِعْلته، فيَنالَهم العِقابُ. وتأكيدُ جُملةِ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ لإفادةِ تَحقيقِ أنَّه لا مَنْجَى له مِن العِقابِ إلَّا أنْ يأتِيَ بحُجَّةٍ تُبرِّرُ تَغيُّبَه؛ لأنَّ سِياقَ تلك الجُملةِ يُفيدُ أنَّ مَضمونَها عَديلُ العُقوبةِ؛ فلمَّا كان العِقابُ مُؤكَّدًا مُحقَّقًا فقد اقْتَضَى تأْكيدَ المُخْرِجِ منه؛ لئلَّا يُبرِّئَه منه إلَّا تَحقُّقُ الإتيانِ بحُجَّةٍ ظاهرةٍ؛ لئلَّا تُتَوَهَّمَ هَوادةٌ في الإدلاءِ بالحُجَّةِ؛ فكان تأْكيدُ العديلِ كتأْكيدِ مُعادِلِه[2].

- وفي قولِه: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ بدَأَ أوَّلًا بأخفِّ العِقابين، وهو التَّعذيبُ، ثمَّ أتْبعَهُ بالأشدِّ، وهو إذهابُ المُهجَةِ بالذَّبْحِ[3]. وقيل: قدَّمَ التَّعذيبَ؛ لأنَّه أشدُّ مِن القتْلِ، وحالةُ الغضَبِ تَقْتضي تقديمَ الأشدِّ[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٨).

- قولُه: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الحِكايةِ، عَطَفَتْ جُملةً على جُملةٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ وَصَف مُكْثَه بقِصَرِ المدَّةِ؛ للدَّلالةِ على إسراعِه خوفًا مِن سُليمانَ، وليُعلَمَ كيف كان الطَّيرُ مُسخَّرًا له، ولبَيانِ ما أُعْطِيَ مِن المُعجزةِ الدَّالَّةِ على نُبوَّتِه وعلى قُدرةِ اللهِ تعالى[٢]؛ فـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، أي: قريبٌ قُربًا يُوصَفُ بضِدِّ البُعدِ، أي: يُوشِكُ أنْ يكونَ بعيدًا. وهذا وجْهُ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ لأنَّ (غيرَ) تُفيدُ دفْعَ تَوَهُّمِ أنْ يكونَ بعيدًا، وإنَّما يُتَوَهَّمُ ذلك إذا كان القُرْبُ يُشبِهُ البُعْدَ[٣].

- وفي الكَلامِ حَذْفٌ؛ فإنْ كان ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ زَمانًا، فالتَّقديرُ: فجاء سُليمانُ، فسأَلَهُ: ما غيَّبَك؟ فقال: أحطْتُ... وإنْ كان مَكانًا، فالتَّقديرُ: فجاء فوقَفَ مكانًا قَريبًا مِن سُليمانَ، فسَأَلَهُ: ما غيَّبَك[٤]؟

- قولُه: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ الفاءُ في ﴿فَقَالَ﴾ عاطفةٌ على (مكَثَ)، وجعَلَ القولَ عَقِيبَ المُكثِ؛ لأنَّه لَمَّا حضَرَ صدَرَ القولُ مِن جِهتِه؛ فالتَّعقيبُ حقيقيٌّ[٥].

- قولُه: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وَصْفُ النَّبأِ بـ ﴿يَقِينٍ﴾ تَحقيقٌ لكَونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٩).

ما سيُلْقَى إليه شَيئًا مُحقَّقًا لا شُبْهةَ فيه؛ فوُصِفَ بالمصدرِ للمُبالَغةِ(١).

- قولُه: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ إنَّما قالَ ذلِكَ حتَّى تَتشوَّفَ النَّفْسُ إلى مَعرفةِ ذلك المُبْهَمِ ما هو. ولَمَّا أبهَمَ في قولِه: ﴿بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾، انتقَلَ إلى ما هو أقلُّ منه إبْهامًا، وهو قولُه: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾؛ إذ فيه إخبارٌ بالمكانِ الَّذي جاء منه، وأنَّه له عِلْمٌ بخَبرٍ مُسْتيقَنٍ له(٢). فعبَّر عنه بما ذُكِرَ؛ لِتَرويجِ كلامِه عنده عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَرغيبِه في الإصغاءِ إلى اعتذارِه واستمالةِ قلْبِه نحوَ قَبولِه؛ فإنَّ النَّفسَ للاعتذارِ المُنْبِئِ عن أمْرٍ بَديعٍ أقْبَلُ، وإلى تَلقِّي ما لا تَعلمُهُ أمْيَلُ(٣).

وقيل: هذا وَحْيٌ لِسُليمانَ أجْراهُ اللهُ على لِسانِ الهُدهدِ؛ فابْتِداؤُهُ بـ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ تَنبيهٌ لِسُليمانَ بأنَّ في مَخلوقاتِ اللهِ مَمالكَ ومُلوكًا تُداني مُلْكه أو تَفوقُه في بعضِ أحوالِ المُلْكِ، جعَلهُ اللهُ مَثَلًا له، كما جَعَلَ عِلْمَ الخَضِرِ مَثَلًا لِمُوسى عليه السَّلامُ؛ لئلَّا يَغتَرَّ بانتهاءِ الأمرِ إلى ما بلَغَهُ هو. وفيه استدعاءٌ لإقبالِه على ما سيُلْقَى إليه بجملتِه؛ لأهميَّةِ هذا المَطلعِ في الكلامِ؛ فإنَّ مَعرفةَ أحوالِ المَمالكِ والأُمَمِ مِن أهمِّ ما يُعْنى به مُلوكُ الصَّلاحِ؛ لِيَكونوا على استعدادٍ بما يُفاجِئُهم مِن تِلْقائِها، ولتكونَ مِن دَواعي الازدِيادِ مِن العمَلِ النَّافعِ للمَمْلكةِ بالاقتداءِ بالنَّافعِ مِن أحوالِ غَيرِها، والانقباضِ عمَّا في أحوالِ المملكةِ مِن الخَلَلِ بمُشاهَدةِ آثارِ مِثْلِه في غيرِها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٩).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ استِئنافٌ ببَيانِ ما جاء به مِن النَّبأ، وتَفصيلٌ له بَعدَ الإجمالِ. وإدخالُ (إنَّ) في صَدرِ هذه الجُملةِ لأهميَّةِ الخبَرِ؛ إذ لم يكُنْ مَعهودًا في بني إسرائيلَ أنْ تكونَ المرأةُ مَلِكًا. وتَنكيرُ ﴿ٱمۡرَأَةٗ﴾ وهو مفعولٌ أوَّلُ لـ ﴿وَجَدتُّ﴾ له حُكْمُ المبتدأ، فهو كالابتداءِ بالنَّكرةِ إذا أُريدَ بالنَّكرةِ التَّعجُّبُ مِن جِنْسِها، كقولِهم: بقرةٌ تكلَّمَت؛ لأنَّ المُرادَ حِكايةُ أمرٍ عَجيبٍ عندهم؛ أنْ تكونَ امرأةٌ مَلِكةً على قومٍ؛ ولذلك لم يقُلْ: وجَدْتُهم تَملِكُهم امرأةٌ[1]، وأيضًا عبَّرَ بالمُضارعِ ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ تَصويرًا للحالِ العجيبِ، وهو أنْ تَتولَّى مُلْكَهم امرأةٌ[2].

- وإيثارُ ﴿وَجَدتُّ﴾ على (رأيتُ)؛ للإيذانِ بكَونِه عندَ غَيبتِه بصَددِ خِدْمتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بإبرازِ نفْسِه في مَعرِضِ مَن يَتفقَّدُ أحوالَها ويَتعرَّفُها كأنَّها طِلْبتُه وضالَّتُه؛ لِيَعرِضَها على سُليمانَ عليه السَّلامُ[3].

- وبِناءُ الفِعلِ (أُوتِيَتْ) للمَفعولِ؛ لأنَّ الغرَضَ لا يَتعلَّقُ بتَعْيينِ أسبابِ ما نالَتْه، بلِ المقصودُ ما نالَتْه، على أنَّ الوَسائلَ والأسبابَ شَتَّى؛ فمنه ما كان إرثًا مِن الملوكِ الَّذين سَلَفوها، ومنه ما كان كَسْبًا مِن كَسْبِها واقتنائِها، ومنه ما وَهَبَها اللهُ مِن عَقْلٍ وحِكمةٍ، وما منَحَ بلادَها مِن خَصْبٍ ووَفرةِ مياهٍ؛ فليس

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨١).

المُرادُ خُصوصَ ما آتاها اللهُ في أصْلِ خِلْقَتِها وخِلْقةِ أُمَّتِها وبلادِها؛ ولذا فلم يَتعيَّنِ الفاعلُ عُرْفًا. وكلٌّ مِن عندِ اللهِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ وصَفَ العَرشَ بذلك بيْنَ يَديهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لتَرغيبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الإصغاءِ إلى حَديثِه، وتَوجيهِ عَزيمتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نحوَ تَسخيرِها؛ ولذلك عقَّبَه بما أوجَبَ غَزْوَها مِن كُفرِها وكُفْرِ قَومِها[(٢)].

- والهُدهدُ الَّذي شاهَدَ مُلْكَ سُليمانَ وعظَمَتَه، قد استعظَمَ مُلْكَها وعَرشَها، وعَظمةُ العرشِ عُنوانُ عَظمةِ المُلْكِ؛ فلذا خصَّصَهُ الهُدهدُ بالذِّكْرِ، ورغَّبَ سُليمانَ في الإتيانِ به[(٣)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ...﴾ أعقَبَ التَّنويهَ بشأنِها بالحَطِّ مِن حالِ اعتِقادِهم؛ إذ هم يَسْجُدون، أي: يَعبُدون الشَّمسَ؛ ولأجْلِ الاهتِمامِ بهذا الخبَرِ أُعِيدَ فِعلُ ﴿وَجَدتُّهَا﴾؛ إنكارًا لكَونِهم يَسْجُدون للشَّمسِ، فذلك مِن انحطاطِ العقليَّةِ الاعتقاديَّةِ؛ فكان انحطاطُهم في الجانبِ الغيبيِّ مِن التَّفكيرِ، وهو ما يَظهَرُ فيه تَفاوُتُ عرضِ العُقولِ علَى الحَقائقِ؛ لأنَّه جانبٌ مُتمحِّضٌ لعَملِ الفِكْرِ، لا يُسْتعانُ فيه بالأدلَّةِ المَحسوسةِ؛ فلا جَرَمَ أنْ تَضِلَّ فيه عُقولُ كثيرٍ مِن أهلِ العقولِ الصَّحيحةِ في الشُّؤونِ الخاضعةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٣).

للحواسِّ[١].

- وجُملةُ ﴿ وَجَدتُّهَا ﴾ مُستأنفةٌ للبَيانِ، جوابًا على تَقْديرِ سُؤالٍ؛ فالكلامُ السَّابقُ بيَّن حالَتَها مِن ناحيةِ الدُّنيا، فتَشوَّفَتْ نفْسُ السَّامعِ إلى مَعرفةِ حالَتِها مِن ناحيةِ الدِّينِ[٢].

- قولُه: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ أفادَتِ الفاءُ في ﴿فَصَدَّهُمْ ﴾ أنَّ عَدمَ اهتدائِهم مُسبَّبٌ عن صَدِّ الشَّيطانِ لهم، وصَدَّه مُسبَّبٌ عن تَزييفِه لأعمالِهم[٣].

- وما أحسَنَ انتقالاتِ هذه الأخبارِ بعدَ تَهدُّدِ الهُدهدِ وعِلْمِه بذلك؛ حيثُ أخبَرَ أوَّلًا باطِّلاعِه على ما لم يَطَّلِعْ عليه سُليمانُ؛ تَحصُّنًا مِن العُقوبةِ بزِينةِ العِلْمِ الَّذي حصَلَ له، فتَشوَّفَ السَّامعُ إلى عِلْمِ ذلك. ثمَّ أخبَرَ ثانيًا بتَعلُّقِ ذلك العِلْمِ؛ وهو أنَّه مِن سبَأٍ، وأنَّه أمْرٌ مُتيقَّنٌ لا شكَّ فيه، فازْدادَ تَشوُّفُ السَّامعِ إلى سَماعِ ذلك النَّبأِ. ثمَّ أخبَرَ ثالثًا عن المُلْكِ الَّذي أُوتِيَتْه امرأةٌ، وكان سُليمانُ عليه السَّلامُ قد سأَلَ اللهَ أنْ يُؤتِيَهُ مُلْكًا لا يَنْبَغي لأحدٍ مِن بَعدِه. ثمَّ أخبَرَ رابعًا ما ظاهِرُه الاشتراكُ بيْنه وبيْن هذه المرأةِ الَّتي ليس مِن شأْنِها ولا شأْنِ النِّساءِ أنْ تَملِكَ فُحولَ الرِّجالِ، وهو قولُه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾، وقولُه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾، قيل: وكان سُليمانُ له بِساطٌ قد صُنعَ له، وكان عظيمًا. ولَمَّا لم يَتأثَّرْ سُليمانُ للإخبارِ بهذا كلِّه؛ إذ هو أمْرٌ دُنياويٌّ، أخبَرَهُ خامسًا بما يَهُزُّه لِطَلبِ هذه المَلِكةِ، ودُعائِها إلى الإيمانِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإفرادِ اللهِ بالعِبادةِ؛ فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ بَدلُ بَعضٍ من ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤]؛ خُصِّصَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أصلُ كُفْرِهم، ومَبعثُ فَسادِ أعمالِهم[2].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وَصْفٌ له تعالى بما يُوجِبُ اختصاصَه باستِحقاقِ السُّجودِ من التَّفرُّدِ بكَمالِ القُدرةِ والعِلْمِ؛ حثًّا على سُجودِهم، ورَدًّا على مَن يَسجُدُ لغَيرِه. وتَخصيصُ هذا الوَصْفِ بالذِّكْرِ بصَددِ بَيانِ تَفرُّدِه تعالى باستِحقاقِ السُّجودِ له مِن بيْن سائرِ أوصافِه المُوجِبةِ لذلك؛ لِمَا أنَّه أرْسَخُ في مَعرفتِه والإحاطةِ بأحكامِه بمُشاهَدةِ آثارِه الَّتي مِن جُمْلَتِها ما أوْدَعَهُ اللهُ تعالى في نفْسِه مِن القُدرةِ على مَعرفةِ الماءِ تحتَ الأرضِ[3].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ ﴿ٱلْخَبْءَ﴾: مَصدرُ خبَأَ الشَّيءَ، إذا أخْفاهُ؛ أُطلِقَ هنا على اسمِ المفعولِ -أي: المَخبوء- على طَريقةِ المُبالَغةِ في الخَفاءِ كما هو شأْنُ الوَصْفِ بالمصدرِ. ومُناسَبةُ وُقوعِ الصِّفةِ بالموصولِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ لحالةِ خَبرِ الهُدهدِ ظاهرةٌ؛ لأنَّ فيها اطِّلاعًا على أمْرٍ خَفِيٍّ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥).

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱلَّذِى يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ...﴾ مُؤذِنٌ بصِفَةِ القُدرةِ، وقولُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ مُؤذِنٌ بعُمومِ صِفَةِ العِلْمِ(١).

- قولُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿ٱلَّذِى يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾؛ لِترتُّبِه عليه ترتُّبَ المدلولِ على دَليلِه؛ فإخراجُ الخَبْءِ لا يكونُ إلَّا مِن العالِمِ بذلك الخَبْءِ، الَّذي أحاطَ عِلْمُه به في حالِ سَتْرِه، وفي حالِ ظُهورِه؛ فيَدلُّ ذلك على شُمولِ عِلْمِه لِمَا ظهَرَ وما بطَنَ، ومنه ما يُخْفون وما يُعلِنون(٢).

- وذِكْرُ (مَا تُعْلِنُونَ) لتوسيعِ دائرةِ العِلْمِ، أو للتَّنبيهِ على تَساويهِما بالنِّسبةِ إلى العِلْمِ الإلهيِّ(٣).

٧- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

- مَجيءُ جُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ عقِبَ قولِه: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]: استئنافٌ، وهو بمَنزلةِ النَّتيجةِ للصِّفاتِ الَّتي أُجْرِيَت على اسمِ الجلالةِ، وهو المقصودُ مِن هذا التَّذييلِ، أي: ليس لغَيرِ اللهِ شُبْهةُ إلَهيَّةٍ(٤). وقيل: إنَّه مِن تَمامِ كلامِ الهُدهدِ؛ كأنَّه اسْتدرَكَ ورَدَّ العَظمةَ مِن عَرشِ بِلْقيسَ إلى عَرشِ اللهِ تعالى(٥).

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ خَصَّ العرشَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أعظَمُ المخلوقاتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢).

وما عداهُ في ضِمْنِه[١].

- وكذلِك قولُه: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فيه تَعريضٌ بأنَّ عَظَمةَ مُلْكِ بِلْقيسَ، وعِظَمَ عَرشِها ما كان حَقيقًا بأنْ يَغُرَّها بالإعراضِ عن عِبادةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ هو ربُّ المُلْكِ الأعظَم، فتَعريفُ العَرشِ؛ للدَّلالةِ على معنى الكَمالِ. ووَصْفُه بـ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ للدَّلالةِ على كَمالِ العِظَمِ في تَجسُّمِ النَّفاسةِ[٢].

- وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ وَحدانيَّتَهُ في الأُلوهيَّةِ فلا يُعبَدُ سِواهُ، ذَكَرَ وَحدانيَّتَهُ في الرُّبوبيَّةِ، بانفِرادِه بالخَلْقِ والمُلْكِ والتَّصرُّفِ والتَّدبُّرِ لهذا المخلوقِ العَظيم، ونبَّه به على ما دونَهُ مِن المخلوقاتِ. ولَمَّا كان الحَديثُ على عَظَمةِ مُلْكِ العِبادِ: مُلْكِ النُّبوَّةِ وغيرِه، ذكَرَ عَظَمةَ مُلْكِ اللهِ الَّتي تَصغُرُ إزاءَها كُلُّ عَظمةٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ۝ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ هذا مِن جُملةِ الكلامِ الَّذي أُلْقِيَ على لِسانِ الهُدهدِ؛ فالواوُ للعَطْفِ. أو أن يكونَ كلامًا آخَرَ مِن القُرآنِ ذُيِّلَ به الكلامُ المُلْقَى إلى سُليمانَ؛ فالواوُ للاعتراضِ بيْن الكلامِ المُلْقى لسُليمانَ وبيْن جَوابِ سُليمانَ، والمقصودُ: التَّعريضُ بالمُشركينَ[٤].

- وما حُكِيَ مِن الهُدهدِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ إلى ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ليس داخلًا تحتَ قولِه: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾، وإنَّما هو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٤).

مِن العلومِ والمعارفِ الَّتي اقْتبَسَها مِن سُليمانَ عليه السَّلامُ؛ أورِدَهُ بَيانًا لِمَا هو عليه، وإظْهارًا لِتَصلُّبِه في الدِّينِ؛ وكلُّ ذلكَ لِتَوجيهِ قلْبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نحوَ قَبولِ كَلامِه، وصَرْفِ عِنانِ عَزيمتِه عليه السَّلامُ إلى غَزْوِها وتَسخيرِ وِلَايتِها[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ كلامِ الهُدهدِ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا فعَلَ سُليمانُ عليه السَّلامُ عندَ ذلكَ؟ فقيل: قال...[٢].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَنَنظُرُ﴾ للتَّأكيدِ[٣].

- قولُه: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ كان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (... أم كذَبْتَ)، وإيثارُ ما عليه النَّظمُ الكريمُ؛ للإيذانِ بأنَّ كَذِبَه في هذه المادَّةِ يَستلزِمُ انتظامَه في سِلْكِ المَوسومينَ بالكذِبِ الرَّاسخينَ فيه؛ فإنَّ مَساقَ هذه الأقاويلِ المُلفَّقةِ على تَرتيبٍ أنيقٍ يَسْتَميلُ قُلوبَ السَّامعينَ نحوَ قَبولِها مِن غيرِ أنْ يكونَ لها مِصْداقٌ أصلًا -لا سيَّما بيْن يَدَي نَبيٍّ عظيمِ الشَّأنِ- لا يَكادُ يَصدُرُ إلَّا عمَّن له قدَمٌ راسخٌ في الكذبِ والإفك. وأيضًا في هذا النَّظمِ مُراعاةٌ للفواصلِ[٤]. وفي ذلك إيذانٌ بتَوضيحِ تُهْمَتِه بالكذبِ؛ لِيَتخلَّصَ مِن العِقابِ، وإيذانٌ بالتَّوبيخِ والتَّهديدِ وإدخالِ الرَّوعِ عليه، بأنَّ كَذِبَه أرجَحُ عندَ المَلِكِ؛ ليكونَ الهُدهدُ مُغلِّبًا الخوفَ على الرَّجاءِ، وذلك أدْخَلُ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦).

التَّأديبِ على مِثْلِ فِعلَتِه وفي حِرْصِه على تَصديقِ نفْسِه، بأنْ يُبلِّغَ الكتابَ الَّذي يُرسِلُه معه[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لجُملةِ ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ لأنَّ فيما سيَنكشِفُ بعدَ تَوجيهِ كِتابِه إلى مَلَكةِ سبَأٍ ما يُصدِّقُ خبَرَ الهُدهدِ إنْ جاء مِن المَلِكةِ جَوابٌ عن كِتابِه، أو يُكذِّبُ خبَرَ الهُدهدِ إنْ لم يَجِئْ منها جوابٌ[٢].

- قولُه: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ يَقْتَضي كلامًا مَحذوفًا؛ وهو أنَّ سُليمانَ فكَّرَ في الاتِّصالِ بيْن مَمْلكتِه وبيْن مَمْلكةِ سبَأٍ، فأحضَرَ كِتابًا، وحمَّلَه الهُدهدَ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ قالَه على لفْظِ الجمْعِ؛ لأنَّه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: ٢٤]، فقال: فألْقِه إلى الَّذين هذا دِينُهم؛ اهتمامًا منه بأمْرِ الدِّينِ، واشْتغالًا به عن غَيرِه. وبَنى الخِطابَ في الكتابِ على لفْظِ الجمْعِ لذلك[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

الآيات (٢٩-٣٧)

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: أي: وُجوهُ النَّاسِ وأشرافُهم، والمَلَأُ: جماعةٌ يجتَمِعون على رأيٍ، ويملؤون العيونَ مَنظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجَلالًا، وأصلُه يدُلُّ على: المساواةِ والكَمالِ في الشَّيءِ[1].

﴿أَفْتُونِى﴾: أي: أجيبوني، وأشيروا عليَّ، ونبئوني ما أفعلُ، والفُتْيَا والفَتْوَى: الجوابُ عمَّا يُشكِلُ مِن الأحكامِ، وأصلُ (فتى) هنا: يدلُّ على تَبْيينِ حكمٍ[2].

﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ﴾: أي: أصحابُ شِدَّةٍ فِي الحَربِ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

الشِّدَّةِ وما ضارَعَها[١].

﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾: أي: لا طاقةَ لهم على استقبالِها ودفاعِها، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٢].

﴿صَٰغِرُونَ﴾: أي: عاجِزونَ أذِلَّاءُ، وأصلُ الصِّغرِ: يَدُلُّ على قِلَّةٍ وحقارةٍ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾

قولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟﴾: فيه أوجُهٌ؛ **أحدُها**: أنَّ (أنْ) مفَسِّرةٌ، وجملةُ النَّهيِ بعدَه (لا تَعلُوا) تفسيريَّةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ.

والثاني: أنَّ (أنْ) مصدريَّةٌ و(لا) نافيةٌ، والمصدرُ المؤوَّلُ في محلِّ رفعٍ بدلٌ من ﴿كِتَٰبٌ﴾.

والثالث: أنَّ المصدرَ المؤوَّلَ في موضعِ رفعٍ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو ألَّا تعلوا.

والرابع: أنَّه منصوبٌ على نزعِ الخافضِ، أي: بألَّا تعلُوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٣٠)، =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما كان مِن ملكةِ سبأٍ بعدَ أنْ وصَلها كتابُ سليمانَ عليه السلامُ: قالت ملِكةُ سَبأٍ لأشرافِ قَومِها بعد أن قرأَتْ كِتابَ سُلَيمانَ: يا أيُّها الأشرافُ، لقد أُلقِيَ إليَّ كتابٌ جَليلُ القَدرِ من سُلَيمانَ، وإنَّه: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم، لا تتكبَّرُوا عليَّ بل انقادُوا لِما آمُرُكم به، وأقبِلوا إليَّ مُنقادينَ لله بالطَّاعةِ والوحدانيَّةِ، ثمَّ قالت لأشرافِ قَومِها: يا أيُّها الأشرافُ أشيروا عليَّ؛ فما كنتُ أقطَعُ أمرًا دونكم، فقالوا: نحن أصحابُ قوَّةٍ وشدَّةٍ في الحَربِ، والرأيُ إليك في قِتالِ سُلَيمانَ أو مُسالَمتِه، فانظُري فيما تأمُرينَا به، فقالت: إنَّ الملوكَ إذا دخَلوا مدينةً خرَّبوها، وذلُّوا أهلَها، وتلك عادتُهم، وإني باعِثةٌ إلى سُلَيمانَ وقَومِه بهديةٍ عَظيمةٍ؛ لأنظرَ بمَ ترجِعُ رسُلي مِن خبرِ سُلَيمانَ؟

فلما جاءت رسُلُها إلى سُلَيمانَ بالهدايا أنكر عليهم، وقال لهم: أتعطونَني مالًا لأترُكَكُم على شِركِكم، فما أعطاني اللهُ أفضَلُ ممَّا أعطاكم، بل أنتم الذين تَفرحَون بالهدايا التي تُهدَى إليكم، ارجِعْ إلى قَومِك فإنْ لم يأتوا إليَّ مُسلِمين فسأرسِلُ إليهم جُنودًا لا طاقةَ لهم بقتالِهم، ولنُخرِجَنَّهم من أرضِهم أذلَّةً مُهانينَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبأٍ لأشرافِ قَومِها بعد أن قرأَتْ كِتابَ سُلَيمانَ: يا أيُّها الأشرافُ والسَّادةُ، لقد رُميَ إليَّ[1] كتابٌ حَسَنٌ منظرُه، جليلٌ قدْرُه، شريفٌ

= ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٣٤)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٠٩).

(١) قال ابن عثيمين: (ما قالتْ: ألقى الهُدهدُ؛ لأنَّ الظَّاهرَ أنَّه مرَّ ثمَّ حذَفه عليها، وليس معناه أنَّه =

كاتِبُه[١].

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ ﴾.

أي: قَرَأت ملِكةُ سَبأٍ الكِتابَ على قَومِها فقالت: إنَّ الكِتابَ مِن سُلَيمانَ، وإنَّه بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ[٢].

﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١ ﴾.

﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ ﴾.

= جاء ووقَف بيْنَ يدَيْها وأعطاها الكِتابَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٣).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قولِها: ﴿أُلۡقِيَ إِلَيَّ﴾ أنَّ الكتابَ سُلِّمَ إليها دُونَ حضورِ أهلِ مجلِسِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦، ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٧، ٢٥٨).

قال ابن عاشور: (وصْفُ الكتابِ بالكريم ينصَرِفُ إلى نفاستِه في جنسِه... بأن كان نفيسَ الصحيفةِ، نفيسَ التخطيطِ، بهيجَ الشَّكلِ، مستوفيًا كلَّ ما جرت عادةُ أمثالِهم بالتأنُّق فيه. ومن ذلك أن يكونَ مختومًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

وقال ابنُ عثيمين: (الكريمُ معناه: المتضَمِّنُ للمعاني العظيمةِ المؤثِّرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨).

قال ابن عاشور: (يحتمِلُ أن يكونَ قد تُرجِمَ لها قبل أن تخرُجَ إلى مجلِسِ مَشورتِها، ويحتَمِلُ أن تكونَ عارفةً بالعبرانية، ويحتَمِلُ أن يكونَ الكتابُ مكتوبًا بالعربيَّةِ القَحطانيَّة؛ فإنَّ عظمةَ مُلك سُلَيمانَ لا تخلو من كتَّابٍ عارفينَ بلغاتِ الأُمَمِ المجاورةِ لمَملكتِه، وكونُه بلغتِه أظهَرُ وأنسَبُ بشِعارِ الملوكِ، وقد كتب النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ للملوكِ باللُّغةِ العربيَّةِ. أمَّا الكلامُ المذكورُ في هذه الآيةِ فهو ترجمةُ الكِتابِ إلى اللغةِ العربيةِ الفُصحى بتضمينِ دقائقِه وخصوصيَّاتِ اللُّغةِ التي أنشِئَ بها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨، ٢٥٩).

أي: ألَّا تتكبَّرُوا وتمتَنِعوا عليَّ، بل اخضَعوا لي، وانقادُوا لِما آمُرُكم به(١).

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

أي: وأقْبِلوا إليَّ مُنقادين مُذعِنين لله بالوحدانيَّةِ والطاعةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

قال السمعاني: (وقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: هو مِنَ الإسلامِ، والآخَرُ: مِنَ الاستِسلامِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والخازن، والعليمي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩).

قال الألوسي: (والدَّعوةُ على الأوَّلِ [أي أنَّ المرادَ: وأْتوني مؤمنينَ] دعوةُ النُّبوَّةِ، وعلى الثَّاني [أي أنَّ المرادَ: وأْتوني مُنقادينَ مُستَسلِمينَ] دعوةُ الملْكِ. واللَّائقُ بشأنِه عليه السَّلامُ هو الأوَّلُ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٩١).

وقال أبو السعود: (على أنَّ الإيمانَ مستتبعٌ للانقياد حتمًا). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

وقال ابن عاشور: (إطلاقُ اسمِ الإسلامِ على الدينِ يدُلُّ على أنَّ سليمانَ إنما دعا ملِكةَ سبأٍ وقومَها إلى نبذِ الشِّركِ، والاعترافِ للهِ بالإلهية والوحدانية، ولم يدعُهم إلى اتِّباعِ شريعة التوراة؛ لأنَّهم غيرُ مخاطبين بها، وأمَّا دعوتُهم إلى إفراد الله بالعبادةِ والاعترافِ له بالوحدانيةِ في الإلهية؛ فذلك ممَّا خاطب الله به البشَرَ كُلَّهم، وشاع ذلك فيهم من عهدِ آدم ونوح وإبراهيم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠).
=

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢﴾.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبَأٍ لأشرافِ قَومِها: يا أيُّها الأشرافُ، أشيروا عليَّ، وبيِّنُوا لي: ماذا أفعَلُ في هذا الأمرِ[1]؟

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾.

أي: ما كنتُ لأستبدَّ برأيي في أمرٍ عامٍّ ومُهِمٍّ، حتى تحضُروا عندي وتُشيروا عليَّ فيه[2].

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾.

= وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ أي أنَّ المرادَ: وأْتوني مستسلِمينَ: السمرقنديُّ، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلَفِ: الكلبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩).

وقال ابن عثيمين: (هل يلزَمُ مِن إتيانِهم مُستسلِمينَ له أن يكونوا مُسلِمين لله؟ لا يلزَمُ، لكِنْ يلزَمُ مِن كونِهم مُسلِمين لله أن يَستسلِموا له، وأن يأتوا مُطيعين غيرَ مُخالِفين). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٦).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَين: السعديُّ، فقال: (﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ أي: لا تَكونوا فَوقي، بلِ اخضَعوا تحتَ سُلطاني، وانقادُوا لأوامري، وأَقْبِلوا إلَيَّ مسلمينَ. وهذا في غايةِ الوجازةِ، مع البيانِ التَّامِّ؛ فإنَّه تضَمَّنَ نَهْيَهم عن العُلُوِّ عليه والبقاءِ على حالِهم التي هم عليها، والانقيادَ لأمرِه، والدُّخولَ تحتَ طاعتِه، ومجيئَهم إليه، ودعوتَهم إلى الإسلامِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((فتح البيان)) للقنوجي (١٠/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٣، ٢٦٤).

﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾.

أي: قال الأشرافُ الذين استشارَتْهم مَلِكةُ سَبأٍ: نحن أصحابُ قوَّةٍ بالمالِ والرِّجالِ والعَتادِ، وأصحابُ شدَّةٍ وعزمٍ في الحَربِ، فإن شئتِ أن نحارِبَ سُلَيمانَ فلا مانعَ لدينا(١).

﴿ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾.

أي: وقد فوَّضْنا الرأيَ إليكِ في قتالِ سُلَيمانَ أو مُسالَمتِه، ففكِّري فيما تأمُرينَنا به، ونحن على استعدادٍ لطاعتِك، وتنفيذِ أوامِرك(٢).

﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ ﴾.

﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا ﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبأٍ: إنَّ الملوكَ إذا دخَلوا مدينةً بالقَهرِ والغَلَبةِ، نَهَبوها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

قال أبو حيان: (قالوا: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾، وذلك مِن حُسنِ مُحاورتِهم؛ إذ وكَّلوا الأمرَ إليها، وهو دَليلٌ على الطاعةِ المُفرطةِ، أي: نحن ذكَرْنا ما نحن عليه، ومع ذلك فالأمرُ مَوكولٌ إليكِ، كأنَّهم أشاروا أوَّلًا عليها بالحَربِ، أو أرادوا: نحن أبناءُ الحَربِ لا أبناءُ الاستشارةِ، وأنتِ ذاتُ الرأيِ والتَّدبيرِ الحَسَنِ؛ فانظُري ماذا تأمُرين به، نرجِعْ إليك، ونتَّبِعْ رأيَكِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦).

وخرَّبوها[١].

﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗ﴾.

أي: وأهانوا كُبَراءَها وأشرافَها، باستِعبادِهم، أو إذلالِهم بالقَتلِ والأسرِ والنَّفيِ، وغيرِ ذلك من فنونِ الإهانةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥).

قال البقاعي: (﴿قَالَتۡ﴾ جوابًا لما أحسَّت في جوابِهم مِن مَيلِهم إلى الحَربِ: إنَّ الصوابَ مِن غيرِ ارتيابٍ أن نحتالَ في عدمِ قَصدِ هذا المَلِك المطاعِ، ثمَّ عَلَّلت هذا الذي أفهَمَه سياقُ كلامِها بقَولِها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ﴾ أي: مُطلقًا، فكيف بهذا النافِذِ الأمرِ، العظيمِ القَدرِ؟!). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٥٩، ١٦٠).

وقال ابن عثيمين: (والملوكُ إذا دخَلوا قريةً أفسَدوها؛ لأنَّ عندهم من العلُوِّ والغَلَبةِ والاستكبارِ ما يُوجِبُ أن يَفتِكوا بأهلِ البلَدِ الذي يدخلونَه، وليس المرادُ هنا بالإفسادِ الإفسادَ المعنويَّ، يعني: بإفسادِ الأخلاق مثلًا، المرادُ... الإفسادُ بالتخريبِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٤).

قال ابن عاشور: (أبدتْ لهم رأيَها مفضِّلةً جانبَ السِّلمِ على جانبِ الحربِ، وحاذِرةً مِن الدُّخولِ تحت سلطةِ سليمانَ اختيارًا؛ لأنَّ نهايةَ الحربِ فيها احتمالُ أن ينتصرَ سليمانُ، فتصيرَ مملكةُ سبأٍ إليه، وفي الدُّخولِ تحتَ سلطةِ سليمانَ إلقاءٌ للمملكةِ في تصرُّفِه، وفي كِلا الحالين يحصلُ تصرُّفُ ملكٍ جديدٍ في مدينتِها، فعَلِمَتْ بقياسِ شواهدِ التاريخِ وبخبرةِ طبائعِ الملوكِ إذا تصرَّفوا في مملكةِ غيرِهم أن يقلبوا نظامَها إلى ما يُسايرُ مصالحَهم واطمئنانَ نفوسِهم مِن انقلابِ الأمَّةِ المغلوبةِ عليهم في فُرَصِ الضَّعفِ، أو لوائحِ الاشتغالِ بحوادثَ مهمَّةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥).

وقال ابنُ عثيمين: (وقَولُها: ﴿أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ﴾ سواءٌ كانت هذه العزَّةُ تعودُ إلى المُلْك، أو تعودُ إلى الجاهِ والشَّرَفِ، أو إلى العِلمِ أحيانًا، فإنَّهم يُسلَّطون على الأعِزَّةِ؛ لأنَّ لهم الكَلِمةَ فيما سبق، =

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

أي: وتلك عادةُ الملوكِ إذا دخَلوا مدينةً بالقَهرِ والغَلَبةِ: أن يُفسِدوها، ويُذِلُّوا أعزَّةَ أهلِها[١].

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَت ما في المصادمةِ مِن الخطرِ؛ أتبَعَتْه بما عَزَمَتْ عليه مِن المسالَمةِ بقَولِها[٢]:

= فهم الذين دبَّروا هذه الحروبَ ثم هُزِموا، فتكونُ رحى الحربِ عليهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٥).

قيل: إنَّ هذه الجُملةَ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مِن كلامِ الله تعالى؛ تصديقًا وتأكيدًا لِقَولِها. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والزجاج، والواحدي، وابنُ كثير، ونَسَبه السمعاني إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٥).

وعلى ذلك فهذه الجملةُ مِن (الموصولِ لفظًا، المفصولِ معنى)، أو ما يُسمَّى عندَ بعضِ العلماءِ: (المدرج). يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٩٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٣٠٩).

وقيل: إنَّ هذه الجملةَ من بقيَّةِ كلامِ ملِكةِ سبأ، وليست معترِضةً من كلامِ الله سبحانَه. وممَّن اختار ذلك: الزمخشري، والبيضاوي، واستظهره أبو حيان، والسمين الحلبي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٧).

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبأٍ: وإنِّي باعثةٌ رسُلًا إلى سُلَيمانَ وقَومِه بهديَّةٍ عظيمةٍ[١]، فناظِرةٌ[٢] ما سترجِعُ به رسُلي من خبرٍ وحالِ سُلَيمانَ وقَومِه، وهل يقبَلُ هديَّتَنا ومهادنَتَنا، أو يُصِرُّ على أمرِه بالإتيانِ إليه مُسلِمينَ[٣].

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦﴾.

---

(١) قال أبو حيان: (قد طوَّلوا في قَصَصِها بما لم يثبُتْ في القرآنِ ولا الحديثِ الصَّحيحِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٥).

(٢) قولها: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ يحتملُ أن يكونَ مِنَ النَّظرِ، يعني: أنظُرُ بعْدَ إرسالِ الهديَّةِ: بِمَ يرجِعُ المُرسَلون؟ ويحتملُ أن يكونَ من الانتظار، ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ أي: فمُنتظِرةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٨).

ممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، وابن كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٨).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثاني: القرطبيُّ، والنسفي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢، ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩٦، ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٨-١٩٠).

واختُلِف فيما قصَدت بهديتها؛ فقيل: قصَدت الملاطفةَ والاستنزالَ، ذكَره قَتادةُ. وقيل: قصَدت اختبارَ نُبوَّتِه مِن مُلكِه، وأنَّها اختبرتْه بالقَبولِ والرَّدِّ، فقالت: إنْ قَبِل الهديَّةَ فهو مَلِكٌ، فقاتِلوه على ملكِكم، وإن لم يقبَلِ الهديَّةَ فهو نبيٌّ، لا طاقةَ لكم بقتالِه، قاله ابنُ عبَّاسٍ وزهيرٌ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٠٩).

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾.

أي: فلمَّا وصَلَ وَفدُ مَلِكةِ سَبأٍ إلى سُلَيمانَ بالهَدايا، أنكرَ عليهم عدَمَ مجيئِهم إليه مُسلِمين كما أمَرَهم، وقال لهم مُتغيِّظًا: أتُعطونني مالًا لأترُكَكم على شِركِكم[1]؟!

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

أي: فما أعطاني اللهُ من النبُوَّةِ والمُلكِ والأموالِ ونعيمِ الدُّنيا: أفضَلُ مِمَّا أعطاكم[2].

﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾.

أي: أنا لا أفرَحُ بهديَّتِكم هذه، ولا أقبَلُ منكم إلَّا الإسلامَ، ولكِنْ أنتم الذين تفْرَحونَ بما يُهْدَى إليكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

قال الرازي: (أمَّا قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ ففيه ثلاثةُ أوجهٍ؛ أحدُها: أَنَّ ... المعنَى أنَّ اللهَ تعالَى آتاني الدِّينَ الَّذي هو السَّعادةُ القُصْوى، وآتاني مِنَ الدُّنيا ما لا مَزيدَ عليه، فكيف يُستمالُ مِثْلي بمِثلِ هذه الهديَّةِ؟! بل أنتم تفرحونَ بما يُهْدَى إليكم، لكنَّ حالي خلافُ حالِكم.

وثانيها: بل أنتم بهديَّتِكم هذه الَّتي أهدَيْتُموها تفرحونَ من حيثُ إنَّكم قدَرْتُم على إهداءِ مِثْلِها.

وثالثُها: كأنَّه قال: بل أنتم مِن حَقِّكم أنْ تأخُذوا هديَّتَكم وتَفْرَحوا بها). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: بل أنتم تفرحون بالهَديَّةِ الَّتي تُهدى إليكم: مقاتلُ بن سليمان، وابن =

﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧ ﴾.

﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ لأميرِ الوفدِ: ارجِعْ إلى مَن أرسَلَك بهذه الهَديَّةِ، فإنْ لم يأتُوا إليَّ مُسلِمينَ فسأُرسِلُ إليهم جُنودًا لا طاقةَ لهم بقِتالِهم[1].

﴿ وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾.

أي: ولَنُخرِجنَّهم من أرضِهم أذلَّاءَ مُهانينَ إنْ لم يأتوني مُسلِمينَ[2].

= جرير، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

وممَّن اختار أن هذا توبيخٌ لهم بفرحهم بهذه الهَديَّةِ فرَحَ فخرٍ وخُيلاءٍ وامتِنانٍ واعتدادٍ بها: أبو السعود، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٧/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠١، ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٩).

قال ابنُ عُثيمين: (قولُه: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ﴾ فنحتَلُّ بلادَهم ونخرِجُهم منها أذِلَّةً ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ الفَرقُ بين الذِّلَّةِ والصَّغارِ: الذِّلَّةُ: الذُّلُّ في النفْسِ، والصَّغارُ: في البدنِ، يعني: يكون مُستَسْلِمًا باطنًا بالذُّلِّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥]، فالخشوعُ بمعنى الصَّغارِ، والذُّلُّ: هو ذُلُّ النفْسِ. والعياذُ بالله).
((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٨).

وقال العسكري: (الصَّغارُ هو الاعترافُ بالذُّلِّ، والإقرارُ به، وإظهارُ صِغَرِ الإنسانِ). ((الفروق اللغوية)) (ص: ٢٤٩). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٨٥).

الفَوائِدُ التَّربويَّة:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ المشاورةُ والاستعانةُ بالآراءِ في الأمورِ المهمَّةِ[(١)]، فهي مع أنَّها مَلِكةٌ، ولها تمامُ السُّلطةِ؛ فمع ذلك لم تستغْنِ عن المُشاورة[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أنَّه إذا قَدَّمَ المستشارُ مشورتَه لإنسانٍ أكبرَ منه قدرًا أو فهمًا أو علمًا؛ أنَّ له أن يقولَ مثلَ هذا تأدُّبًا، وصاحِبُه بالخيارِ: إنْ شاء أخَذَ بمشورتِه، وإنْ شاء لم يأخُذْ[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ دليلٌ على جوازِ الغِلظةِ في القَولِ إذا كانتِ المصلحةُ فيه؛ لأنَّ هذا الأسلوبَ مِن سُليمانَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أُسلوبٌ قويٌّ؛ إذْ إنَّ الاستفهامَ في قَولِه: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتَّوبيخِ والتعجيب، يعني أنَّه يُوَبِّخُهم على فِعلِهم، ويَتَعَجَّبُ مِن فِعلِهم: كيف يُمِدُّونه بمالٍ وهو مَلِكٌ ومعروفٌ ومشهورٌ[(٤)]؟!

والعاقلُ يعرِفُ مظانَّ الغضبِ لله تعالى فيغضبُ فيها، ويعرِفُ مظانَّ التلطفِ فيتلطَّفُ فيها، ألَا ترَى أنَّ سليمانَ عليه السلامُ قال: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، فلمَّا لم تُجِبْهُ بلقيسُ وغالَطَتْه بالهدية قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨١).

قال ابنُ عاشور: (شأن القرآنِ فيما يَذكرُه مِن القَصَصِ أنْ يذكرَ المهمَّ منها للمَوعِظةِ أو للأُسوة... فلذلك يُستروَحُ مِن سياقِ هذه الآيةِ حسنُ الشُّورَى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٥).

وجميعُ الرُّسلِ إذا استُقرِئ أمرُهم في بَدءِ الإرسالِ وجدْتَ فيه الرِّفقَ واللينَ والشفقةَ على قومِهم، فإذا أصرُّوا وعانَدوا أغلَظوا لهم حينَئذٍ؛ لِما ركَّب الله تعالى في رسلِه مِن العقولِ الوافرةِ، والأحلامِ الكاملةِ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، حيثُ يجعلُ رسالتَه بخلافِ الغبيِّ الذي يلينُ في مواطنِ الإغلاظِ، ويُغلظُ في مظانِّ اللين، معتقدًا أنَّه مقتدٍ بالرسلِ في غلظتِهم ولينِهم! فنعوذُ بالله مِن الجهلِ بمظانِّ خطابِه، ومِن تحريفِ كلامِه، وتنزيلِه على غيرِ مرادِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ أنَّ كَرَمَ كلِّ شيءٍ بحسبِه، فالكرمُ بالمالِ معناه: بذْلُه بسخاءٍ، والكريمُ مِن المالِ يُطلَقُ على الجيدِ منه، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((وإياك وكرائمَ أموالِهم))[٢]، وكذلك أيضًا يُوْصَفُ بالكَرَمِ ما يتضمَّنُ الشيءَ المهمَّ؛ كما في هذا الوصفِ في كتابِ سُليمانَ عليه الصلاةُ والسلامُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استحبابُ ابتداءِ الكتبِ بالبَسملةِ كاملةً[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ سؤالٌ؛ لِمَ قَدَّمَ سُلَيمانُ اسمَه على البسملةِ؟

الجوابُ: أنه لم يقعْ منه ذلك! بلِ ابتدأَ الكتابَ بالبسملةِ، وإنما كَتَب اسمَه

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٩٤، ١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) مطولًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

عنوانًا بعدَ ختْمِه لأنَّ بلقيسَ إنما عرَفتْ كونَه مِن سُلَيمانَ بقراءةِ عنوانِه كما هو المعهودُ، ولذلك قالتْ: (إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أي: إنَّ الكتابَ، فالتقديمُ واقعٌ في حكايةِ الحالِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ دَليلٌ على قُوَّةِ سُلَيمانَ عليه الصَّلاةُ والسلامُ؛ لأنه لم يَقُلْ: (وأسلِموا)، بل قال: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فطَلَبَ منهم أنْ يأتوا إليه وهم على الإسلامِ[٢].

٥- استعمالُ الإيجازِ إذا لم يكنْ فيه تقصيرٌ؛ لأنَّ هذا الكتابَ الذي كتَبه سُلَيمانُ هو في غايةِ ما يكونُ مِن الإيجازِ؛ جملتان فقط: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، ولكنْ بشرطِ ألَّا يكونَ الإيجازُ مُخِلًّا بالمقصودِ، فإنْ كان مُخِلًّا بالمقصودِ صار تقصيرًا[٣].

٦- قولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فيه عرضُ الإسلامِ على الكفَّارِ، وفي هذا إحسانٌ إليهم بالتوسُّلِ إلى نقلِهم مِن الكفرِ إلى الإيمانِ، ومِن أسبابِ السَّخطِ إلى أسبابِ الرِّضوانِ[٤].

٧- قولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، جمَعَ فيه سُليمانُ بيْنَ دَعوتِها إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦).

قال ابن عاشور: (وقولُه: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ هو من كلامِ المَلِكةِ ابتدأتْ به مخاطَبةَ أهلِ مَشورتِها؛ لإيقاظِ أفهامِهم إلى التدبُّرِ في مغزاه؛ لأنَّ اللائقَ بسُليمانَ ألَّا يقدِّمَ في كتابه شيئًا قبل اسمِ الله تعالى، وأنَّ معرفةَ اسمِ سُليمانَ تُؤخَذُ من خَتْمِه، وهو خارجُ الكتابِ؛ فلذلك ابتدأتْ به أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٩). ويُنظر: ((صبح الأعشى)) للقَلْقَشَنْدي (٦/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٩٤).

مُسالَمَته وطاعتِه، وذلك تَصرُّفٌ بصِفَةِ المُلْك، وبيْن دَعوةِ قَومِها إلى اتِّباعِ دِينِ التَّوحيدِ، وذلك تصرُّفٌ بالنُّبوَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ يُلْقِي الإرشادَ إلى الهُدى حيثما تَمكَّنَ منه، كما قال شُعيبٌ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وهذا نَظيرُ قولِ يُوسفَ لصاحِبَيِ السِّجْنِ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] الآيةَ. وإنْ كان لم يُرسَلْ إليهم؛ فالأنبياءُ مأْمورون أمْرًا عامًّا بالإرشادِ إلى الحقِّ، وكذلك دُعاءُ سُليمانَ هنا[(١)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ جوازُ الاختبارِ والامتحانِ، وأنَّ ذلك لا يُعَدُّ خديعةً إذا أراد الإنسانُ أنْ يَمتحِنَ غيرَه بشيءٍ مِن الأشياءِ؛ لأنَّه يريدُ أنْ يستظهِرَ به حالَه، وهذا لا مانعَ منه[(٢)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ العَمَلُ بالقرائنِ، لأنَّها أرادتْ أنْ تُوصِلَ هذه الهديةَ؛ لِتختبِرَ مرادَ سُليمان: هل يريدُ المالَ فقط فتكفيه هذه الهديةُ، أو يريدُهم أن يُسلِموا فلا تنفَعُ فيه هذه الهديةُ، ولا يَكُفُّ عن طلبِه الأولِ، وهو قَولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[(٣)].

١٠- وقولُه تعالى إخبارًا عن بِلْقيسَ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يَدلُّ على تَعدُّدِ رُسُلِها إلى سُليمانَ، وقولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ بإفرادِ فاعلِ ﴿جَآءَ﴾، وقولُه تعالى -إخبارًا عن سُليمانَ أنَّه قال-: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾ الآيةَ؛ يَدلُّ على أنَّ الرَّسولَ واحدٌ؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩١).

وهذا ليس على إطلاقِه، إنَّما هو مقيَّدٌ بالمصلحةِ والفائدةِ المترتِّبةِ على هذا الاختبارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩١).

والظَّاهرُ في الجوابِ هو ما ذَكَرَه غيرُ واحدٍ: مِن أنَّ الرُّسُلَ جَماعةٌ وعليهم رئيسٌ منهم، فالجمْعُ نظَرًا إلى الكلِّ؛ والإفرادُ نَظرًا إلى الرَّئيسِ؛ لأنَّ مَن معه تَبَعٌ له، والعِلْمُ عندَ اللهِ تعالى(١).

أو يُقالُ: إنَّ قَولَه تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ معناه: فلما جاء الرَّسولُ، دلَّ عليه قولُه: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ [النمل: ٣٥]، فالإرسالُ يقتضي رسولًا، والرَّسولُ لفظُه مُفرَدٌ ويَصدُقُ بالواحِدِ والجماعةِ.

وأيضًا: فإنَّ هدايا الملوكِ يَحمِلُها رَكبٌ، فيجوزُ أن يكونَ فاعِلُ ﴿جَآءَ﴾ الرَّكبَ المعهودَ في إرسالِ هدايا أمثالِ الملوكِ(٢).

١١- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾، قال: ﴿جَآءَ﴾ وهو مفردٌ مع أنَّهم كانوا جماعةً؛ لأنَّ الذي خاطَب سليمانَ وقدَّم الهديةَ هو رئيسُهم، وفيه أنَّ مِن المستحسَنِ أنْ يَتقدَّمَ الرئيسُ -رئيسُ الوفدِ أو القومِ- بالكلامِ أو الفعلِ إذا كان مكلَّفًا بالفعلِ، المهمُّ أنْ يكونَ المتقدِّمُ الرَّئيسَ؛ لأنَّ تقدُّمَ الجَميعِ دَفعةً واحِدةً غيرُ لائقٍ؛ لضياعِ المسؤوليةِ، فلا بدَّ أن يتقَدَّمَ واحِدٌ، وكلَّما حُصِرَ الأمرُ كان أقرَبَ إلى الفَهمِ وإلى حصولِ المقصودِ؛ لِقَولِه: ﴿قَالَ﴾(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ دَليلٌ على أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتحدَّثَ بنعمةِ اللهِ على سبيلِ الافتخارِ معَ العدوِّ، ولذلك تجوزُ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

الخُيَلاءُ في الحربِ، مع أنَّ الخُيَلاءَ مُحرَّمَةٌ ومِن الكبائرِ، لكنْ في الحربِ لإغاظةِ العدوِّ فلا بأسَ بها(١).

١٣- قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ فيه إظهارُ القوَّةِ للأعداءِ، وتخويفُ أهلِ الحربِ وإرهابُهم، فهذا التَّهديدُ والوعيدُ لا شكَّ أنَّه مَظهَرُ قوَّةٍ، فيكونُ داخلًا في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ فإنَّ قولَه: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ نكرةٌ تشملُ كلَّ ما يمكِنُ من القوى -سواءً كانتِ القوةُ قوليةً أو ماديةً أو معنويةً- المهمُّ أنَّ جميعَ القوى في معاملةِ الأعداءِ ينبغي للمرءِ أنْ يَستعمِلَها(٢).

١٤- قَولُه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾ فيه الرَّدُّ على الجبريةِ، وأنَّ الإنسانَ يَفعَلُ باختيارِه(٣).

١٥- قَولُه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ فيه كثرةُ جنودِ سُلَيمانَ؛ لأنَّ هذه الملِكةَ لها العرشُ العظيمُ، وعندها القومُ المطيعون الذَّليلون لأوامرِها، ومع ذلك فيقولُ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، وجنودُه ثلاثةُ أصنافٍ: الجنُّ والإنسُ والطيرُ، هذه كلُّها يَمكن أنْ يُسلِّطَها عليهم، ولا قِبَلَ لهم بها، فالحاصِلُ: أنَّ الجنودَ التي لسُلَيمان لا يمكِنُ لهؤلاء أن يقابلوها لا كميَّةً ولا كيفيَّةً(٤).

١٦- قال الله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً﴾ لَمَّا كان الذُّلُّ قد يكونُ لمجرَّدِ الانقيادِ لا على سَبيلِ الهوانِ، حقَّقَ المرادَ بقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠١).

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: لا يَملِكون شيئًا مِن المنَعةِ إنْ لم يُقِرُّوا بالإسلامِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ غرابةَ قصَّةِ إلْقاءِ الكتابِ إليها يُثيرُ سُؤالًا عن شأْنِها حين بلَغَها الكِتابُ[٢].

- وقد طُوِيَت أخبارٌ كَثيرةٌ دَلَّ عليها ما بيْن الخَبرينِ المذكورينِ مِن اقْتضاءِ عِدَّةِ أحداثٍ؛ إذ التَّقديرُ: فأخَذ الهُدهُدُ الكِتابَ وذهَبَ به إلى سبَأٍ، فلمَّا ألْقاهُ إلى المرأةِ وهي في مَجلسِ مُلْكِها وقرَأَتْه؛ ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ ...﴾ إلخ، وإنَّما طُوِيَ ذِكْرُه؛ إيذانًا بكَمالِ مُسارَعتِه إلى إقامةِ ما أُمِرَ بِهِ مِن الخدمةِ، وإشعارًا باستغنائِه عن التَّصريحِ به؛ لغَايةِ ظُهورِه[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استِئنافٌ وتَبْيينٌ لِمَا أُلْقِيَ إليها؛ كأنَّه قِيل لها: ممَّن هو؟ وما هو؟ فقالت:...؛ فأَبْهَمَتْ أوَّلًا ثمَّ فسَّرَت[٤].

- قولُه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استِفتاحٌ شريفٌ بارِعُ المعنى، مَبدوءٌ به في الكُتبِ في كلِّ لُغةٍ، وكلِّ شَرعٍ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ التَّأكيدُ بـ (إنَّ) في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٤).

الموضعين يُتَرجِمُ عمَّا في كلامِهما باللُّغةِ السَّبائيَّةِ مِن عباراتٍ دالَّةٍ على اهتمامِها بمُرسِلِ الكتابِ وبما تَضمَّنَه الكتابُ، اهتمامًا يُؤَدَّى مِثْلُه في العربيَّةِ الفُصْحى بحَرفِ التَّأكيدِ الَّذي يَدلُّ على الاهتمامِ في مَقامٍ لا شكَّ فيه(١).

٣- قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ نَهْيٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ؛ ولذلك أتْبَعَتْه مَلِكةُ سبأٍ بقولِها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾(٢) [النمل: ٣٢].

- وقولُه: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ كَلامٌ في غايةِ الوَجازةِ، مع كَمالِ الدَّلالةِ على المقصودِ؛ لاشتِمالِه على البَسملةِ الدَّالَّةِ على ذاتِ الخالِقِ تعالى وصِفاتِه صَريحًا أو الْتزامًا، والنَّهيِ عن التَّرفُّعِ الَّذي هو أُمُّ الرَّذائلِ، والأمْرِ بالإسلامِ الجامعِ لِأمَّهاتِ الفَضائلِ، وليس الأمْرُ فيه بالانقيادِ قبْلَ إقامةِ الحُجَّةِ على رِسالتِه حتَّى يكونَ استدعاءً للتَّقليدِ؛ فإنَّ إلْقاءَ الكتابِ إليها على تلك الحالةِ مِن أعظمِ الدَّلالةِ(٣).

- وكان كتابُ سُليمانَ وَجيزًا؛ لأنَّ ذلك أنسَبُ بمُخاطَبةِ مَن لا يُحسِنُ لُغةَ المُخاطِبِ، فيَقتصِرُ له على المقصودِ؛ لإمكانِ تَرجمَتِه وحُصولِ فَهْمِه، فأحاطَ كِتابُه بالمقصودِ، وهو تَحذيرُ مَلَكةِ سبأٍ من أنْ تُحاوِلَ التَّرفُّعَ على الخُضوعِ إلى سُليمانَ والطَّاعةِ له(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠).

- قولُه: ﴿قَالَتۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا[1]، وكُرِّرت حِكايةُ قولِها: ﴿قَالَتۡ﴾؛ للإيذانِ بغايةِ اعتِنائِها بما في حَيِّزِه مِن قولِها[2].

- قولُها: ﴿أَفۡتُونِي﴾ عبَّرَتْ عن الجَوابِ بالفَتوى الَّتي هي الجَوابُ في الحَوادثِ المُشكلةِ غالبًا؛ تَهْويلًا للأمْرِ، ورَفْعًا لِمَحلِّهم بالإشعارِ بأنَّهم قادِرونَ على حَلِّ المُشكِلاتِ المُلمَّةِ[3].

- وصِيغةُ ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً﴾ تُؤْذِنُ بأنَّ ذلك دأْبُها وعادتُها معهم؛ فكانتْ عاقلةً حَكيمةً مُسْتَشيرةً، لا تُخاطِرُ بالاستِبدادِ بمَصالحِ قَومِها، ولا تُعرِّضُ مُلْكَها لِمَهاوي أخطاءِ المُستبِدِّين[4].

- وفي قولِها: ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ كِنايةٌ عن معنى: تُوافِقُوني فيما أقْطَعُه، أي: يَصدُرُ منها في مَقاطعِ الحُقوقِ والسِّياسةِ: إمَّا بالقَولِ، كما جَرَى في هذه الحادثةِ، وإمَّا بالسُّكوتِ وعَدمِ الإنكارِ؛ لأنَّ حُضورَ المعدودِ للشُّورَى في مكانِ الاستشارةِ مُغْنٍ عن استشارتِه؛ إذ سُكوتُه مُوافقةٌ[5]، وأيضًا فِعلُ ﴿تَشۡهَدُونِ﴾ هنا مُستعمَلٌ كِنايةً عن المُشاورةِ؛ لأنَّها يَلزَمُها الحُضورُ غالبًا؛ إذ لا تَقَعُ مُشاورةٌ مع غائبٍ[6].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ قولِها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٤).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٣).

كأنَّه قِيلَ: فماذا قالوا في جوابِها؟ فقيل: قالوا: ...[(١)].

- وهو جوابٌ بأُسلوبِ المُحاورةِ؛ فلذلك فُصِلَ عمَّا قبْلَه ولم يُعطَفْ عليه، كما هي طريقةُ المُحاوَراتِ[(٢)].

- وفي قولِهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ إيجازٌ عجيبٌ؛ فهو -أوَّلًا- يَدلُّ على تَعظيمِ المَشورةِ، وتَعظيمِ بِلْقيسَ أمْرَ المُستشارِ. ويَدلُّ -ثانيًا- على تَعظيمِهم أمْرَها وطاعتَها. وفي قولِهم: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ وقولِهم: ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ إيجازٌ يُسكِرُ الألبابَ؛ فإنَّ الكلامَ قد يُفسِدُه الاختصارُ، ويُعْميه التَّخفيفُ منه والإيجازُ، وهذا ممَّا يَزيدُه الاختصارُ بَسْطًا؛ لِتَمكُّنِه ووُقوعِه مَوقِعَه، ويَتضمَّنُ الإيجازُ منه تَصرُّفًا يَتجاوَزُ مَحلَّه ومَوضِعَه[(٣)].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَأْمُرِينَ﴾ ومُتعلَّقُه؛ لظُهورِهما من المَقامِ، والتَّقديرُ: ما تأْمُرينَنا به، أي: إنْ كان رأْيُكِ غيرَ الحربِ، فمُري به نُطِعْك[(٤)].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

- قولُها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ فيه افتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخبرِ وتَحقيقِه[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((إعجاز القرآن)) للباقلاني (ص ١٩٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٦).

- قولُها: ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ...﴾ استِدلالٌ بشواهِدِ التَّاريخِ الماضي، وجُملةُ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ استِدلالٌ على المُستقبَلِ بحُكمِ الماضي على طَريقةِ الاستِصحابِ، وهو كالنَّتيجةِ للدَّليلِ الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، وهذا الكلامُ مُقدِّمةٌ لِمَا ستُلْقِيه إليهم مِن عَزْمِها، ويَتضمَّنُ تَعليلًا لِمَا عَزَمَتْ عليه[1].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيدٌ لِمَا وصَفَتْ مِن حالِهم، وتَقريرٌ بأنَّ ذلك مِن عاداتِهم الثَّابتةِ المُستمرَّةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ خبرًا عن اللهِ تعالى؛ فيَعترِضُ بيْن جُمَلِ ما يُحْكَى تَصديقًا لها. ويَجوزُ أنْ يكونَ مِن الحِكايةِ على معنى: إنَّ الملوكَ تأثيرُهم في القُرَى الَّتي يَدخُلونها تَخريبُها، وكذلك يَفعَلُ هؤلاء، يعني: سُليمانُ عليه السَّلامُ وخَيلُه؛ فعَلَى الوجهينِ الأوَّلينِ تكونُ الجُملةُ تَذييلًا[2].

٧- قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ تَقْريرٌ لرَأْيِها بعْدَما زَيَّفَتْ آراءَهم، وأتتْ بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، المُصدَّرةِ بحَرفِ التَّحقيقِ؛ للإيذانِ بأنَّها مُزْمِعةٌ على رأْيِها، لا يَلْويها عنه صارفٌ، ولا يَثْنيها عاطفٌ[3].

- ومفعولُ ﴿مُرْسِلَةٌ﴾ مَحذوفٌ تقديرُه: مُرسِلةٌ إليهم كتابًا ووَفْدًا مَصحوبًا بهَديَّةٍ؛ إذ لا بُدَّ أنْ يكونَ الوفدُ مَصحوبًا بكتابٍ تُجيبُ به كِتابَ سُليمانَ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢١، ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

الجوابَ عن الكتابِ عادةٌ قديمةٌ[١].

- قولُه: ﴿فَنَاظِرَةُۢ﴾ اسمُ فاعلٍ مِن (نَظَرَ) بمعنَى: انْتظَرَ، أي: مُترقِّبةٌ -على أحدِ القولينِ في معناها-؛ فتكونُ جُملةُ ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مُبيِّنةً لجُملةِ ﴿فَنَاظِرَةُۢ﴾، أو مُستأنفةً. وأصْلُ النَّظمِ: فناظِرةٌ ما يَرجِعُ المُرسَلون به، فغُيِّرَ النَّظمُ؛ لمَّا أُرِيدَ أنَّها مُتردِّدةٌ فيما يَرجِعُ به المُرسَلون[٢].

٨- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ في الكَلامِ حَذْفٌ تَقديرُه: فأرْسَلَتِ الهديَّةَ، فلمَّا جاء...[٣]

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ إنكاريٌّ؛ لأنَّ حالَ إرسالِ الهديَّةِ، والسُّكوتِ عن الجوابِ يَقْتَضي مَحاولةَ صَرفِ سُليمانَ عن طَلبِ ما طلَبَه بما بُذِلَ له مِن المالِ؛ فيَقْتَضي أنَّهم يَحسَبونه مُحتاجًا إلى مِثْلِ ذلك المالِ، فيَقتنِعُ بما وُجِّهَ إليه. وفيه تَوبيخٌ لهم بذلك[٤].

- وتَنكيرُ مالٍ في قولِه: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ للتَّحقيرِ[٥].

- قولُه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ الفاءُ لِتَفريعِ الكلامِ الَّذي بعْدَها على الإنكارِ السَّابقِ، أي: أنكَرْتُ عليكم ظَنَّكم فَرَحي بما وَجَّهْتُم إليَّ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥).

ما أعْطاني اللهُ خيرٌ ممَّا أعْطاكم، أي: هو أفضلُ منه في صِفاتِ الأموالِ مِن نَفاسةٍ ووَفْرةٍ. وسَوقُ التَّعليلِ يُشعِرُ بأنَّه عَلِمَ أنَّ المَلِكةَ لا تَعلَمُ أنَّ لَدى سُليمانَ مِن الأموالِ ما هو خيرٌ ممَّا لَدَيْها؛ لأنَّه لو كان يَظنُّ أنَّها تَعلمُ ذلك لَمَا احتاجَ إلى التَّفريعِ. وهذا مِن أسرارِ الفرْقِ في الكلامِ البليغِ بيْن الواوِ والفاءِ في هذه الجُملةِ؛ فلو قال: (وما آتاني اللهُ خيرٌ ممَّا آتاكم)، لكانَ مُشعِرًا بأنَّها تَعلَمُ ذلك؛ لأنَّ الواوَ تكونُ واوَ الحالِ[1].

- وقيل: الفاءُ هاهنا في قولِه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ مُستعمَلٌ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ، كأنَّه قال: لا أقبَلُ إمدادَك بمالٍ، فقال المُخاطَبُ: لِمَ لا تَقبَلُ؟ فأُجِيبَ: لأنِّي أغْنَى منك؛ فلمَّا كان هذا الجوابُ مُرتَّبًا على السُّؤالِ، ومُعَقبًا له، تُرِكَ السُّؤالُ وجِيءَ بالفاءِ. وقيل: الفاءُ للتَّسبيبِ؛ فالمُنكَرُ الجُملةُ الأُولى، والثَّانيةُ عِلَّةُ الإنكارِ، ولا يجِبُ أنْ تكونَ العلَّةُ مَعلومةً عندَ المُخاطَبِ، فيَجِبُ الإعلامُ والتَّوبيخُ على الجَهلِ به، كأنَّه قال: لا أحتاجُ إلى ما آتَيْتُمونِيهِ؛ لأنِّي غنِيٌّ، كما يُقال: أُنكِرُ عليك ما فعلْتَ؛ فإنِّي غَنِيٌّ عنه[2].

- قولُه: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لَمَّا أنكَرَ عليهم نَبِيُّ اللهِ إمدادَهم بالمالِ، وعلَّلَ الإنكارَ بكَونِه غنيًّا عنه، أضرَبَ عن ذلك إلى بَيانِ السَّببِ الَّذي حَمَلَهم عليه، وهو أنَّهم غيرُ عالمينَ بحالِه، وأنَّه غنِيٌّ عن ذلك، ثمَّ ترقَّى إلى الأخْذِ فيما هو الأهمُّ مِن ذلك الإنكارِ، وهو الإعلامُ بأنَّ ما جَعَلوه سببًا للإمدادِ أقبَحُ مِن ذُلِّ الجهْلِ؛ وذلك أنَّ قُصارى أمْرِهم الفرحُ بما

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢٦، ٥٢٧).

يُهْدى إليهم، فقاسُوا حالَ نَبيِّ اللهِ بحالِهم في أنْ ليس له الرِّضا والفرحُ إلَّا بالحُظوظِ العاجلةِ. هذا إذا قُدِّرت الإضافةُ إلى المُهدى إليه، أمَّا إذا جُعِلَت الإضافةُ إلى المُهدي -أي: الفاعلِ- بأنْ يُقالَ: وأنتم بهَديَّتِكم هذه تَفْرحون فرَحَ افتخارٍ، فيكونُ المعنى: الَّذي مَنَحنى اللهُ مِن الدِّينِ والمُلْكِ الواسع خيرٌ ممَّا آتاكُم، فلا أفرَحُ بمِثلِ هذه المُحقَّراتِ الَّتي تَفتخِرون بها؛ فأَولى الضَّميرَ حرفَ الإضرابِ لِيُفيدَ: أنتم خُصوصًا تَفْرحون. ويجوزُ على هذا أنْ يُعتبَرَ معنى تَقوِّي الحُكمِ مِن التَّركيبِ، فيُفيدُ مُطلَقَ الرَّدِّ، أي: أنتم لا بُدَّ لكم أنْ تَفرَحوا بمِثلِ هذه المُحقَّراتِ، أي: تُمِدُّونَني بمالٍ وتَزْعُمون أنَّ مِن عادتي أنْ أفرَحَ بأخْذِ الهديَّةِ! بلْ أنتم مِن حَقِّكم أنْ تَفرَحوا به، فخُذوها وافْرَحوا. وهو على هذا الوجهِ كِنايةٌ[1].

٩- قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾

- وعَدمُ وُقوعِ جَوابِ القسَمِ في قولِه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ...﴾؛ لأنَّه كانَ مُعلَّقًا بشَرطٍ قد حُذِفَ عندَ الحِكايةِ؛ ثِقةً بدَلالةِ الحالِ عليهِ، كأنَّه قِيلَ: ارْجِعْ إليهم، فلْيَأْتُوا مُسلمينَ، وإلَّا فلَنأتِيَنَّهم[2].

- وعبَّرَ بجمْعِ القلَّةِ ﴿أَذِلَّةً﴾؛ تأكيدًا لِذِلَّتِهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦).

الآيات (٢٨-٤٤)

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِفْرِيتٌ﴾: العِفريتُ: الماردُ الشَّديدُ، النَّافِذُ في الأمرِ، المبالغُ فيه مع خُبثٍ ودَهاءٍ، وأصلُ (عفر) هنا: يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[(١)].

﴿يَرْتَدَّ﴾: أي: يَرجِعُ، والارتِدادُ: الرُّجوعُ[(٢)].

﴿طَرْفُكَ﴾: أي: بصَرُك ونظرُك، والطَّرْفُ: تحريكُ الجَفنِ، وعُبِّرَ به عن النَّظرِ؛ إذ كان تحريكُ الجَفنِ لازِمُه النَّظرُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

﴿نَكِّرُوا﴾: أي: غيِّروا، وتَنكيرُ الشَّيءِ: جَعلُه بحيثُ لا يُعرَفُ، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ التي يَسكُنُ إليها القَلبُ[١].

﴿الصَّرْحَ﴾: أي: القَصْرَ، وكُلُّ بناءٍ عالٍ: فهو صَرحٌ[٢].

﴿لُجَّةً﴾: أي: غَمرةً عَظيمةً من ماءٍ، واللُّجَّةُ: الماءُ المجتمعُ كالبحرِ، ولُجَّةُ البحرِ: تردُّدُ أمواجِه، وأصلُه مِنَ اللَّجَجِ: وهو تردُّدُ الشَّيءِ بعضِه على بعضٍ[٣].

﴿مُمَرَّدٌ﴾: أي: مُمَلَّسٌ، مِن قَولِهم: شَجرةٌ مَرداءُ: إذا لم يكُنْ عليها وَرَقٌ، وأصلُ المرودةِ: المَلاسةُ والاستواءُ[٤].

﴿قَوَارِيرَ﴾: أي: زُجاجٍ[٥].

المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: قال سُلَيمانُ للمَلَأِ مِن حَولِه: يا أيُّها الأشرافُ، أيُّكم يأتيني بكرسيِّ مُلْكِ مَلِكةِ سَبَأٍ قبلَ أن تحضُرَ إلينا هي وقَومُها موحِّدينَ طائِعينَ؟ قال

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

ماردٌ مِن الجنِّ: أنا أُحضِرُ لك عَرْشَها قبل أن تقومَ مِن مجلِسِك، وإنِّي لَقويٌّ عليه أمينٌ على ما فيه. قال الذي عنده علمٌ بكتابِ الله: أنا أُحضِرُ لك العَرشَ قبل أن يرجِعَ إليك بَصَرُك إذا نظَرْتَ إلى شيءٍ! فأتاه بالعَرشِ بقُدرةِ اللهِ.

فلمَّا رآه سُلَيمانُ مُستقِرًّا بين يديه، قال: هذا الذي أنا فيه مِن عَطاءِ ربِّي؛ لِيَختبِرَني أأشكُرُ نِعمَتَه أم أكفُرُها، ومَن شَكَرَ نعمةَ اللهِ عليه فإنَّما ينفَعُ نَفسَه بذلك الشُّكرِ، ومن كَفَرَ نعمةَ اللهِ عليه فإنَّ ربِّي غنيٌّ عن شُكرِه، كريمٌ متفضِّلٌ بإنعامِه.

قال سُلَيمانُ: غيِّروا معالمَ عَرشِها؛ لِننظُرَ أتعرِفُ أنَّه عَرشُها أم لا؟ فلمَّا جاءت مَلِكةُ سَبأٍ إلى سُلَيمانَ قيل لها: أعرشُكِ مثلُ هذا العَرشِ؟! قالت: كأنَّه هو. فقال سُلَيمانُ: قد آتانا اللهُ العِلمَ مِن قَبلِها وكنَّا طائعينَ مُسلِمين لله تعالى، ومنَعَها عن الإسلامِ عِبادتُها الشَّمسَ مِن دونِ اللهِ؛ لأنَّها كانت من قومٍ كافرينَ بالله تعالى.

وقيل لمِلكةِ سَبأٍ: ادخُلي هذا البناءَ العاليَ، فلمَّا رأَتْه وقد صُنِعَت أرضُه مِن زُجاجٍ شفَّافٍ، حَسِبَته ماءً، وأظهَرَت ساقَيها حتى تخوضَ في الماءِ دونَ أن تبتلَّ ثيابُها. قال سليمانُ لها: ليس هذا ماءً، بل هو بناءٌ مملَّسٌ مبنيٌّ مِن زُجاجٍ! قالت ملِكةُ سَبَأٍ: ربِّ إني ظلمتُ نفسي بعبادةِ غيرِك، وانقَدْتُ واستسلَمْتُ مع سُلَيمانَ، طائعةً لك وَحدَك.

تفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: قال سُلَيمانُ لجُلَسائِه الحاضرينَ عِندَه من الجِنِّ والإنسِ: يا أيُّها الأشرافُ، أيُّكم يُحضِرُ لي كرسيَّ المُــلْكِ لمِلكةِ سبأٍ قبل أن تحضُرَ إلينا هي وقَومُها مسلِمينَ[1]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣، ٦٥، ٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، =

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٠).

قال ابنُ عطية: (ظاهِرُ هذه الآياتِ أنَّ هذه المقالةَ مِن سليمانَ عليه السلام بعد مجيءِ هديَّتِها وردِّه إيَّاها، وقد بعث الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهورُ المفسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٠).

قال البيضاوي: (أراد بذلك أن يُريَها بعضَ ما خصَّه اللهُ تعالى به مِن العجائِبِ الدالَّةِ على عِظَمِ القُدرةِ، وصِدقِه في دعوى النبوَّةِ؛ ويختبِرَ عَقلَها بأن ينكِّرَ عَرشَها فينظُرَ أتعرِفُه أم تُنكِرُه؟). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠).

وقيل غيرُ ذلك في غرضِ سليمانَ عليه السَّلامُ من إحضارِ عرشِها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢).

واختلف أهلُ التفسير في قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؛ فقال بعضُهم: معناه: قبْلَ أن يأتوني مُستَسلِمينَ طَوعًا.

وقال آخَرون: بل معنى ذلك: قبْلَ أن يأتوني مسلمينَ الإسلامَ الَّذي هو دينُ الله. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مُسْلِمِينَ﴾: مؤمنينَ موحِّدينَ: مقاتلُ بن سليمان، والزجاج، والسمرقندي، والثعلبي، البغوي، والبيضاوي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ جُرَيج، وعطاء الخراساني، والسُّدِّيُّ، وزهير بن محمد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المراد: منقادينَ طائعينَ مُستَسلِمينَ: ابنُ جرير، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٣). =

﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩﴾.

﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.

أي: قال مارِدٌ قَوِيٌّ وشديدٌ مِن الجِنِّ: أنا أُحضِرُ لك عَرْشَها قبل أن تنهَضَ مِن مجلِسِك(١).

﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾.

أي: وإنِّي قَوِيٌّ على حَملِ العَرشِ، أمينٌ على ما فيه(٢).

﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾.

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٥٩).

قال ابن جرير: (أولَى التَّأويلين في قولِه ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ ... قولُ ابنِ عبَّاسٍ... أنَّ معناه طائعينَ، لأنَّ المرأةَ لم تأتِ سليمانَ إذْ أتَتْه مسلِمةً، وإنَّما أسلَمَتْ بعدَ مَقْدَمِها عليه، وبعدَ مُحاوَرةٍ جَرَتْ بيْنَهما ومُساءَلةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

قال السعدي: (الظَّاهِرُ أنَّ سُلَيمانَ إذ ذاك في الشَّام، فيكونُ بيْنَه وبين سبأٍ نحوُ مسيرةِ أربعةِ أشهُرٍ: شهرانِ ذَهابًا، وشهران إيابًا، ومع ذلك يقولُ هذا العِفريتُ: أنا ألتزِمُ بالمجيءِ به -على كِبَرِه وثِقَلِه وبُعْدِه- قبل أن تقومَ مِن مجلِسِك الذي أنت فيه. والمعتادُ مِن المجالِسِ الطويلةِ أن تكونَ مُعظَمَ الضُّحى نحوَ ثُلُثِ يَومٍ، هذا نهايةُ المعتادِ، وقد يكونُ دونَ ذلك أو أكثَرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٠).

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

أي: قال الذي عنده[(١)] علمٌ بكتابِ اللهِ[(٢)]: أنا أُحضِرُ لك العَرشَ قبل أن يَرجِعَ إليك بَصَرُك إذا نظَرْتَ إلى شيءٍ مدَّ بصرِك[(٣)].

---

(١) قال ابن عطية: (اختلف المفسِّرون في الذي عندَه عِلمٌ من الكتابِ مَن هو: فجمهورُ النَّاسِ على أنَّه رجلٌ صالحٌ من بني إسرائيلَ اسمه آصف بن برخيا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦١).

وقال ابن تيميَّة: (أتَتْهُ به الملائكةُ، كذلك ذكره المفسِّرون عن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه: أنَّ الملائكةَ أتته به أسرعَ ممَّا كان يأتي به العِفريتُ). ((النبوات)) (٢/ ١٠٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٣).

وقال السَّعدي: (قال المفسِّرون: هو رجلٌ عالمٌ صالحٌ عند سليمانَ يقالُ له: آصف بن برخيا، كان يعرِفُ اسمَ الله الأعظَمَ الذي إذا دعا اللهَ به أجاب، وإذا سأل به أُعطيَ... ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ بأن يدعوَ الله بذلك الاسمِ فيَحضُرَ حالًا، وأنَّه دعا اللهَ فحضرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٩، ٧٠).

قال أبو حيان بعد أن ذكَر الخلافَ في اسمِه: (وهذه أقوالٌ مضطربةٌ، وقد أبهَم الله اسمَه، فكان ينبغي ألَّا يُذكرَ اسمُه حتَّى يُخبرَ به نبيٌّ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٠).

(٢) قال البقاعي: (كأنَّه الذي كان شهيرًا في ذلك الزمان، ولعلَّه التَّوراةُ والزَّبورُ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٨، ٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: قبْلَ أن يَرجِعَ بصرُك إذا نظرتَ إلى شَيءٍ مدَّ بصرِك: ابنُ جرير، والرسعني، وابن جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١٥).

قال ابن عاشور: (وارتدادُ الطَّرْفِ حقيقتُه: رُجوعُ تحديقِ العَينِ من جِهةٍ منظورةٍ تُحُوِّلَ عنها لحظةً). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧١). =

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

أي: فأتى العرشُ بقُدرةِ اللهِ، فلمَّا رآه سُلَيمانُ ثابتًا ثُبوتًا حقيقيًّا بينَ يدَيه، قال: هذا التمَكُّنُ والمُلكُ والسُّلطانُ الذي أنا فيه حتى حُمِلَ إليَّ العَرشُ في قَدْرِ ارتدادِ الطَّرفِ- مِن عَطاءِ رَبِّي عليَّ؛ لِيَختبرَني أأشكُرُ نِعمَتَه، أم أكفُرُها فلا أشكُرُه[1].

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

= وقال البيضاوي: (الطَّرفُ: تحريكُ الأجفانِ للنظَّرِ، فوُضِع مَوضعَه، ولَمَّا كان الناظرُ يوصَفُ بإرسالِ الطَّرفِ... وُصِف برَدِّ الطَّرفِ، والطَّرْفُ بالارتداد، والمعنى: أنَّك تُرسِلُ طَرْفَك نحوَ شَيءٍ فقَبْلَ أن تَرُدَّه أُحضِرُ عرشَها بيْنَ يدَيْك، وهذا غايةٌ في الإسراع، ومَثَلٌ فيه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦١).

وقيل: الطَّرفُ: تحريكُ الأجفانِ وفتحُها للنَّظرِ إلى شَيءٍ، وارتدادُه: انضمامُها. وممَّن اختاره: أبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦١).

وقيل: قولُه: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ معناه: قبل أن يَنتهيَ إليك الذي وقَع عليه مُنتهى بصَرِك وهو جاءٍ إليك، وبعبارةٍ أخرى: قبْلَ أن يَصِلَ إليك مَن كان منك على مَدِّ بصَرِك. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، ومكِّي، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٣٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٠٢).

قال ابن الجوزي: (وفي قولِه تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أربعةُ أقوال؛ أحدُها: قبْلَ أن يأتيَك أقصى ما تنظُرُ إليه، قاله سعيد بن جُبَير. والثاني: قبل أن ينتهيَ طَرْفُك إذا مدَدْتَه إلى مداه، قاله وَهْبٌ. والثَّالث: قبْلَ أن يرتَدَّ طَرْفُك حسيرًا إذا أدمْتَ النَّظرَ، قاله مجاهد. والرَّابع: بمقدارِ ما تفتَحُ عَيْنَك ثمَّ تَطرِفُ، قاله الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٣، ٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٠).

أي: ومَن شَكَرَ نعمةَ اللهِ عليه فإنَّما ينفَعُ نَفسَه في دُنياه وآخِرتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

وقال عز وجل: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

أي: ومن كَفَرَ نِعمةَ اللهِ عليه ولم يَشكُرْ، فإنَّ ربِّي غَنيٌّ عن شُكرِه، ولا حاجةَ به إليه، كريمٌ في نفسِه وإن لم يُعبَدْ، فعظَمتُه لا تفتَقِرُ إلى أحدٍ؛ ومُتفَضِّلٌ بإنعامِه على جميعِ خَلقِه حتَّى على مَن يكفُرُ به[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).
قال القرطبي: (لا يَرجِعُ نَفعُ ذلك إلَّا إلى نفْسِه؛ حيث استوجَبَ بشُكرِه تمامَ النِّعمةِ ودوامَها والمزيدَ منها). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).
قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: أنَّه قد يُبقي النِّعمةَ على مَن كَفَرها؛ تكرُّمًا منه أحيانًا، وأحيانًا استدراجًا...؛ لقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].
وقد يُبقي اللهُ تعالى النِّعَمَ مع الكُفرِ تربيةً، بحيث إنَّ الإنسانَ يفتَحُ الله عليه التأمُّلَ فيَخجَلُ مِن الله عزَّ وجلَّ أن يكونَ هو يبادِرُ اللهَ تعالى بالمعاصي، والله تبارك وتعالى يُدِرُّ عليه النِّعَمَ، فيرتدِعُ، وهذا هو ظاهِرُ قولِه: ﴿كَرِيمٌ﴾؛ لأنَّ الكرمَ في مقابِلِ الكُفرِ لا يكونُ إلَّا حيث يكونُ ذلك الكرمُ من مصلحةِ الكافِرِ بها، وإلَّا ما ظهر آثارُ الكرمِ، بل ظهر آثارُ الحِكمةِ، لو قال: حكيمٌ، صار =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: قال سُليمانُ: غيِّروا مَعالِمَ وهيئةَ عَرْشِ ملِكةِ سَبأٍ؛ لِنَنظُرَ: أتعرِفُ أنَّه عَرشُها أم تكونُ مِن الذين لا يَعرِفون أنَّه هو[1]؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾.

= هذا يشمَلُ مَن تدرَّج اللهُ به حتى أهلَكَه، لكِنْ كريمٌ: ما يَتِمُّ الكرمُ للكافرِ بالنعمةِ إلَّا حيث كان إبقاءُ النِّعمةِ عليه مصلحةً له لأجلِ أن يعودَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٥، ٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٧)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ١٩٨).

قال ابن جُزَي: (﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ يحتملُ أن يريدَ: تهتدي لمعرفةِ عرشِها، أو للجوابِ عنه إذا سُئلَتْ، أو للإيمانِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٢).

وقال الرازي: (واختَلفوا في ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ على وجهَينِ؛ أحدهما: أتَعرِفُ أنَّه عرشُها أمْ لا؟ ... الثَّاني: أتَعرِفُ به نُبُوَّةَ سُليمانَ أمْ لا؛ ولذلك قال: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، وذلك كالذَّمِّ، ولا يليقُ إلَّا بطريقةِ الدَّلالةِ، فكأنَّه عليه السَّلامُ أحَبَّ أن تَنظُرَ فتَعرِفَ به نُبوَّتَه من حيثُ صار متنقلًا من المكانِ البعيدِ إلى هناك، وذلك يدُلُّ على قدرةِ الله تعالى، وعلى صِدقِ سُليمانَ عليه السَّلامُ، ويَعرِف بذلك أيضًا فضلَ عقلِها؛ لأغراضٍ كانت له، فعندَ ذلك سألها). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٨).

أي: فلمَّا جاءت مَلِكةُ سَبَأٍ إلى سُليمانَ، ورأت عَرْشَها بعدَ تغييره، قيلَ لها[1]: هل عرشُكِ الذي تركتِهِ في بلادِك مِثلُ هذا العَرشِ الذي رأيتِه[2]؟!

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبَأٍ: هذا العَرشُ يُشبِهُ جِدًّا عرشي الذي تركتُه في بلادي[3]!

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ: وآتانا اللهُ العِلمَ مِن قَبلِ مَلِكةِ سَبَأٍ، وكنَّا طائِعين ومُنقادِين له سُبحانَه[4].

---

(١) قال الشوكاني: (القائِلُ هو سُليمانُ، أو غيرُه بأمرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣).
وقال ابنُ عثيمين: (ولم يبيِّنْ؛ لأنَّ المقصودَ معنى هذا القولِ دونَ قائلِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٧)، ((الانتصاف فيما تضمنه الكشاف)) لابن المُنَيِّر (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٥).
قيل: قائلُ ذلك هو سليمانُ عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابن جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والزمخشري، وابن جزي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. وذهب إليه أيضًا مقاتلُ بنُ سليمان، يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، وزهيرُ بنُ محمد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٩). =



= قيل: المرادُ بالعلم هنا: العِلمُ بالله وبقدرتِه على فِعلِ ما يَشاءُ. وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ جرير، ومكي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩٣).

وقيل: المعنى: علِمْنَا حالَها وأمْرَها وحالَ عَرشِها قبل أن تعلَمَ. وممَّن قال بذلك: السمعاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠١).

وقيل: العِلمُ هنا: يشمَلُ العلمَ الشرعيَّ، ويشمَلُ العلمَ بقواعدِ المُلكِ ومثَبِّتاتِه، وما أشبَهَ ذلك. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٥).

وقال ابن عاشور: (معنى: ﴿مِن قَبۡلِهَا﴾ إنْ حُمِلَ على ظاهِرِه أنَّ قومَهم بني إسرائيلَ كانوا أسبَقَ في معرفةِ الحِكمةِ وحضارةِ المُلكِ مِن أهلِ سبأٍ؛ لأنَّ الحِكمةَ ظهَرت في بني إسرائيلَ مِن عَهدِ موسى؛ فقد سَنَّ لهم الشريعةَ، وأقام لهم نظامَ الجماعةِ، وعَلَّمَهم أسلوبَ الحضارةِ بتَخطيطِ رُسومِ مَساكِنِهم وملابِسِهم، ونظامِ الجَيشِ والحَربِ، والمواسِمِ والمحافِلِ. ثم أخذَ ذلك يرتقي إلى أن بلغَ غايةً بعيدةً في مُدَّةِ سُلَيمان- فبهذا الاعتبارِ كان بنو إسرائيلَ أسبَقَ إلى علم الحِكمةِ قَبلَ أهلِ سبأٍ؛ وإن أريدَ بـ ﴿مِن قَبۡلِهَا﴾ القبليَّةُ الاعتباريَّةُ، وهي الفَضلُ والتفوُّقُ في المزايا -وهو الأليقُ بالمعنى- كان المعنى: إنَّا أوسَعُ وأقوى منها عِلمًا... فكان الأرجَحُ أن يكونَ معنى ﴿مِن قَبۡلِهَا﴾ أنَّا فائتونَها في العِلمِ، وبالِغون ما لم تبلُغْه. وزادوا في إظهارِ فَضلِهم عليها بذِكرِ الناحيةِ الدينيةِ، أي: ﴿وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ دونَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٤).

وذهب الواحدي، وأبو السعود، وجوَّزه الزمخشري، وذكره السعدي احتِمالًا: إلى أن هذا من قَولِ المِلكة، أي: قالت: وأُوتينا العِلمَ بالله وقُدرتِه وصِحَّةِ نبوَّةِ سليمانَ مِن قبْلِ هذه الآيةِ التي رأيْناها في إحضارِ العَرشِ، وكنَّا مُنقادينَ له قبلَ مجيئِنا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

وجوَّز ابنُ عاشور أنَّ هذا مِن قولِ الملأِ مِن بني إسرائيلَ مِن قَومِ سُليمانَ، أي: قال بعضُهم لبعضٍ: أُوتينا العِلمَ والحِكمةَ من قبْلِ أهلِ سبأٍ بما هو أكثَرُ مِمَّا أُوتوا، وكنَّا مُسلمينَ لله دونهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣، ٢٧٤).

وذهب الزمخشريُّ وابن جُزَي إلى أنَّ هذا مِن كلامِ سليمان وملَئِه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣).

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ومنَع مِلكةَ سَبَأٍ عن الإسلامِ عبادتُها الشَّمسَ مِن دونِ اللهِ[1]!

﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: لأنَّها كانت مِن قَومٍ راسِخينَ في الكُفرِ باللهِ، فنشَأتْ بينَهم على الشِّركِ بالله سبحانَه، وقلَّدَتْهم في دينِهم[2].

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾.

أي: قيل لِمِلكةِ سَبَأ: ادخُلي هذا البِناءَ المُرتفِعَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).
قال ابن جرير: (ولو قيل: معنى ذلك: وصدَّها سليمانُ ما كانت تعبدُ من دون الله، بمعنى: منَعها وحال بيْنَها وبيْنَه؛ كان وجهًا حسنًا. ولو قيل أيضًا: وصدَّها اللهُ ذلك بتوفيقِها للإسلامِ؛ كان أيضًا وجهًا صحيحًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٧، ٢٣٨).
قال أبو السعود: (أي: أنَّها كانت من قومٍ راسخين في الكُفرِ؛ ولذلك لم تكُنْ قادرةً على إظهارِ إسلامِها وهي بيْنَ ظهرانَيْهم إلى أن دخَلَت تحتَ مملكةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٣٨)، ((غرائب التفسير)) للكرماني (٢/ ٨٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤، ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾.

أي: فلمَّا رأَتْه الملِكةُ -وهو مبنيٌّ بالزُّجاجِ وتحتَه ماءٌ- حَسِبَتْه ماءً، وأظهَرَت ساقَيها حتى تخوضَ في الماءِ مِن غيرِ أن تبتلَّ ثيابُها(١).

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ لها: هذا الذي حَسِبْتِه لجَّةً إنَّما هو بناءٌ مملَّسٌ مبنيٌّ من زُجاجٍ(٢).

﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾.

أي: قالت ملِكةُ سبأٍ: ربِّ إنِّي ظَلَمتُ نفسي بعبادةِ غَيرِك، والسُّجودِ للشَّمسِ مِن دونِك(٣).

﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وأذعنتُ وانقدْتُ واستسلمْتُ مع سُلَيمانَ، طائعةً لله تعالى، متابعةً لسُلَيمانَ ومُقتَدِيةً به في عبادةِ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له، خالِقِ كُلِّ شَيءٍ ومالِكِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٣)، ((غرائب التفسير)) للكرماني (٢/ ٨٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابنُ عاشور: (بهَرَها ما رأَتْ مِن آياتٍ عَلِمَت منها أنَّ سُلَيمانَ صادِقٌ فيما دعاها إليه، وأنَّه مؤيَّدٌ من الله تعالى، وعلِمَتْ أنَّ دينَها ودينَ قَومِها باطِلٌ، فاعترفت بأنها ظَلَمَت نفسَها في اتِّباع الضَّلالِ بعبادةِ الشَّمسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٦).

ومدبِّره(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يَصِفَ نفْسَه بما اتَّصفَ به مِن صفاتِ الكمالِ؛ ترغيبًا، كقَولِه: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أو ترهيبًا، كقَولِه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ بشَرطِ أنْ يكونَ ذلك حقيقةً، والأصلُ في ذلك أنَّه مباحٌ، والمباحُ تعتريه الأحكامُ الخَمسةُ؛ فقد يكونُ مَطلوبًا إمَّا وجوبًا وإما استِحبابًا إذا اقتَضَت الحالُ البيانَ؛ كأن يكونَ مِن أجلِ أن يمنَعَ مَن ليس بأهلٍ مِن مباشرةِ هذا العمَلِ، فحينئذٍ يجِبُ أن يبَيِّنَ نفسَه، أو يكونَ مِن بابِ التحَدُّثِ بنِعمةِ الله؛ وقد يكونُ مَذمومًا كأن يكونَ لغَرضٍ سَيِّءٍ، أو يكونَ مجَرَّدَ دعوى(٢).

٢- أنَّ كلَّ وِلايةٍ وعَمَلٍ لا بُدَّ فيه مِن ركنينِ: القوَّةِ والأمانةِ: القُوَّةِ على ذلك العملِ، والأمانةِ فيه؛ فالعملُ الذي يَتطَلَّبُ العلمَ لابُدَّ أنْ يكونَ المتولِّي له عالِمًا، والذي يعتَمِدُ قوةَ البدنِ لا بُدَّ أنْ يكونَ متولِّيه قويَّ البدنِ، ولا بُدَّ أنْ يكونَ أمينًا؛ لأنَّ مَن ليس بأمينٍ لا يمكنُ أنْ يُنفِّذَ العملَ على الوجهِ المَرْضيِّ، ويدلُّ على هذينِ الركنينِ قولُ العفريتِ مِن الجنِّ لسليمانَ عليه السلامُ لَمَّا قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩).

قال ابن عاشور: (سكت القرآنُ عن بقيَّةِ خَبَرِها ورجوعِها إلى بلادِها، وللقصَّاصينَ أخبارٌ لا تصِحُّ... ولا أصلَ لِما يذكُرُه القصَّاصون وبعضُ المفسِّرينَ مِن أنَّ سُليمانَ تزوَّج بِلْقيسَ، ولا أنَّ له ولدًا منها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٨).

مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ في قَولِه: ﴿عِلْمٌ﴾ تنبيهٌ على أنَّه اقتدرَ على ذلك بقوَّةِ العلمِ؛ لِيفيدَ ذلك تَعظيمَ العلمِ والحثَّ على تعَلُّمِه، وبَيَّن أنَّ هذا الفَضلَ إنَّما هو للعِلمِ الشَّرعيِّ، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[(٢)].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ لم يغترَّ عليه السَّلامُ بمُلكِه وسُلطانِه وقُدرتِه كما هو دأبُ الملوكِ الجاهلينَ، بل عَلِمَ أنَّ ذلك اختبارٌ مِن رَبِّه، فخاف ألَّا يقومَ بشُكرِ هذه النِّعمةِ[(٣)]. فلم يَشتغِلْ سليمانُ حين أُحضِرَ له العَرشُ بأن يبتهِجَ بسُلطانِه ولا بمقدرةِ رِجالِه، ولكِنَّه انصَرَف إلى شُكرِ الله تعالى على ما منَحَه من فضلٍ، وأعطاه من جُندٍ مُسخَّرين بالعِلمِ والقوَّةِ، فمزايا جميعِهم وفَضلُهم راجِعٌ إلى تفضيلِه[(٤)].

٥- منفعةُ الشُّكرِ تَرجِعُ إلى العبدِ في الدُّنيا والآخرة، لا إلى اللهِ. والعبدُ هو الذي ينتَفِعُ بشُكرِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾[النمل: ٤٠]، فشُكرُ العبدِ إحسانٌ منه إلى نفسِه في الدُّنيا والآخِرة؛ فلا يُذَمُّ ما أتَى به مِن ذلك، وإن كان لا يُحسِنُ مُقابَلةَ المُنعَمِ به، ولا يستطيعُ شُكرَه، فإنَّه إنما هو مُحسِنٌ إلى نفسِه بالشُّكرِ، لا أنَّه مُكافِئٌ به لِنعَمِ الرَّبِّ، فالربُّ تعالى لا يستطيعُ أحدٌ أن يكافِئَ نِعَمَه أبدًا، ولا أقَلَّها، ولا أدنَى نعمةٍ من نِعَمِه؛ فإنَّه تعالى هو المنعِمُ

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

المتفَضِّلُ، الخالِقُ للشُّكرِ والشَّاكِرِ وما يَشكُرُ عليه، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يحصِيَ ثناءً عليه؛ فإنه هو المحسنُ إلى عَبدِه بنِعَمِه، وأحسَنَ إليه بأن أوزَعَه شُكْرَها؛ فشُكرُه نِعمةٌ مِن اللهِ أنعم بها عليه، تحتاجُ إلى شكرٍ آخَرَ. وهلُمَّ جرًّا(١).

٦- قَولُ الله تعالى حِكايةً عن سُلَيمانَ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يتحَدَّثَ بنعمةِ اللهِ تعالى عليه(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أنَّ البيئةَ لها تأثيرٌ؛ فهؤلاء القومُ أثَّروا عليها فصارتْ كافرةً تعبدُ مع اللهِ غيرَه(٣).

٨- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن مُصاحبةِ الأشرارِ؛ حتى لو كانوا مِن أقارِبِك، فلا ينبغي أنْ تصاحِبَهم، وإذا كان لهم حقٌّ عليك بالقرابةِ فأعطِهم حقَّهم الذي لهم، ولكنْ لا تكُنْ مخالِطًا لهم ومُصاحِبًا لهم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((المرءُ على دِينِ خليلِه؛ فلْينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ))(٤)، وهذا شيءٌ واقعٌ يَشهدُ له التاريخُ السابقُ والحديثُ(٥).

٩- قَولُه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ فيه فضلُ الاعتِرافِ بالذُّنوبِ، لعَلَّامِ الغُيوبِ، وهو استِكانةٌ موجِبةٌ لعطفِه ولُطفِه، بغَفْرِ الذُّنوبِ وسَترِ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٨٤١٧)، والحاكم (٤/ ١٨٨) (٧٣١٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
صححه الحاكم، وحسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٥١)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٣٣)، وصحَّح إسناده النَّووي ((رياض الصالحين)) (١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٩).

العُيوبِ، وهذا دأبُ المُصْطَفَيْنَ مِن عِبادِ الله؛ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، وعلَّمَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ الله عنه دعاءً يدعو به في صلاتِه، قال: ((قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي ظلَمتُ نفْسي ظُلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت، فاغفِرْ لي مغفرةً مِن عِندِك، وارحَمْني؛ إنَّك أنت الغفورُ الرَّحيمُ))[1]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ الله عنها: ((إنَّ العبدَ إذا اعترَفَ بذَنْبِه، ثمَّ تاب؛ تاب اللهُ عليه))[2].

١٠- مَكانُ العِبرةِ مِن هذه القصَّةِ: الاتِّعاظُ بحالِ هذه الملِكةِ؛ إذ لم يَصُدَّها عُلوُّ شأْنِها وعَظَمةُ سُلطانِها -مع ما أُوتِيَتْه مِن سَلامةِ الفِطرةِ وذَكاءِ العقلِ- عن أنْ تنظُرَ في دَلائلِ صِدْقِ الدَّاعي إلى التَّوحيدِ، وتُوقِنَ بفَسادِ الشِّركِ، وتَعترِفَ بالوَحدانيَّةِ للهِ، فما يكونُ إصرارُ المُشركينَ على شِرْكِهم بعدَ أنْ جاءهُم الهَدْيُ الإسلاميُّ إلَّا لِسَخافةِ أحلامِهم، أو لِعَمايتِهم عن الحقِّ، وتَمسُّكِهم بالباطلِ وتَصلُّبِهم فيه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ دَليلٌ على جوازِ

---

(١) رواه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٦٧).

والحديث رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

الاستعانةِ ببَعضِ الأَتْباعِ في مقاصِدِ الملوكِ[١].

٢- جوازُ الخطابِ إلى المُبْهَمِ إذا كان يَتعيَّنُ بعدَ ذلك، يعني: يجوزُ الخطابُ إلى المُبهَمِ حُكمًا أو خَبرًا قبلَ أن يَتعيَّنَ الحُكمُ؛ لقولِه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ما قال: ائتِني يا فلانُ. وهذا النوعُ مِن الخطابِ تترتبُ عليه فوائدُ كثيرةٌ حُكميَّةٌ وخَبَريَّةٌ؛ فمنها مثلًا: يجوزُ أنْ يقولَ: زوَّجْتُك إحدى ابنتيَّ هاتين، ثم يختار إحداهما، مِثلَما فَعَل صاحِبُ مَديَنَ مع موسى، ومنها: أنَّه يجوزُ أنْ يقولَ: بِعْتُك إحدى هاتينِ السِّلعتَينِ بكذا، فيختار إحداهما، ومنها: بِعتُك هذا بعشرةٍ نقدًا أو بعشرينَ نسيئةً، فيختارُ أحدَ الثمنين[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ دليلٌ على أنَّه قد يُخَصُّ بعضُ أتْباعِ الأنبياءِ بشيءٍ لا يكونُ لغيرِهم[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أمامَ عدوِّه أنْ يُظهِرَ العَظَمةَ؛ لأنَّ سُليمانَ أراد بإحضارِ هذا العرشِ إظهارَ عظمتِه وقُدرتِه، وأنَّه استطاع أنْ يأتيَ بعَرشِها المُحَصَّنِ بلا شكٍّ؛ لأنَّه -كما جرتِ العادةُ- قصورُ الملوكِ لا بُدَّ أنْ تكونَ مُحَصَّنةٌ وعليها حَرَسٌ، لا سيما مِثلُ العرشِ[٤]!

٥- في تَقديم القُوَّةِ على الأمانةِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ دَليلٌ على أنَّها أهمُّ مِن الأمانةِ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٥).

كم مِن إنسانٍ أمينٍ ولا يُخشى منه الخِيانةُ أبدًا، لكِنَّه ضَعيفٌ لا يُنتِجُ ولا يُثمِرُ! وكم مِن إنسان قويٍّ في أداءِ عملِه، لكنه ضعيفٌ في أمانتِه، فالثاني أحسنُ لإقامةِ العَمَلِ؛ ولهذا تجدُ كثيرًا مِن الناسِ الذين لديهم قوةٌ وحَزمٌ وتصرُّفٌ، تجدُهم يُنتِجون مِن الأعمالِ أكثرَ بكثيرٍ مِن قَومٍ ضُعَفاءَ وعندَهم أمانةٌ[١].

٦- في قَولِ الله تعالى: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ قوةُ الجِنِّ؛ لأنَّه سوف يأتي بهذا العرشِ العظيمِ يحمِلُه مِن سبأٍ مِن اليمنِ إلى الشامِ، وأيضًا فيه دليلٌ على سرعتِهم، وهي مِن أوصافِ القوةِ؛ لِقَولِه: ﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وهذه سرعةٌ فائقةٌ وعظيمةٌ، ومعلومٌ أنهم عندهم سرعةٌ عظيمةٌ، بدليلِ أنهم يَسترِقُونَ السمعَ مِن السماءِ، ولا يصلُ إلى السماءِ إلَّا مَن كان عنده سُرعةٌ هائلةٌ عظيمةٌ[٢] فالآية فيها قدرةُ الجِنِّ -بإقدارِ اللهِ- على ما يَبعُدُ فِعلُه من الإنسِ[٣].

٧- قَولُه: ﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ فيه أنَّ سُليمانَ عليه الصلاةُ والسلامُ قد رَتَّبَ شؤونَ حياتِه ورَتَّبَ أوقاتَه حتى أصبحتْ معلومةً للناسِ، فلا شكَّ أن قيامَه مِن مقامِه مُقَدَّرٌ بمدةٍ معلومةٍ، ولولا ذلك ما قيل مثلُ هذا الكلامِ، وما كان لذكرِه فائدةٌ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذه المناظرةُ بينَ العفريتِ مِن الجِنِّ والذي عنده علمٌ من

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١٢).

الكتابِ تَرمُزُ إلى أنَّه يتأتى بالحِكمةِ والعِلمِ ما لا يتأتَّى بالقوَّةِ، وأنَّ الحِكمةَ مكتَسَبةٌ(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الكراماتِ امتِحانٌ وابتلاءٌ -كالمُلْكِ والسُّلطانِ والمالِ- فالنِّعَمُ ابتلاءٌ مِن اللهِ وامتحانٌ يَظهَرُ بها شُكرُ الشَّكورِ وكُفرُ الكَفورِ(٢).

١٠- في قَولِه: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ إثباتُ التَّعليلِ لأحكامِ اللهِ سبحانه وتعالى الكونيَّةِ، كما ثَبَتَ ذلك في الأحكامِ الشرعيَّةِ؛ يؤخَذُ مِن (اللام) لأنَّها للتَّعليلِ، ويَتَفرَّعُ على هذه الفائدةِ: الرَّدُّ على الجهميَّةِ الذين يقولون: إنَّ فِعْلَ اللهِ تعالى ليس مُعَلَّلًا، إنما يَفْعَلُ لمجرَّدِ المشيئةِ؛ إذا شاء فَعَلَ لحكمةٍ ولغيرِ حكمةٍ(٣)!

١١- قولُه تعالى حِكايةً عن سليمانَ: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فيه اختبارُ المرءِ بما يُظْهِرُ حقيقةَ أمْرِه(٤).

١٢- في قَولِه: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أنَّه يجوز اختبارُ الإنسانِ وإنْ كان المختبِرُ يعلمُ مآلَه، وبالنسبةِ للهِ فهذا أمرٌ واقعٌ، لكنْ بالنسبةِ للإنسانِ فهذا يُنظَرُ فيه إلى المصلحةِ، قد يكونُ مُحَرَّمًا كما لو أردتَ أنْ تُظهِرَ ضَعفَه أمامَ الناسِ وتُخجِّلَه، وقد يكونُ واجبًا كما لو كان إنسانًا داعيةً إلى ضَلالةٍ وأردتَ أنْ تختبرَه لِيتبيَّنَ أمرُه للنَّاسِ، وأنت تعرفُ أنه ليس عنده جوابٌ لِمَا اختبرْتَه به، لكنْ تريدُ أنْ تُظْهِرَ للناسِ أمْرَه؛ فهو بالنسبةِ للهِ سبحانه وتعالى ممدوحٌ كلُّه؛ لأنَّ اللهَ يَعْلَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المآلَ، لكنْ بالنسبةِ للإنسانِ فاختبارُه عمَّا يُعْلَمُ مآلُه: على حسبِ المصلحةِ والفائدةِ[1].

١٣- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ قد يُقالُ: أليس اللهُ تعالى يعلَمُ بما يَؤولُ إليه الأمرُ؟ إذن: ما فائِدةُ الاختبارِ وهو يَعلَمُ؟

الجوابُ: ليترتَّبَ الجزاءُ على ظاهِرِ الحالِ؛ لأنَّ اللهَ لو جازى الإنسانَ على ما يَعلَمُ مِن حالِه قبل أن يبلُوَه، لكان ذلك ظُلمًا في ظاهِرِ الحالِ، فإذا ابتلاه فأطاع أو عصاه تبيَّن الأمرُ، فتكونُ الفائدةُ عَظيمةً، وهي ظهورُ أثَرِ هذا الشَّيءِ للنَّاسِ، وأنَّه ليس بظُلمٍ مِن الله تعالى إذا خالف، وأيضًا ظهورُ نعمةِ الله على العبدِ العامِلِ إذا أطاع حيث يشكُرُ اللهُ سَعيَه. فالحاصِلُ: أنَّ الابتلاءَ بمِثلِ هذه الأمورِ فائدتُه: أن يَجريَ الجزاءُ على ظاهِرِ الحالِ، لا على عِلمِ اللهِ[2]، وإذا كان اللهُ سبحانه وتعالى -وهو أحكمُ الحاكمين- لا يَحْكُمُ بمجردِ العلمِ حتَّى تظهرَ الآثارُ؛ فالقاضي مِن بابِ أَولى، ولهذا ذَكَر أهلُ العلمِ أنه لا يجوزُ للقاضي أنْ يحكمُ بعِلْمِه؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنما أقضي بنحوٍ مما أسمعُ))[3].

١٤- قولُه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبْريةِ؛ لأنَّه أضافَ الشُّكرَ إلى نفْسِه[4].

١٥- في قَولِه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ بيانُ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٩).

والحديث أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٠).



عَمَلَ الإنسانِ يعودُ نفعُهُ عليه، وأنَّ اللهَ غنيٌّ عن الخَلْقِ(١).

١٦- أنَّ الشَّاكرَ يُثابُ؛ لِقَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ولم يَقُلْ: (عن نفْسِه)، فدلَّ ذلك على أنَّ للشاكرِ ثوابًا يُجازى به، وهو كذلك(٢).

١٧- قولُه: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ فيه امتحانُ الغيرِ بما يُعْرَفُ به ذكاؤه وفِطنتُه(٣)، واختبارُ الأفهامِ للمصالحِ جائزٌ؛ كاختِبارِ فَهْمِ اليتيمِ لِحفظِ مالِه والقيامِ بمصالِحه؛ فإنَّه وسيلةٌ إلى دفْعِ مالِه إليه، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾(٤) [النساء: ٦].

١٨- قَولُه: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ في هذا الامتحانِ إشارةٌ إلى أنها إذا كانت تعرِفُ عرْشَها مع تغييرِه، وتنكيرِه، فإنه لا شكَّ أنَّ مَعرفتَها بأنَّ اللهَ تعالى هو المستحِقُّ للعبادةِ مِن بابِ أَولى، فهذا وجهٌ مِن أوجهِ الاختبارِ في هذه القِصَّةِ(٥).

١٩- في قَوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ التوريةُ في الكلامِ؛ وهو أنْ يُظْهِرَ الإنسانُ شيئًا غيرَ ما يريدُ؛ فإنَّ قولَهم: ﴿أَهَٰكَذَا﴾ توريةٌ، لأنَّ حقيقةَ الأمرِ أنَّ العرشَ الذي بين أيديهم هو عرْشُها، فكان مقتضى الاستفهامِ أنْ يقولوا: (أهذا عرْشُك؟) لكنْ أتَوا بصيغةِ التوريةِ لإبعادِ الأمرِ، لأنَّ كونَه عرْشَها قد تتسرعُ وتقولُ: لا؛ لأنها تستبعدُ أنْ يكونَ العرشُ قد حَضَرَ في هذه المدةِ وعليه الحرسُ وعليه المغاليقُ! فقيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٦).

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ المذاهِبُ الفاسِدةُ والعقائدُ الباطلةُ تُسيطِرُ على عَقلِ العاقِلِ، وتُذهِبُ لُبَّ اللَّبيبِ وبصيرةَ قَلبه حتى يُقيِّضَ له من الأسبابِ المباركةِ ما يبيِّنُ له الحَقَّ، ويمُنُّ عليه باتِّباعِه، وإلَّا فقد كان لها من الذَّكاءِ والفِطنةِ ما به تَعرِفُ الحَقَّ من الباطِلِ[(١)].

٢١- ما يُدْرَكُ بالحواسِّ قد يَقَعُ فيه الخطأُ، والرؤيةُ قد تكذِبُ؛ لقوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾؛ فإنَّ هذا -كما هو الواقعُ- صَرحٌ ممرَّدٌ من قواريرَ، وتنظرُ إليه نَظَرَ العينِ ومع ذلك تحسبُه لُجَّةً! فدلَّ هذا على أنَّ ما يُدْرَكُ بالحواسِّ قد يَقَعُ فيه الخطأُ، قد يرى الإنسانُ الشيءَ المتحرِّكَ ساكنًا؛ والساكنَ متحرِّكًا، والأبيضَ أسودَ، والرجلَ امرأةً[(٢)]!

٢٢- أنَّ المرأةَ من قديمِ الزمانِ شيمَتُها التستُّرُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ دليلٌ على أنَّ الأصلَ أنَّها مَستورةٌ، وهو كذلك، بخلافِ الرجُلِ؛ فإنَّ ((إِزْرة المسلمِ إلى نصفِ السَّاقِ))[(٣)]، أما في هذا العصر فقد أصبحَ الأمرُ بالعَكسِ عندَ كثيرٍ من المسلمينَ، فأصبحَ الرجالُ ثيابُهم مُسبَلَةٌ، والنِّساءُ ثيابهنَّ قصيرةٌ، وهذا خلافُ الفِطرةِ التي فَطَرَ اللهُ عليها الخلْقَ[(٤)]!

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى

(١) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٩٣) واللَّفظُ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٧١٧)، وابنُ ماجه (٣٥٧٣)، وأحمد (١١٣٩٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
صحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١١٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٩٣)، وصَحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤٨).

قد يَهَبُ المرءَ ما يُوجِبُ له أنْ يُسلِمَ، بل قد يُيَسِّرُ له الأسبابَ التي تُوجِبُ إسلامَه بكلِّ سهولةٍ؛ فهذه المرأةُ -حسبَ القصةِ- ما وجدنا أنها دُعِيَتْ وأُكِّدَ عليها وبُيِّنَ لها الخطأُ إلَّا في قَولِه في أوَّلِ القصَّةِ: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، لكنْ لَمَّا شاهدتْ ما شاهدتْ مِن عظمةِ مُلْكِ سليمانَ وقوَّتِه، عرَفَتْ أنَّه لا بُدَّ أنْ تُسلِمَ، وهي تتذكرُ كتابَه الذي قال فيه: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(١).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ دينَ الأنبياءِ كلِّهم الإسلامُ(٢).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أنَّ المعاصيَ ظلمٌ للنَّفْسِ، ووجهُ ذلك أنَّ الإنسانَ مؤتمَنٌ على نفْسِه؛ مِن حيثُ السلوكُ والسِّيرةُ، ومِن حيثُ التَّصرُّفُ في مالِه، ومِن حيثُ التَّصرُّفُ في بدَنِه؛ ولهذا نُهِيَ عن إضاعةِ المالِ، ونُهِيَ عن قتْلِ النَّفْسِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وأُمِرَ بالأكلِ وبالشُّربِ وباللِّباسِ، وبالوقايةِ مِن الحَرِّ والوقايةِ مِن البرْدِ، كلُّ هذا مِن أجلِ حفْظِ النَّفْسِ التي هي أمانةٌ عندك؛ فالإنسانُ ليس حُرًّا يتصَرَّفُ كما يشاءُ في بدَنِه، أو في سُلوكِه، أو في مالِه، بل هو مُقيَّدٌ(٣).

٢٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اعترَفَتْ بأنَّها ظلَمَتْ نفْسَها في اتِّباعِ الضَّلالِ بعِبادةِ الشَّمسِ، وهذا دَرجةٌ أُولى في الاعتقادِ، وهو دَرجةُ التَّخليةِ، ثمَّ صَعِدَت إلى الدَّرجةِ الَّتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٥٠).

فوقَها، وهي درجةُ التَّحلِّي بالإيمانِ الحقِّ، فقالت: (أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فاعترَفَتْ بأنَّ اللهَ هو ربُّ جميعِ الموجوداتِ، وهذا مقامُ التَّوحيدِ، وفي قولِها: ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ إيمانٌ بالدِّينِ الَّذي تَقلَّدَهُ سُليمانُ، وقد أرادتْ جمْعَ معاني الدِّينِ في هذه الكلمةِ؛ لِيَكونَ تَفصيلُها فيما تَتلقَّاهُ مِن سُليمانَ مِن الشَّرائعِ والأحكامِ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لذِكْرِ بعضِ أجزاءِ القصَّةِ، وطُوِيَ خبَرُ رُجوعِ الرُّسلِ والهديَّةِ، وعَلِمَ سُليمانُ أنَّ ملِكةَ سبأٍ لا يَسَعُها إلَّا طاعتُه ومَجيئُها إليه، أو ورَدَ له منها أنَّها عزَمَتْ على الحضورِ عندهُ عمَلًا بقولِه: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١](٢)؛ ففي الكلامِ حَذْفٌ تقديرُه: فرَجعَ المُرسَلُ إليها بالهديَّةِ، وأخبَرَها بما أقسَمَ عليه سُليمانُ، فتَجهَّزَت للمسيرِ إليه؛ إذ عَلِمَت أنَّه نَبيٌّ، ولا طاقةَ لها بقتالِ نَبيٍّ(٣).

- وتَقْييدُ الإتيانِ به بقولِه: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾؛ لِمَا أنَّ ذلك أبدعُ وأغربُ وأبعدُ مِن الوقوعِ عادةً، وأدلُّ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وصِحَّةِ نُبوَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ولِيَكونَ اختبارُها وإطْلاعُها على بَدائعِ المُعجزاتِ في أوَّلِ مَجيئِها(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦).

- وجُملةُ ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ﴾ واقعةٌ مَوقِعَ جوابِ المُحاورةِ؛ ففُصِلَت -أي: لم تُعطَفْ على ما قبْلَها- على أُسلوبِ المُحاوَراتِ[(١)].

- قولُه: ﴿عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ لمَّا كان العِفريتُ قد يُوصَفُ به الإنسُ، خُصَّ هنا بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾[(٢)].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾

- جُملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ واقعةٌ مَوقِعَ جوابِ المُحاوَرةِ؛ ففُصِلَت -أي: لم تُعطَفْ على ما قبْلَها- على أُسلوبِ المُحاوَراتِ[(٣)]، أيضًا فُصِلَ عمَّا قبْلَه؛ للإيذانِ بما بيْنَ القائلينِ ومَقالَيْهما، وكيْفيَّتَيْ قُدرتِهما على الإتيانِ به مِن كَمالِ التَّبايُنِ. أو لإسقاطِ الأوَّلِ عن دَرجةِ الاعتبارِ[(٤)].

- وتَنكيرُ ﴿عِلۡمٞ﴾؛ للتَّفخيمِ[(٥)].

- قولُه: ﴿قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ الطَّرْفُ: تَحريكُ الأجفانِ وفتْحُها للنَّظرِ إلى شَيءٍ، وارتدادُه: انضمامُها -على قولٍ في التفسيرِ-، ولكونِه أمرًا طبيعيًّا غيرَ مَنوطٍ بالقصْدِ، أُوثِرَ (الارتدادُ) على الرَّدِّ؛ فقال: ﴿يَرۡتَدَّ﴾، ولم يقُل: (يُرَدَّ). ولَمَّا لم يكُنْ بيْن هذا الوعدِ وإنجازِه مُدَّةٌ ما كما في وَعْدِ العِفريتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٨٧).

اسْتُغْنِيَ عن التَّأكيدِ؛ فلم يُؤكِّدْه هنا بقولِه: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، كما ذكَرَ العِفريتُ في وَعْدِه(١).

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ طُوِيَ عندَ الحِكايةِ ذِكرُ الإتيانِ به؛ للإيذانِ بأنَّه أمرٌ مُتحقِّقٌ، غَنِيٌّ عنِ الإخبارِ بهِ، وجِيءَ بالفاءِ الفصيحةِ، لا داخلةٌ على جُملةٍ مَعطوفةٍ على جُملةٍ مُقدَّرةٍ دالَّةٍ على تَحقُّقِه فقطْ، كما في قولِه عَزَّ وجلَّ: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] ونظائِرِه، بلْ داخلةٌ على الشَّرطيَّةِ، حيثُ قِيل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، أيْ: رأَى العرشَ حاضرًا لدَيْه، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١]؛ للدَّلالةِ على كَمالِ ظُهورِ ما ذُكِرَ من تَحقُّقِه واستغنائه عن الإخبارِ به بِبَيانِ ظُهورِ ما يَترتَّبُ عليه مِن رُؤيةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ إيَّاهُ، واستغنائِه أيضًا عن التَّصريحِ به؛ إذِ التَّقديرُ: فأتاهُ به، فَرآهُ، فلمَّا رآهُ... إلخ، فحُذِفَ ما حُذِفَ لِمَا ذُكِرَ؛ وللإيذانِ بكَمالِ سُرعةِ الإتيانِ به؛ كأنَّه لم يَقَعْ بيْنَ الوعدِ به وبيْنَ رُؤيتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه شَيءٌ ما أصلًا. وفي تَقْييدِ رُؤيتِه باستقرارِه عندَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تأكيدٌ لهذا المَعْنى؛ لإيهامِهِ أنَّه لم يَتوسَّطْ بينَهما ابتداءُ الإتيانِ أيضًا، كأنَّه لم يَزَلْ مَوجُودًا عندَهُ، معَ ما فيه مِن الدَّلالةِ على دَوامِ قَرارِه عندَهُ مُنتظمًا في سِلكِ مُلْكِه(٢).

- قولُه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ لمَّا ذكَرَ الفضلَ أضافَهُ إلى اللهِ بعُنوانِ كونِه ربَّه؛ لإظهارِ أنَّ فضْلَه عليه عظيمٌ؛ إذ هو عبْدُ ربِّه؛ فليس إحسانُ اللهِ إليه إلَّا فضْلًا مَحْضًا(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

- وفي العُدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ -دونَ أنْ يقولَ: (فإنَّه غنيٌّ كريمٌ)-: تأكيدٌ للاعترافِ بتَمحُّضِ الفضْلِ المُستفادِ مِن قولِه: ﴿فَضْلِ رَبِّي﴾[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ هذا مِن جُملةِ المُحاورةِ الَّتي جرَتْ بيْن سُليمانَ عليه السَّلامُ وبيْن مَلَئِه؛ ولذلك لم يُعْطَفْ على ما قبْلَه؛ لأنَّه جَرى على طريقةِ المُقاوَلةِ والمُحاورةِ[2].

- وفي هذا محذوفٌ تقديرُه: فلمَّا جاء به قال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾؛ لأنَّ تنكيرَه لم يكُنْ إلَّا بعدَ أنْ جِيءَ به إليه، وقد أغنَى عن المحذوفِ صدرُ الكلامِ وآخرُه، وكان ذلك دليلًا عليه[3].

- قولُه: ﴿قَالَ﴾، أي: سُليمانُ عليه السَّلامُ؛ كُرِّرَتِ الحِكايةُ مع كَونِ المَحْكيِّ سابقًا ولاحقًا مِن كلامِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ تَنْبيهًا على ما بيْن السَّابقِ واللَّاحقِ مِن المُخالَفةِ؛ لِمَا أنَّ الأوَّلَ مِن بابِ الشُّكرِ للهِ تعالى، والثَّانيَ أمْرٌ لِخَدَمِه[4].

- وقولُه: ﴿مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أبلَغُ في انتفاءِ الاهتداءِ مِن: (لا تَهْتدي)؛ لأنَّ ما عليه النَّظمُ الكريمُ فيه دَلالةٌ على انتظامِها في سِلْكِ المَوسومينَ بعَدمِ الهِدايةِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ﴾ شُروعٌ في حِكايةِ التَّجرِبةِ الَّتي قصَدَها سُليمانُ عليه السَّلامُ[١].

- ودلَّ قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ أنَّ المَلِكةَ لمَّا بلَغَها ما أجابَ به سُليمانُ رُسُلَها، أزْمَعَتِ الحُضورَ بنفْسِها لَدَى سُليمانَ داخلةً تحتَ نُفوذِ مَمْلكتِه، وأنَّها تَجهَّزتْ للسَّفرِ إليه بما يَليقُ بمِثْلِها؛ ففي الكلامِ حَذْفٌ إيجازًا[٢].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿قِيلَ﴾ للمفعولِ؛ إذ لا يَتعلَّقُ غرَضٌ بالقائلِ، والظَّاهرُ أنَّ الَّذي قال ذلك هو سُليمانُ عليه السَّلامُ[٣].

- قولُه: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾ لم يأتِ التَّركيبُ: (أهذا عَرْشُكِ)، بلْ جاء: حَرفُ التَّنبيهِ، وكافُ التَّشبيهِ، واسمُ الإشارةِ؛ لئلَّا يكونَ تلْقينًا لها[٤].

- وفي قولِها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وعُدولِها عن مُطابَقةِ الجوابِ للسُّؤالِ، بأنْ تقولَ: (هكذا هو) نُكتةٌ حَسَنةٌ، ولعلَّ قائلًا يقولُ: كِلَا العِبارتينِ تَشبيهٌ؛ إذ كافُ التَّشبيهِ فيهما جميعًا، وإنْ كانت في إحداهما داخلةً على اسمِ الإشارةِ، وفي الأُخرى داخلةً على المُضْمَرِ، وكِلاهما -أي: اسمُ الإشارةِ والمُضمَرُ- واقعٌ على الذَّاتِ المُشبَّهةِ، وحينئذٍ تَسْتوي العبارتانِ في المعنَى، ويَفضُلُ قولُها (هكذا هو) بمُطابَقتِه للسُّؤالِ، فلا بُدَّ في اختيارِ ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ من حِكمةٍ!

فالجوابُ: أنَّ حِكمتَه -واللهُ أعلَمُ-: أنَّ ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ عبارةُ مَن قَرُبَ عندَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨).

الشَّبهُ حتَّى شكَّكَ نفْسَه في التَّغايُرِ بيْن الأمرينِ؛ فكادَ يقولُ: هو هو، وتلك حالُ بِلْقيسَ. وأمَّا (هكذا هو)، فعبارةُ جازمٍ بتَغايُرِ الأمرينِ، حاكمٍ بوُقوعِ الشَّبهِ بيْنهما لا غيرُ؛ فلهذا عدَلَتْ إلى العبارةِ المذكورةِ في التِّلاوةِ؛ لِمُطابَقتِها لحالِها[1].

- وفي ذِكْرِ فِعلِ الكونِ ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾: دَلالةٌ على تَمكُّنِهم مِن الإسلامِ منذُ القِدَمِ[2].

٦- قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيه حَذْفُ مُتعلَّقِ الصَّدِّ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه في قولِه: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وما كانت تَعبُدُه هو الشَّمسُ[3].

- وفي ذِكْرِ فِعلِ الكونِ مرَّتينِ في ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾: دَلالةٌ على تَمكُّنِها مِن عِبادةِ الشَّمسِ، وكان ذلك التَّمكُّنُ بسَببِ الانحدارِ مِن سُلالةِ المُشركينَ؛ فالشِّركُ مُنْطبِعٌ في نفْسِها بالوراثةِ؛ فالكُفْرُ قد أحاطَ بها بتَغلْغُلِه في نفْسِها وبنَشأتِها عليه، وبكَونِها بيْن قومٍ كافرينَ؛ فمِن أين يَخلُصُ إليها الهُدى والإيمانُ[4]؟!

٧- قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٦٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٤، ٢٧٥).

- قولُه: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ لِجُزءٍ مِن القصَّةِ، وطُويَ ذِكْرُ تَرحُّلِها إلى وُصولِها في ذِكْرِ ما يَدلُّ عليه؛ مِن حُلولِها أمامَ صَرْحِ سُليمانَ للدُّخولِ معه إليه، أو الدُّخولِ عليه وهو فيه[1].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ﴾ في الكلامِ حَذْفٌ، تَقديرُه: فدَخَلتْه امتثالًا للأمْرِ[2].

- وفي قولِها: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الْتفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ، ووَصْفُه برُبوبيَّةِ العالمينَ؛ لإظهارِ مَعرفتِها بأُلوهيَّته تعالَى وتَفرُّدِه باستحقاقِ العِبادةِ برُبوبيَّته لجميعِ المَوجُوداتِ، الَّتي مِن جُملتِها ما كانتْ تَعبُدُه قبْلَ ذلكَ مِن الشَّمسِ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩).

الآيات (٤٥-٥٢)

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ٤٥ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ٤٧ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٣﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾: أي: تَطَيَّرنا وتشاءَمْنا، وأَصْلُه: التَّفاؤُلُ بالطَّيْر، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ ما يُتفاءَلُ به ويُتشاءَمُ، واشتِقاقُه مِنَ الطَّيرِ، كالغُرابِ وما أشبَهَه[1].

﴿طَٰٓئِرُكُمۡ﴾: أي: شُؤمُكم وحَظُّكم مِنَ الشَّرِّ[2].

﴿تُفۡتَنُونَ﴾: أي: تُبتَلَوْن وتُختبَرون، وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٢، ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٩، ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، =

﴿رَهْطٍ﴾: أي: أنفُسٍ، والرَّهْطُ: الجماعةُ والعِصابةُ دُونَ العَشَرةِ، وقيل: ما فوقَ العَشَرةِ إلى الأربعينَ، وأصْلُه: يدُلُّ على تجمُّعٍ في النَّاسِ وغَيرِهم(١).

﴿تَقَاسَمُوا﴾: أي: تحالَفُوا باللهِ، وحلفَ بعضُهم لبعضٍ، وأصلُه مِنَ القَسامةِ، وهي أيمانٌ تُقْسَمُ على أولياءِ المقتولِ، ثمَّ صار اسمًا لكلِّ حَلِفٍ(٢).

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾: أي: لَنَقْتُلَنَّهم ليلًا، والتَّبييتُ يُقالُ لكلِّ فِعلٍ دُبِّرَ باللَّيلِ(٣).

﴿مَهْلِكَ﴾: أي: إهلاكَهم ومَوتَهم، وأصلُ الهلاكِ: السُّقوطُ(٤).

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾: المكرُ: صرْفُ الغيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ، أو: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغيرِ بطريقٍ خفِيٍّ، وأصلُ المكرِ: الاحتيالُ والخِداعُ(٥).

﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾: أي: أهْلَكْناهم، وأخَذْناهم بعقوبتِنا إيَّاهم، والتَّدميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ(٦).

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢، ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٠)، ((المفردات)) =

﴿خَاوِيَةً﴾: أي: خَرابًا خالِيةً قد سقَط بَعضُها على بَعضٍ، وأصلُ الخَواءِ: الخَلاءُ والسُّقوطُ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

قولُه: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ في محلِّ هذا المصدَرِ المؤوَّلِ أوجُهٌ؛ أحدُها: أن يكونَ منصوبًا على نزعِ الخافضِ، أي: لأنَّا دمَّرْناهم، و(كان) تامَّةٌ، و (عاقبةُ) فاعِلٌ بها، و (كيف) حالٌ. أو (كان) ناقصةٌ، و (عاقبةُ) اسمُها، و(كيف) خبَرُها. الثَّاني: أن يكونَ بدلًا مِن (عاقبة)، أي: كيف كان تدميرُنا إيَّاهم. الثَّالثُ: أن يكونَ خبَرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: العاقبةُ أنَّا دمَّرْناهم. الرَّابع: أن يكونَ المصدَرُ المؤوَّلُ خبرًا لـ (كان)، والعاقِبةُ اسمها، و(كيف) في محلِّ نصبِ حالٌ، والتَّقديرُ: فانظرُ -يا محمَّدُ- على أيِّ حالٍ كان عاقِبةُ أمرِهم تدميرَهم. وقُرِئَ: ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بالكسرِ على الاستِئْنافِ[2]، وهو تفسيرٌ للعاقبةِ[3].

= للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٢) قرأ بفتحِ الهمزةِ: عاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ ويعقوبُ وخلَفٌ، والباقون بالكسرِ. يُنظر: ((السبعة في القراءات)) لابن مجاهد (ص: ٤٨٣، ٤٨٤)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٨)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٣٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٢٦).

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن قصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ مع قومِه، فيقولُ سبحانَه: لقد أرسَلْنا إلى قبيلةِ ثمودَ أخاهم ونبيَّهم صالِحًا، فأمَرَهم بعبادةِ اللهِ وحْدَه لا شَريكَ له؛ فإذا هم فريقان: مؤمِنونَ به، وكافِرون، كلٌّ منهم يختَصِمُ في شأنِ الدِّين، فقال لهم صالحٌ: يا قومِ، لِمَ تستعجِلونَ عذابَ اللهِ ولا تَرجُونَ رَحمتَه، هلَّا تَطلُبونَ مِن اللهِ أن يغفِرَ لكم؛ لعَلَّه يرحَمُكم؟! فقالوا له: تشاءَمنا بك وبمَن معك مِنَ المؤمِنينَ! فقال صالحٌ لهم: ما أصابَكم مِن مكروهٍ فهو مِن عندِ اللهِ بسبَبِ ذُنوبِكم، بل أنتم قومٌ مختبَرون بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ مِن رَبِّكم.

ثمَّ يحكي الله تعالى ما قابل به رؤساءُ ثَمودَ دعوةَ نبيِّهم صالحٍ عليه السَّلامُ من عنادٍ وإصرارٍ على التخلُّصِ منه ومِن أهلِه، فيقولُ تعالى: وكان في مدينةِ ثمودَ تِسعةُ أشخاصٍ يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، ولا يُصلِحون، فقال بعضُهم لبعضٍ: تحالَفوا باللهِ على اغتيالِ صالحٍ وأهلِه ليلًا، ثمَّ بعدَ أن نقتُلَه وأهلَه نقولُ لِمَن يطالِبُ بدَمِه: ما حضَرْنا هلاكَ صالحٍ وأهلِ بيتِه، وإنَّا لَصادِقون في ذلك!

ومكَرَ هؤلاءِ الرَّهطُ، فمكَرَ اللهُ بهم مَكْرًا أعظَمَ مِن مَكْرِهم، وهم لا يَشعرونَ! فانظُرْ -يا محمَّدُ- كيف كان عاقِبةُ مكرِ هؤلاء المُفسِدين مِن قومِ صالحٍ؛ أنَّا أهلَكْناهم وأهلَكْنا جميعَ قومِهم المُشركين، فتلك مساكِنُ ثمودَ قد صارت خَرابًا خاليةً مِن أهلِها؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم. إنَّ في ذلك لَعِبرةً وعِظةً لِقَومٍ يَعلَمونَ، وأنجَيْنا صالحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه قِصَّةَ موسى وداودَ وسُليمانَ -وهم مِن بني إسرائيلَ-؛ ذَكَرَ قصةَ مَن هو مِن العربِ؛ يُذَكِّرُ بها قريشًا والعربَ، ويُنَبِّهُهم أنَّ مَن تقدَّمَ مِن الأنبياءِ مِن العربِ كان يدعو إلى إفرادِ اللهِ تعالى بالعبادةِ؛ لِيَعلموا أنَّهم في عبادةِ الأصنامِ على ضلالةٍ، وأنَّ شأنَ الأنبياءِ -عربِهم وعجمِهم- هو الدُّعاءُ إلى عبادةِ اللهِ[1].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا إلى قبيلةِ ثمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالِحًا، فأمَرَهم بعبادةِ اللهِ وحْدَه لا شَريكَ له[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١].

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

أي: فإذا قومُ صالح فَريقانِ: مُؤمِنون وكافِرون، يختَصِمون في الدِّينِ، وكلٌّ يقولُ بأنَّ الحقَّ معه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٨).

قال ابن عاشور: (والانتقالُ مِن ذكرِ ملكِ سليمانَ وقِصَّةِ ملكةِ سبأٍ إلى ذكرِ ثمودَ ورسولِهم دونَ ذكرِ عادٍ؛ لمناسبةِ جوارِ البلادِ؛ لأنَّ ديارَ ثمودَ كانت على تُخومِ مملكةِ سليمانَ، وكانت في طريقِ السَّائرِ مِن سبأٍ إلى فِلَسْطِينَ، ألا ترى أنَّه أعقبَ ذكرَ ثمودَ بذكرِ قوم لوطٍ وهم أدنى إلى بلادِ فلسطينَ، فكان سياقُ هذه القصصِ مُناسبًا لسياقِ السَّائرِ من بلادِ اليمنِ إلى فِلَسطِينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

أي: قال صالحٌ: يا قومِ، لأيِّ شَيءٍ تَطلُبونَ عذابَ اللهِ، ولا تَطلُبونَ رحمتَه[(١)]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).
قال القرطبي: (قالَ مُجاهِدٌ: بالعذابِ قبلَ الرَّحمةِ، المعنى: لِمَ تؤخِّرون الإيمانَ الذي يجلِبُ إليكم الثَّوابَ، وتقَدِّمون الكفرَ الذي يوجِبُ العقابَ؟! فكان الكفَّارُ يقولون؛ لفرطِ الإنكارِ: ايتِنا بالعذابِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤).
وقال السعدي: (﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: لِمَ تبادِرونَ فِعلَ السَّيِّئاتِ وتحرِصونَ عليها قبلَ فِعلِ الحسَناتِ التي بها تحسُنُ أحوالُكم وتصلحُ أمورُكم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ؟! والحالُ أنَّه لا مُوجِبَ لكم إلى الذَّهابِ لفِعلِ السَّيِّئاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).
وقال ابنُ عطيَّةَ: (إنَّ صالحًا تلَطَّف بقَومِه وترَفَّقَ بهم في الخِطابِ، فوقَفَهم على خطيئتِهم في استِعجالِ العذابِ قبلَ الرَّحمةِ، والمعصيةِ لله تعالى قبلَ الطَّاعةِ، وفي أن يكونَ اقتِراحُهم وطلبُهم يقتضي هلاكَهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٣).
وذكر ابن عثيمين أنَّ الاستعجالَ على نوعَين:
أحدُهما: استعجالٌ بالقَولِ؛ بأنْ يقولوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].
والثاني: استعجالٌ بالفِعلِ والحالِ؛ بأنْ يَسلُكوا مسْلَكًا يكونُ به العذابُ، وذلك بالمعاصي؛ فإنَّ المعصيةَ استعجالٌ بالعذابِ بلا شكٍّ. فالاستعجالُ يكونُ بقالِ الإنسانِ وحالِه. يُنظر: =

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: قال صالحٌ لِقَومِه: هلَّا تَطلُبونَ مِن اللهِ أن يغفِرَ لكم كُفرَكم ومعاصيَكم؛ كي يرحَمَكم(١)؟

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)﴾.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾.

أي: قال مُشرِكو ثمودَ لنبيِّهم صالحٍ: تشاءَمْنا بك وبمَن معك مِنَ المؤمِنينَ؛ فنحن تُصيبُنا المصائِبُ والمكارِهُ بسَبَبِكم(٢)!

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾.

أي: فقال صالحٌ لِقَومِه: ما يُصيبُكم مِن مكروهٍ فإنَّما جاءَكم مِن عندِ اللهِ وحْدَه، ووقَعَ عليكم بإذنِه؛ بسَبَبِ ذُنوبِكم(٣).

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال البقاعي: (﴿لَوْلَا﴾ أي: هلَّا، ولِمَ لا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ أي: تَطلُبونَ غُفرانَ الَّذي له صِفاتُ الكمالِ لذُنوبِكم السَّالفة، بالرُّجوعِ إليه بالتوبةِ بإخلاصِ العبادةِ له ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لِتَكونوا على رجاءٍ مِن أن تُعامَلوا مِن كُلِّ مَن فيه خيرٌ معاملةَ المرحومِ؛ بإعطاءِ الخيرِ، والحمايةِ مِنَ الشَّرِّ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٧٥).

وقال السمعاني: (والاستغفارُ هاهنا بمعنَى التَّوبةِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٧).

قال الشنقيطي: (كان قومُ صالحٍ إذا نزَل بهم قَحطٌ أو بلاءٌ أو مصائِبُ، قالوا: ما جاءَنا هذا إلَّا من شؤمِ صالحٍ ومَن آمنَ به). ((أضواء البيان)) (٦/ ١١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن =

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾.

أي: بل أنتم قَومٌ يَختبِرُكم ربُّكم بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والخيرِ والشَّرِّ[1].

= كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ أي: تُبتلَونَ وتُختبرون وتُمتحنون: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابن عطية، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تُختبرون بالخيرِ والشَّرِّ، وبتَعاقُبِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ: الرَّسْعَنيُّ، والبيضاوي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال السعدي: (﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والخيرِ والشَّرِّ؛ لِيَنظُرَ هل تُقلِعون وتَتوبون أمْ لا؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: بل أنتم قومٌ تُختبرون؛ يَختبِرُكم ربُّكم إذ أرسَلني إليكم، أتُطيعونه أمْ تَعصونه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٤٤).

وقيل: المرادُ: تُبتلَون بذُنوبِكم. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٦).

وقال ابن كثير: (الظاهِرُ أنَّ المرادَ بقوله: ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ أي: تُستدرَجون فيما أنتم فيه مِن الضَّلالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨).

وقال ابنُ عثيمين: (هنا الإضرابُ انتقاليٌّ؛ لأنَّه عندَ الله يفتِنُهم بما حصَل ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾. ووجهُ الفتنةِ:

أوَّلًا: أنَّهم نسَبوا هذا إلى صالحٍ ومَن معه، وهذه فتنةٌ عظيمةٌ ضَلَّ بها هؤلاء.

ثانيًا: أنَّه أصابهم مع مجيءِ صالحٍ إليهم، فظَنُّوا أو ادَّعَوا أنَّ أسبابَ ذلك صالحٌ ومَن معه، ففُتِنوا بذلك فابتَعَدوا عن الحقِّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٧٠).

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي: وكان في مدينةِ ثمودَ تسعةُ أنفُسٍ[1] يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، ولا يُصلِحونَ فيها بوجهٍ مِن الوجوهِ[2].

﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾.

أي: قال التِّسعةُ المُفسِدون في الأرضِ بعضُهم لبعضٍ: تحالَفوا باللهِ وتعاهَدوا على اغتيالِ صالحٍ وأهلِه ليلًا[3].

﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.

---

(١) قال أبو حيَّان: (اتَّفق المفسِّرون على أنَّ المعنى: تسعةُ رجالٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابن جرير: (وإنَّما خصَّ اللهُ جلَّ ثناؤه هؤلاء التِّسعةَ الرَّهْطِ بالخبرِ عنهم أنَّهم كانوا يُفسِدون في الأرضِ ولا يُصلِحون، وإن كان أهلُ الكفرِ كلُّهم في الأرضِ مفسدينَ؛ لأنَّ هؤلاء التِّسعةَ هم الذين سَعَوْا -فيما بلَغَنا- في عَقْرِ النَّاقةِ، وتعاوَنوا عليه، وتحالَفوا على قتلِ صالحٍ مِن بين قَومِهم ثمودَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨، ٨٩). ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٣١٣).

وقال ابن كثير: (وإنَّما غلَب هؤلاء على أمرِ ثمودَ؛ لأنَّهم كانوا كبراءَ فيهم ورؤساءَهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابن عاشور: (﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾... والمعنى: أنَّهم يُغيرون على بيتِه ليلًا فيَقتُلونه وأهلَه غدْرًا مِن حيثُ لا يُعرَفُ قاتلُه، ثمَّ ينكرونَ أن يكونوا هم قتَلوهم، ولا شَهِدوا مَقتلَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٣).

أي: ثمَّ بعدَ أن نقتُلَ صالحًا وأهلَه خُفيةً نقولُ لِقَريبِ صالحٍ الذي له حَقُّ المطالَبةِ بدَمِه[١]: ما حضَرْنا هلاكَ صالحٍ وأهلِ بيتِه، وإنَّا لَصادِقونَ في ذلك[٢]!

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠﴾.

أي: ودبَّر التِّسعةُ المفسِدونَ تدبيرًا لِقَتلِ صالحٍ وأهلِه، ومَكَرْنا بهم مكرًا أعظَمَ مِن مَكْرِهم، وهم لا يَعلَمونَ كيفيَّةَ تدبيرِنا إهلاكَهم[٣].

ثم شرَع تعالى في بَيانِ ما تَرتَّبَ على ما بَاشرُوه مِنَ المَكْرِ[٤]، فقال:

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١﴾.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾.

أي: فانظُرْ -يا محمَّدُ- كيف كان آخِرُ أمرِ مَكرِ المُفسِدينَ مِن قَومِ صالحٍ حينَ أرادوا قَتْلَه وأهلِه[٥].

---

(١) قال ابن عثيمين: (ووليُّ الدَّم عندَنا في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ هم الوَرَثةُ بفَرضٍ أو تعصيبٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابن جرير: (معنى مَكرِ اللهِ بمَن مكَرَ به...: أخْذُه مَن أخَذَه منهم على غِرَّةٍ، أو استدراجُه مَن استَدرَجَ منهم على كُفرِه به ومعصيتِه إيَّاه، ثمَّ إحلالُه العقوبةَ به على غِرَّةٍ وغَفلةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٣).

وقال السعدي: (﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ بنصرِ نبيِّنا صالحٍ عليه السَّلامُ، وتيسيرِ أمرِه، وإهلاكِ قَومِه المكَذِّبينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

﴿أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: كان عاقِبةُ مَكرِ المُفسِدينَ مِن قَومِ صالحٍ أنَّا أهلَكْناهم وأهلَكْنا جميعَ قَومِهم المُشرِكينَ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤].

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾.

= (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢١).

قال ابن جرير: (فانظُرْ -يا محمَّدُ- بعينِ قلبك إلى عاقبةِ غدْرِ ثَمودَ بنبيِّهم صالح، كيف كانت؟ وما الَّذي أورَثها اعتِداؤُهم وطغيانُهم وتكذيبُهم؟ فإنَّ ذلك سُنَّتُنا فيمَنْ كذَّبَ رُسُلَنا، وطغَى علينا مِن سائرِ الخَلقِ؛ فحَذِّرْ قومَك من قُرَيش أن ينالَهم بتكذيبِهم إيَّاك ما نالَ ثمودَ بتكذيبِهم صالحًا مِنَ المَثُلاتِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠، ١٢١).

قال ابن عثيمين: (﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ مِن التَّدمير، وهو أبلَغُ مِن الإهلاك؛ لأنَّ التَّدميرَ يُوحي بغِلَظِ هذا الإهلاكِ وعظَمتِه، وهو كذلك؛ فإنَّ قومَ صالحٍ أُخِذوا -والعياذُ بالله- بأمْرَين: بصَيحةٍ ورَجفةٍ؛ صِيحَ بهم، وارتجفَتْ بهم الأرضُ حتَّى انهدمَ عليهم بناؤُهم، وتقَطَّعت قلوبُهم في أجوافِهم. نسألُ اللهَ العافيةَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٩٨).

أي: فتلك مَساكِنُ ثمودَ قد صارت خَرابًا خاليةً مِن أهلِها؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم بشِركِهم وتكذيبِ رَسولِهم، وقَتْلِهم ناقةَ اللهِ(١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ في ذلك(٢) لَعِبرةً وعِظةً ودَلالةً على الحَقِّ لِمَن يَعلَمونَ قُدرةَ اللهِ وحِكمَتَه وغيرَ ذلك مِنَ الحقائِقِ(٣).

كما قال تعالى عنهم: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٨].

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)﴾.

أي: وأنجَيْنا مِن سَخَطِنا وعَذابِنا صالِحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه، الَّذين كانوا يَتَّقون سَخَطَ اللهِ وعذابَه، فيَتجنَّبونَ الشِّركَ والمعاصيَ، ويَعمَلونَ بطاعةِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

(٢) قيل: الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعودُ إلى إهلاكِ ثمودَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي بن أبي طالب، والواحديُّ، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى جميعِ قصَّةِ ثمودَ قوم صالحٍ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

قال القاسمي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: بأنَّهم ما أُخِذوا إلَّا لظُلمِهم، وأنَّ عاقبةَ الظُّلم الدَّمارُ والبَوارُ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩٧).

وقال ابنُ عثيمين: (يعلَمونَ قُدرةَ الله وحِكمتَه وما جرى للأمَم، كلُّ هذا جائزٌ؛ لأنَّ الذي لا يدري بماذا يعتبرُ؟ لكن الذي يدري هو الذي يعتبرُ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة النمل)) (ص: ٣٠٦).

تعالى ويخافونَه[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۞ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أنَّ مِن مقتضَى النُّصحِ أنْ تؤكِّدَ ما ينبغي تأكيدُه للمخاطَبِ مِن الأخبارِ المهمَّةِ؛ لِيكونَ المخاطَبُ على يقينٍ منها، ووجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ ذَكَر أنَّه أَرْسَل إلى ثمودَ أخاهم صالحًا، وأكَّدَ هذا الخبرَ بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ﴾[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ دليلٌ قاطعٌ على أنَّ الكذبَ قبيحٌ عندَ الكفرةِ الَّذين لا يَعرِفون الشَّرعَ ونواهيَه، ولا يَخْطُرُ ببالِهم إلَّا أنَّهم قَصدوا قتْلَ نبيِّ اللهِ؛ ولم يَرضوا لأنفُسِهم أنْ يَكونوا كاذِبين حتَّى سَوَّوْا للصِّدقِ في خَبَرِهم حيلةً يَتفصَّون[3] فيها عن الكذبِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

قال ابن جرير: (... فكذلك ننجِّيك -يا محمَّدُ- وأتباعَك، عند إحلالِنا عقوبَتَنا بمُشرِكي قَومِك، مِن بينِ أظهُرِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٥٤).

(٣) تَفصَّى مِن الشَّيءِ وعنه: تخلَّصَ منه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٦)، ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٦٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٦٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ ينظُرَ ويتأمَّلَ في الأمورِ ويَعتبِرَ؛ لا سيَّما في أمورِ المكذِّبين(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ العقوبةَ تَعُمُّ، ولكنْ كما قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا أراد الله بقَومٍ عذابًا، أصاب العذابُ مَن كان فيهم، ثُمَّ بُعِثوا على أعمالِهم))(٢)، وهذا مشاهَدٌ، سواءٌ كانتِ العقوبةُ مِنَ اللهِ -يعني: مِن فِعلِ اللهِ-، أو مِن فعلِ العبادِ؛ فيُسَلِّطُ اللهُ تعالى بعضَ عبادِه على بعضٍ؛ فيُدَمِّرُ هذا المتسَلِّطُ على الصَّالحِ والطَّالحِ، ولكنْ يُبعَثُ النَّاسُ يومَ القيامةِ على أعمالِهم ونيَّاتِهم(٣)، أو يُنزِلُ اللهُ تعالى كارثةً مِن عندِه -كالفيضاناتِ والرِّياحِ وغيرِها- فتُدَمِّرُ الصَّالحَ والطَّالحَ، ويومَ القيامةِ يُبعثون على نِيَّاتهم؛ ولذلك يجبُ أنْ يكونَ خوفُ الإنسانِ مِن معاصي غيرِه كخوفِه مِن معاصي نفْسِه؛ لأنَّ العقوبةَ واحدةٌ؛ إذا نزلَتْ عَمَّتْ(٤).

٥- قال تعالى: ﴿دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ فالتَّدميرُ مِن أسبابِه الظُّلْمُ، فالباءُ في قولِه: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ للسَّببيَّةِ، وفيه التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ؛ سواءٌ كان متعدِّيًا -بظُلمِ الغيرِ-، أو لازمًا -بظُلمِ النفْسِ وحْدَها-(٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فَضيلةُ العِلمِ، وفيه أيضًا الحَثُّ على العِلمِ؛ لأنَّه إذا ثَبَتَ فَضْلُه فمعنى ذلك أنَّ اللهَ ذَكَره لنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٠٨)، ومسلم (٢٨٧٩) من حديث ابن عمر رضيَ الله عنهما.

(٣) ينظر ما أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلمٌ (٢٨٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٧).

لِنَتعلَّمَ[(١)]، وفيه مِن الحَثِّ على مَعرفةِ أخبارِ الأُمَمِ والعِلم بها ما هو ظاهِرٌ؛ لأنَّ بها يتَّعِظُ النَّاسُ، وكذلك أيضًا الأخبارُ الواقعةُ في زمنِ الإنسانِ ينبغي أن يتَّخِذَ مِن حوادِثِها عِظةً وعِبرةً[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الحَثُّ على الإيمانِ والتقوى؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ عاقلٍ ينبغي له أنْ يَسلُكَ أسبابَ النجاةِ، فيكونُ في الإخبارِ عن نجاتِهم الحَثُّ على السَّببِ الذي به نَجَوا، فقولُه: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حُكْمٌ مُعَلَّقٌ بوصفٍ، والحكمُ إذا عُلِّقَ بوصفٍ دَلَّ ذلك على عِلِّيَّةِ هذا الوصفِ وتأثيرِه في الحكمِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾ أنَّه يصِحُّ إطلاقُ الأُخُوَّةِ النَّسَبيَّةِ بينَ المسلم والكافرِ، فلا يُقالُ: إذا انتَفَتِ الأخوَّةُ الإيمانيَّةُ انتفتِ الأُخوةُ النَّسَبيَّةُ، بل إذا انتفَى أحدُهما يبقَى الآخَرُ[(٤)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾ أنَّ كلَّ مُتَصَدٍّ للدَّعوةِ إلى اللهِ فلا بُدَّ أنْ يَجِدَ خصومًا؛ لأنَّه إذا كانت الدَّعوةُ في ابتدائِها مع مَن جاء بها وهو الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ تُلاقي ذلك؛ فما بالُك بانتهائِها[(٥)]؟!

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٣). ويُنظر أيضًا: ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٧/ ١٦٧)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٣٠٤، ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٦).

فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فيه الخِصامُ لإظهارِ الحقِّ، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩]. والخِصامُ لإظهارِ الحقِّ أكرِمْ به مِن خِصامٍ؛ يُثبَتُ به الحقُّ، ويُدحَضُ به الباطلُ، وهو إحسانٌ إلى المخاصَمِ بإنقاذِه مِنَ النَّارِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أنَّ الاستغفارَ سببٌ لرفعِ العُقوبةِ وجلْبِ الرَّحمةِ، وقد قال نوحٌ لقَومِه: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]، وهذه رحمةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ نتيجةَ الاستِغفارِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ إثباتُ الحِكمةِ للهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، فالرَّحمةُ لها سببٌ، وكونُ اللهِ تبارك وتعالى يَقْرِنُ أفعالَه بأسبابِها يدُلُّ على كمالِ الحكمةِ؛ لأنَّ مَن يَفعلُ أفعالًا عُنجُهِيَّةً[٣] ليس لها أسبابٌ، فهذا سفيهٌ، لكنَّ عليه أنْ يَربِطَ الأفعالَ بأسبابِها[٤].

٦- قَولُهم حينَ أُصيبوا بالجَدبِ والقَحطِ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، مع أنَّ هذا الأمرَ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى، وليس بأسبابِ النَّبيِّ، فيه بيانُ مَسلَكِ المكذِّبينَ للرُّسُلِ؛ أنَّهم يَسلُكونَ مَسالِكَ التَّشبيهِ والتَّمويهِ؛ وهكذا أهلُ الباطلِ يُشَبِّهونَ ويُلَبِّسونَ على النَّاسِ بمثلِ هذه الأمورِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٠).

(٣) العُنْجُهِيَّةُ: الجَفاء والكِبْر. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٦/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أنَّه مِن الحكمةِ أنْ يُرَدَّ الباطِلُ بالحقِّ بدونِ سكوتٍ، وأنَّه ينبغي أنْ يكونَ الرَّدُّ مِن جنسِ الإيرادِ؛ فهنا تطيَّروا بصالحٍ ومَن معه، فبيَّن أنَّ طِيَرَتَهم وشُؤمَهم بسبَبِ أعمالِهم؛ ولذا قال: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾، فاللَّفظُ مِثلُ اللَّفظِ، فينبغي أنْ يكونَ الجوابُ مِثلَ الإيرادِ، ويتحرَّى المجيبُ حتَّى اللَّفظَ، وأيضًا ينبغي لِمَن رَدَّ على غيرِه أو أبطلَ قولَه أنْ يأتيَ بأمرٍ لا جِدالَ فيه؛ لأنَّ صالحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لو قال: هذا الجدبُ ليس مِنِّي، وأنا ما أتيتُ بسببِه، وما أشبَهَ ذلك؛ لكان هذا فيه مجالٌ للأخذِ والرَّدِّ، ولكنْ ينبغي أنْ يختارَ المجيبُ الجوابَ الذي لا كلامَ بعْدَه[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ المصائبَ التي تُصيبُ الإنسانَ إنَّما هي مِن اللهِ تعالى، ولا يُنافي هذا قولَه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ولا قولَه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ لأنَّ نِسبةَ هذه الأمورِ إلى اللهِ نسبةُ خَلْقٍ وإيجادٍ، ونِسبتَها إلى المخلوقِ نِسبةُ تسبُّبٍ، فهي تُضافُ إلى النَّاسِ إضافةَ الشَّيءِ إلى سببِه، وتُضافُ إلى اللهِ سُبحانه وتعالى إضافةَ المخلوقِ إلى خالقِه، وعلى هذا يَزولُ إشكالُ كثيرٍ مِن الآياتِ الَّتي ظاهرُها التَّعارُضُ في هذا البابِ[2].

٩- قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ القَسَمُ باللهِ يدُلُّ على أنَّهم كانوا يَعترِفون باللهِ، ولكنَّهم يُشرِكونَ به الآلهةَ[3].

١٠- قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٧٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٣).

شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ دلَّتْ هذه الآيةُ الكريمةُ على أنَّ نبيَّ الله صالحًا -عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ- نفَعَه اللهُ بنُصرةِ وليِّه، أي: أوليائِه؛ لأنَّه مُضافٌ إلى معرفةٍ، ووجْهُ نُصرتِهم له: أنَّ التِّسعةَ المذكورينَ في قَولِه تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٖ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ تحالَفُوا باللهِ أن يَقتلوه ليلًا ويقتلوا أهلَه معه، ثُمَّ يقولوا لأوليائِه وعصَبتِه: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ أي: ولا مَهلِكَه هو، وهذا يدُلُّ على أنَّهم لا يَقدِرونَ أن يقتُلوه علَنًا؛ لِنُصرةِ أوليائِه له، وإنكارُهم شهودَ مَهلِكِ أهلِه دليلٌ على خَوفِهم من أوليائِه[1].

١١- قولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ فيه أنَّ البيِّنةَ على المدَّعي واليمينَ على مَن أنكَرَ؛ لأنَّه لولا أنَّ هذا القَولَ يُبَرِّئُهم ما صَحَّ أنْ يَتَّفِقوا على اتِّخاذه حُجَّةً؛ يقتُلونه ويقولون: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾، فلمَّا اتَّفَقوا على هذا دلَّ على أنَّ الإنكارَ يُبَرَّأُ به المدَّعَى عليه[2]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرٗا وَمَكَرْنَا مَكْرٗا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وَصْفُ اللهِ تعالى بالمَكرِ، لكنَّه ليس على سَبيلِ الإطلاقِ، بل على سَبيلِ التَّقييد، فيُقالُ مثلًا: هو ماكِرٌ بأعدائِه أو بمن يَستحِقُّ المكرَ، أو ما أشبَهَ ذلك مِمَّا يجعَلُ المَكْرَ صفةَ كمالٍ؛ لأنَّ المكرَ ليس بصِفةِ كَمالٍ على الإطلاقِ، ولا بصِفةِ نَقصٍ على الإطلاقِ[3]؛ فإنَّه إيصالُ الشَّرِّ إلى الغَيرِ بطَريقٍ خَفيٍّ، وكذلك الكَيدُ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٩).

واستظهر الشنقيطيُّ أنَّ هذه النُّصرةَ عَصبيَّةٌ نَسَبيَّةٌ لا تمُتُّ إلى الدِّينِ بصِلةٍ، وأنَّ أولياءَه ليسوا مُسلِمينَ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٦).

والقاعدةُ: أنَّ الصِّفةَ إذا كانت كمالًا في حالٍ ونقصًا في حالٍ، لم تكُنْ جائزةً في حقِّ اللهِ =

والمخادعةُ، ولكِنَّه نوعانِ؛ قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لِمن لا يستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عقوبةً له؛ فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثَّاني ممدوحٌ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يَفعلُ مِن ذلك ما يُحمَدُ عليه عدلًا منه وحِكمةً، وهو تعالى يأخُذُ الظَّالِمَ والفاجِرَ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، لا كما يفعَلُ الظَّلَمةُ بعبادِه[1].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أنَّ العقوباتِ إنَّما تأتي بأسبابٍ مِن المرءِ، حيثُ جَعَل هذا التَّدميرَ عاقبةَ مَكْرِهم[2].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الظُّلمَ يُورِثُ أهلَه الهلاكَ، ويُعقِبُ ديارَهم الخَرابَ[3]؛ فالله تعالى لَمَّا خَصَّ عمَلَهم بوصفِ الظُّلم مِن بين عِدَّةِ أحوالٍ يشتَمِلُ عليها كُفرُهم -كالفسادِ-؛ كان ذلك إشارةً إلى أنَّ لِلظُّلْمِ أثرًا في خرابِ بلادِهم، وهذا معنى ما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما أنَّه قال: (أجِدُ في كتابِ اللهِ أنَّ الظُّلمَ يُخرِبُ البيوتَ، وتلا: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾)[4].

= ولا مُمتنِعةً على سبيلِ الإطلاقِ، فلا تُثْبَتُ له إثباتًا مُطْلَقًا، ولا تُنْفَى عنه نفيًا مُطلقًا، بل لا بُدَّ مِنَ التَّفصيلِ، فتجوزُ في الحالِ الَّتي تكونُ كمالًا، وتمتنعُ في الحالِ الَّتي تكونُ نقصًا. يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٢٠).

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٧١). ويُنظر أيضًا: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٧٩-٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٥، ٢٨٦).

ويُنظر لأثر ابن عباس: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (١/ ١٤٤)، ((المجالسة وجواهر العلم)) للدِّينَوري (٥/ ٢٢٣).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الرَّدُّ على مَن يُنكِرون الحِكمةَ، مِثلُ الجهميَّةِ(١).

١٦- بيانُ عدلِ اللهِ سبحانه وتعالى؛ حيث أهلكَ مَن يَستحِقُّ الإهلاكَ، وأنجَى مَن يَستحِقُّ الإنجاءَ؛ لقوله: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ هذا مَثَلٌ ثالثٌ ضَرَبه اللهُ لحالِ المُشركينَ مع المُؤمنينَ، وجعَلَه تَسليةً لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّ له أُسوةً بالرُّسلِ والأنبياءِ مِن قَبْلِه(٣).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عطْفٌ على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]، وهو مَسوقٌ لِمَا سِيقَ هو له مِن تقريرِ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُلقَّى القرآنَ مِن لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ؛ فإنَّ هذه القصَّةَ أيضًا مِن جُملةِ القرآنِ الكريمِ الَّذي لُقِّيَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٤).

- واللَّامُ في (لَقَدْ) جَوابُ قَسمٍ مَحذوفٍ، أيْ: وباللهِ لقدْ أرْسَلْنا، ولامُ القَسَمِ هذه لتَأكيدِ الإرسالِ باعتبارِ ما اتَّصلَ به مِن بَقيَّةِ الخبرِ؛ فإمَّا أنْ يكونَ التَّأكيدُ لِمُجرَّدِ الاهتمامِ، وإمَّا أنْ يُبْنَى على تَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ فيما تَضمَّنَه الخبرُ مِن تَكذيبِ قَومِه إيَّاهُ، واستِخفافِهم بوَعيدِ ربِّهم على لِسانِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).

- وقُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ على المفعولِ ﴿صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّ ما حَلَّ بالقومِ أهَمُّ ذِكْرًا في هذا المَقامِ؛ فالمجرورُ هنا هو مَحلُّ العِبرةِ، وأمَّا المفعولُ فهو مَحلُّ التَّسليةِ، والتَّسليةُ غرَضٌ تَبَعِيٌّ[(١)].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فيه العطْفُ بالفاءِ الَّتي تَقْتَضي التَّعقيبَ لا المُهلةَ؛ فكان المعنى: أنَّهم بادَرُوا بالاختصامِ، مُتعقِّبًا دُعاءَ صالحٍ إيَّاهم إلى عِبادةِ اللهِ[(٢)].

- والإتيانُ بحَرفِ المُفاجأةِ (إذَا) كِنايةٌ عن كَونِ انقسامِهم غيرَ مَرْضِيٍّ، فكأنَّه غيرُ مُترقَّبٍ؛ ولذلك لم يَقَعِ التَّعرُّضُ لإنكارِ كَونِ أكثرِهم كافرينَ؛ إشارةً إلى أنَّ مُجرَّدَ بَقاءِ الكُفرِ فيهم كافٍ في قُبْحِ فِعلِهم، وحالُهم هذا مُساوٍ لحالِ قُريشٍ تُجاهَ الرِّسالةِ المُحمَّديَّةِ[(٣)].

- وأُوثِرَ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ على (يَختصمانِ) -وإنْ كان مِن حيث التَّثنيةُ جائزًا فَصيحًا-؛ لِمُناسَبةِ الفواصلِ[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لَمَّا كان الاختصامُ بيْن الفريقينِ في شأْنِ صالحٍ ابتداءً؛ جِيءَ بجَوابِ صالحٍ عمَّا تَضمَّنَه اختِصامُهم مِن مُحاوَلتِهم إفحامَه بطَلَبِ نُزولِ العذابِ، فمَقولُ صالحٍ هذا ليس هو ابتداءَ دَعوتِه؛ فإنَّه تقدَّمَ قولُه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النمل: ٤٥]، ولكنَّه جوابٌ عمَّا تَضمَّنَه اختِصامُهم معه؛ ولذلك جاءت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٨).

جُملةُ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ مَفْصولةً غيرَ مَعطوفةٍ؛ جرْيًا على طريقةِ المُحاوَرةِ؛ لأنَّها حِكايةُ جَوابٍ عمَّا تَضمَّنَه اختصامُهم[1].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ إنكارٌ لأخْذِهم بجانبِ العذابِ دونَ جانبِ الرَّحمةِ[2]، وظاهرُ هذا الاستفهامِ أنَّه استفهامٌ عن عِلَّةِ اسْتِعجالِهم، وإنَّما هو استفهامٌ عن المَعلولِ؛ كِنايةً عن انتفاءِ ما حقُّه أنْ يكونَ سببًا لاستِعجالِ العذابِ؛ فالإنكارُ مُتوجِّهٌ لِلاستعجالِ لا لِعِلَّتِه[3].

- قولُه: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ(السَّيِّئة) الحالةَ السَّيِّئةَ في مُعامَلتِهم إيَّاهُ بتكذيبِهم إيَّاهُ، والمُرادُ بـ(الحَسَنة) ضِدَّ ذلك، أي: تَصديقَهم لِمَا جاء به؛ فالاستِعجالُ المُبادَرةُ، والباءُ للمُلابَسةِ، ومَفعولُ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: تَسْتَعجلونَني مُتلبِّسينَ بسَيِّئةِ التَّكذيبِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ(السَّيِّئة) الحالةَ السَّيِّئةَ الَّتي يَترقَّبون حُلولَها، وهي: ما سألوا مِن تَعجيلِ العذابِ المَحْكيِّ عنهم في سُورةِ (الأعرافِ) في قولِه: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وبـ(الحَسَنة) ضِدَّ ذلك، أي: حالةَ سَلامتِهم من حُلولِ العذابِ؛ فـ(السَّيِّئةُ) مفعولُ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾، والباءُ مَزيدةٌ؛ لتَأكيدِ اللُّصوقِ، مِثلَ ما في قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، والمعنى: إنكارُ جَعْلِهم تأخيرَ العذابِ أمارةً على كذِبِ الوعيدِ به، وأنَّ الأَولى بهم أنْ يَجْعَلوا امتدادَ السَّلامةِ أمارةً على إمهالِ اللهِ إيَّاهم، فيَتَّقُوا حُلولَ العذابِ، أي: لِمَ تَبْقَونَ على التَّكذيبِ مُنتظِرينَ حُلولَ العذابِ، وكان الأجدرُ بكم أنْ تُبادِرُوا بالتَّصديقِ مُنتظِرينَ عَدَمَ حُلولِ العذابِ بالمرَّةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٠).

وعلى كِلَا الوجهَين فجوابُ صالح عليه السَّلامُ إيَّاهم جارٍ على الأُسلوبِ الحكيمِ بجَعْلِ يَقينِهم بكَذِبه مَحمولًا على تَردُّدِهم بيْنَ صِدْقِه وكَذِبه[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث اقتُصِرَ هنا على مُراجَعةِ صالح قومَه في شأْنِ غُرورِهم بظَنِّهم أنَّ تأخُّرَ العذابِ أَمارةٌ على كَذِبِ الَّذي توعَّدَهم به؛ فإنَّهم قالوا -كما حُكِيَ عنهم في سُورةِ (الأعرافِ)-: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]؛ لأنَّ الغرَضَ هنا مَوعظةُ قُريشٍ في قولِهم: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢] بحالِ ثَمودَ المُساوي لحالِهم؛ لِيَعلَموا أنَّ عاقبةَ ذلك مُماثِلةٌ لِعاقبةِ ثَمودَ لِتَماثُلِ الحالينِ؛ قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[2] [العنكبوت: ٥٣].

- قولُه: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ في هذا التَّحضيضِ تَنبيهٌ على الخطأِ منهم في استِعجالِ العُقوبةِ، وتَجْهيلٌ لهم في اعتقادِهم[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ هذا مِن مُحاوَرتِهم مع صالحٍ؛ فلذلك فُصِلَ عمَّا قبْلَه، ولم يُعطَفْ فِعلَا القولِ، وجاء على سَنَنِ حِكايةِ أقوالِ المُحاوَراتِ[4].

- قولُه: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عبَّر عمَّا حلَّ بهم بقولِه: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ﴾؛ مُشاكَلةً لقولِهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، ومُخاطَبةً لهم بما يَفهَمون لإصلاحِ اعتقادِهم؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٠).

بقَرينةِ قَولِهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾[1].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ إضرابٌ مِن بَيانِ طائرِهم الَّذي هو مَبدَأُ ما يَحِيقُ بهم إلى ذِكرِ ما هو الدَّاعي إليه[2].

- وفي قولِه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ صِيغَ الإخبارُ عنهم بأنَّهم مَفتونونَ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿أَنتُمۡ﴾ على الخبرِ الفِعليِّ ﴿تُفۡتَنُونَ﴾؛ لِتَقوِّي الحُكْمِ بذلك، وصِيغَ المُسنَدُ فِعلًا مُضارِعًا؛ لِدَلالتِه على تَجدُّدِ الفُتونِ واستِمرارِه. وغلَّبَ جانبَ الخِطابِ في قولِه: ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ على جانبِ الغَيبةِ -مع أنَّ كِلَيْهما مُقْتضى الظَّاهرِ-؛ ترجيحًا لِجانبِ الخِطابِ؛ لأنَّه أدَلُّ مِن الغَيبةِ[3].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ فيه مِن البلاغةِ ما يُعرَفُ بالتَّمامِ أو التَّتميمِ[4]؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَكَانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨١).

(٤) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ ترفعُ عنه اللبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠، ٢٤١).

﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ شأْنُهم الإفسادُ البحْتُ، ولكنَّ قولَه: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا يَدفَعُ أنْ يَندُرَ منهم أو مِن أحدِهم بعضُ الصَّلاحِ؛ فتمَّمَ الكلامَ بقولِه: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دَفْعًا لتلك النُّدرةِ أنْ تقَعَ، أو أنْ يُخالِجَ بعضَ الأذهانِ شَكٌّ في أنَّها سَتقَعُ، وبذلك قطَعَ كلَّ رَجاءٍ في إصلاحِ أمْرِهم وحُسْنِ حالِهم[1].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ...﴾ استئنافٌ ببَيانِ بعضِ ما فَعَلوا مِن الفسادِ[2]. وقيل: إنَّ ﴿قَالُوا۟﴾ صِفةٌ لـ﴿تِسْعَةُ﴾، أو خبرٌ ثانٍ لـ(كَانَ)، أو هو الخبرُ لـ(كَانَ)، و﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(كَانَ) ظَرفًا لَغْوًا[3]، ولا يَحسُنُ جَعلُ الجُملةِ استئنافًا؛ لأنَّها المقصودُ مِن القصَّةِ، والمعنى: قال بعضُهم لبعضٍ[4].

- قولُه: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، أي: ما حضَرْنا هلاكَهم، على أن ﴿مَهْلِكَ﴾ مصدرٌ كمَرجِعٍ، أو مكانَ هلاكِهم على أنَّه للمكانِ، أو زمانَ هلاكِهم على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٠).

(٣) الظَّرفُ اللَّغْوُ: هو الفَضلةُ الَّذي يتعلَّقُ بمذكورٍ في الكلامِ، ولا يكون حالًا ولا صِفةً ولا صِلةً ولا خَبرًا؛ لأنَّ مُتعَلَّقَه لا يكونُ محذوفًا، ولا مِن الأفعالِ العامَّةِ. يُنظر: ((شرح قواعد الإعراب)) لشيخ زاده (١/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٢).

أنَّه لِلزَّمانِ. والمرادُ: نفْيُ شُهودِ الهلاكِ الواقعِ فيه، واختاروا نفْيَ شهودِ مَهلكِ أهلِه على نفْيِ قتْلِهم إيَّاهُم؛ قصدًا لِلمُبالَغةِ، كأنَّهم قالوا: ما شَهِدْنا ذلك فضلًا عن أن نتولَّى إهلاكَهم. ويُعلَمُ مِن ذلك نفْيُ قتْلِهم صالحًا عليه السَّلامُ أيضًا؛ لأنَّ مَن لم يَقتُلْ أتباعَه كيف يَقتُلُه[1]؟! وقيل: في الكلامِ حَذْفُ مَعطوفٍ، يَدُلُّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: ما شَهِدْنا مَهلِكَ أهْلِه ومَهْلِكَهُ، ودلَّ عليه قولُهم: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث لم يُذْكَرْ هذا الجزءُ مِن قصَّةِ ثَمودَ في غيرِ هذه السُّورةِ، ولعلَّ سَببَ ذِكْرِه هنا: أنَّ نُزولَ هذه السُّورةِ كان في وقْتٍ تآمَرَ فيه المُشركونَ على الإيقاعِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو التَّآمُرُ الَّذي حكاهُ اللهُ في قولِه: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ فضرَبَ اللهُ لهم مَثَلًا بتآمُرِ الرَّهطِ مِن قَومِ صالحٍ عليه ومَكْرِهم، وكيف كان عاقبةُ مَكْرِهم؛ ولذلك تَرى بيْن الآيتَينِ تَشابُهًا، وتَرى تَكريرَ ذِكْرِ مَكْرِهم ومَكْرِ اللهِ بهم، وذِكْرِ أنَّ في قِصَّتِهم آيةً لِقَومٍ يَعْلَمون[3].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ سمَّى اللهُ تآمُرَهم مَكْرًا؛ لأنَّه كان تَدبيرَ ضُرٍّ في خَفاءٍ، وأُكِّدَ مَكْرُهم بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿مَكۡرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على قُوَّتِه في

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

جِنْسِ المَكرِ. وتَنوينُه -أي: تَنكيرُه- للتَّعظيمِ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أُكِّدَ مَكْرُ اللهِ وعُظِّمَ كما أُكِّدَ مَكْرُهم وعُظِّمَ، وذلك بما يُناسِبُ جِنسَه؛ فإنَّ عذابَ اللهِ لا يُدانِيه عذابُ النَّاسِ، فعَظيمُه أعظَمُ مِن كلِّ ما يُقدِّرُه النَّاسُ(٢).

٧- قولُه تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ في اقترانِه بفاءِ التَّفريعِ: إيماءٌ إلى أنَّ الاعتبارَ بمَكْرِ اللهِ بهم هو المقصودُ مِن سَوقِ القِصَّةِ؛ تَعريضًا بأنَّ عاقبةَ أمْرِه مع قُريشٍ أنْ يَكُفَّ عنه كَيْدَهم ويَنصُرَه عليهم، وفي ذلك تَسليةٌ له على ما يُلاقِيه مِن قَومِه(٣).

- وعلى قِراءةِ الجمهورِ: ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ -بكسْرِ الهمزةِ- فتكونُ الجُملةُ مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا لِمَا يُثيرُه الاستفهامُ في قولِه: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ مِن سُؤالٍ عن هذه الكيفيَّةِ. والتَّأكيدُ للاهتمامِ بالخبرِ. وعلى قِراءةِ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ -بفتْحِ الهمزةِ- فيكونُ المصدرُ (تَدْميرهم) بدَلًا مِن ﴿عَاقِبَةُ﴾، والتَّأكيدُ أيضًا للاهتمامِ(٤).

- وضَميرُ الغَيبةِ في ﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾ للرَّهطِ، وعُطِفَ (قَوْمَهُمْ) عليهم؛ لِمُوافَقةِ الجزاءِ للمَجْزيِّ عليه؛ لأنَّهم مَكَروا بصالحٍ وأهْلِه، فدمَّرَهُم اللهُ وقومَهم(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٤، ٢٨٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٨- قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ جُملةٌ مُقرِّرةٌ لِمَا قبْلَها(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُمَلِ المُتعاطِفةِ(٢)، وفيها تَعريضٌ بأنَّ المُشركينَ الَّذين سِيقَتْ إليهم هذه الموعظةُ إنْ لم يَتَّعِظوا بها فهُمْ قومٌ لا يَعْلَمون(٣).

- وفي ذِكْرِ لفظِ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ دُونَ أن يُقالَ: لِلَّذينَ يَعلمون، أو: للعالِمينَ: إيماءٌ إلى أنَّ مَن يَعتبِرُ بهذه الآيةِ مُتمكِّنٌ في العِلم، والعِلمُ سَجِيَّةٌ فيه، حتَّى كأنَّه مِن صِفَتِه القوميَّةِ التي تميِّزُه عن قومٍ آخَرينَ(٤).

٩- قولُه تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾

- زِيادةُ فِعلِ الكونِ في قولِه: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُتمكِّنونَ مِن التَّقوى(٥).

- وفي قولِه: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قالهُ في سُورةِ (فصِّلَت): ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]، و(نجَّينا) و(أَنجَينا) بمعنًى واحدٍ، وخُصَّتْ هذه السُّورةُ بـ(أَنْجَيْنا)؛ لِمُوافقتِه لِمَا بعدَه، وهو: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [النمل: ٥٧]، وبعدَه: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ [النمل: ٥٨]

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٩) و (١٩/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٧).

﴿وَأَنزَلَ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ [النمل: ٦٠]، كلُّه على لَفْظِ (أَفْعَل)، وخُصَّ ما في (حم فُصِّلت) بـ(نَجَّيْنَا)؛ لِمُوافَقتِه ما قبْلَه: ﴿وَزَيَّنَّا﴾ [فصلت: ١٢]، وبعْدَه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ﴾ [فصلت: ٢٥]، وكلُّه على لَفْظِ (فَعَّلْنا)[1].



(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٤).

الآيات (٥٤-٥٨)

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي: الفَعلةَ القَبيحةَ الشَّنيعةَ، وهي إتيانُ الذُّكورِ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[١].

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ في عذابِ اللهِ، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يُقالُ: غابرٌ للباقي، وغابرٌ للماضي، وأصلُ (غبر) هنا: يدُلُّ على البَقاءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ لوطٍ عليه السلامُ مع قومِه، فيقولُ سبحانَه: واذكُرْ لُوطًا حينَ قال لقَومِه: أتفعَلونَ الفَعلةَ القَبيحةَ الشَّنيعةَ وأنتم تعلَمون أنَّها فاحِشةٌ؟! ثمَّ فسَّر هذه الفاحشةَ، فقال: أتأتونَ الرِّجالَ شَهوةً مِن دونِ النِّساءِ الَّتي أحَلَّها اللهُ لكم؟! بل أنتم قومٌ سُفَهاءُ جاهِلون. فلمْ يكُنْ لِقَومِه جَوابٌ إلَّا أن قال

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((الأضداد)) لابن الأنباري (ص: ١٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

بَعضُهم لبَعضٍ: أخرِجوا لوطًا وأهلَ بيتِه مِن قَريتِكم؛ لأنَّهم يَتنزَّهون عن إتيانِ الرِّجالِ!

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما آلَ إليه أمرُ الفريقَينِ، فيقولُ: فأنجَيْنا لوطًا وأهلَ بيتِه إلَّا امرأتَه قَضَيْنا أنَّها مِن الباقينَ في العذابِ، وأمطَرْنا على قَومِ لُوطٍ مَطرًا مِن حِجارةٍ، فبِئسَ هذا المطَرُ الَّذي أمطَرْناه عليهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: واذكُرْ لُوطًا[١] حينَ قال لِقَومِه: أتَفعَلونَ الفَعلةَ المتناهِيةَ في القُبحِ، والخطيئةَ الفَظيعةَ الشَّنيعةَ[٢] -وهي إتيانُ الذُّكورِ في أدبارِهم- والحالُ أنَّكم تُبصِرونَ[٣]؟!

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٤).

قال القرطبي: (﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي: وأرسَلْنا لوطًا، أو: اذكرْ لوطًا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

(٢) قال الواحدي: (يعني: اللِّواطَ، في قَولِ ابنِ عباسٍ، والكلبيِّ، ومقاتلٍ، والجميعِ). ((البسيط)) (١٧/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

قيل: معنى قولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾: تعلمونَ أنَّها فاحشةٌ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: قال لُوطٌ لِقَومِه: أئنَّكم لَتأتونَ الذُّكورَ في أدبارِهم؛ لأجْلِ الشَّهوةِ، وتَتركُونَ إتيانَ فروجِ النِّساءِ الَّتي أحَلَّها اللهُ لكم[1]؟!

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

أي: بل أنتم قومٌ سُفَهاءُ جَهَلةٌ، مُتجاوِزونَ لحُدودِ الله، مُتجرِّئُون على محارِمِه[2].

= وقيل: المعنى: تفعلون ذلك علَنًا يرى بعضُكم بعضًا. وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

قال البقاعي: (﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: لكم عقولٌ تعرفون بها المحاسنَ والمقابحَ، ورُبَّما كان بعضُهم يفعلُه بحضرةِ بعضٍ، كما قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فيكونُ حينَئذٍ من البصرِ والبصيرةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٨١).

وقال ابنُ عثيمين: (لو أنَّنا فسَّرنا الإبصارَ هنا بالإبصارِ الحِسِّيِّ بالعينِ، والإبصارِ المعنويِّ بالقلبِ؛ لكان ذلك جائزًا، وفي الحقيقةِ أنَّ بشاعةَ هذا الشيءِ بالقَلبِ أمرٌ معلومٌ بالفِطرةِ، وكونُهم يفعلونَه وهم يُشاهِدُ بعضُهم بعضًا هذا أشَدُّ وأعظَمُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٥، ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٩، ٣٢٠).

قال الزمخشري: (﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾... تفعلونَ فِعلَ الجاهلينَ بأنَّها فاحشةٌ مع عِلمِكم =

كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

أي: فلمْ يكُنْ لِقَومِ لُوطٍ جَوابٌ ولا حُجَّةٌ حينَ أنكَرَ عليهم فِعلَ الفاحِشةِ إلَّا أن قال بعضُهم لبعضٍ: أخرِجوا لوطًا وأهلَ بَيتِه مِن قَريتِكم[(١)].

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

أي: أخرِجوهم؛ لأنَّ لوطًا وأهلَ بيتِه أُناسٌ يَتنزَّهون عمَّا نفعلُه مِن إتيانِ الرِّجالِ في أدبارِهم؛ فلا ينبغي أن يُقيموا في بلادِكم[(٢)]!

= بذلك. أو: تجهلونَ العاقبةَ. أو: أراد بالجهلِ: السَّفاهةَ والمجانةَ الَّتي كانوا عليها). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٤).

وقال ابنُ جرير: (ما ذلك منكم إلَّا لأنَّكم قومٌ سُفَهاءُ جَهَلةٌ بعظيمِ حَقِّ الله عليكم، فخالفْتُم لذلك أمْرَه، وعَصَيْتُم رَسولَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٩، ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٢).

قال ابنُ كثير: (أي: يتحَرَّجون من فِعلِ ما تفعلونَه، ومِن إقرارِكم على صنيعِكم؛ فأخرِجوهم مِن بينِ أظهُرِكم؛ فإنَّهم لا يَصلُحون لمجاورتِكم في بلادِكم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠). =

﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أي: فأنجَينا لوطًا وأهلَ بيتِه مِن أنْ يَصِلوا إليهم بأذًى، أو يَلحَقَهم شَيءٌ مِن عذابِنا، إلَّا امرأتَه الكافِرةَ، قَضَيْنا أنَّها مِنَ الباقينَ في العذابِ؛ لتَهلِكَ مع قَومِها[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٠ - ١٧٢].

= وقال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ هل هم أرادوا الحقيقةَ، وأنَّ هذا الفعلَ خبيثٌ، وهؤلاء يريدون التطَهُّرَ منه؟ أو أرادوا: يَتطهَّرون بزَعمِهم، وأنَّ هذا الفِعلَ ليس نجسًا، لكنَّ هؤلاء يُريدون أن يتطَهَّروا منه؟ الأقربُ الأخيرُ؛ لأنَّه هو مقتضى حالِهم؛ فمقتضى حالِهم أنَّهم رأوا هذا المنكَرَ مَعروفًا، وهذه الفاحِشةَ يَسيرةً؛ فتَمَسَّكوا بها!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

قال ابن كثير: (كانت رِدْءًا لهم؛ على دينِهم، وعلى طريقتِهم، في رضاها بأفعالِهم القبيحةِ... لا أنَّها كانت تفعَلُ الفواحِشَ؛ تَكرِمةً لنبيِّ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، لا كرامةً لها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠).

وقال أيضًا: (... إنَّ اللهَ لا يُقَدِّرُ على نبيِّه أن تَبغيَ امرأتُه، كما قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه مِن أئمَّةِ السَّلفِ والخلَفِ: «ما بَغَتِ امرأةُ نبيٍّ قَطُّ». ومَن قال خِلافَ هذا فقد أخطأَ خطأً كبيرًا). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٢٢).

ممَّن اختار أنَّ معنَى ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقينَ في العَذابِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩٨).

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾.

أي: وأمطَرْنا على قَومِ لوطٍ مَطَرًا مِن حِجارةٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٦].

﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾.

أي: فبِئسَ المطَرُ هذا الذي أمطَرْناه على قَومِ لُوطٍ الَّذين أنذَرهم نبيُّهم عذابَ اللهِ، فعَصَوه وكذَّبوه[2]!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أنَّه لا يُنجي مِن عذابِ اللهِ الاتِّصالُ بأهلِ الصَّلاحِ، فلا يقولُ الإنسانُ مثلًا: أنا أخي صالحٌ أو وليٌّ أو ما أشبَهَ ذلك، فهو يَعصِمُني من عذابِ اللهِ؛ فهذه امرأةُ لوطٍ لم ينفَعْها أنَّها امرأةُ نبيٍّ! ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٧، ٣٢٨).

[التحريم: ١٠]، فمَن أتى بأسبابِ الهلاكِ هَلَكَ، وإنْ كان بيْنَ قومٍ صالحينَ[(١)]؛ ففيه تنبيهٌ على أنَّ العذابَ يُدفَعُ بالطَّاعةِ لا بالوسيلةِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أنَّ الرُّسلَ يُرسَلون إلى قومِهم، ولم يُبْعَثْ أحدٌ إلى عُمومِ النَّاسِ إلَّا رسولُ اللهِ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[(٣)].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فيه بيانُ عِظَمِ اللِّواطِ وقُبْحِه، ووجوبِ الإنكارِ على مَن أتَى به[(٤)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنَّ الفواحشَ تَقْبُحُ بحسَبِ ما يَقترِنُ بها؛ فإنَّ هذه الفاحشةَ مُنكَرةٌ، ولكنَّها إذا كانت علنًا وجهرًا يَظهرُ النَّاسُ بعضُهم أمامَ بعضٍ فيها صارت أَقبَحَ وأعظَمَ؛ ولهذا أتى بالجملةِ الحاليَّةِ في قَولِه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[(٥)] -وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-؛ فإنَّ التَّجاهُرَ بالمعصيةِ معصيةٌ؛ لأنَّه يدُلُّ على استِحسانِها، وذلك استِخفافٌ بالنَّواهي[(٦)].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لَمَّا كان قولُه: ﴿شَهْوَةً﴾ رُبَّما أوهَمَ أنَّهم لا غنَى بهم عن إتيانِهم؛ لِلشَّهوةِ الغالبةِ؛ لِكَونِ النِّساءِ لا تكفيهم- لذلك نفَى هذا بقَولِه: ﴿بَلْ﴾ أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

إنَّكم لا تأتونَهم لِشَهوةٍ مُحوِجةٍ ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾[(١)]!

٥- قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ فيه أنَّ هذه الشَّهوةَ إنَّما تَصدُرُ عن جَهلٍ، لا بمقتضى الطَّبيعةِ، وإنَّما هي عن سفَهٍ في الإنسانِ؛ كأنَّه قال: «إتيانُكم إيَّاهم شهوةً ليس له محلٌّ، ولكنَّ الذي أوجبَ ذلك لكم أنَّكم قومٌ ذوو جَهلٍ، أي: سَفَهٍ[(٢)]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾ أنَّ قولَ البعضِ إذا رَضيَه الباقون فهو للجَميعِ، ومِن المعلومِ أنَّ هذا القولَ ليس للجَميعِ؛ لأنَّهم عندَما يقولون: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ﴾ فبعضُهم يُخاطِبُ بعضًا، ولكنَّ الكَلِمةَ إذا جاءت مِن بعضِ القَومِ ورَضِيَها الآخَرونَ، فإنَّها تُنسَبُ إليهم؛ ولهذا يُخاطِبُ اللهُ اليهودَ في عهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما فَعَله أسلافُهم، وفي سورةِ (البقرة) كثيرٌ من ذلك، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]، فموسى الَّذي أُوتيَ الكتابَ والفُرقانَ جاء لأسلافِهم، وليس لهم[(٣)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ دَليلٌ على أنَّ المرأةَ من الأهلِ؛ لأنَّ الإنسانَ يأهَلُها ويأوي إليها، وكذلك هي بالنِّسبةِ إليه؛ فالزَّوجةُ من أهلِ الإنسانِ، كما أنَّ أقاربَه مِن أولادِه وآبائِه هم أيضًا مِن الأهلِ[(٤)].

٨- بيانُ سَبْقِ التَّقديرِ للحوادثِ، وأنَّ تقديرَ اللهِ تعالى سابقٌ على أفعالِه؛ لِقَولِه: ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾؛ لأنَّ معنى ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾ أي: جعَلْناها بتقديرِنا السَّابقِ[(٥)].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٥).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ المطرَ ليس خاصًّا بالماءِ، بل كلُّ ما حُصِبَ به الإنسانُ مَن فوقٍ يُسمَّى مطرًا؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، والمطرُ الذي أصابهم هو حجارةُ السِّجِّيلِ، كما قال اللهُ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[1] [هود: ٨٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يُعَذِّبُ كلَّ إنسانٍ بذنْبِه، ووجْهُ مناسَبةِ العقوبةِ للجريمةِ أنَّ هذا المطرَ جَعَل عاليَ بلادِهم سافِلَها، كما أنَّ أولئك سَفُلوا بأخلاقِهم حتَّى كانوا يَستَعمِلونَ هذه الفاحِشةَ، ويَذَرونَ ما خَلَقَ لهم ربُّهم مِن أزواجِهم، وهذا بلا شكٍّ انقلابٌ في فِطَرِهم؛ ولذلك عُوقِبوا بهذه الجريمةِ -والعياذُ باللهِ[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ هذا المطرَ من اللهِ سُبحانَه وتعالى، والثَّناءُ عليه بالقُبْحِ وبالشَّرِّ ألَا يُنافي قولَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((والشَّرُّ ليس إليك))[3]؟!

والجوابُ: لا ينافيه، والجمعُ أنَّ هذا السُّوءَ ليس في فِعلِ اللهِ، ولكِنَّه في مَفعولِه، فهذا المطرُ هو الذي أُثْنِيَ عليه بالسُّوءِ ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾، وأمَّا فِعلُ اللهِ فإنَّه ليس بِشَرٍّ، بل هو مِن كمالِ العَدلِ والقوَّةِ والسُّلطانِ؛ حيثُ عاقبَ المجرِمين بما يَستحِقُّون، وعُقوبةُ المجرمِ بما يَستحِقُّ لا شكَّ أنَّها ليست بظُلم، وليست بسَيِّئةٍ، ولا يُثنى على فاعِلِها بالسُّوءِ، فتبيَّن بهذا أنَّه لا ينافي قولَ الرسولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٨). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦).

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) مطولًا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((والشَّرُّ ليس إليكَ))(١).

١٢- مما يُتَنَبَّهُ له أنَّه لم يَرِدْ في قصَّةِ لوطٍ عليه السَّلامُ أكثرُ مِن نَهْيِه لهم عن هذه الفاحشةِ؛ فلا يخلو حالُهم مِن أمْرَينِ: إمَّا أنَّهم كانوا لا يُشرِكون باللهِ تعالى شيئًا، ولكنَّهم لَمَّا ابتكَروا هذه المعصيةَ، وجاهَروا بها مُصرِّينَ عليها؛ أُخِذوا بالعذابِ لذلك، ولِكفرِهم بتكذيبِهم رسولَهم -كما صَرَّحَتْ به آيةُ الشُّعراءِ-.

وإمَّا أنَّهم كانوا مشركين، ولكنَّه عليه السلامُ لَمَّا رآهم قد سَفَلوا إلى رتبةِ البَهيميَّةِ رَتَّبَ دعاءَهم منها إلى رتبةِ الإنسانيَّةِ، ثمَّ إلى رتبةِ الوحدانيَّةِ، ويدُلُّ على هذا التَّقديرِ الثَّاني قولُه -مشيرًا إلى أنَّ اللهَ تعالى أهلَكهم وجميعَ مَن كَفَر مِن قبْلِهم، ولم تُغْنِ عنهم معبوداتُهم شيئًا-: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٥).

ذكَر الرازي أنَّ لوطًا عليه السَّلامُ كان له قومٌ وهو كان مِن قومِ إبراهيمَ وفي زمانِه، وإبراهيمُ سَبَقه بذلك واجتَهَد فيه حتَّى اشتهرَ الأمرُ بالتَّوحيدِ عندَ الخَلقِ مِن إبراهيمَ، فلم يَذكُرْه عن لوطٍ، وإنَّما ذَكَر منه ما اختصَّ به مِن المنعِ عن الفاحشةِ وغيرِها، وإنْ كان هو أيضًا يأمُرُ بالتَّوحيدِ؛ إذْ ما مِنْ رسولٍ إلَّا ويكونُ أكثرُ كلامِه في التَّوحيدِ. ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ عن قومِ لوطٍ عليه السَّلامُ: (وكانوا كفَّارًا مِن جِهاتٍ: من جهةِ استِحلالِ الفاحشةِ، ومِن جهةِ الشِّركِ، ومِن جهةِ تكذيبِ الرُّسلِ، ففعَلوا هذا وهذا، ولكنَّ الشِّركَ والتَّكذيبَ مشتركٌ بيْنَهم وبيْن غَيرِهم، والَّذي اختصُّوا به الفاحشةُ؛ فلهذا عُوقِبوا عقوبةً تَخُصُّهم لم يُعاقَبْ غيرُهم بمِثْلِها). ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) (١/ ٣٩١).

لكنْ ذكَرَ في كتاب ((النبوات)) (١/ ٢١٢) أنَّهم لم يَكونوا مشركين، وإنَّما كان ذنْبُهم استِحلالَ الفاحشةِ وتوابعَ ذلك؛ ولذا لم يُذَكَّروا بالتَّوحيدِ، بخلافِ سائرِ الأمَمِ.

- قولُه: ﴿وَلُوطًا﴾ أي: واذكُرْ لوطًا، أو: وأرسَلْنا لُوطًا؛ لِدَلالةِ قولِه فيما سبق: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ [النمل: ٤٥] عليه. وعلى الوجهَينِ هو مِن عطفِ قصَّةٍ على قصَّةٍ، وليس معطوفًا على ﴿صَٰلِحًا﴾ مع تبادُرِه، ولا على قولِه قبْلَه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: ٥٣] مع قُربِه؛ لأنَّه غيرُ مستقيم؛ لأنَّ صالحًا بدَلٌ أو عطفُ بيانٍ لـ ﴿أَخَاهُمْ﴾ [النمل: ٤٥]، وقد قُيِّد بقَيدٍ مُقَدَّمٍ عليه، وهو ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ [النمل: ٤٥]، فلو عُطِف عليه تقيَّد به، ولا يصحُّ؛ لأنَّ لوطًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُرسَلْ إلى ثمودَ(١).

وقيل: عطَفَ (لُوطًا) على ﴿صَٰلِحًا﴾ في قولِه السَّابقِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [النمل: ٤٥]، ولم يَذكُرِ المُرسَلَ إليهم هنا كما ذكَرَ في قصَّةِ ثمودَ؛ لعَدمِ تَمامِ المُشابَهةِ بيْن قومِ لوطٍ وبيْن قُريشٍ فيما عدَا التَّكذيبَ والشِّركَ(٢).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ(٣).

- قولُه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مِن فاعلِ (تأتُون)، مُفيدةٌ لتأكيدِ الإنكارِ وتَشديدِ التَّوبيخِ؛ فإنَّ تعاطيَ القبيحِ مِن العالِمِ بقُبْحِه أقبحُ وأشنعُ(٤)، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- وتعقيبُ قصَّةِ ثمودَ بقصَّةِ قومِ لوطٍ جارٍ على مُعتادِ القرآنِ في تَرتيبِ قَصصِ هذه الأُمَمِ؛ فإنَّ قومَ لوطٍ كانوا مُتأخِّرينَ في الزَّمنِ عن ثمودَ. وإنَّما

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

الذي يَسْتثيرُ سؤالًا هنا: هو الاقتصارُ على قصَّةِ قوم لوطٍ دونَ قصَّةِ عادٍ وقصَّةِ مَدْينَ؛ وذلك لمُناسَبةِ مُجاورةِ دِيارِ قومِ لوطٍ لممْلكةِ سُليمانَ، ووُقوعِها بيْنَ دِيارِ ثمودَ وبيْن فِلَسطينَ، وكانت دِيارُهم ممَرَّ قُريشٍ إلى بلادِ الشَّامِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لمَّا أنكرَ تعالى عليهم فِعلَهم على الإجمالِ، وسمَّاهُ فاحشةً، وقيَّدَه بالحالِ المُقرِّرةِ لجِهَةِ الإشكالِ تَتْميمًا للإنكارِ بقولِه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ أرادَ مَزيدَ ذلك التَّوبيخِ والإنكارِ، فكشَفَ عن حقيقةِ تلك الفاحشةِ مُفَصِّلًا، ففيه تعْيينٌ بعدَ إبهامٍ؛ فقد أبهَمَ أوَّلًا في قولِه: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، ثمَّ عيَّنَها. وصرَّحَ بذِكْرِ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ مُحلًّى بلامِ الجنْسِ، مُشيرًا به إلى أنَّ الرُّجوليَّةَ مُنافيةٌ لهذه الحالةِ، وقيَّده بالشَّهوةِ التي هي أخَسُّ أحوالِ البَهيميَّةِ، وضَمَّ إليه ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، وأذِنَ له بأنَّ ذلك ظُلْمٌ فاحشٌ، ووَضْعٌ للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، ثمَّ أضرَبَ عن الكلِّ بقولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، أي: كيف يُقالُ لمَن يَرتكِبُ هذه الشَّنعاءَ: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟! فأَولى حرفَ الإضرابِ ضَميرَ (أَنْتُمْ)، وجعَلَهم قومًا جاهلينَ، والْتفَتَ في ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مُوبِّخًا مُعيِّرًا[2].

- قولُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ الهمزةُ للاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ، وهذا تَثنيةٌ للإنكارِ، وتَكريرٌ للتَّوبيخِ، وبَيانٌ لِمَا يأْتونَه مِن الفاحشةِ بطريقِ التَّصريحِ، وأيضًا كرَّرَ التَّوبيخَ زِيادةً في التَّقبيحِ واستسماجِ هذه الفِعلةِ الشَّنعاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٤٧، ٥٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٥).

المُخالِفةِ لنَواميسِ الطَّبيعةِ[١].

- وتَحليةُ جُملةِ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بحَرفَي التَّأكيدِ (إنَّ واللَّام)؛ للإيذانِ بأنَّ مَضمونَها ممَّا لا يُصدِّقُ وُقوعَه أحدٌ؛ لكَمالِ بُعْدِه مِن العُقولِ. وإيرادُ المفعولِ بعُنوانِ الرُّجوليَّةِ؛ لتَربيةِ التَّقبيحِ وتحقيقِ المُبايَنةِ بيْنَها وبيْن الشَّهوةِ التي عُلِّلَ بها الإتيانُ[٢].

- قولُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث تقدَّمَ في (الأعرافِ): ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]؛ فهنا جِيءَ بالاستفهامِ الإنكاريِّ، وما في (الأعرافِ) جاء الخبرُ المُستعمَلُ في الإنكارِ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الحكايةِ لاختلافِ المَحكيِّ؛ بأنْ يكونَ لُوطٌ قد قال لهم المقالتَينِ في مَقامينِ مُختلفينِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الحِكايةِ تفنُّنًا مع اتِّحادِ المعنى. وكِلَا الأُسلوبينِ يقَعُ في قَصصِ القرآنِ؛ لأنَّ في تَغييرِ الأسلوبِ تجديدًا لنَشاطِ السَّامعِ. وعلى قِراءةِ ما في سُورةِ (الأعرافِ) بهمْزتينِ؛ فتَستوي الآيتانِ على هذه القِراءةِ[٣].

- قولُه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿أَنْتُمْ قَوْمٌ﴾ خبرٌ موَطِّئٌ، وإنَّما الخبرُ في الحقيقةِ هو الجملةُ الَّتي وُصِف بها ﴿قَوْمٌ﴾، والخبرُ الموَطِّئُ هو الَّذي لا يُفيدُ بانفرادِه ممَّا بَعْدَه، كالحالِ الموَطِّئةِ في نحو: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]. ألا تَرى أنَّك لو اقتصَرْتَ على ﴿قَوْمٌ﴾ هنا لم تحصُلْ به فائدةٌ، وإنَّما الفائدةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨)، يُنظر ما تقدم في تفسير سورة الأعراف، الآية ٨١ (٦/ ٣١٩).

مقرونةٌ بصِفَتِه، فالخبرُ الموَطِّئُ كالزِّيادةِ في الكلام. فـ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ فِعلُ خِطابٍ وُصِفَ به اسمُ غَيْبةٍ كما تَرى، ولم يأتِ بالياء وِفاقًا لـ﴿قَوۡمٌ﴾، ولكنَّه جاء وَفْقَ المبتَدَأ الَّذي هو ﴿أَنتُمۡ﴾ في الخِطابِ، ولو قيل: بل أنتُم قَومٌ، لم يحصُلْ بهذا الخبرِ فائدةٌ[(١)].

- وفي إقحام لَفظِ (قوم) إيماءٌ إلى تَمكُّنِ صِفَةِ الجهْلِ منهم حتَّى كأنَّها مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[(٢)].

- قولُه: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ صِفةٌ لـ﴿قَوۡمٌ﴾، والموصوفُ لَفظُه لفظُ الغائبِ، ولكنَّها قُرِئَت بالتَّاءِ للمُخاطَبِ دونَ الياءِ الَّتي للغائبِ، وكذلك ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]؛ لأنَّه اجتمَعَت الغَيبةُ والمُخاطَبةُ، فغُلِّبَت المُخاطَبةُ؛ لأنَّها أقْوى وأرسَخُ أصلًا مِن الغَيبةِ[(٣)]، فهذا مِن بابِ التَّغليبِ -وهو مِن أنواعِ تخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ-؛ حيث رُجِّح أحدُ الأمْرَين على الآخَرِ تغليبًا للمُخاطَبينَ على الغائبينَ، أو لِتَغليبِ جانبِ المعنَى على اللَّفظِ. ولعلَّه مِنَ الالتِفاتِ[(٤)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث وقَعَ في (الأعرافِ): ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] ولم يُذكَرْ هنا؛ لأنَّ ما يجْري في القصَّةِ لا يَلزَمُ ذِكرُ جَميعِه. وكذلك القولُ في عَدمِ ذِكْرِ ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (٣/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ١٦٤)، ((عروس الأفراح)) للبهاء السبكي (٢/ ٣١٨، ٣١٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٥٥).

في سُورةِ (الأعرافِ) مع ذِكْره هنا، ونظيرُ بقيَّةِ الآيةِ تقدَّمَ في سُورةِ (الأعرافِ)، إلَّا أنَّ الواقعَ هنا ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾، فوصَفَهم بالجَهالةِ، وهي اسمٌ جامعٌ لأحوالِ أَفَنِ الرَّأيِ وقساوةِ القلْبِ، وفي (الأعرافِ) وصَفَهم بأنَّهم قومٌ مُسرِفون؛ وذلك يُحمَلُ على اختلافِ المقالتينِ في مَقامينِ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ * وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ تقدَّمَ نظيرُ هذه الآياتِ في سُورةِ (الأعرافِ)، وخالَفَتْها هذه بوُقوعِ العطْفِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ﴾ دونَ الواوِ، وبقولِه: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾ عِوَضَ ﴿أَخۡرِجُوهُم﴾ [الأعراف: ٨٢]، وبقولِه: ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾ عِوَضَ ﴿كَانَتۡ﴾ [الأعراف: ٨٣]، وبقولِه: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ عِوَضَ ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]؛ فأمَّا مَوقعُ الفاءِ هنا فهو لتَعقيبِ الجُملةِ المعطوفةِ بالفاءِ على التي قبْلَها تَعقيبَ جُزءِ القصَّةِ على أوَّلِه، فلا تُفيدُ إلَّا تعقيبَ الإخبارِ، وهي في ذلك مُساويةٌ للواوِ، ولكنْ أُوثِرَ حرفُ التَّعقيبِ في هذه الآيةِ؛ لكَونِها على نَسجِ ما حُكِيَت به قصَّةُ ثمودَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]؛ فالاختلافُ بيْن هذه الآيةِ وآيةِ (الأعرافِ) تفنُّنٌ في الحكايةِ، ومُراعاةٌ للنَّظيرِ في النَّسجِ، وهذا مِن أساليبِ قَصصِ القرآنِ. وكذلك قولُه: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾ دونَ ﴿أَخۡرِجُوهُم﴾ [الأعراف: ٨٢]؛ لأنَّ المَحكيَّ مِن كلامِ القومِ هو تآمُرُهم على إخراجِ آلِ لوطٍ، فما هنا حِكايةٌ بمُرادِفِ كَلامِهم، وما في (الأعرافِ) حِكايةٌ بالمعنى، والغرَضُ هو التَّفنُّنُ أيضًا. وكذلك الاختلافُ بيْنَ ﴿قَدَّرۡنَاهَا﴾ هنا وبيْن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

﴿كَانَتْ﴾ في [الأعراف: ٨٣]. وأمَّا الاختلافُ بيْنَ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وبيْن ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]؛ فهُما عِبرتانِ بحالِهم تفرَّعَتَا على وصْفِ ما حلَّ بهم، فوُزِّعَت العِبرتانِ على الآيتينِ؛ لئلَّا يَخلُوَ تَكريرُ القصَّةِ مِن فائدةٍ[١].

- قولُه: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ قِيل: أَظْهَرَ ما أضْمَرَه في (الأعرافِ): ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢]؛ لأنَّ الإظهارَ أَلْيقُ بسُورةِ العلمِ والحِكمةِ وإظهارِ الخَبْءِ[٢].

- وقالوا: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ولم يقولوا: (مِن القَريةِ)؛ لأنَّ قولَهم: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ يُوجِبُ الحَميَّةَ والعصبيَّةَ حتى يُخرجوهم، كأنَّهم قالوا: هذه القريةُ لكم، أخرجوا هذا الرجُلَ، وكذلك ففي قَولِه: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني: هؤلاء ليسوا منكم؛ فلا وجْهَ لكونِكم تَسكُتونَ عنهم[٣]!



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥، ٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٣).

الآيات (٥٩-٦٤)

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿اصْطَفَى﴾: أي: اختارَ، واجتبَى، وأصلُ (صفو): خلوصُ الشَّيءِ مِن كلِّ شَوبٍ[١].

﴿حَدَائِقَ﴾: أي: بساتينَ، وقيل: بساتين نخلٍ، واحدُها: حديقةٌ، والحديقةُ كلُّ بستانٍ عليه حائطٌ، وقيل: هي قطعةٌ مِن الأرضِ ذاتُ ماءٍ، سُمِّيت تشبيهًا بحدقةِ العينِ في الهيئةِ، وحصولِ الماءِ فيها، وأصلُ (حدق): الشَّيءُ يحيطُ بشَيءٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾: أي: ذاتَ حسنٍ، والبهجةُ: حُسنُ اللونِ، وظُهورُ السُّرورِ، وأصلُ (بهج): سرورٌ ونضرةٌ[1].

﴿يَعْدِلُونَ﴾: أي: يَعدِلونَ عن الحقِّ ويَجورونَ عليه ويتكبَّرونَ -مِن قولِهم: عَدَلَ عن الحقِّ: إذا جارَ-، أو: يَعدِلونَ بالله غيرَه، أي: يجعلونَ له عديلًا، ومثيلًا، وشريكًا، والعدالةُ: لفظٌ يَقتضي معنى المساواةِ، وأصلُ (عدل): يدُلُّ على استواءٍ[2].

﴿قَرَارًا﴾: أي: مستقَرًّا، وسكنًا، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على التَّمكُّنِ[3].

﴿خِلَالَهَآ﴾: أي: فيما بيْنَها، ووسطَها، وخِلالُ الشَّيءِ: مُنْفَرَجُ ما بيْنَ أجزائِه، والخَلَلُ: فُرجةٌ بينَ الشَّيئينِ، وأصلُ (خلل): يرجِعُ إمَّا إلى دِقَّةٍ أو فُرْجةٍ[4].

﴿رَوَاسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابتَ، وأصلُ (رسي): يدُلُّ على ثباتٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥١، ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ: الحمدُ للهِ وَحْدَه، وسَلامٌ مِن اللهِ على عِبادِه الَّذينَ اختارهم، ونجَّاهم مِن العَذابِ، وسلَّمَهُم مِن العُيوبِ والذُّنوبِ، آللهُ الَّذي له صِفاتُ الكَمالِ والجلالِ خيرٌ أمْ تلك المعبوداتُ الَّتي لا تَنفعُ ولا تَضُرُّ؟!

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على وحدانيَّتِه، وكمالِ قدرتِه، وسَعةِ فضلِه على عبادِه، فيقولُ: آلهتُكم -الَّتي لا خيرَ فيها أصلًا- خيرٌ أم اللهُ الَّذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ، وأنزَلَ مِن السَّحابِ مطَرًا فأنبَتْنا بسبَبِه حدائِقَ ذاتَ منظَرٍ حسَنٍ مُبهِجٍ، ما كان لكم أن تُنبِتوا شجَرَ تلك الحدائِقِ؟! أمع اللهِ معبودٌ آخَرُ يَفعَلُ مِثلَ ذلك حتى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! بل هم مُقِرُّون بذلك، وأنَّه لا إلهَ مع اللهِ، ولكِنَّهم يَعدِلون به سبحانَه غيرَه فيُشرِكونَ، مع عِلمِهم بأنَّ اللهَ هو المتفرِّدُ بالخَلقِ!

ثمَّ يلفِتُ اللهُ تعالى أنظارَهم إلى حقائقَ كونيَّةٍ أُخرَى يُشاهِدونها ويُحِسُّونَها، فيقولُ: آلهتُكم خيرٌ أم اللهُ الَّذي جعَلَ الأرضَ ساكِنةً لا تَضطرِبُ، وأجرى في خِلالِها أنهارًا، وجعلَ لها جبالًا تُثبِّتُها، وجعَل بيْنَ البحارِ المِلْحةِ والأنهارِ العَذبةِ مانِعًا بقُدرتِه؛ لئلَّا يختَلِطَ ماءاهما؟! أمع اللهِ معبودٌ آخَرُ يَفعلُ تلك الأشياءَ حتَّى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! بل أكثَرُهم لا يَعلمونَ حقَّ اللهِ عليهم!

ثمَّ يلفِتُ اللهُ تعالى أنظارَهم إلى ما يَشعُرونَ به في خاصَّةِ أنفُسِهم، فيقولُ: آلهتُكم خيرٌ أم اللهُ الذي يُجيبُ المكروبَ المجهودَ إذا دعاه، ويُزيلُ الضُّرَّ والكربَ إنْ شاء، ويَستخلِفُكم في الأرضِ؟! أمع اللهِ معبودٌ آخَرُ يفعلُ تلك الأشياءَ حتَّى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! قليلًا ما تَتذكَّرون عَظَمةَ اللهِ ونِعَمَه عليكم!

ثمَّ يلفِتُ اللهُ تعالى أنظارَهم إلى بعضِ نعمِه سبحانَه عليهم، فيقولُ: آلهتُكم

خيرٌ أم اللهُ الذي يُرشِدُكم إلى الطَّريقِ في ظُلماتِ البَرِّ والبَحرِ بما خَلَق لكم مِن العَلاماتِ، والذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبشِّرةً بالمطرِ؟! أمع الله معبودٌ آخَرُ فعَل ذلك حتى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! تنزَّه الله وتقدَّسَ عن شِركِهم!

ثمَّ يقولُ: آلِهتُكم خيرٌ أم اللهُ الذي أوجدَ الخَلقَ مِنَ العدَمِ ثمَّ بعد فَنائِهم يُعيدُهم، والَّذي يَرزقُكم مِن السَّماءِ والأرضِ؟! أمع الله معبودٌ آخَرُ يقدِرُ على ذلك حتَّى تُشرِكوا به في عبادتِه؟!

قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكين: هاتوا دَليلَكم وحُجَّتَكم على صِحَّةِ عِبادتِكم غيرَ اللهِ، إنْ كنتُم صادِقينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّ بهذه القَصَصِ استنتاجُ ما أراد سبحانَه مِن الدَّليلِ على حِكمتِه وعِلمِه، ومُباينتِه للأصنامِ في قُدرتِه وحِلْمِه؛ أمَرَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأن يَحمدَه شُكرًا على ما عَلِمَ، ويُقَرِّرَهم بعجزِ أصنامِهم ردًّا لهم عنِ الجهلِ بأوضحِ طريقٍ وأقربِ متناوَلٍ، فقال[1]:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ[2]: جميعُ المحامِدِ يَستحِقُّها اللهُ تعالى وَحْدَه؛ لكَمالِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٤).

(٢) قال القرطبي: (قال الفرَّاءُ: قال أهل المعاني: قِيلَ لِلُوطٍ: «قُلِ الحمدُ لله» على هلاكِهم. وخالَف جماعةٌ مِنَ العُلماءِ الفَرَّاءَ في هذا، وقالوا: هو مُخاطَبةٌ لنبيِّنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: قل: الحمدُ لله على هلاكِ كُفَّارِ الأُمَمِ الخاليةِ. قال النحَّاسُ: وهذا أَوْلى؛ لأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ =

أفعالِه وصِفاتِه، وعظيمِ نِعَمِه وهِباتِه؛ ومِن جُملةِ ذلك إهلاكُ أعدائِه المكذِّبين للرُّسُلِ.

وسَلامٌ[(١)] مِن اللهِ على عِبادِه الَّذينَ اصْطَفاهم[(٢)] ونجَّاهم مِن العَذابِ، وسلَّمَهم

= على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكلُّ ما فيه فهو مخاطَبٌ به عليه السَّلامُ إلَّا ما لم يصِحَّ معناه إلَّا لغيره). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٩٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ١٤٨).

(١) قيل: هي مِن ضِمنِ ما أُمِر به عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فأُمِرَ بأن يحمدَ الله، وأن يُسلِّمَ على عِبادِه المُصْطفَينَ. وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، والرسعني، وابن كثير، والعليمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦).

وقيل: يحتملُ أنَّ قولَه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ جملةٌ مستقِلَّةٌ، وتكونُ خبرًا مِنَ الله تعالى، فيكونُ المأمورُ به الحمدَ، والوقْفُ التامُّ عليه. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (وفصْلُ الخطابِ في ذلك أن يُقالَ: الآيةُ تتضَمَّنُ الأمْرَين جميعًا، وتَنتظِمُهما انتظامًا واحِدًا؛ فإنَّ الرَّسولَ هو المبلِّغُ عن اللهِ كلامَه، وليس فيه إلَّا البلاغُ، والكلامُ كلامُ الرَّبِّ تبارك وتعالى؛ فهو الذي حَمِد نفْسَه وسلَّم على عبادِه، وأمرَ رسولَه بتبليغ ذلك؛ فإذا قال الرَّسولُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ كان قد حمِدَ اللهَ وسَلَّم على عبادِه بما حَمِدَ به نفْسَه وسلَّم به هو على عِبادِه؛ فهو سلامٌ مِن الله ابتداءً، ومِنَ المُبلِّغ بلاغًا، ومِنَ العبادِ اقتداءً وطاعةً؛ فنحن نقولُ كما أمرنا ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾. ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فهو توحيدٌ منه لنفْسِه، وأمرٌ للمُخاطَبِ بتوحيدِه؛ فإذا قال العبدُ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كان قد وحَّد اللهَ بما وحَّد به نفْسَه، وأتى بلفظةِ ﴿قُلۡ﴾ تحقيقًا لهذا المعنى، وأنَّه مُبلِّغٌ مَحْضٌ، قائلٌ لِما أُمِرَ بقولِه. والله أعلم). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٧٢).

(٢) قيل: المرادُ بهم هنا: الأنبياءُ والرُّسلُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بن سليمان، والقرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦). =

مِن العُيوبِ، والإصرارِ على الذُّنوبِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٧).

وقيل: المرادُ بهم: أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، وسُفْيانُ الثَّوْريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٧).

قال ابن كثير بعدَ أن ذكَر القولَينِ السَّابقَينِ: (ولا مُنافاةَ؛ فإنَّهم إذا كانوا مِن عِبادِ الله الَّذين اصطفى، فالأنبياءُ بطريقِ الأَوْلى والأحْرى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١).

وممَّن اختار أنَّهم الأنبياءُ والمؤمنون: يحيى بن سلام، والكرماني، وابن عطية، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٢).

قال الشوكاني: (والأولَى حملُه على العمومِ، فيدخُلُ في ذلك الأنبياءُ وأتْباعُهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٨).

وقال ابن جُزَي: (واللَّفظُ يَعُمُّ الملائكةَ والأنبياءَ والصَّحابةَ والصَّالحينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٠)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٣٤، ٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥٠٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

ٱلْكَبِيرُ ۞ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۞ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٢ - ٣٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا إذا صلَّينا خَلْفَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قُلْنا: السَّلامُ على جِبريلَ وميكائيلَ، السَّلامُ على فلانٍ وفلانٍ، فالتَفَت إلينا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ فقال: إنَّ اللهَ هو السَّلامُ، فإذا صلَّى أحَدُكم فلْيَقُل: التَّحيَّاتُ لله، والصَّلَواتُ والطَّيِّباتُ، السَّلامُ عليك -أيُّها النَّبيُّ- ورَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُه، السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ الله الصَّالحينَ؛ فإنَّكم إذا قُلْتُموها أصابَتْ كلَّ عبدٍ للهِ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ- أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورَسولُه))[1].

﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ: هلِ اللهُ المتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ والإكرامِ خيرٌ، أمْ تلك الأصنامُ وغيرُها مِن المعبوداتِ الَّتي لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، ومع ذلك يعبُدُها المُشرِكون مع اللهِ[2]؟!

---

(١) رواه البخاري (٨٣١) واللفظ له، ومسلم (٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

قال ابن جزي: (ودُخولُ «خير» الَّتي يُرادُ بها التَّفضيلُ إنَّما هو لِتَبكيتِهم وتعنيفِهم؛ لأنَّه معلومٌ أنَّه لا خيرَ فيما أشركوا أصلًا). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٣٣٦).

قال ابن عثيمين: (﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ ﴾ في كلِّ شيءٍ؛ في صِفاتِه، وفي ثَوابِه وجزائِه لِمَن يَعبدُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٣).

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)﴾.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

أي: آللهُ الَّذي تفرَّد بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ خيرٌ، أمِ الَّذي لا يَقدِرُ على فِعلِ ذلك مِن المعبوداتِ الباطلة(١)؟!

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾.

أي: وأنزَل اللهُ لأجْلِكم مِن السَّحابِ مطَرًا فأنبتْ بسَبَبِه بساتينَ ذاتَ مَنظرٍ حَسَنٍ يَبتَهِجُ ويُسَرُّ بها مَنْ يراها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٠، ١٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١، ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٦).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه للمُشركين به مِن قُريش: أعِبادةُ ما تَعبدون مِن أوثانِكم الَّتي لا تضُرُّ ولا تنفَعُ خيرٌ، أم عبادةُ مَن خلق السَّمواتِ والأرض؟... «مَنْ» الَّتي في ﴿أَمَّنْ﴾ و«ما» مبتدأٌ في قَولِه: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، والآياتُ بعدَها إلى قَولِه: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٤] بمعنى «الَّذي» لا بمعنى الاستفهامِ؛ وذلك أنَّ الاستفهامَ لا يدخُلُ على الاستفهامِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٠-١٠٤).

وقال ابن كثير: (قولُه هاهنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآياتِ كُلِّها تقديرُه: أمَنْ يفعَلُ هذه الأشياءَ كَمَن لا يَقدِرُ على شَيءٍ منها؟ هذا معنى السياقِ وإن لم يُذكَرِ الآخَرُ؛ لأنَّ في قوَّةِ الكلامِ ما يُرشِدُ إلى ذلك، وقد قال: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

قال ابن عثيمين: (نزولُه مِن السَّماءِ أعَمُّ وأقَلُّ ضررًا؛ إذْ لو كان يَخرجُ مِن الأرض ما وَصَلَ إلى قمم الجبالِ إلَّا وقد أغرقَ ما تحتَه، فلهذا صار ينزِلُ مِن فوقٍ؛ لِيَكونَ أكمَلَ وأعَمَّ وأقَلَّ ضررًا). ((تفسير ابن عثيمين – سورة النمل)) (ص: ٣٤٨).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٤ - ١٦].

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾.

أي: ممتَنِعٌ عليكم غايةَ الامتناعِ إنباتُ شَجَرِ تلك الحدائِقِ، فلا تَقدِرونَ على ذلك، وإنَّما يَقدِرُ عليه اللهُ وَحْدَه(١).

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٧٠].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَتَ أنَّه المتفرِّدُ بالألوهيَّةِ؛ حَسُنَ موقعُ الإنكارِ والتَّقريرِ، فقال(٢):

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَع اللهِ معبودٌ آخَرُ يُنزِلُ لكم المطَرَ، ويُنبِتُ لكم الشَّجَرَ حتَّى يُشرَكَ به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٨).

في عبادتِه[١]؟! والجوابُ لا؛ لأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه[٢].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

أي: بل المُشرِكون قومٌ يَعدِلُون عن الحقِّ مع عِلمِهم بأنَّ اللهَ هو المتفرِّدُ بالخَلقِ، فيَجعَلونَ للهِ عِدْلًا ونَظيرًا مع عِلمِهم بالفَرقِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

أي: آللهُ الَّذي جعَلَ الأرضَ مُستَقِرَّةً ساكِنةً لا تَضطرِبُ خيرٌ، أمْ تلك المعبوداتُ العاجِزةُ عن فِعلِ ذلك[٤]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).
قال ابن تيمية في: (وهذا استفهامُ إنكار، وهم مقرُّونَ بأنَّه لم يفعَلْ هذا إلهٌ آخرُ معَ الله. ومَن قال مِن المفسِّرينَ: إنَّ المرادَ: هل معَ الله إلهٌ آخرُ؟ فقد غلط؛ فإنَّهم كانوا يجعَلون معَ الله آلهةً أخرَى، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ...﴾ [الأنعام: ١٩] ...). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٧٦). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤١٤).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١، ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣). =

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر: ٦٤].

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾.

أي: وأجرى في خِلالِ الأرضِ أنهارًا جاريةً بالماءِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾.

أي: وجعلَ للأرضِ جبالًا تُثبِّتُها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾.

= قال ابن عاشور: (جعَل الأرضَ ثابتةً قارَّة غيرَ مضطربةٍ، وهذا تدبيرٌ عجيبٌ، ولا يُدرَكُ تمامُ هذا الصُّنعِ العجيبِ إلَّا عندَ العلمِ بأنَّ هذه الأرضَ سابحةٌ في الهواءِ متحرِّكةٌ في كلِّ لحظةٍ، وهي مع ذلك قارَّةٌ فيما يبدو لِسُكَّانِها، فهذا تدبيرٌ أعجَبُ، وفيه مع ذلك رحمةٌ ونعمةٌ، ولولا قرارُها لكان النَّاسُ عليها متزلزلينَ مُضطربينَ، ولكانت أشغالُهم مُعنتةً لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

قال ابن عثيمين: (هل المرادُ أرسى الأرضَ بها أو أرسى الجبالَ، أي: أثبَتَها؟

كِلا المعنيَين، فإذَن هي رَواسٍ بنفسِها، وهي أيضًا مُرْسِيَةٌ؛ ولهذا سمَّاها الله أوتادًا: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]، بمنزلةِ أوتادِ الخيمةِ تُمسِكُها وتَضبطُها، وهذه الجبالُ راسيةٌ بنَفْسِها؛ ولذلك على كثرةِ العواصِفِ والقواصِفِ تجدُها ثابتةً لا تتغيَّرُ؛ فهي راسيةٌ، وكذلك أيضًا مُرْسِيَةٌ للأرضِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٥).

أي: وجعَلَ بيْنَ البحارِ المِلْحةِ والأنهارِ العَذْبةِ مانِعًا بقُدرتِه؛ لئَلَّا يختَلِط الماءُ العذبُ بالماءِ المِلْحِ، فيُفسِدَ أحدُهما الآخَرَ، فتَفُوتَ المنفعةُ المقصودةُ منهما[1].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

قال ابنُ عثيمين: (بعضُهم قال: إنَّ الحاجزَ هو اليابسُ من الأرضِ الَّذي يَحولُ بيْنَ البحرِ وبيْنَ النَّهرِ؛ لأنَّ النَّهرَ له مجرًى خاصٌّ، والبحرَ له مجرًى خاصٌّ، ولو شاء اللهُ تعالى لمزَجَهما، ولكِنْ جعَلَ لهذا مجاريَه، وجعَل لهذا مجاريَه.

وبعضُهم يقول: إنَّه حاجزٌ غيرُ مَرئيٍّ، وليس هو اليابسَ، وإنَّه يوجَدُ في نفْسِ البحارِ أنهارٌ عذبةٌ حلوةٌ، ومع ذلك لا تختَلِطُ فتَفسُدَ بالمِلحِ ويَفسُدَ المِلحُ بها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٥، ٣٥٦).

وقال ابن كثير: (الحكمةُ الإلهيَّةُ تقتضي بقاءَ كلٍّ منهما على صفتِه المقصودةِ منه؛ فإنَّ البحرَ الحلوَ هو هذه الأنهارُ السارحةُ الجاريةُ بينَ الناسِ، والمقصودُ منها: أن تكونَ عذبةً زُلالًا تَسقي الحيوانَ والنَّباتَ والثِّمارَ منها. والبحارَ المالحةَ هي المحيطةُ بالأرجاءِ والأقطارِ من كلِّ جانبٍ، والمقصودُ منها: أن يكونَ ماؤُها مِلْحًا أُجاجًا، لئلَّا يفسَدَ الهواءُ بريحِها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣).

وقال أيضًا: (إذ لو كان [أي: البحر] حُلوًا لأنتَنَ الجوُّ وفسَدَ الهواءُ؛ بسبب ما يموت فيه من الحيوانات العِظام، فكان يؤدِّي إلى تفاني بني آدمَ وفسادِ معايشِهم، فاقتضت الحكمةُ البالغةُ أن يكون على هذه الصِّفةِ لهذه المصلحة...). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٨، ٤٩)

وقد كشفتْ وسائلُ العِلمِ الحديثةُ بعْدَ إقامةِ مئاتِ المحطَّاتِ البحريَّةِ، والتقاطِ صوَرٍ بالأقمارِ الصِّناعيَّةِ عن هذا القانونِ الَّذى يَحكُمُ العَلاقةَ المائيَّةَ بيْنَ كلِّ مائَيْنِ مُتجاورَينِ؛ فالبحارُ والأنهارُ تلتقي مع وُجودِ حاجزٍ يمنعُ الاختلاطَ الكاملَ والامتزاجَ بيْنَهما، وأنَّه لا تَبغي مياهُ بحرٍ على مياهِ بحرٍ آخَرَ فتُغيِّرَها. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

وقال سُبحانَه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢١].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَعَ اللهِ معبودٌ آخَرُ فعَلَ تلك الأشياءَ، فاستحقَّ أن يُعبَدَ[١]؟!

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: بل أكثَرُهم[٢] لا يَعلَمونَ ما يجِبُ لله، ولا يَعلَمونَ ضَرَرَ الإشراكِ به، ولا نَفْعَ توحيدِه، وأشركوا باللهِ؛ تقليدًا لآبائِهم، واتِّباعًا لكُبَرائِهم[٣].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٢) قيل: المرادُ: أكثَرُ المشركين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤).

وقيل: المرادُ: أكثرُ الخَلقِ لا يَعلمون. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال البقاعي: (﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم نوعٌ مِن العِلمِ، بل هم كالبهائمِ؛ لإعراضِهم عن هذا الدَّليلِ الواضحِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٩٠).

وقال ابن عثيمين: (الصَّوابُ أنَّه نقصٌ في العِلمِ مطلقًا، بما تدُلُّ عليه هذه الآياتُ العظيمةُ مِن الرَّحمةِ والحكمةِ والقدرةِ والسُّلطانِ، فتخصيصُ ذلك بالتَّوحيدِ فيه نظرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٧).

أي: آللهُ الَّذي يُعطي المحتاجَ ما يَسأَلُه مِن الأشياءِ العَسِرةِ الحُصُولِ، ويُزيلُ الضرَّ والكَربَ إنْ شاء، ويَستخلِفُكم في الأرضِ[(١)]؛ خيرٌ أمْ تلك المعبوداتُ العاجزةُ عن تحقيقِ ذلك[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾[الأنعام: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن أبي تَميمةَ الهُجَيميِّ، عن رجُلٍ مِن بَلْهُجَيم قال: قلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إلامَ تدعو؟ قال: ((أدعو إلى اللهِ وحْدَه، الَّذي إنْ مسَّك ضُرٌّ فدَعَوْتَه كشَفَ

---

(١) قيل: المعنى: ويَستخلِفُ بعْدَ أمرائِكم في الأرضِ منكم خُلفاءَ أحياءً يَخلُفونَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢).

وقيل: المعنى: يجعلُكم سكانَ الأرضِ بأن يُهلِكَ قومًا أو قَرنًا ويُنشئَ آخرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابن القيم، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩١٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: يجعَلُكم تَعمُرونَ الأرضَ وتجتَنونَ منافِعَها، فضُمِّنَ الخُلفاءُ معنى المالكينَ، فأُضيفَ إلى الأرضِ على تقدير: مالِكينَ لها، والمُلْكُ يَستلزِمُ الانتفاعَ بما يُنتفَعُ به منها. وأفاد خلفاءُ بطريقِ الالتزام معنى الوراثةِ لِمن سبَقَ؛ فكُلُّ حَيٍّ هو خَلَفٌ عن سَلَفِه، والأُمَّةُ خَلَفٌ عن أمَّةٍ كانت قَبْلَها جيلًا بعدَ جيلٍ. وهذا كقَولِه تعالى حكايةً لِقولِ نوحٍ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢، ١٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤، ١٥).

عنك، والَّذي إنْ ضَلَلْتَ بأرضٍ قَفرٍ[١] دَعَوْتَه رَدَّ عليك، والَّذي إنْ أصابَتْك سَنَةٌ[٢] فدعَوْتَه أنبَتَ عليك))[٣].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَعَ اللهِ معبودٌ آخَرُ يُجيبُ المُضطَرَّ، ويَكشِفُ السُّوءَ، ويَستخلِفُكم في الأرضِ[٤]؟!

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: قليلًا ما تَتذكَّرون عَظَمةَ اللهِ ونِعَمَه وحُجَجَه؛ لإعراضِكم وغَفلتِكم؛ فلِذا أشرَكْتُم باللهِ[٥]!

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

---

(١) قَفرٍ، أي: فلاةٍ خاليةٍ مِن الماءِ والشَّجرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٣٤٥).

(٢) سَنَةٌ: أي: عامٌ مُقحِطٌ لم تُنبِتُ فيه الأرضُ شَيئًا. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٦٣٦) واللفظ له، وأبو داود (٤٠٨٤).

الحديث صححه ابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٣٢٢)-، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٨٤)، وحسن إسناده الذهبي في ((المهذب)) (٨/ ٤٢٥٣)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣٤/ ٢٣٩) .

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦).

وقال ابن عثيمين: (والتَّذكُّرُ بمعنى الاتِّعاظِ؛ لأنَّ الإنسانَ يَذكُرُ فينتَفِعُ بذِكرِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٩).

﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾.

أي: آللهُ الَّذي يُرشِدُكم الطَّريقَ إذا ضَلَلْتُم في ظُلُماتِ الأرضِ والبَحرِ في أسفارِكم -بتيسيرِه وبما خَلَق لكم من العَلاماتِ- خيرٌ أمِ المعبوداتُ الباطلةُ العاجزةُ عن فِعلِ ذلك(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾.

أي: والَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبشِّرةً بالمطرِ قبْلَ نزولِه خيرٌ أم مَن لا يَقدِرُ على ذلك(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَعَ اللهِ معبودٌ آخَرُ يهديكم في أسفارِكم، ويُرسِلُ الرِّياحَ مُبشِّرةً بنُزولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢، ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال القرطبي: (﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ أي: قُدَّامَ المطَرِ، باتِّفاقِ أهلِ التَّأويلِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥).

المطَرِ؛ فاستحَقَّ العبادةَ مع اللهِ، أمْ هو اللهُ وحْدَه الَّذي فعَل ذلك، ثمَّ عبَدْتُم غيرَه[1]؟!

﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: تعاظَمَ اللهُ وتنزَّه عن الشِّركِ، وعن مُساواتِه بالمعبوداتِ الباطِلةِ العاجِزةِ النَّاقِصةِ[2].

﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤)﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

أي: آللهُ الَّذي ابتدأ كلَّ مخلوقٍ فأوجَدَه مِنَ العدَمِ، ثمَّ بعْدَ فنائه يُعيدُه كهَيْئَتِه قبْلَ أن يُفنِيَه، وذلك يومَ البعثِ والنُّشورِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إيجادُ بني آدمَ إنعامًا إليهم وإحسانًا، ولا تتِمُّ النِّعمةُ إلَّا بالرِّزقِ؛ قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢، ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم ...﴾[١].

وأيضًا لَمَّا كان الإمطارُ والإنباتُ مِن أدَلِّ ما يكونُ على الإعادةِ، قال مشيرًا إليهما على وجهٍ عَمَّ جميعَ ما مضى[٢]:

﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ومَن يُعطيكم مِنَ السَّماءِ المطَرَ، ومِنَ الأرضِ النَّباتِ[٣]- خيرٌ أم مَن لا يقدِرُ على فِعلِ ذلك[٤]؟!

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَعَ اللهِ مَعبودٌ آخَرُ يَقدِرُ على ابتِداءِ الخَلقِ وإعادتِه، ورزْقِكم مِنَ السَّماءِ والأرضِ[٥]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٣) اقتصَر أكثرُ المفسِّرينَ على المطرِ والنبات.

قال ابنُ عطية: (والرزقُ مِنَ السَّماءِ بالمطرِ، ومِن الأرضِ بالنَّباتِ، هذا مشهورُ ما يُحِسُّه البشَرُ، وكمْ لله مِن لُطفٍ خفيٍّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٧).

ومِنَ المفسِّرينَ مَن ذكَر ما هو أعَمُّ مِن ذلك؛ قال البقاعي: (﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بالمطَرِ والحَرِّ والبردِ وغيرِها ممَّا له سببٌ في التَّكوينِ أو التَّلوينِ. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بالنَّباتِ والمعادِنِ والحيوانِ وغيرِها ممَّا لا يعلَمُه إلَّا اللهُ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٠٠). ويُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((مجموع =

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: هاتوا دليلَكم وحُجَّتَكم على صِحَّةِ عبادتِكم غيرَ اللهِ، إن كنتُم صادقينَ في دعواكم أنَّ مع اللهِ إلهًا آخَرَ يَستحِقُّ العبادةَ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ فأمَر رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يستفتِحَ بتحميدِه والسَّلامِ على أنبيائِه والمُصطفَينَ مِن عبادِه. وفيه تعليمٌ حَسَنٌ، وتوقيفٌ على أدَبٍ جميلٍ، وبَعْثٌ على التيمُّنِ بالذِّكْرَين، والتبَرُّكِ بهما، والاستِظهارِ بمكانِهما على قَبولِ ما يُلقى إلى السَّامعينَ وإصغائِهم إليه، وإنزالِه مِن قلوبِهم المنزلةَ الَّتي يَبغيها المُسمِعُ. ولقد توارَثَ العُلماءُ والخُطَباءُ والوُعَّاظُ كابِرًا عن كابرٍ هذا الأدبَ؛ فحَمِدوا اللهَ عزَّ وجلَّ،

= الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).
قال ابنُ عثيمين: («البرهانُ» هو الدَّليلُ، وخَصَّه بعضُهم بالدَّليلِ القاطِعِ، وقالوا: إنَّ الدليلَ إنْ كان قطعيًّا في دَلالتِه فهو بُرهانٌ، وإنْ كان ظنيًّا فهو دليلٌ وليس ببُرهان، ولكِنَّ الظاهِرَ من الآياتِ الكريمةِ أنَّ البرهانَ في القرآنِ دَليلٌ؛ سواءٌ كان قطعيًّا كما قال أهلُ المنطِق، أمْ غيرَ قَطعيٍّ؛ فعلى هذا يكونُ قَولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ شامِلًا للقَطْعيِّ والظَّنِّيِّ؛ لأنَّهم ليس عندَهم لا دليلٌ قطعيٌّ ولا ظنِّيٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٨٠). ويُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٥١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٠).

وصَلُّوا على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أمامَ كُلِّ عِلمٍ مُفادٍ، وقبْلَ كلِّ عِظةٍ وتَذكِرةٍ، وفي مُفتَتَحِ كُلِّ خُطبةٍ، وتَبِعَهم المتَرَسِّلون فأجْرَوا عليه أوائِلَ كُتُبِهم في الفُتوحِ والتَّهاني وغيرِ ذلك مِنَ الحوادِثِ الَّتي لها شأنٌ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّه يجِبُ على المرءِ ألَّا يَلتفتَ في كشْفِ السوءِ إلَّا إلى اللهِ؛ وألَّا يَتعلَّقَ بأحدٍ سِواه؛ لأنَّه لا يَكشِفُ السُّوءَ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، وتَعَلُّقُ المرءِ بغيرِه خِذلانٌ له، فمَن تَعَلَّقَ شيئًا وُكِلَ إليه، والتَّعلُّقُ بالله والتَّوكُّلُ عليه لا يُنافيه فِعلُ الأسبابِ إنْ كان المرءُ يعتقِدُ أنَّ الأسَّبابَ بتَقديرِ اللهِ، وأنَّها ليست فاعلةً بذاتِها[٢]، فالتَّوكُّلُ هو اعتِمادُ القلبِ على الرَّبِّ فيما يُنِيلُه مِن خيرٍ أو يُزيلُه مِن ضرٍّ، وتعاطي الأسبابِ مع تحقيقِ ذلك لا يَقدَحُ فيه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أنْ يَعتمِدَ على اللهِ في الهدايةِ إلى الطَّريقِ الحِسِّيِّ، كما يَعتمِدُ عليه في الهدايةِ إلى الطَّريقِ المعنويِّ، فكما أنَّك تقولُ: «ربِّ اغفِرْ لي وارحَمْني واهدِني» تُريدُ الهدايةَ المعنويَّةَ، كذلك أيضًا اعتَمِدْ على ربِّك في الهدايةِ الحِسِّيَّةِ، ولا تعتَمِد أيضًا على الأسبابِ[٤]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لم يَقُلْ سبحانه: «قُلِ الحمدُ للهِ على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٥).

هذا»، بل قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ لِيَكونَ اللهُ تبارك وتعالى محمودًا على كلِّ حالٍ، ومِن جملةِ ما يُحمَدُ عليه إهلاكُ المكذِّبينَ للرُّسلِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى له أنْ يَتمدَّحَ بنَفْسِه ويدعوَ النَّاسَ إلى ذلك، أمَّا غيرُه فليس مِن اللَّائقِ أن يقولَ للنَّاسِ: احمَدوني وأثنُوا علَيَّ! ومعلومٌ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أهلٌ لذلك، ولأنَّ المصلحةَ لنا، واللهُ تعالى لا يَنتفِعُ بطاعةِ الطَّائعِينَ، ولا يتضرَّرُ بمعصيةِ العاصينَ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أنَّ الذين اصطفاهمُ اللهُ قد بَرِئوا ممَّا يُلصَقُ بهم؛ فإنَّ هذا السَّلامَ يَتضَمَّنُ سلامتَهم ممَّا وُصِفوا به وقُدِحَ فيهم به، ويتضَمَّنُ أيضًا سلامتَهم مِن عقوبةِ اللهِ؛ فالسَّلامةُ هنا شامِلةٌ للسَّلامةِ ممَّا يتعلَّقُ بفِعلِ اللهِ كالعُقوبةِ، أو بفعلِ الخلْقِ كالقَدْحِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ حكمةُ اللهِ تعالى في تعليقِ الأحكامِ بأسبابِها؛ فإنَّ السَّلامةَ هنا مُعَلَّقةٌ على الاصطفاءِ، وهكذا أحكامُ اللهِ الكونيَّةُ والقَدَريَّةُ كلُّها مربوطةٌ بأسبابِها؛ وذلك لِثُبوتِ الحكمةِ في أحكامِ اللهِ؛ إذْ إنَّ اللهَ لا يَفعلُ شيئًا إلَّا لحكمةٍ[4].

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فيه قيامُ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فإنَّ الاصطفاءَ مِن الأفعالِ، واللهُ تبارك وتعالى قائمٌ به الأفعالُ الاختياريَّةُ، فهو سبحانَه يَصطفي مِن عبادِه ما شاء، ومَن يختارُهم هم الذين قاموا بطاعتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فمَن قام بطاعةِ اللهِ اصطفاه اللهُ، ومَن عصى اللهَ فهو بعيدٌ مِن الاصطفاءِ[1].

٦- التَّنَزُّلُ مع الخَصمِ يَرِدُ كثيرًا في الأمورِ المُتيقَّنةِ، كقَولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ومعلومٌ أنَّه لا نِسبةَ، وأنَّ اللهَ خيرٌ ممَّا يُشرِكون، ولكنَّ هذا مِن باب مُحاجَّةِ الخَصمِ لإدحاضِ حُجَّتِه[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أنَّ مِن أساليبِ المناظرةِ إلزامَ الخَصمِ بما يُقِرُّ به؛ لأنَّ هؤلاء لا يمكِنُ أنْ يقولوا: إنَّ آلهتَهم خيرٌ أبدًا؛ ولهذا أعقبَها بقَولِه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى آخرِه ممَّا هو مِن أفعالِ الرُّبوبيَّةِ الَّتي لا يمكِنُ لهم أن يَدَّعوا أنَّ آلهتَهم تَفعَلُها[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أنَّ للهِ سبحانه وتعالى الخيريَّةَ المطْلَقةَ في كلِّ شَيءٍ؛ في صِفاتِه، وفي أفعالِه المتعَلِّقةِ بعابديه[4].

٩- كثيرًا ما يكرِّرُ الله تعالى في القرآنِ نوعينِ مِن الاستدلالِ: الأولُ يسمَّى دليلَ الاختراعِ والإنشاءِ، ويتضمَّنُ أصلَ الخلقِ والإيجادِ. والثاني يسمَّى دليلَ العنايةِ والحكمةِ، ويتضمَّن الحِكمَ المشهودةَ في خلقِه، كقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]، فذكَر خلقَ السمواتِ والأرضِ، ثمَّ ذكَر منافعَ المخلوقاتِ وحِكمَها، ونظيرُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ...﴾ إلى آخر الآيات[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ...﴾ إلى آخِرِ الآياتِ الَّتي تُختَمُ كلُّ آيةٍ منها بقولِه تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾: دَلالةٌ على وجوبِ إفرادِ اللهِ سبحانه وتعالى بالأُلوهيَّةِ؛ لأنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ يَستلزِمُ الإقرارَ بالألوهيَّةِ ولا بُدَّ؛ فإنَّه إذا كان هو المنفرِدَ بما ذُكِر، فإنَّه المنفَرِدُ بالأُلوهيَّةِ[2]. والقرآنُ مملوءٌ مِن تقريرِ توحيدِ الألوهيَّةِ وبيانِه وضربِ الأمثالِ له، ومِن ذلك أنَّه يُقرِّرُ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ، ويُبيِّنُ أنَّه لا خالقَ إلَّا اللهُ، وأنَّ ذلك مُستلزِمٌ ألَّا يُعبَدَ إلَّا اللهُ، فيجعلُ الأوَّلَ دليلًا على الثَّاني؛ إذ كانوا يُسلِّمون في الأوَّلِ ويُنازِعون في الثَّاني، فيُبيِّنُ لهم سبحانه أنَّكم إذا كنتم تَعلمون أنَّه لا خالقَ إلَّا اللهُ وحْدَه، وأنَّه هو الَّذي يأتي العِبادَ بما يَنفعُهم، ويَدفعُ عنهم ما يَضُرُّهم، لا شريكَ له في ذلك؛ فلِمَ تَعبدون غيرَه، وتجعلون معه آلهةً أخرى؟!

فقولُ اللهِ تعالى في آخِرِ كلِّ آيةٍ: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي: أإله مع اللهِ فعَل هذا؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ يَتضمَّنُ نفْيَ ذلك، وهم كانوا مُقرِّينَ بأنَّه لم يَفعلَ ذلك غيرُ اللهِ، فاحتجَّ عليهم بأنَّ مَن فعَل لهم هذا وحْدَه فهو الإلهُ لهم وحْدَه، فإنْ كان معه رَبٌّ فعَل هذا فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكُنْ معه رَبٌّ فعَل هذا فكيف تجعلون معه إلهًا آخَرَ[3]؟!

---

(١) ينظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٥، ٧٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم =

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ لأنَّ الباءَ للسَّببيَّةِ، وإثباتُ الحكمةِ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى رَبَطَ الأسبابَ بمُسبَّباتِها شرعًا وقدَرًا، وجعَل بعضَ المخلوقاتِ سببًا لبعضٍ، وهذا مِن الحكمةِ: ألَّا تأتيَ الأمورُ على وجْهِ المُصادَفاتِ أو بدُونِ أسبابٍ تقتضيها، فإثباتُ الأسبابِ يَتضمَّنُ إثباتَ الحكمةِ[1].

١٢- قولُه تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ فيه التَّنَزُّهُ في الحدائقِ؛ والابتهاجُ بها، وأنَّ الإنسانَ لا يُلامُ على ذلك، ولا يُقالُ: هذا مِن فضولِ الأفعالِ! فإنَّ النَّفْسَ إذا لم تُمرَّنْ على هذا وهذا فإنها تَمَلُّ وتَكِلُّ، ولا تأتي بالأمورِ على وجْهِها[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ أكثرَ الخلْقِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- لا يَعلمون ما في هذه الآياتِ مِن العِبَرِ، ثم إنَّ نفْيَ العلمِ قد يكونُ نفيًا لأصْلِه وقد يكونُ نفيًا لثمرتِه وفائدتِه، والأمرُ كلُّه واقعٌ؛ فمِنَ الناسِ مَن ليس عندَه علمٌ أصلًا ولا يُفكِّرُ في هذه الآياتِ، ويرَى أنَّها ظواهرُ طبيعيَّةٌ؛ ليس للهِ تعالى فيها أيُّ شأنٍ! ومنهم مَن يعلمُ ولكنْ لا ينتفِعُ[3].

١٤- كثيرًا ما يجمعُ اللهُ سُبحانَه في القرآنِ بيْنَ الخَلقِ والهدايةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ الآياتِ، ثمَّ قال: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، وقوله تعالى في أوَّلِ سورةٍ أنزلَها على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ

= (١/ ٤١٣، ٤١٤)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٨٥).

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٩).

ﭐلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨ - ١٠]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۞ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، فالخَلْقُ إعطاءُ الوُجودِ العينيِّ الخارجيِّ، والهُدى إعطاءُ الوُجودِ العِلميِّ الذِّهنيِّ؛ فهذا خَلْقُه، وهذا هُداهُ وتعليمُه(١).

١٥- في قولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى يُجيبُ دَعوةَ المُضْطَرِّ، وهذا دليلٌ على أنَّ رحمةَ اللهِ سَبَقَتْ غضَبَه(٢)، فكلَّما اشتدتِ الأمورُ فانتظرِ الفرَجَ من اللهِ سبحانه وتعالى(٣)، ولا فرقَ بينَ أنْ يكونَ المُضْطَرُّ مؤمنًا أو كافرًا؛ يؤخَذُ ذلك من العموم وعدمِ التَّقييدِ؛ لأنَّه ما قُيِّدَ بأنَّه مُسلِمٌ، بل أُطلِقَ وعُمِّمَ(٤)، لكنَّ إجابةَ المضطرِّ المتحتمةَ مشروطةٌ بما إذا دعاه؛

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)) لابن القيم (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٧).

قال القرطبي: (ضَمِن اللهُ تعالى إجابةَ المضطرِّ إذا دعاه، وأخبَر بذلك عن نفْسِه، والسَّببُ في ذلك أنَّ الضرورةَ إليه باللجأ يَنشأُ عن الإخلاصِ، وقطْعِ القلبِ عمَّا سِواه، وللإخلاص عندَه سبحانه موقعٌ وذِمَّةٌ، وُجِد من مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فأجابهم عندَ ضرورتِهم ووُقوعِ إخلاصِهم، مع عِلمِه أنَّهم يَعودونَ إلى شِركِهم وكفرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣).

لقوله: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، وأمَّا إذا لم يَدْعُه فقد يُزيلُ ضرورتَه وقد لا يُزيلُها[1].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّه ينبغي إقامةُ الحُجَّةِ على الخصمِ بما يَعترِفُ به؛ لأنَّ إجابةَ المضطرِّ يُقِرُّ بها هؤلاء المكذِّبونَ، فهُم إذا ركِبوا في الفُلكِ وأصابَتْهمُ الضَّرَّاءُ والأمواجُ دعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ؛ فأجاب دعاءَهم، مع أنَّه يعلمُ أنَّهم سيُشرِكونَ إذا خرجوا، وأنَّ إيمانَهم هذا إيمانُ ضرورةٍ فقط! فهُم عندَ الضرورةِ ما يَدْعُون إلَّا اللهَ، فإذا كنتم تَعرِفون أنَّكم لا تَدْعون إلَّا اللهَ عندَ الضَّرورةِ؛ فكيف تعبدون غيرَه عندَ السَّعَةِ[2]؟!

١٧- ذَمَّ اللهُ سبحانه الكفَّارَ وعاتَبَهم بأنَّهم في وقتِ الشَّدائدِ والأهوالِ خاصَّةً يُخْلِصونَ العبادَةَ له وحدَه، ولا يصْرِفونَ شيئًا مِن حَقِّه لمخلوقٍ، وفي وقتِ الأمنِ والعافيةِ يُشرِكونَ به غيرَه في حقوقِه الواجبةِ له وحدَه، الَّتي هي عبادَتُه وحدَه في جميعِ أنواعِ العبادَةِ، ويُعْلَمُ مِن ذلك أنَّ بعضَ جهلةِ المُتسَمِّينَ باسمِ الإسلامِ أسوأُ حالًا مِن عَبَدَةِ الأوثانِ، فإنَّهم إذا دَهَمَتْهم الشَّدائدُ، وغَشِيَتْهم الأهوالُ والكروبُ الْتَجؤوا إلى غيرِ اللَّهِ ممَّن يعتقدونَ فيه الصَّلاحَ، في الوقتِ الَّذي يُخْلِصُ فيه الكفَّارُ العبادَةَ لِلَّهِ، معَ أنَّ اللَّهَ جلَّ وعَلا أوضحَ في غيرِ موضعٍ أنَّ إجابةَ المضطَرِّ وإنجاءَه مِن الكربِ مِن حُقوقِه الَّتي لا يُشارِكُه فيها غيرُه.

ومِن أوضحِ الأدلَّةِ في ذلك قولُه تعالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٩).

وأورد بعضُهم سؤالًا وهو أنَّ الآيَةَ تعُمُّ كلَّ مُضْطَرٍّ؛ ومع ذلك فكم مِن مُضْطَرٍّ يدعو فلا يُجابُ.
وأُجيبَ عن ذلك: بأنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ للجنسِ لا للاستغراقِ؛ ولا يَلزَمُ منه إجابةُ كلِّ مُضطرٍّ. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٦٩). وأيضًا قد لا يُجابُ المضطرُّ لوجودِ مانعٍ، أو لحكمةٍ اقتَضَتْ ذلك.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٧).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ...﴾ الآياتِ ، فتَراه جلَّ وعَلا في هذه الآياتِ الكريماتِ جَعَل إجابةَ المضطَرِّ إذا دعا، وكَشْفَ السُّوءِ عنه مِن حَقِّه الخالصِ الَّذي لا يشارِكُه فيه أحدٌ؛ كخلْقِه السَّمواتِ والأرضَ، وإنزالِه الماءَ مِن السَّماءِ، وإنباتِه به الشَّجَرَ، وجَعلِه الأرضَ قرارًا، وجعلِه خِلالَها أنهارًا، وجعلِه لها رواسِيَ، وجَعْلِه بينَ البحريْنِ حاجزًا، إلى آخَرِ ما ذكَر في هذه الآياتِ مِنْ غرائِبِ صُنْعِه وعجائِبِه الَّتي لا يشارِكُه فيها أحدٌ؛ سبحانَه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا[(١)].

١٨- قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ في قَولِه: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّ الدُّعاءَ مِن أسبابِ رفْعِ البلاءِ، وهذا أمرٌ مُجرَّبٌ ومُشاهَدٌ، ولا سيَّما الأدعيةُ الَّتي جاءَتْ بها السُّنَّةُ؛ فإنَّها خيرٌ وبرَكةٌ، ولها ثمرةٌ ظاهِرةٌ[(٢)].

١٩- الهدايةُ في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ تشمَلُ الهدايةَ بالأسبابِ الَّتي توَصَّلَ النَّاسُ إليها اليومَ؛ لأنَّ اللهَ أطلقَ الهدايةَ، فبأيِّ سببٍ كانت فهي مِن اللهِ[(٣)].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ فيه إطلاقُ الصِّفةِ على آثارِها؛ فالمطرُ ليس رَحمةَ اللهِ، ولكِنَّه أثرٌ مِن آثارِ الرَّحمةِ، واللهُ سبحانه وتعالى يُطلِقُ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٧٧).

الرَّحمةَ على ما كان مِن آثارِها؛ قال اللهُ تعالى للجنَّةِ: ((أنتِ رحمَتي، أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ))(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ سؤالٌ؛ كيف قيلَ لهم: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهم مُنكِرون للإعادةِ؟!

الجوابُ: كانوا معترِفينَ بالابتِداءِ، ودَلالةُ الابتداءِ على الإعادةِ دَلالةٌ ظاهرةٌ قويَّةٌ؛ فلمَّا كان الكلامُ مقرونًا بالدَّلالةِ الظَّاهرةِ صاروا كأنَّهم لم يَبْقَ لهم عذرٌ في الإنكارِ(٢).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ مُدَّعٍ دعوى محتاجٌ إلى تثبيتِها، وإقامةِ البرهانِ عليها(٣).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أنَّه لا بأسَ للإنسانِ أنْ يَتدَرَّجَ مع خصْمِه؛ وأن يَتحدَّاه بما يُقِرُّ به، وهذا غايةُ الإنصافِ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٧).

والحديث أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن القيم: (الرحمةُ المضافةُ إلى الله تعالى نوعانِ: أحدهما: مضافٌ إليه إضافةَ مفعولٍ إلى فاعله، والثاني: مضافٌ إليه إضافةَ صفةٍ إلى الموصوفِ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٩)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٨٣).

يُشۡرِكُونَ﴾ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يَتلُوَ هذه الآياتِ النَّاطقةَ بالبراهينِ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه على كلِّ شَيءٍ وحِكمتِه، وأن يَستفتِحَ بتَحميدِه والسَّلامِ على أنبيائِه والمُصطفَينَ مِن عِبادِه. وقيل: هو مُتَّصِلٌ بما قبْلَه؛ أُمِرَ الرَّسولُ بالحمْدِ على ما احتوَتْ عليه القِصصُ السَّابقةُ مِن نجاةِ الرُّسلِ مِن العذابِ الحالِّ بقَومِهم، وعلى ما أعْقَبَهم اللهُ على صَبرِهم مِن النَّصرِ ورفعةِ الدَّرجاتِ، وعلى أنْ أهلَكَ الأعداءَ الظَّالمينَ؛ فأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بحمْدِ اللهِ على ذلك باعتبارِ ما أفادَهُ سَوقُ تلك القِصصِ مِن الإيماءِ إلى وَعدِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالنَّصرِ على أعدائِه؛ فعلى الأوَّلِ قولُهُ: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ اقتضابٌ، وهو أنْ يَقتضِبَ خُطبةً، ويَجعَلَها تحْميدةً لتلاوتِه الآياتِ النَّاطقةَ بالبراهينِ، وهي قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ * أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ الآياتِ. وعلى الثَّاني: تخلُّصٌ، أي: جعَلَ التَّحميدَ على الهالكينَ مِن كُفَّارِ الأممِ، والصَّلاةَ على الأنبياءِ وأشياعِهم ذَريعةً إلى الشُّروعِ في قصَّتِه مع مُشْركي قَومِه، وأنَّ له ولهم أُسوةً بالأنبياءِ الماضيةِ والأُمَمِ الخاليةِ[1].

- وأصلُ (سَلَامٌ): سلَّمْتُ سلامًا، مقصودٌ منه الإنشاءُ؛ فحُذِفَ الفِعلُ وأُقيمَ مَفعولُه المطلَقُ بدلًا عنه، وعُدِلَ عن نصْبِ المفعولِ المُطلَقِ إلى تَصييرِه مبتدأً مَرفوعًا؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ[2].

- قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ استفهامٌ فيه تبْكيتٌ وتوبيخٌ وتَهكُّمٌ بحالِهم، وتَنبيهٌ على مَوضعِ التَّبايُنِ بيْنَ اللهِ تعالى وبيْنَ الأوثانِ؛ إذ معلومٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦، ٧).

عندَ مَن له عقْلٌ أنَّه لا شِركةَ في الخيريَّةِ بيْن اللهِ تعالى وبيْنَهم، وكثيرًا ما يَجيءُ هذا النَّوعُ مِن أفعلِ التَّفضيلِ حيث يُعلَمُ ويُتحَقَّقُ أنَّه لا شِركةَ فيها، وإنَّما يُذكَرُ على سبيلِ إلْزامِ الخَصمِ وتَنبيهِه على خطَأِ مُرتكَبِه. والاستفهامُ في نَحوِ هذا يَجيءُ لبَيانِ فسادِ ما عليه الخَصمُ؛ فيُستعمَلُ في الإلجاءِ وإلْزامِ المُخاطَبِ بالإقرارِ بالحقِّ، وتَنبيهِه على خَطئِه، وإلْزامِه الإقرارَ بحَصرِ التَّفضيلِ في جانبٍ واحدٍ، وانتفائِه عن الآخَرِ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ دليلٌ إجماليٌّ يُقصَدُ به ابتداءُ النَّظرِ في التَّحقيقِ بالإلهيَّةِ والعِبادةِ. وقد ناسَبَ إجمالَه أنَّه دليلٌ جامعٌ لِمَا يأْتي مِن التَّفاصيلِ؛ فلذلك جِيءَ فيه بالاسمِ الجامعِ لمعاني الصِّفاتِ كلِّها، وهو اسمُ الجَلالةِ، فقِيلَ: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ﴾. وجِيءَ فيما بعدُ بالاسمِ الموصولِ؛ لِمَا في صِلاتِه مِن الصِّفاتِ. وجاء ﴿خَيۡرٌ﴾ بصِيغةِ التَّفضيلِ؛ لقَصدِ مُجاراةِ مُعتقَدِهم أنَّ أصنامَهم شُركاءُ اللهِ في الإلهيَّةِ بحيثُ كان لهم حَظٌّ وافرٌ من الخيرِ في زَعمِهم، فعُبِّرَ بـ﴿خَيۡرٌ﴾؛ لإيهامِ أنَّ المقامَ لإظهارِ رُجحانِ إلهيَّةِ اللهِ تعالى على أصنامِهم؛ استدراجًا لهم في التَّنبيهِ على الخطأِ، مع التَّهكُّمِ بهم؛ إذ آثَرُوا عِبادةَ الأصنامِ على عِبادةِ اللهِ. والعاقلُ لا يُؤثِرُ شيئًا على شَيءٍ إلَّا لداعٍ يدْعو إلى إيثارِه، ففي هذا الاستفهامِ عن الأفضلِ في الخيرِ: تَنبيهٌ لهم على الخطأِ المُفرِطِ والجهْلِ المُورِّطِ؛ لِتَنفتِحَ بصائرُهم إلى الحقِّ إنْ أرادوا اهتداءً. والاستفهامُ على حَقيقتِه؛ بقَرينةِ وُجودِ (أَم) المُعادِلةِ للهمزةِ؛ فإنَّ التَّهكُّمَ يُبْنى على الاستعمالِ الحقيقيِّ. وهذا الكلامُ كالمُقدِّمةِ للأدلَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

الآتيةِ جميعِها على هذا الدَّليلِ الإجماليِّ[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ (أمْ) مُنقطِعةٌ بمعنى (بلْ)؛ للإضرابِ الانتقاليِّ مِن غرَضٍ إلى غرضٍ مع مُراعاةِ وُجودِ معنى الاستفهامِ أو لَفظِه بعدَها؛ لأنَّ (أَمْ) لا تُفارِقُ معنى الاستفهامِ. انتقَلَ بهذا الإضرابِ مِن الاستفهامِ الحقيقيِّ التَّهكُّميِّ إلى الاستفهامِ التَّقريريِّ، ومِن المُقدِّمةِ الإجماليَّةِ -وهي قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]- إلى الغرضِ المقصودِ، وهو الاستدلالُ؛ عدَّدَ اللهُ الخيراتِ والمنافعَ مِن آثارِ رَحمتِه ومِن آثارِ قُدرتِه؛ فهو استدلالٌ مَشوبٌ بامتنانٍ؛ لأنَّه ذكَّرَهم بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فشملَ ذلك كلَّ الخلائقِ التي تحْتوي عليها الأرضُ مِن النَّاسِ والعَجْماواتِ؛ فهو امتنانٌ بنِعمةِ إيجادِهم، وإيجادِ ما به قِوامُ شُؤونِهم في الحياةِ، وبسابقِ رَحمتِه، كما عدَّدَها في مَوضعٍ آخَرَ عليهم بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، فالاستفهامُ تقريرٌ، كما دلَّ عليه قولُه في نِهايتِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فهو تقريرٌ لإثباتِ أنَّ الخالقَ والمُنبتَ والرَّازقَ هو اللهُ، وهو مَشوبٌ بتوبيخٍ؛ فلذلك ذُيِّلَ بقولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[(٢)].

- و(أَمْ) مُنقطعةٌ وما فيها مِن كلمةِ (بَلْ) للإضرابِ والانتقالِ مِن التَّبكيتِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٠، ١١).

تَعريضًا إلى التَّصريحِ به خِطابًا على وجْهٍ أظهرَ منه؛ لمَزيدِ التَّأكيدِ والتَّشديدِ، هذا على قراءةِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾. وأمَّا على قراءةِ ﴿تُشْرِكُونَ﴾ -بتاءِ الخطابِ[1]- فلِتَثنيةِ التَّبكيتِ وتَكريرِ الإلزامِ، كنظائرِها الآتيةِ، والهمزةُ لتَقريرِهم، أي: حمْلِهم على الإقرارِ بالحقِّ على وجْهِ الاضطرارِ؛ فإنَّه لا يَتمالَكُ أحدٌ ممَّن له أدْنى تَمييزٍ، ولا يَقدِرُ على ألَّا يَعترِفَ بخيريَّةِ مَن خلَقَ جميعَ المخلوقاتِ، وأفاضَ على كلٍّ منها ما يَليقُ به مِن منافعِه مِن أخسِّ تلك المخلوقاتِ وأدْناها، بلْ بأنْ لا خيرَ يُرى فيه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ قطْعًا[2].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ ذكَرَ إنزالَ الماءِ؛ لأنَّه مِن جُملةِ ما خلَقَه اللهُ، ولقَطعِ شُبهةِ أنْ يقولوا: إنَّ المُنبِتَ للشَّجرِ الذي فيه رِزقُنا هو الماءُ، اغترارًا بالسَّببِ؛ فبُودِروا بالتَّذكيرِ بأنَّ اللهَ خلَقَ الأسبابَ وهو خالِقُ المُسبَّباتِ بتقْديرٍ وحِكمةٍ؛ فقد يَنزِلُ الماءُ بإفراطٍ، فيَجرُفُ الزَّرعَ والشَّجرَ أو يَقتُلُهما؛ ولذلك جُمِعَ بيْن قولِه: ﴿وَأَنزَلَ﴾ وقولِه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾؛ تَنبيهًا على إزالةِ الشُّبهةِ[3].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فيه تقديمُ صِلتَيِ الإنزالِ ﴿لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على مَفعولِه ﴿مَآءً﴾؛ للتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[4].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ فيه الْتفاتٌ إلى خِطابِ الكَفرةِ؛ لتَشديدِ التَّبكيتِ

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء ﴿تُشْرِكُونَ﴾. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٨)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

والإلزامِ[١]، وللتَّعريضِ بأنَّهم ما شَكَروا نِعمةَ اللهِ[٢].

- وقال: ﴿لَكُم﴾، أي: لأجْلِكم، على سبيلِ الامتنانِ، وأنَّ ذلك مِن أجْلِكم[٣].

- وقولُه: ﴿فَأَنبَتْنَا﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ بنُونِ العظمةِ؛ لتَأكيدِ اختصاصِ الفِعلِ بحُكمِ المُقابَلةِ بذاتِه تعالى، والإيذانِ بأنَّ إنباتَ تلك الحدائقِ المُختلفةِ الأصنافِ والأوصافِ، والألوانِ والطُّعومِ، والرَّوائحِ والأشكالِ -مع ما لَها مِن الحُسنِ البارعِ، والبهاءِ الرَّائعِ- بماءٍ واحدٍ: أمرٌ عظيمٌ، لا يَكادُ يَقدِرُ عليه إلَّا هو وحْدَه عزَّ وجَلَّ؛ ورشَّحَ هذا الاختصاصَ بقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾[٤]؛ فمن لطائفِ الالتفاتِ هنا: التَّنصيصُ على أنَّ المقصودَ إسنادُ الإنباتِ إليه؛ لئلَّا يَنصرِفَ ضميرُ الغائبِ إلى الماءِ؛ لأنَّ التَّذكيرَ بالمُنبِتِ الحقيقيِّ الذي خلَقَ الأسبابَ ألْيَقُ بمَقامِ التَّوبيخِ على عَدمِ رِعايتِهم نِعَمَه[٥].

- ولَمَّا كان خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ وإنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ، لا شُبهةَ للعاقلِ في أنَّ ذلك لا يكونُ إلَّا للهِ، وكان الإنباتُ ممَّا قد يَتسبَّبُ فيه الإنسانُ بالبَذرِ والسَّقيِ والتَّهيئةِ، ويَسوغُ لفاعلِ السَّببِ نِسبةُ فِعلِ المُسبَّبِ إليه؛ بيَّن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

تعالى اختصاصَه بذلك بطريقِ الالتفاتِ وتأكيدِ ذلك بقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾؛ فالمُتسبِّبُ لذلك قد لا يأْتي على وَفْقِ مُرادِه، ولو أتَى فهو جاهلٌ بطبْعِه ومِقدارِه وكيفيَّتِه؛ فكيف يكونُ فاعلًا لها[(١)]؟!

- وفي قولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ قُدِّمَ خبرُ كان ﴿لَكُمْ﴾ على الاسمِ ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾؛ للاهتمامِ بنفْيِ مِلْكِ ذلك[(٢)].

- قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ هو كالنَّتيجةِ للجُملةِ قبْلَها؛ لأنَّ إثباتَ الخلْقِ والرَّزقِ والإنعامِ للهِ تعالى بدَليلٍ لا يَسَعُهم إلَّا الإقرارُ به يَنتِجُ أنَّه لا إلهَ فعَل ذلك معه. والاستفهامُ إنكاريٌّ[(٣)]، وهو تَبكيتٌ لهم بنفْيِ الأُلوهيَّةِ عمَّا يُشْرِكونه به تعالى في ضِمْنِ النَّفيِ الكُلِّيِّ على الطَّريقةِ البُرهانيَّةِ بعدَ تَبكيتِهم بنَفْيِ الخيريَّةِ عنه بما ذُكِرَ من التَّرديدِ؛ فإنَّ أحدًا ممَّن له تَمييزٌ في الجُملةِ كما لا يَقدِرُ على إنكارِ انتفاءِ الخيريَّةِ عنه بالمرَّةِ، لا يَكادُ يَقدِرُ على إنكارِ انتفاءِ الأُلوهيَّةِ عنه رأسًا، لا سيَّما بعدَ مُلاحظةِ انتفاءِ أحكامِها عمَّا سِواهُ تعالى، وهكذا الحالُ في المواقعِ الأربعةِ الآتيةِ[(٤)].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (بلْ) للإضرابِ عن الاستفهامِ الإنكاريِّ تُفيدُ معنى (لكنَّ) باعتبارِ ما تَضمَّنَه الإنكارُ مِن انتفاءِ أنْ يكونَ مع اللهِ إلهٌ فعَل ما ذُكِر، فكان حقُّ النَّاسِ ألَّا يُشرِكوا معه في الإلهيَّةِ غيرَه؛ فجِيءَ بالاستدراكِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ بقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ لم يَنتفِعوا بالدَّليلِ مع أنَّه دليلٌ ظاهرٌ مَكشوفٌ؛ فهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١١، ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٤).

مُكابِرون في إعراضِهم عن الاهتداءِ بهذا الدَّليلِ، فهم يَعدِلون باللهِ غيرَه، أو يَعدِلون عن الحقِّ، مِن (عدَلَ) الذي يُعدَّى بـ (عن)، وأيًّا ما كان فالمقصودُ تَوبيخُهم على الإشراكِ مع وُضوحِ دَلالةِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما يَنزِلُ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ مِن الماءِ. ولَمَّا كانت تلك الدَّلالةُ أوضَحَ الدَّلالاتِ المحسوسةِ الدَّالَّةِ على انفرادِ اللهِ بالخلْقِ، وصَفَ الذين أشْرَكوا مع اللهِ غيرَه بأنَّهم في إشراكِهم مُعرِضون إعراضَ مُكابَرةٍ عُدولًا عن الحقِّ الواضحِ؛ قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1] [لقمان: ٢٥].

- والإخبارُ عنهم بالمُضارِعِ في قولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم مُستمِرُّون على شِركِهم، لم يَستنيروا بدليلِ العقلِ، ولا أقْلَعوا بعدَ التَّذكيرِ بالدَّلائلِ. وفي الإخبارِ عنهم بأنَّهم ﴿قَوْمٌ﴾ إيماءٌ إلى تمكُّنِ صِفةِ العُدولِ عن الحقِّ منهم، حتَّى كأنَّها مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[2].

٣- قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ (أَمْ) للإضرابِ الانتقاليِّ، وهذا انتقالٌ مِن الاستدلالِ المَشوبِ بالامتنانِ إلى الاستدلالِ المُجرَّدِ بدلائلِ قُدرتِه وعِلْمِه؛ بأنْ خلَقَ المخلوقاتِ العظيمةَ، وبتَدبيرِه نِظامَها حتَّى لا يَطْغَى بعضُها على بعضٍ، فيَختلَّ نِظامُ الجميعِ. ولأجْلِ كونِ الغرضِ مِن هذا الاستدلالِ إثباتَ عِظَمِ القُدرةِ وحِكمةِ الصُّنعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢).

لم يَجِئْ خلالَه بخِطابٍ للمُشركين كما جاء في قولِه في الآيةِ قبْلَها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل: ٦٠] الآيةَ، وإنْ كان هذا الصُّنعُ العجيبُ لا يَخْلو مِن لُطفٍ بالمخلوقاتِ أراده خالِقُها، ولكنَّ ذلك غيرُ مقصودٍ بالقَصدِ الأوَّلِ من سَوقِ الدَّليلِ هنا[١].

- قولُه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ القرارُ: مَصدرُ قَرَّ: إذا ثبَتَ وسكَنَ. ووصَفَ الأرضَ به للمُبالَغةِ، أي: ذاتَ قرارٍ[٢].

- قولُه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ وما بعْدَه مِن الجُملِ الثَّلاثِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ و﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ و﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: الأظهرُ أنَّ كلَّ واحدةٍ منها إضرابٌ وانتقالٌ مِن التَّبكيتِ بما قبْلَها إلى التَّبكيتِ بوَجْهٍ آخَرَ أدخَلُ في الإلزامِ بجِهَةٍ مِن الجِهاتِ[٣].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ هذا الجَعلُ كِنايةٌ عن خلْقِ البحرين أيضًا؛ لأنَّ الحَجزَ بيْنَهما يَقْتضي خلْقَهما، وخلْقَ المُلوحةِ والعُذوبةِ فيهما[٤].

- والجَعلُ في المواقعِ الثَّلاثةِ ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾: إبْداعيٌّ. وتأخيرُ مَفعولِه عن الظَّرفِ؛ للتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٥]. ولَمَّا كانت كلُّ واحدةٍ منه عظيمةً مُستقِلَّةً، تكرَّرَ فيها العاملُ في قولِه: ﴿وَجَعَلَ﴾؛ فكانت مِن عطْفِ الجُمَلِ المُستقِلِّ كلُّ واحدةٍ منها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢، ١٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

بالامتنانِ، ولم يُشْرَكْ في عاملٍ واحدٍ فيكونَ مِن عطْفِ المُفرداتِ[١].

- قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وذُيِّلَ به وبالاستدراكِ بجُملةٍ مُماثِلةٍ لِمَا ذُيِّلَ به الاستدلالُ الذي قبْلَها على طريقةِ التَّكريرِ؛ تَعديدًا للإنكارِ، وتَمهيدًا للتَّوبيخِ بقولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٢].

- وأُوثِرَ هنا في قولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نفْيُ صِفةِ العلْمِ عن أكثرِ المُشرِكين -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لقِلَّةِ مَن يَنظُرُ في دقائقِ هذه المصنوعاتِ وخصائصِها منهم؛ فإنَّ اعتيادَ مُشاهَدتِها مِن أوَّلِ نشأةِ النَّاظرِ يُذهِلُه عمَّا فيها مِن دَلائلِ بَديعِ الصُّنعِ، فأكثَرُ المُشرِكين يَجهَلُ ذلك، ولا يَهْتدي بما فيه، أمَّا المؤمنون فقد نبَّهَهم القرآنُ إلى ذلك، فهمْ يَقرَؤون آياتِه المُتكرِّر فيها الاستدلالُ والنَّظرُ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه ارتقاءُ الاستدلالِ مِن التَّذكيرِ بالتَّصرُّفِ الرَّبَّانيِّ في ذواتِ المخلوقاتِ إلى التَّذكيرِ بتَصرُّفه في أحوالِ النَّاسِ التي لا يَخْلو عنها أحدٌ في بعضِ شُؤونِ الحياةِ؛ وذلك حالُ الاضطرارِ إلى تَحصيلِ الخيرِ، وحالُ انتيابِ السُّوءِ، وحالُ التَّصرُّفِ في الأرضِ ومَنافعِها؛ فهذه ثلاثةُ الأنواعِ لأحوالِ البشرِ؛ وهي: حالةُ الاحتياجِ، وحالةُ البُؤسِ، وحالةُ الانتفاعِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣، ١٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ هو كلُّ ما يَسوءُ، وهو عامٌّ في كلِّ ضُرٍّ، انتقَلَ مِن حالةِ المُضطَرِّ -وهو خاصٌّ- إلى أعمَّ، وهو ما يَسوءُ، سواءٌ كان المكشوفُ عنه في حالةِ الاضطرارِ أو فِيما دُونَها[١].

- قولُه: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: يَكشِفُ السُّوءَ عن المُستاءِ إذا دعاهُ، فحُذِفَ مِن الجُملةِ المعطوفةِ؛ لدَلالةِ ما ذُكِرَ مع الجُملةِ المعطوفِ عليها[٢].

- قولُه: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لِمَا اقْتضَتْه الخِلافةُ مِن تَجدُّدِ الأبناءِ عقِبَ الآباءِ، والأجيالِ بعدَ الأجيالِ، وما اقْتضَتْه الاستِجابةُ وكشْفُ السُّوءِ مِن كثرةِ الدَّاعينَ والمُستائين: عُبِّرَ في أفعالِ الجَعلِ التي تعلَّقَت بها بصِيغةِ المُضارِعِ الدَّالِّ على التَّجدُّدِ، بخلافِ أفعالِ الجَعلِ الأربعةِ الَّتي في الآيةِ قبْلَها[٣].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، تكريرًا لِمَا تقدَّمَ عقِبَ الأدلَّةِ السَّابقةِ؛ زِيادةً في تَعدادِ خَطئِهم[٤].

- قولُه: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ انتصَبَ ﴿قَلِيلٗا﴾ على الحالِ مِن ضَميرِ الخِطابِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: فعَلَ ذلك لكم وأنتم في حالِ قِلَّةِ تَذكُّركم؛ فتُفيدُ الحالُ معنى التَّعجُّبِ مِن حالِهم[٥]. والقليلُ هنا مُكنًّى به عن المَعدومِ؛ لأنَّ التَّذكُّرَ المقصودَ مَعدومٌ منهم، والكِنايةُ بالقليلِ عن المعدومِ مُستعمَلةٌ في كلامِهم. وهذه الكِنايةُ تلْميحٌ وتَعريضٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥، ١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: إنْ كُنتم تَذكَّرون؛ فإنَّ تَذكُّرَكم قليلٌ[١].

- وفي تَذييلِ الكلامِ بنفْيِ التَّذكُّرِ عنهم: إيذانٌ بأنَّ مَضمونَه مَركوزٌ في ذِهنِ كلِّ ذَكيٍّ وغبيٍّ، وأنَّه مِن الوضوحِ بحيثُ لا يَتوقَّفُ إلَّا على التَّوجُّهِ إليه وتَذكُّرِه[٢].

- و(ما) مَزيدةٌ لتأكيدِ معنى القِلَّةِ التي أُريدَ بها العدَمُ، أو ما يَجْري مَجراهُ في الحقارةِ وعَدمِ الجدْوى[٣].

- وقرَأَ الجمهورُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ -معَ اختلافٍ في تخفيفِ الذالِ وتشديدِها-، وقُرِئَ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ[٤] على الالتفاتِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ ففي قِراءةِ الجمهورِ نُكتةُ تَوجيهِ الخِطابِ إلى المشركين مُكافَحةً لهم، وفي القِراءةِ الأُخرى نُكتةُ الإعراضِ عنهم؛ لأنَّهم اسْتأْهَلوا الإعراضَ بعدَ تَذكُّرِهم[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ...﴾ (أمْ) بمعنى (بلْ)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

(٤) قرأ أبو عمرو وهشام وروح ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ، وقرأ الباقون ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦).

لإضرابِ الانتقالِ مِن نَوعِ دلائلِ التَّصرُّفِ في أحوالِ عامَّةِ النَّاسِ إلى دَلائلِ التَّصرُّفِ في أحوالِ المُسافِرينَ منهم في البَرِّ والبحرِ؛ فإنَّهم أدْرى بهذه الأحوالِ وأقدَرُ؛ لِمَا في خلالِها مِن النِّعمةِ والامتنانِ[١].

- قولُه: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ ذِكْرُ الهدايةِ في ظُلماتِ اللَّيلِ في البَرِّ والبحرِ، وإضافةُ الظُّلماتِ إلى البَرِّ والبحرِ على معنى (في). والهُدى في هذه الظُّلماتِ بسَيرِ النُّجومِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]؛ فاللهُ الهادي للسَّيرِ في تلك الظُّلماتِ بأنْ خلَقَ النُّجومَ على نِظامٍ صالحٍ للهدايةِ في ذلك، وبأنْ ركَّبَ في النَّاسِ مَداركَ للمعرفةِ بإرصادِ سَيرِها وصُعودِها وهُبوطِها، وهَداهُم أيضًا بمَهابِّ الرِّياحِ، وخوَّلَهم مَعرفةَ اختلافِها بإحساسِ جَفافِها ورُطوبتِها، وحرارتِها وبَرْدِها؛ وبهذه المُناسَبةِ أُدمِجَ الامتنانُ بفوائدِ الرِّياحِ في إثارةِ السَّحابِ الذي به المطَرُ، وهو المَعنيُّ برَحمةِ اللهِ[٢].

- قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قولُه: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تَقريرٌ وتَحقيقٌ لقولِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ[٣].

- وذُيِّلَ هذا الدَّليلُ بتنزيهِ اللهِ تعالى عن إشراكِهم معه آلهةً، فقال: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ هذا خاتمةُ الاستِدلالِ عليهم بما لا يُنازِعون في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦، ١٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

أنَّه مَن تَصرُّفِ اللهِ؛ فجِيءَ بعْدَه بالتَّنزيهِ عن الشِّركِ كلِّه، وذلك تَصريحٌ بما أشارت إليه التَّذييلاتُ السَّابقةُ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ انتِقالٌ إلى الاستدلالِ بتَصرُّفِ اللهِ تعالى بالحياةِ الأُولى والثَّانيةِ، وبإعطاءِ المَددِ لدَوامِ الحياةِ الأُولى مدَّةً مُقدَّرةً، وفيه تَذكيرٌ بنِعمةِ الإيجادِ ونِعمةِ الإمدادِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الاستفهامُ تَقريريٌّ؛ لأنَّهم لا يُنكِرون أنَّه يَبدَأُ الخلْقَ وأنَّه يرزُقُهم. وأُدمِجَ في خلالِ الاستفهامِ قولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ لأنَّ تَسليمَ بَدئه الخلْقَ يُلجِئُهم إلى فَهمِ إمكانِ إعادةِ الخلْقِ التي أحالُوها. ولَمَّا كان إعادةُ الخلْقِ مَحلَّ جَدلٍ، وكان إدْماجُها إيقاظًا وتَذكيرًا؛ أُعِيدَ الاستفهامُ في الجُملةِ التي عُطِفَت عليه بقولِه: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولأنَّ الرِّزقَ مُقارِنٌ لبَدءِ الخلْقِ، فلو عُطِفَ على إعادةِ الخلْقِ لَتُوهِّمَ أنَّه يَرزُقُ الخلْقَ بعدَ الإعادةِ، فيَحسَبوا أنَّ رِزقَهم في الدُّنيا مِن نِعَمِ آلهتِهم! وإذ قد كانوا مُنكِرين للبعثِ؛ ذُيِّلَت الآيةُ بأمْرِ التَّعجيزِ بالإتيانِ ببُرهانٍ على عَدمِ البعْثِ[٣].

- قولُه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أمْرٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتَبْكيتِهم إثرَ تَبكيتٍ، وفي إضافةِ البُرهانِ إلى ضَميرِهم تَهكُّمٌ بهم؛ لِمَا فيه مِن إيهامِ أنَّ لهم بُرهانًا، وأنَّى لهُم ذلكَ[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧، ١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٦).

- وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى قولِه هنا: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ فيما خُتِمَت به هذه الآياتُ بعْدَ قولِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ حيث ناسَبَ ختْمُ كلِّ استفهامٍ بما تَقدَّمَه؛ فلمَّا ذكَرَ إيجادَ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ، وما امتَنَّ به مِن إنزالِ المطرِ وإنباتِ الحدائقِ، اقْتَضى ذلك ألَّا يُعبَدَ إلَّا مُوجِدُ العالَمِ، والمُمتَنُّ بما به قِوامُ الحياةِ؛ فختَمَ بقولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، أي: عن عِبادتِه، أو يَعدِلون به غيرَه ممَّا هو مَخلوقٌ مُخترَعٌ. ولَمَّا ذكَرَ جَعْلَ الأرضِ مُستقَرًّا، وتَفجيرَ الأنهارِ، وإرساءَ الجِبالِ، وكان ذلك تنْبيهًا على تَعقُّلِ ذلك والفِكرِ فيه؛ ختَمَ بقولِه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ إذ كان فيهم مَن يَعلَمُ ويفُكِّرُ في ذلك. ولَمَّا ذكَرَ إجابةَ دُعاءِ المُضطرِّ، وكشْفَ السُّوءِ، واستخلافَهم في الأرضِ؛ ناسَبَ أنْ يَستحضِرَ الإنسانُ دائمًا هذه المِنَّةَ، فختَمَ بقولِه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ إشارةً إلى تَوالي النِّسيانِ إذا صار في خيرٍ، وزالَ اضطرارُه، وكُشِفَ السُّوءُ عنه. ولَمَّا ذكَرَ الهِدايةَ في الظُّلماتِ، وإرسالَ الرِّياحِ بُشرًا، ومَعبوداتُهم لا تَهدي ولا تُرسِلُ، وهم يُشرِكون بها اللهَ، قال: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، واعتقَبَ كلَّ واحدةٍ مِن هذه الجُمَلِ قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، على سبيلِ التَّوكيدِ والتَّقريرِ أنَّه لا إلهَ إلَّا هو تعالى[1].

- وجِماعُ ما تقدَّمَ في هذه الآياتِ مِن قولِه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤]:

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) (١/ ٩٧٩- ٩٨٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٥٠- ٥٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٠).

أنَّها أجْمَلَتِ الاستِدلالَ على أحقِّيَّةِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ وحْدَه، ثمَّ فصَّلَت ذلك بآياتِ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ فابتَدأَتْ بدليلٍ قريبٍ مِن بُرهانِ المُشاهَدةِ، وهو خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ وما يأْتي منهما مِن خيرٍ للنَّاسِ. ودليلِ كيفيَّةِ خلْقِ الكُرةِ الأرضيَّةِ وما على وَجْهِها منها، وهذا مُلحَقٌ بالمُشاهَداتِ. وانتقَلَتْ إلى استدلالٍ مِن قَبِيلِ الأصولِ الموضوعةِ؛ وهو ما تَمالَأَ عليه النَّاسُ مِن اللَّجَأِ إلى اللهِ تعالى عندَ الاضطرارِ. وانتقَلَتْ إلى الاستدلالِ عليهم بما مكَّنَهم مِن التَّصرُّفِ في الأرضِ؛ إذ جعَلَ البشَرَ خُلفاءَ في الأرضِ، وسخَّرَ لهم التَّصرُّفَ بوُجوهِ التَّصاريفِ المُعِينةِ على هذه الخلافةِ، وهي تكوينُ هِدايتِهم في البَرِّ والبحرِ؛ وذلك جامعٌ لأصولِ تَصرُّفاتِ الخلافةِ المذكورةِ في الارتحالِ والتِّجارةِ والغزْوِ. وختَمَ ذلك بكلمةٍ جامعةٍ لِنِعمتَيِ الإيجادِ والإمدادِ، وفي مَطاوِيها جوامعُ التَّمكُّنِ في الأرضِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨، ١٩).

الآيات (٦٥-٧٠)

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱدَّٰرَكَ﴾: أي: تكامَلَ وتدارَكَ واستحكَمَ، وأصلُ (درك): يدُلُّ على لُحوقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووُصولِه إليه(١).

﴿عَمُونَ﴾: أي: جاهِلونَ، جمعُ عَمٍ، وهو صفةٌ على وزنِ فَعِلٍ مِن العمَى، والعَمى يُقالُ في افتقادِ البصَرِ والبصيرةِ، وأصلُ (عمي): يدُلُّ على سَترٍ وتغطيةٍ(٢).

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسْطورَةٍ، وهي: ما سُطِر مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكذبِهم، وقيل: ما سطَره الأوَّلونَ مِن الكتبِ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ(٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٨).
وادَّارَك: أصلُه تدارَك، فأُدغمَتِ التَّاءُ في الدَّالِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾

﴿مَن﴾: فاعِلُ ﴿يَعۡلَمُ﴾، و﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾: مَفعولُه، و﴿ٱللَّهُ﴾: بدَلٌ مِن ﴿مَن﴾، ومعناه: لا يعلم أحدٌ. وهو استثناءٌ متَّصِلٌ على رأيِ المحقِّقينَ، واقِعٌ من كلام منفيٍّ؛ فلذلك جاء اسمُ الجلالةِ مرفوعًا على اللُّغةِ الفصحى، ولو كان الاستثناءُ مُنقطِعًا لكانت اللُّغةُ الفصحى بنصبِ المستثنَى. وقيل: الاستثناءَ في ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استِثناء منقطعٌ جاء على لغةِ تميمٍ فرُفِعَ[(١)].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٠٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩٣).

قال ابن القيم: (﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هاهنا أبلَغُ صيغ العموم، وليس المرادُ بها مُعَيَّنًا، فهي في قوَّةِ «أحد» المنفيِّ بقولك: «لا يعلَمُ أحدٌ الغيبَ إلَّا اللهُ»، وأتى في هذا بذِكرِ السَّموات والأرضِ؛ تحقيقًا لإرادة العمومِ والإحاطةِ، فالكلامُ مؤدٍّ معنًى: «لا يَعلَمُ أحدٌ الغَيبَ إلَّا الله». وإنَّما نشأ الوهمُ مِن ظنِّهم أنَّ الظَّرفَ هاهنا للتَّخصيصِ والتَّقييدِ، وليس كذلك، بل هو لتحقيقِ الاستغراقِ والإحاطةِ ... فهكذا قولُه: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لتحقيقِ الاستِغراقِ المقصودِ بالنَّفيِ). ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٣).

وقال ابن تيمية: (ولا يجوزُ أن يقالَ: هذا استثناءٌ منقطِعٌ؛ لأنَّ المستثنى مرفوعٌ، ولو كان منقطِعًا لكان منصوبًا. والمرفوعُ على البدَلِ، والعاملُ فيه هو العاملُ في المبدَلِ منه، وهو بمنزلةِ المفرَّغ، كأنَّه قال: «لا يَعْلَمُ الغيبَ إلَّا اللهُ»، فيلزمُ أنَّه داخلٌ في ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾... ولفظ «السَّمَاءِ» يَتناوَلُ كلَّ ما سما، ويدخُلُ فيه السَّمواتُ والكرسِيُّ والعرشُ وما فوقَ ذلك؛ لأنَّ هذا في جانبِ النَّفْيِ، وهو لم يقُلْ هنا: «السَّمَوَاتِ السَّبْعِ»، بل عمَّ بلفظِ « السَّمواتِ». وإذا كان لفظُ «السَّماءِ» قد يُرادُ به السَّحابُ، ويُرادُ به الفُلكُ، ويرادُ به ما فوقَ العالَمِ، ويُرادُ به العلُوُّ مطلقًا؛ =

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى -آمِرًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ معلِّمًا لجميعِ الخلقِ-: قُلْ -يا محمَّدُ: لا يَعلَمُ أحدٌ في السَّمواتِ وفي الأرضِ الغيبَ إلَّا اللهُ وحْدَه، وما يَدرُونَ متى يَبعثُ اللهُ الخلْقَ، بل تكامَلَ عِلمُهم يومَ القيامةِ وعَلِموا حقَّ ما وُعِدوا به في الدُّنيا، بل المُشرِكون في الدُّنيا في شكٍّ مِن وقوعِ القيامةِ ومَجيئِها، بل هم في الدُّنيا بأمرِ الآخرةِ وحُدوثِها جاهِلون.

ثمَّ يَذكرُ الله تعالى ما كان عليه المشركونَ مِن إنكارٍ للبعثِ، فيقولُ تعالى: وقال الكُفَّارُ: أئِذا صِرْنا وآباؤُنا ترابًا في القبورِ أئِنَّا لمُخرَجون يومَ القيامةِ أحياءً؟!

لقد وُعِدْنا وأسلافُنا بالبَعثِ بعْدَ الموتِ ولم يقَعْ شَيءٌ مِن ذلك، ما هذا الوعدُ إلَّا أحاديثُ باطِلةٌ سطَّرها الأقدَمون في كتُبِهم!

ثمَّ يوجِّهُ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: سِيروا في الأرضِ فانظُروا عاقبةَ الكُفَّارِ الَّذين كذَّبوا فأهلَكَهم اللهُ؛ لعلَّكم تعتَبِرون. ولا تَحزَنْ -يا محمَّدُ- على هؤلاء المُشرِكين، ولا يَضِقْ صدرُك بسبَبِ مَكرِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أبطلَتِ الآياتُ السَّابقةُ إلهيَّةَ أصنامِ المشركين بالأدلَّةِ المتظاهِرةِ، فانقطعَ دابرُ عقيدةِ الإشراكِ؛ ثُنِيَ عِنَانُ الإبطالِ إلى أثَرٍ مِن آثارِ الشِّركِ، وهو ادِّعاءُ

= فـ «السَّمواتُ» جمعُ «سماءٍ»، وكلُّ مَن فيما يُسمَّى «سَماءً»، وكلُّ مَن فيما يُسمَّى «أرضًا»).
((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٠٩).

عِلمِ الغَيبِ بالكَهانةِ وإخبارِ الجِنِّ، كما كان يَزعمُه الكُهَّانُ والعَرَّافون وسَدَنةُ الأصنامِ، ويؤمِنُ بذلك المشركون(١).

وأيضًا بعْدَما حقَّقَ تَفرُّدَه تعالى بالأُلوهيَّةِ ببَيانِ اختِصاصِه بالقُدرةِ الكاملةِ التَّامَّةِ، والرَّحمةِ الشَّاملةِ العامَّةِ؛ عقَّبَه بذِكرِ ما هو مِن لَوازِمِه، وهو اختِصاصُه بعِلمِ الغَيبِ؛ تَكميلًا لِمَا قبْلَه، وتَمهيدًا لِمَا بعْدَه(٢).

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ: لا يَعلَمُ أحدٌ في السَّمواتِ وفي الأرضِ الغيبَ الذي استأثَرَ اللهُ بعِلمِه، إلَّا اللهُ وحْدَه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (مَنْ زعَمَ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُخبِرُ بما يكونُ في غدٍ فقد أعظَمَ على اللهِ الفِرْيةَ، واللهُ يقولُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾)(٤).

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾.

أي: وما يدري أحدٌ متى يَبعثُ اللهُ الخلْقَ مِن قبورِهم يومَ القيامةِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٤) رواه مسلم (١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن =

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦ ﴾.

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿أَدْرَكَ﴾ قيل: معنى الآيةِ على هذه القراءة: بل أدرَك عِلمُهم البعثَ في الآخرةِ حينَ يُبعَثُون، فلا يَنفعُهم عِلمُهم حينَئذٍ، فأمَّا في الدُّنيا فإنَّهم في شكٍّ مِن الآخرةِ. وقيل: المعنى: هل أدرَك عِلمُهم عِلمَ الآخرةِ؟ أي: لم يَعْلَموا حدوثَها وكَوْنَها. وقيل: المعنى: انتهَى وفنيَ. وقيل غيرُ ذلك[1].

٢- قراءةُ ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾: ومعنَى الآيةِ على هذه القراءةِ: بل تكامَل عِلمُهم يومَ القيامةِ بأنَّ كلَّ ما وُعِدوا به حقٌّ. وقيل: المعنى: بل تدارَكَ ظَنُّهم وحَدْسُهم في الحُكمِ على الآخرةِ؛ فتارةً يقولونَ: إنَّها كائنةٌ، وتارةً يقولونَ: لا تكونُ. وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحدٍ. وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

أي: بل تكامَلَ عِلمُهم يومَ القيامةِ بأنَّ كُلَّ ما وُعِدوا به في الدُّنيا حَقٌّ واقِعٌ[3].

= كثير)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٩٤).

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٢). =

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَا﴾.

أي: بل المُشرِكون في الدُّنيا في شكٍّ مِن وجودِ الآخرةِ ووُقوعِ القيامةِ، فهُم لا يُوقِنونَ بالبَعثِ بعدَ الموتِ[1].

﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾.

أي: بل هم في الدُّنيا جاهِلون جَهلًا تامًّا بأمرِ الآخرةِ ووقوعِها، وما يكونُ فيها مِنَ الحِسابِ والجَزاءِ[2].

= وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: بل تكامَلَ عِلمُ المشركين يومَ القيامةِ حينَ عايَنوها بأنَّ كلَّ ما وُعِدوا به في الدُّنيا حقٌّ وواقعٌ في الآخرة: مقاتلُ بن سليمان، والزَّجَّاج، والأزهري، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

ذكر الماوَرْديُّ الخِلافَ في قوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وأنَّ فيه قولَين:

الأول: أنَّها صِفةُ ذمٍّ، فيكون المعنى: اضمحلَّ عِلمُهم، أو ضَلَّ وغابَ، أو لم يُدركْ عِلمُهم.

والثاني: أنَّها صفةُ حمدٍ لِعلمِهم، وإنْ كانوا مذمومينَ، فيكون المعنى على ذلك: أدرَكَ عِلمُهم، أو اجتَمع عِلمُهم، أو تلاحَقَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٢٤).

فعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ المعنى: بل تَتابَعَ عِلمُ هؤلاء المشركين بشؤونِ البعثِ حتَّى اضمحَلَّ وفنيَ، ولم يَبْقَ لهم عِلمٌ بشَيءٍ ممَّا سيكونُ فيها قطعًا مع توافُرِ أسبابِه ومَباديه مِنَ الدَّلائلِ، وتكونُ (في) بمعنى الباءِ.

وعلى القولِ الثَّاني يكونُ المعنى: بل تكامَلَ عِلمُهم بشؤونِ الآخرةِ، حينَ يُعاينون ما أُعِدَّ لهم فيها من عذابٍ، بعدَ أن كانوا يُنكِرون البعثَ والحسابَ في الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال أبو علي الفارسي: (العَمِي عن عِلم الشَّيءِ أبعَدُ منه من الشَّاكِّ فيه؛ لأنَّ الشَّكَّ قد يَعرِضُ عن ضربٍ مِن النَّظَرِ، والعَمِي عن الشَّيءِ: الَّذي لم يُدرِكْ منه شيئًا). ((الحجة للقراء السبعة)) (٥/ ٤٠١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقدَّمَ أنَّ اللهَ تعالى مُنفَرِدٌ بعِلمِ الغَيبِ -ومِن جملتِها وقتُ السَّاعةِ، وأنَّهم لا شعورَ لهم بوقتِها، وأنَّ الكفَّارَ في شكٍّ منها عَمُونَ- ناسبَ ذِكرُ مقالاتِهم في استبعادِها[1]!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ: أئذا صِرْنا وآباؤنا ترابًا في القُبورِ أئِنَّا لَمُخرَجونَ يومَ القيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِنا؟! هذا شَيءٌ لا يكونُ أبدًا[2].

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨﴾.

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾.

أي: قال المُشرِكون: لقد جاءَنا مِنْ قبْلِ محمَّدٍ مَن وَعَدنا وأسلافَنا بالبَعثِ كما وعَدَنا محمَّدٌ، ولم نَرَ لذلك حقيقةً[3]!

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

أي: ما هذا الوَعدُ بالبَعثِ بعدَ الموتِ إلَّا أحاديثُ باطِلةٌ، وحِكاياتٌ مُختلَقةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال القرطبي: (كان الأنبياءُ يقَرِّبون أمرَ البَعثِ مُبالَغةً في التَّحذيرِ، وكُلُّ ما هو آتٍ فقريبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩).

سطَّرها الأقدَمون في كتُبِهم، وتلقَّفها مَن بعْدَهم، ولا صحَّة لذلك(١).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: سافِروا في الأرضِ فانظُروا آثارَ الكُفَّارِ الَّذين كذَّبوا رُسلَ اللهِ، فأهلَكَهم اللهُ في آخِرِ أمرِهم؛ لِتعتَبِروا وتَحذَروا أن يصيبَكم ما أصابَهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠، ١١].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دَهَم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِنَ الأسفِ على جلافتِهم في عَماهم عن السَّبيلِ الَّذي هدَى إليه الدَّليلُ، ما لا يعْلَمُه إلَّا اللهُ؛ قال(٣):

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ولا تحزَنْ -يا محمَّدُ- على هؤلاء المُشرِكين، وإعراضِهم عنك، وتكذيبِهم بما جِئتَهم به مِن الحَقِّ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ [يونس: ٦٥].

﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا لا يَقتَصِرون على التَّكذيبِ، بل يَبْغون للمؤمنينَ الغوائِلَ، ويَنصِبون الحبائِلَ؛ قال[1]:

﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾.

أي: ولا يَضِقْ صدرُك -يا محمَّدُ- بسبَبِ مَكرِ الكافرين بك؛ فإنَّ مكرَهم يعودُ وَبالًا عليهم، واللهُ حافِظُك، وناصِرُك عليهم، ومُظهِرٌ دينَك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيه أنَّ السَّائِرَ في الأرضِ يجِبُ عليه أنْ يكونَ سيرُه على سبيلِ التفَكُّرِ والاتِّعاظِ، لا سيَّما إذا كان هذا المخاطَبُ مُعانِدًا؛ لأنَّ الآيةَ هنا ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يُخاطِبُ المعانِدين الجاحِدين؛ فإنه يجِبُ عليه أنْ يسيرَ وينظُرَ؛ لأنَّ هذا طريقٌ

= كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

إلى هدايته[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ هذا الأمرُ يكونُ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ولِغَيرِه؛ فكُلُّ مَن يدعو إلى شَريعةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّنا نوجِّهُ إليه هذا الخِطابَ، ونقولُ: إذا رأيتَ النَّاسَ لم يقبلوا فلا تحزَنْ، ولا تكُنْ في ضَيقٍ ممَّا يَمكُرونَ، وإلَّا فإنَّ أعداءَ الرُّسلِ سوف يَمكُرونَ بالدُّعاةِ إلى دينِ الرُّسلِ، يَبُثُّونَ ضِدَّهم الدِّعاياتِ، وسوف يُؤْذونَهم بالقَولِ، ويُسمِعونَهم ما يَكرَهون، ورُبَّما يُؤذونَهم بالفِعلِ، والإنسانُ عليه أن يَصبِرَ.

فالدَّاعي إلى اللهِ إذا بَذَل ما يجبُ عليه، فلا ينبغي أنْ يَحزَنَ لمخالفةِ الناسِ؛ لأنَّه إذا حَزِنَ فإنَّه يَيأَسُ ويَستحسِرُ، ولا يَنشرِحُ صدرُه، ولا تَنبسِطُ نفْسُه، ويَعوقُه ذلك عن الدَّعوةِ إلى اللهِ، لكنْ على الدَّاعي أن يدعوَ إلى اللهِ، ويسيرَ في طريقِه على حسَبِ ما أُمِر، فإنِ اهتدى النَّاسُ فلَه ولهم، وإنْ لم يَهتدوا فلَه وعليهم[٢].

٣- الحُزنُ لم يَأمرِ اللهُ به ولا رَسولُه، بل قد نُهِيَ عنه في مواضِعَ -وإن تَعلَّق أمرُ الدِّينِ به- كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، وكقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ وذلك أنَّه لا يَجلِبُ منفعةً، ولا يَدفَعُ مَضرَّةً، ولا فائدةَ فيه، وما لا فائدةَ فيه لا يأمرُ اللهُ به[٣]. ولم يأتِ الحزنُ في القرآنِ إلَّا منهيًّا عنه، أو مَنفيًّا؛ فالمنهيُّ عنه كما في الآيتَينِ السَّابقتَينِ، والمنفيُّ كقولِه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. وسِرُّ ذلك أنَّ الحزنَ مُوقِفٌ غيرُ مسَيِّرٍ، ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٤٢).

مصلحةَ فيه للقلبِ، وأحَبُّ شَيءٍ إلى الشَّيطانِ أن يَحزُنَ العبدَ لِيَقطعَه عن سَيرِه، ويوقِفَه عن سلوكِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ دَلالةٌ على أنَّه تعالى هو المنفرِدُ بعِلمِ الغَيبِ[2]، فكلُّ إنسانٍ يدَّعي عِلْمَ الغيبِ فإنَّه كافرٌ، وكلُّ إنسانٍ يُصدِّقُه في ذلك فإنَّه كافرٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾[3].

٢- قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ هذا هو الغيبُ المُطْلَقُ عن جميعِ المخلوقينَ الَّذي اللهُ قال فيه: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾. والغيبُ المُقيَّدُ: ما عَلِمه بعضُ المخلوقاتِ مِن الملائكةِ أو الجنِّ أو الإنسِ وشَهِدوه، فإنَّما هو غيبٌ عمَّن غاب عنه، ليس هو غيبًا عمَّن شهِده. والناسُ كلُّهم قد يَغيبُ عن هذا ما يَشهَدُه هذا، فيكونُ غيبًا مقيَّدًا، أي: غيبًا عمَّن غاب عنه من المخلوقينَ، لا عمَّن شَهِده، ليس غيبًا مُطْلَقًا غاب عن المخلوقينَ قاطبةً[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ الذي لا يريدُ الحقَّ يكونُ له -باعتبارِ قَبولِه- مراتِبُ بعضُها أشدُّ مِن بعضٍ، أي: أنَّه ينتَقِلُ مِن الأدنَى إلى الأعلَى؛ ولهذا قال أهلُ العِلمِ: إنَّ المعاصيَ بريدُ الكُفرِ، أي: أنَّه ينتقِلُ بها الإنسانُ من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ كما ينتَقِلُ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٠، ٥٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٠).
(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٩٩).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١١٠).

البريدُ، فالإنسانُ إذا فعَلَ مَعصيةً -سواءٌ كانت اعتقاديَّةً أو عمليَّةً- فإنَّ الشيطانَ يتدرَّجُ به مِن الأدنَى إلى الأعلَى حتَّى يَصِلَ -والعياذُ باللهِ- إلى الكُفرِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ تلبيسُ أهلِ الضَّلالِ للحقِّ بالباطلِ؛ لأنَّهم أنكَروا البعثَ، واحتجُّوا بشُبهةٍ لا تُغْنيهم مِن الحقِّ شيئًا، حيثُ يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ نُخرَجُ؟! فهذه الشُّبهةُ إنَّما تَنطَلي على الجُهَّالِ، أمَّا على أهلِ العلمِ والبصيرةِ فلا تنطَلي[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ العِبرةَ بالعاقبةِ لا بالمبتدأ؛ لقَولِه: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، فإذا رأيتَ هذا المجرمَ قد نُعِّمَ فلا تَظُنَّ أنَّه على حقٍّ، بلِ المعتبَرُ العاقِبةُ، وستكونُ عاقبتُه وَخيمةً[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقُلْ: «كيف كانت عاقبةُ المجرمين»؟

الجوابُ: لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّ المعنى: كيف كان آخِرُ أمْرِهم[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: «عاقبةُ الكافرين»؟ الجوابُ: الغرضُ أنْ يَحصلَ التَّخويفُ لكلِّ العُصاةِ[5].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فيه عنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالتَّسليةِ والتَّفريجِ عنه؛ وجْهُ ذلك: أنَّ نهيَه عن أنْ يكونَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٠٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ضَيْقٍ معناه: أنَّ مَكرَهم لا يَضُرُّه، وإنْ ضاقت به نفْسُه؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ أي: لا يهمَّك أمْرُهم، ولا تَضِقْ منه؛ فإنَّ لَدَيْنا ما هو أعظمُ؛ قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[١] [الأنفال: ٣٠].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

- أبطلَتْ هذه الآيةُ مَزاعِمَ مُشركي قُريشٍ إبطالًا عامًّا، مِعيارُه الاستثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو عامٌّ مُرادٌ به الخُصوصُ، أي: خصوصُ الكُهَّانِ وسَدنةِ بُيوتِ الأصنامِ؛ وإنَّما سُلِكَ مَسلكُ العمومِ لإبطالِ ما عسَى أنْ يُزعَمَ مِن ذلك، ولأنَّ العمومَ أكثرُ فائدةً وأوجَزُ؛ فإنَّ ذلك حالُ أهلِ الشِّركِ مِن بيْنِ مَن في السَّمواتِ والأرضِ؛ فالقصدُ هنا تَزييفُ آثارِ الشِّركِ، وهو الكِهانةُ ونَحوُها. وإذ قد كانت المخلوقاتُ لا يَعْدُون أنْ يَكونوا مِن أهلِ السَّمواتِ أو مِن أهلِ الأرضِ -لانحصارِ عوالِمِ الموجوداتِ في ذلك-؛ كان قولُه: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ﴾ في قوَّةِ: لا يَعلَمُ أحدٌ الغيبَ، ولكنْ أُطنِبَ الكلامُ؛ لقَصدِ التَّنصيصِ على تَعميمِ المخلوقاتِ كلِّها؛ فإنَّ مَقامَ عِلمِ العقيدةِ مَقامُ بَيانٍ يُناسِبُه الإطنابُ[٢].

- وهو سُبحانَه قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن﴾، ولم يقُلْ: «ما»؛ فإنَّه لَمَّا اجتمَع ما يَعقِلُ وما لا يَعقِلُ، غُلِّب ما يَعقِلُ، وعُبِّر عنه بـ«مَن»؛ لِتَكونَ أبلَغَ؛ فإنَّهم مع كَونِهم مِن أهلِ العِلمِ والمعرفةِ لا يَعلَمُ أحدٌ منهم الغيبَ إلَّا اللهُ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١١٠).

- قولُه: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ لَمَّا نَفى عِلمَ الغَيبِ عنهم على العمومِ، نَفى عنهم هذا الغيبَ المخصوصَ، وهو وقتُ السَّاعةِ والبعثِ، فصار مُنتفيًا مرَّتينِ؛ إذ هو مُندرِجٌ في عمومِ الغَيبِ، ومَنصوصٌ عليه بخُصوصِه[1].

- وأيضًا أردَفَ هذا الخبرَ بإدماجِ انتفاءِ عِلْمِ هؤلاءِ الزَّاعمينَ عِلْمَ الغَيبِ أنَّهم لا يَشعُرون بوَقتِ بَعثِهم، بلْ جَحَدوا وُقوعَه؛ إثارةً للتَّذكيرِ بالبعثِ؛ لشِدَّةِ عِنايةِ القرآنِ بإثباتِه وتَسفيهِ الذين أنْكَروه؛ فذلك مَوقعُ قولِه: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾، أي: إنَّ الذين يَزعُمون عِلْمَ الغيبِ ما يَشعُرون بوَقتِ بَعثِهم، وهذا تَعييرٌ للمُشرِكين؛ فإنَّهم لا يُؤمِنون بالبعثِ، بَلْهَ شُعورِهم بوَقتِه[2].

٢- قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾

- (بَلْ) للإضرابِ الانتقاليِّ مِن الإخبارِ عنهم بـ(مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)، وهو ارتقاءٌ إلى ما هو أغرَبُ وأشدُّ؛ لَمَّا نفَى عنهم عِلْمَ الغيبِ، وأكَّدَ ذلكَ بنَفْيِ شُعورِهم بوَقْتِ مآلِهم لا مَحالةَ؛ بُولِغَ في تأْكيدِه وتَقريرِه بأنْ أضرَبَ عنْه، فقال: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ...﴾، وبيَّن أنَّهم في جَهلٍ أفحَشَ مِن جَهلِهم بوقْتِ بَعْثِهم، حيثُ لا يَعلَمونَ أحوالَ الآخِرةِ مُطلقًا، مع تعاضُدِ أسبابِ مَعرفتِها، وهذا على أنَّ معنى ﴿ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: تَدارَكَ وتتابَعَ عِلْمُهم في شأنِ الآخرةِ التي ما ذُكِرَ مِن البعثِ حالٌ مِن أحوالِها حتَّى انقطَعَ، ولم يَبْقَ لهم عِلمٌ بشَيءٍ ممَّا سيَكونُ فيها قطْعًا[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠).

- وقيل: الإضرابُ في قولِه: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ...﴾ إضرابٌ عن نفْيِ الشُّعورِ بوقْتِ القيامةِ عنهم إلى وَصْفِهم باستحكامِ عِلمِهم في أمْرِ الآخرةِ؛ تَهكُّمًا بهم، فيكونُ وصْفًا لهُم بالجهْلِ مُبالَغةً(١).

- وهذه الإضراباتُ الثَّلاثُ ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ ما هي إلَّا تَنزيلٌ لأحوالِهم؛ وَصَفَهم أوَّلًا بأنَّهم لا يَشعُرون وقْتَ البعثِ، ثمَّ بأنَّهم اضْطَرَبَ عِلمُهم في الآخرةِ، أو تَقلَّدَ خَلَفُهم ما لَقَّنَه سَلَفُهم، أو أنَّهم انْتَفى عِلْمُهم في الآخرةِ -على بعضِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-، ثمَّ بأنَّهم يَخبِطون في شَكٍّ ومِرْيةٍ، فلا يُزيلونه، والإزالةُ مُستطاعةٌ! ثمَّ بما هو أسْوَأُ حالًا، وهو العَمَى، وأنْ يكونوا مِثلَ البَهيمةِ قد عَكَفوا هَمَّهمْ على بَطْنِهم وفُروجِهم، لا يَخطُرُ ببالِهم حقًّا ولا باطلًا، ولا يُفكِّرون في عاقبةٍ؛ فجاءتْ هذه الانتقالاتُ مُتدرِّجةً مُتصاعِدةً، حتَّى لو قِيل: (بلِ ادَّاركَ عِلْمُهم في الآخرةِ، فهمْ في شَكٍّ منها، فهمْ منها عَمُون) لَحصَلَ المرادُ، ولكنْ جاءت طريقةُ التَّدرُّجِ بالإضرابِ الانتقاليِّ أجزَلَ وأبهَجَ وأروَعَ، وأدلَّ على أنَّ كلًّا مِن هذه الأحوالِ المُترتِّبةِ جَديرٌ بأنْ يَعتبِرَ فيه المُعتبِرُ باستقلالِه، لا بكونِه مُتفرِّعًا على ما قبْلَه(٢).

- قولُه: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الخبرِ ودَوامِه، وجِيءَ بالظَّرفيةِ (مِن)؛ للدَّلالةِ على إحاطةِ الشَّكِّ بهم. و﴿عَمُونَ﴾ مِن العَمى، صاغوا -أي: العَربُ- له مِثالَ المُبالَغةِ؛ للدَّلالةِ

(١) يُنظَر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢، ٢٣).

على شِدَّةِ العَمَى، وهو تَشبيهُ عَدَمِ العِلْمِ بالعَمى، وعادِمِ العِلْمِ بالأعْمى[(١)].

- قولُه: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ في الكلامِ مُضافٌ مَحذوفٌ، تَقديرُه: مِن إنكارِ وُجودِها عَمُونَ؛ فالمَجرورُ مُتعلِّقٌ بـ﴿عَمُونَ﴾. وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ بهذا المُتعلِّقِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ جعَلَ الآخرةَ مَبدَأَ عَماهُم ومَنشَأَه -على أنَّ معنى «من» في ﴿مِّنْهَا﴾ في الموضعَينِ الابتِداءُ-؛ فلذلك عدَّاهُ بـ (مِن) دونَ (عنْ)؛ لأنَّ الكفْرَ بالعاقبةِ والجزاءِ هو الذي جَعَلَهم كالبَهائمِ لا يَتدبَّرون ولا يَتبصَّرون، ومَن لم يَصرِفْهُ خَوفُ العاقبةِ فعَل ما يقتضيه هَواهُ وشَهوتُه، ودخَل في زُمرةِ البهائمِ. وفي هذا شائبةٌ مِن معنى السَّببيَّةِ، وأنَّ الكفرَ بالآخرةِ سببٌ للعمى[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ بَيانٌ لِجَهلِهم بالآخرةِ وعَمَهِهم منها بحِكايةِ إنكارِهم للبَعثِ[(٤)]. وأعقَبَ وَصْفَ عَمايةِ الزَّاعمينَ عِلْمَ الغَيبِ بذِكْرِ شُبهتِهم التي أرَتْهم البعثَ مُستحيلَ الوُقوعِ؛ ولذلك أُسنِدَ القَولُ هنا إلى جميعِ الَّذين كَفَروا دونَ خُصوصِ الَّذين يَزعُمون عِلْمَ الغيبِ؛ ولذلك عُطِفَت الجُملةُ بالواوِ؛ لأنَّها غايرَتِ الَّتي قبْلَها بأنَّها أعَمُّ[(٥)].

- قولُه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ فيه التَّعبيرُ عنهم باسمِ الموصولِ؛ لِمَا في الموصولِ مِن الإيماءِ إلى علَّةِ قولِهم هذه المقالةَ، وهي ما أفادَتْه الصِّلةُ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢، ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٧٢، ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤).

كَونِهم كافرينَ؛ فكأنَّه قِيل: وقالوا بكُفرِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ إلى آخِرِه[١].

- قولُه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ الاستفهامُ بمَعنى الإنكارِ؛ أتَوا بالإنكارِ في صُورةِ الاستِفهامِ لتَجهيلِ مُعتقِدِ ذلك، وتَعجيزِه عن الجوابِ بزَعمِهم. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ لِمُجاراةِ كلامِ المردودِ عليه بالإنكارِ، والتَّأكيدُ تَهكُّمٌ[٢].

- وتَكريرُ حرفِ الاستِفهامِ بإدخالِه على (إذا) و(إنَّ) جميعًا إنكارٌ على إنكارٍ، وجحودٌ عَقيبَ جُحودٍ، ومُبالَغةٌ في كَونِ ذلك لا يكونُ، ودليلٌ على كُفرٍ مُؤكَّدٍ مُبالَغٍ فيه[٣]؛ فتَكريرُ الهمزةِ في ﴿أَئِنَّا﴾ لِلمُبالَغةِ والتَّشديدِ في الإنكارِ. وأيضًا تَحليةُ الجُملةِ بـ(إنَّ) واللَّامِ لتَأكيدِ الإنكارِ، لا لإنكارِ التَّأكيدِ كما يُوهِمُه ظاهرُ النَّظمِ؛ فإنَّ تَقديمَ الهمزةِ لاقتضائِها الصَّدارةَ[٤].

- وتَقْييدُ الإخراجِ بوَقتِ كونِهم تُرابًا في قولِه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ ليس لتَخصيصِ الإنكارِ بالإخراجِ حينَئذٍ فقط؛ فإنَّهم مُنكِرون للإحياءِ بعدَ الموتِ مُطلقًا وإنْ كان البَدَنُ على حالِه، بلْ لتَقويةِ الإنكارِ بتَوجيهِه إلى الإخراجِ في حالةٍ مُنافيةٍ له[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَقريرِ الإنكارِ، وتَصديرُه بالقسَمِ ﴿لَقَدۡ﴾؛ لِمَزيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التَّأكيدِ[١].

- وقد تقدَّمَ في سُورةِ (المؤمنون) حِكايةُ مِثلِ هذه المقالةِ عن الذين كَفَروا، إلَّا أنَّ اسمَ الإشارةِ الأوَّلَ ﴿هَٰذَا﴾ وقَعَ مُؤخَّرًا عن ﴿نَحْنُ﴾ في سُورةِ (المؤمنون) إذ فيها: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، ووقَعَ مُقدَّمًا عليه هنا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، وتَقديمُه وتأخيرُه سواءٌ في أصلِ المعنى؛ لأنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿وُعِدْنَا﴾ وقَعَ بعْدَ نائبِ الفاعلِ في الآيتينِ. ووَجْهُ تَقديمِه على تَوكيدِ الضَّميرِ الواقعِ نائبًا عن الفاعلِ: أنَّ التَّقديمَ دليلٌ على أنَّ المُقدَّمَ هو الغرضُ المُعتمَدُ بالذِّكرِ وبسَوقِ الكلامِ لأجْلِه؛ فإنَّ ما وقَعَ في سُورةِ (المؤمنون) كان بوَضعِ المنصوبِ بعدَ المرفوعِ، وذلك مَوضِعُه. وأمَّا ما في سُورةِ (النَّملِ)؛ فقُدِّمَ المنصوبُ على المرفوعِ لكونِه فيها أهَمَّ؛ يَدُلُّك على ذلك أنَّ الذي قبْلَه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾، والذي قبْلَ آيةِ سُورةِ (المؤمنون): ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: ٨٢]؛ فالجِهةُ المنظورُ فيها في سُورةِ (المؤمنون) هي كونُ أنفُسِهم تُرابًا وعظامًا، والجِهةُ المنظورُ فيها هنا في سُورةِ (النَّملِ) هي كونُ أنفُسِهم وكونُ آبائِهم تُرابًا، لا جزءَ هناك مِن بِناهم (جمعُ بِنْيَةٍ) باقيًا على صُورتِه الَّتي كان عليها وهو حيٌّ. ولا شُبهةَ أنَّها أدخَلُ عندَهم في تَبعيدِ البعثِ؛ فاسْتلزَمَ زِيادةَ الاعتِناءِ بالقصْدِ إلى ذِكْرِه، فصيَّرَه هذا العارِضُ أهَمَّ؛ فقد حكَتْ كلُّ آيةٍ أُسلوبًا مِن مقالِهم، وحصَلَ في الاختلافِ بيْنَ أُسلوبِ الآيتينِ تفنُّنٌ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٩)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي =

- قولُه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقريرٌ إثرَ تقريرٍ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تَهديدٌ لهم على التَّكذيبِ، وتَخويفٌ بأنْ يَنزِلَ بهم مِثلُ ما نزَلَ بالمُكذِّبين قبْلَهم، وأراد بالمُجرِمينَ: الكافرين، وإنَّما عُبِّرَ عن الكُفرِ بلَفظِ الإجرام؛ ليَكونَ لُطفًا للمُسلِمينَ في تَركِ الجرائمِ وتخوُّفِ عاقبتِها؛ ألَا ترى إلى قولِه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقولِه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾(٢) [نوح: ٢٥].

- وفُصِلَت هذه الجُملةُ ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ -أي: لم تُعطَفْ على ما قبْلَها-؛ لأنَّها أمْرٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ لهم هذه الكلمةَ(٣).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وقال في سُورةِ (الأنعام): ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، والمُناسَبةُ في الموضعينِ هي الموعظةُ بحالِ المُكذِّبين؛ لأنَّ إنكارَهم البعثَ تَكذيبٌ للرَّسولِ وإجرامٌ، والوعيدُ بأنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم، إلَّا أنَّها هنالك عُطِفَت بـ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾

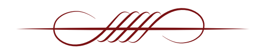
= جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٩)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٢/ ١٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٧٣، ٥٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥، ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦).

[الأنعام: ١١]، وهنا بالفاءِ ﴿فَٱنظُرُواْ﴾، وذُكِرَ هنالك عاقبةُ المُكذِّبين، وذُكِرَ هنا عاقبةُ المُجرِمين، والمُكذِّبون مُجرِمون؛ والاختلافُ بيْنَ الحكايتينِ للتَّفنُّنِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦).

الآيات (٧١-٧٥)

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٧١ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَدِفَ لَكُم﴾: أي: اقتَرَب لكم، ودنا منكم، وأصلُ (ردف): يدُلُّ على اتِّباعِ الشَّيءِ[1].

﴿تُكِنُّ﴾: أي: تُخفي، مِن أكننتُ الشَّيءَ: إذا ستَرْتَه وصُنتَه، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى عن استبعادِ المشركينَ ليومِ القيامةِ، فيقولُ: ويَقولُ المُشرِكون: متى هذا الوعدُ بالعذابِ إن كنتُم صادقين في قَولِكم؟!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه بالرَّدِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: قد دنا لكم بعضُ ما كنتُم تَستَعجِلونَه مِن العذابِ.

ثمَّ يبيِّنُ سبحانَه بعضَ مظاهرِ فضلِه على النَّاسِ وشمولِ عِلمِه، فيقولُ: وإنَّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

ربَّك -يا محمَّدُ- لَذو فَضلٍ على النَّاسِ بعدَمِ تَعجيلِ عِقابِهم، والإحسانِ إليهم مع ظُلمِهم، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَشكُرونَ اللهَ على ما أنعَمَ عليهم.

وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَيعلَمُ ما يُخفونَه في صُدورِهم وما يُظهِرونَه، وما مِن شَيءٍ غائبٍ في السَّماءِ والأرضِ إلَّا يَعلَمُه اللهُ، وهو مُثبَتٌ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٧١﴾.

أي: ويقولُ المُشرِكون: متى سيأتينا عَذابُ اللهِ -يا محمَّدُ- إنْ كنتُم صادِقينَ فيما تَعِدونَنا به مِن العذابِ[1]؟!

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا استعجلَتْ قُرَيشٌ بأمرِ الساعةِ، أو بالعذابِ الذي وُعِدوا به، وسألوا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

وممَّن فسَّر الوعدَ المذكورَ بالعذابِ: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ أيضًا: مقاتلُ بنُ سليمان، ويحيى بنُ سلام. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٦١).

وقيل: المرادُ به: وُقوعُ البعثِ بعدَ الموتِ ومجيءُ يومِ القيامةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: السمرقنديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: العذابُ، والسَّاعةُ، والبعثُ، والمجازاةُ: ابنُ عطية، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٢).

وقتِه على سبيلِ الاستِهزاءِ، قيل له: (قلْ: عسى أنْ يكونَ رَدِفَكم بعضُه)[١].

﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: قد دنا لكم[٢] بعضُ العذابِ الَّذي تَستعجِلونَ وُقوعَه[٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَذو فَضلٍ كبيرٍ على النَّاسِ، بإمهالِهم والإحسانِ إليهم مع ظُلمِهم أنفُسَهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٥).

(٢) قال ابن عطية: (ورَدِفَ معناه: قرُب وأَزِف، قاله ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه، ولكنَّها عبارةٌ عمَّا يجيءُ بعْدَ الشَّيءِ قريبًا منه، ولِكَونِه بمعنَى هذه الأفعالِ الواقعةِ تعدَّى بحرفٍ، وإلَّا فبابُه أن يَتجاوَزَ بنفْسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٩).

وقال ابن كثير: (إنَّما دخَلت «اللام» في قولِه: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾؛ لأنَّه ضُمِّن معنى «عَجِل لكم»، كما قال مجاهدٌ في روايةٍ عنه: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: عجِل لكم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا قصَر الفعلَ وضمَّنه معنى ما يَتعدَّى باللَّامِ لأجلِ الاختصاصِ قال: ﴿لَكُم﴾، أي: لأجْلِكم خاصَّةً). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وهذا إشارةٌ إلى ما سيحُلُّ بهم يومَ بدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

وممَّن قال بنحوِ ذلك: الواحديُّ، والزمخشري، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن =

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه، ويُشرِكون معه غيرَه في العبادةِ، ويَستعجِلونَ عَذابَه[1].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإمهالُ قد يكونُ مِن الجَهلِ بذُنوبِ الأعداءِ، قال نافيًا لذلك[2]:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَيعلَمُ ما يُخفونَه في قُلوبِهم، وما يُظهِرونَه مِن أقوالِهم وأفعالِهم، لا يخفَى عليه منها شَيءٌ[3].

﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥﴾.

= كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٨).

قال البقاعي: (﴿صُدُورُهُمۡ﴾ أي: النَّاسِ كلِّهم، فضلًا عن قومِك). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢١١).

وقال الألوسي: (﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ أي: ما تُخفيه مِن الأسرارِ الَّتي مِن جُملتِها عداوتُك ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ أي: وما يُظهِرونَه مِن الأقوالِ والأفعالِ الَّتي من جُملتِها ما حُكيَ عنهم؛ فليس تأخيرُ عُقوبتِهم لخَفاءِ حالِهم عليه سُبحانَه؛ فيُجازيهم على ذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥).

أي: وما مِن شَيءٍ مَخفيٍّ عن العبادِ في السَّماءِ والأرضِ إلَّا يَعلَمُه اللهُ، وهو مثبَتٌ في كتابٍ واضحٍ بيِّنٍ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

قال القرطبي: (ما مِن خَصلةٍ غائبةٍ عن الخَلقِ إلَّا واللهُ عالِمٌ بها، قد أثبَتَها في أمِّ الكتابِ عندَه، فكيف يخفى عليه ما يُسِرُّ هؤلاء وما يُعلِنونَه؟! وقيل: أيْ: كُلُّ شَيءٍ هو مُثبَتٌ في أمِّ الكتابِ، يُخرِجُه للأجَلِ المؤجَّلِ له، فالَّذي يَستعجِلونَه مِن العذابِ له أجَلٌ مَضروبٌ لا يتأخَّرُ عنه ولا يتقَدَّمُ عليه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١).

قال البيضاوي: (﴿مُّبِينٖ﴾ بيِّنٌ، أو مُبينٌ ما فيه لِمَن يُطالِعُه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧).

وقال ابنُ عجيبة: (المُبينُ: الظَّاهِرُ البَيِّنُ لِمَن ينظُرُ فيه مِن الملائكة. أو: مُبينٌ لِما فيه مِن تفاصيلِ المقدوراتِ. والله تعالى أعلمُ). ((البحر المديد)) (٤/ ٢١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُّبِينٖ﴾: بيِّنٌ ظاهرٌ: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، والواحدي، والزمخشري، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٣).

قال ابن جرير: (يعني بقولِه: ﴿مُّبِينٖ﴾ أنَّه يَبِينُ لِمَنْ نَظَر إليه، وقَرَأ ما فيه مِمَّا أثْبَت فيه رَبُّنا جلَّ ثَناؤُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦).

وقال ابن عاشور: (والمُبينُ: المُفَصَّلُ؛ لأنَّ الشَّيءَ المُفَصَّلَ يكونُ بَيِّنًا واضحًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٩).

أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تحذيرُ هؤلاء -وغيرِهم أيضًا- مِن أنْ يُكِنُّوا في صدورِهم ما لا يَرضاه اللهُ، لأنَّ إخبارَ اللهِ بأنَّه يَعْلَمُ ذلك معناه التَّحذيرُ؛ أنْ نَحْذَرَ مِن أنْ نُكِنَّ في صُدورِنا ما لا يرضاه اللهُ عزَّ وجلَّ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إبطالُ قَولِ مَن قال: «إنَّه لا نعمةَ للهِ على الكفارِ»[2]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أنَّ البلاءَ مُوكَلٌ بالمنطقِ، وأنَّ الإنسانَ إذا استعجلَ الشَّرَّ وَقَعَ فيه؛ لِقَولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، وعسى -كما قال ابنُ عبَّاسٍ- إذا جاءتْ في كلامِ اللهِ فهي للوُجوبِ[3]؛ لأنَّ معناها التوقُّعُ، وأنَّ هذا أمرٌ قد حان وقتُه؛ إذْ إنَّ التَّرجِّيَ بالنِّسبةِ إلى اللهِ غيرُ ممكنٍ؛ لأنَّ التَّرجِّيَ طلبُ ما فيه عُسرٌ، ولا شَيءَ عسيرٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٦). وينظر أيضًا: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٢٢-١٢٥).

٣- قَولُه تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فيه سَعَةُ حِلْمِ اللهِ، فقد قال: ﴿بَعْضُ﴾ دونَ الجميعِ، وهذا مِن حِلْمِ اللهِ تعالى على عبادِه[1].

٤- العقلُ يدُلُّ على وجوبِ شُكرِ المُنعِمِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ وهذا على سبيلِ الذَّمِّ، فيكونُ مَن لا يَشكُرُ مذمومًا عقلًا ونقلًا[2].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أشار بصِفةِ الرُّبوبيَّةِ المضافةِ إلى نبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى إمهالِهم؛ إحسانًا إليه، وتَشريفًا له[3].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيه أنَّ عِلْمَ اللهِ تعالى بما بَطَن كعِلْمِه بما ظَهَر؛ لقولِه: ﴿مَا تُكِنُّ﴾ و﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، فلا فرقَ بيْنَ هذا وهذا عندَ اللهِ؛ فالآيةُ فيها بيانُ سَعَةِ عِلمِ اللهِ، وأنَّه لا يخفى عليه شَيءٌ[4].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فيه كتابةُ اللهِ تعالى كلَّ شيءٍ في اللَّوحِ المحفوظِ، ويَلزَمُ مِن الكتابةِ العِلمُ؛ لأنَّه لا يُكتَبُ المجهولُ[5]! فالآيةُ فيها إثباتُ مرتبتَينِ مِن مراتبِ القضاءِ والقَدَرِ؛ هما: العِلمُ، والكتابةُ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر أيضًا: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٩)، ((أعلام السنة المنشورة)) لحافظ حكمي (ص: ٧٨ - ٨٩).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين يُنكِرون القَدَرَ، ويقولون: إنَّ اللهَ لا يعلمُ ما يَعمَلُه العبادُ إلَّا بعدَ وُقوعِه منهم[1]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ فيه التَّعبيرُ بالمُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك القولِ منهم، أي: لم يَزالوا يقولونَ[2].

- قولُه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ الاستِفهامُ بـ﴿مَتَىٰ﴾ تَهكُّمٌ منهم؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ أمَر اللهُ نَبيَّه بالجوابِ عن قولِهم؛ لأنَّ هذا مِن عِلْمِ الغيبِ الَّذي لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ ومَن أطْلَعه على شَيءٍ منه مِن عِبادِه المُصطفَينَ. والجوابُ جارٍ على الأسلوبِ الحكيمِ بحمْلِ استِفهامِهم على حقيقةِ الاستفهامِ؛ تَنبيهًا على أنَّ حقَّهم أنْ يَسألوا عن وَقتِ الوعيدِ؛ لِيَتقدَّموه بالإيمانِ[4].

- قولُه: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ ...﴾ (عسى) و(لعلَّ) و(سوف) في وَعدِ الملوكِ ووَعيدِهم يَدُلُّ على صِدقِ الأمرِ وجِدِّه وما لا مَجالَ للشَّكِّ بعْدَه، وإنَّما يَعْنُون بذلك: إظهارَ وَقارِهم، وأنَّهم لا يَعجَلون بالانتقامِ؛ لإدلالِهم بقَهرِهم وغَلَبتِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ووُثوقِهم أنَّ عَدُوَّهم لا يَفوتُهم، وأنَّ الرَّمزةَ إلى الأغراضِ كافيةٌ مِن جِهَتِهم؛ فعلى ذلك جَرى وعْدُ اللهِ ووَعيدُه(١).

- وإيثارُ ما عليهِ النَّظمُ الكريمُ على أنْ يُقالَ: (عَسى أنْ يَرْدَفَكم...) إلخ؛ لِكَونِه أدَلَّ على تَحقُّقِ الوعدِ(٢).

- قولُه: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فيه حذْفُ مُتعلَّقِ ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، والتَّقديرُ: تَستعجِلون به(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ مَوقِعُ هذا مَوقعُ الاستِدراكِ على قولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢]، أي: إنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم هو مِن فضْلِ اللهِ عليهم. وهذا خبرٌ خاصٌّ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ تَنبيهًا على أنَّ تأخيرَ الوعيدِ أثَرٌ مِن آثارِ رَحمةِ اللهِ؛ لأنَّ أزمنةَ التَّأخيرِ أزمنةُ إمهالٍ، فهُم فيها بنِعمةٍ؛ لأنَّ اللهَ ذو فضْلٍ على النَّاسِ كلِّهم(٤).

- والتَّعبيرُ بـ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ الفضلَ مِن شُؤونه. وتَنكيرُ ﴿فَضْلٍ﴾؛ للتَّعظيم. والتَّأكيدُ بـ(إنَّ) واللَّام منظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقعَ التَّعريضِ بهم، بقَرينةِ قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾. و(لكنَّ) استِدراكٌ ناشئٌ عن عُمومِ الفضلِ منه تعالى؛ فإنَّ عُمومَه وتكرُّرَه يَستحِقُّ بأنْ يَعلَمَه النَّاسُ، فيَشْكُروه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٨).

يَشْكُرون كهؤلاء الَّذين قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [النمل: ٧١]؛ فإنَّهم يَستعجِلون العذابَ تَهكُّمًا وتَعجيزًا في زَعمِهم، غيرَ قادرين قَدْرَ نِعمةِ الإمهالِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [النمل: ٧٣] يُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِ المؤمنينَ أنْ يَقولوا: إنَّ هؤلاء المُكذِّبين قد أضْمَروا المكْرَ وأعْلَنوا الاستِهزاءَ، فحالُهم لا يَقْتضي إمهالَهم. فيُجابُ بأنَّ الذي أمْهَلَهم مُطَّلِعٌ على ما في صُدورِهم وما أعْلَنوه، وأنَّه أمْهَلَهم مع عِلْمِه بهم؛ لِحكمةٍ يَعلَمُها. وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم يُكِنُّون أشياءَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وللمؤمنينَ. وهذا الاستئنافُ لَمَّا كان ذا جِهةٍ مِن معنَى وَصْفِ اللهِ بإحاطةِ العِلْم، عُطِفَت جُملتُه على جُملةِ وَصْفِ اللهِ بالفضلِ؛ فحصَلَ بالعطْفِ غرَضٌ ثانٍ مُهِمٌّ، وحصَلَ معنى الاستئنافِ البَيانيِّ مِن مَضمونِ الجُملةِ[٢].

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّامِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ...﴾ مَنظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقِعَ التَّعريضِ بهم. ويجوزُ أنْ يكونَ لتَنزيلِ السَّائلِ مَنزلةَ المُتردِّدِ؛ وذلك تَلويحٌ بالعِتابِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أسنَدَ الإعلانَ إلى ذَواتِهم؛ لأنَّ الإعلانَ مِن أفعالِ الجَوارحِ. ولَمَّا كان المُضمَرُ في الصَّدرِ هو الدَّاعيَ لِمَا يَظهَرُ على الجَوارحِ، والسَّببَ في إظهارِه؛ قُدِّمَ الإكنانُ على الإعلانِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٦).

وقيل: إنَّما قُدِّمَ الإسرارُ على الإعلانِ؛ للإيذانِ بافْتِضاحِهِم، ووُقوعِ ما يَحْذَرونه مِن أوَّلِ الأمرِ، والمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلْمِه تعالى المُحيطِ لجَميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلْمَه بما يُسِرُّونه أقْدَمُ منه بما يُعْلِنونه، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّوِيَّةِ[١].

- وفيه: إيذانٌ بأنَّ لهم قبائحَ غيرَ ما يُظْهِرونَه، وأنَّه تعالى يُجازِيهم على الكلِّ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤]، وهو في معنَى التَّذييلِ للجُملةِ المذكورةِ؛ لأنَّها ذُكِرَ منها عِلْمُ اللهِ بضَمائرِهم، فذُيِّلَ ذلك بأنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ غائبةٍ في السَّماءِ والأرضِ، وإنَّما جاء مَعطوفًا؛ لأنَّه جديرٌ بالاستِقلالِ بذاتِه مِن حيثُ إنَّه تَعليمٌ لِصفةِ عِلْمِ اللهِ تعالى، وتَنبيهٌ لهم مِن غَفْلتِهم عن إحاطةِ عِلْمِ اللهِ لِمَا تُكِنُّ صُدورُهم وما يُعلِنون[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما مِن شَيءٍ سِرٍّ في السَّمواتِ والأرضِ وعلانيةٍ؛ فاكْتَفَى بذِكْرِ السِّرِّ عن مُقابِلِه. وسُمِّيَ الشَّيءُ الذي يَغيبُ ويَخفى (غائبةً) و(خافيةً)؛ فكانتِ التَّاءُ فيهما بمَنزلتِها في (العاقبةِ) و(العافيةِ). ويجوزُ أنْ يَكونَا صِفتَينِ، وتاؤهما للمُبالَغةِ، كأنَّه قال: وما مِن شَيءٍ شديدِ الغَيبوبةِ والخفاءِ، إلَّا وقد عَلِمَه اللهُ وأحاط به[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١١٨، ٦/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧).

الآيات (٧٦-٨٢)

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصُّمَّ﴾: جمعُ الأصَمِّ، وهو الَّذي لا يسمَعُ، والصَّمَمُ: فِقدانُ حاسَّةِ السَّمعِ، وبه يُوصَفُ مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقْبَلُه، وأصلُ (صمم): يدُلُّ على تضامِّ الشَّيءِ، وزوالِ الخرقِ والسمِّ (الثقبِ)[1].

﴿دَآبَّةً﴾: كلُّ شيءٍ دبَّ على وجهِ الأرضِ فهو دابَّةٌ، ويُطْلَقُ عُرفًا على الخَيلِ والحِمارِ والبغلِ، ويُستعملُ في كلِّ حيوانٍ، وأصلُ (دبب): حركةٌ على الأرضِ أخَفُّ مِنَ المشيِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مادحًا كتابَه الكريمَ: إنَّ هذا القرآنَ يُبيِّنُ لبني إسرائيلَ الحَقَّ

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

في أكثَرِ ما يختَلِفون فيه، ولو اتَّبَعوه لاهتَدَوا به، وإنَّ هذا القرآنَ لَهُدًى ورحمةٌ للمُؤمنينَ.

ثمَّ يقولُ تعالى: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- سيَحكُمُ بيْنَ عبادِه المُختَلفينَ يومَ القيامةِ بحُكمِه العادِلِ، وهو العزيزُ في انتِقامِه، الغالِبُ القاهِرُ لعبادِه، العليمُ بكُلِّ شَيءٍ مِن أعمالِ العبادِ ونيَّاتِهم وغيرِ ذلك؛ فاعتَمِدْ -يا محمَّدُ- على اللهِ وَحْدَه، وفَوِّضْ جميعَ أمورِك إليه؛ إنَّك على الحقِّ الظَّاهِرِ الواضِحِ.

إنَّك -يا محمَّدُ- لا تستطيعُ هدايةَ هؤلاءِ الكفَّارِ الَّذين أعرَضوا كلَّ الإعراضِ عن قَبولِ الحقِّ وسماعِه، فحالُهم كحالِ الموتَى الَّذين لا يُدرِكون، وكحالِ الصُّمِّ الَّذين لا يَسمعونَ. وما أنتَ -يا محمَّدُ- بهادي الكُفَّارِ الَّذين عَمُوا عن الحَقِّ، فرادِّهِم عن ضَلالِهم؛ إنَّك ما تُسمِعُ الحقَّ إلَّا الَّذين يُؤمِنون بآياتِنا، ويَنقادونَ للعَمَلِ بها خاضِعينَ مُخلِصينَ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى بعضَ أشراطِ السَّاعةِ وعلاماتِها، فيقولُ: وإذا نزَل الوعدُ بعذابِ هؤلاء الكافرينَ أخرَجْنا لهم دابَّةً مِنَ الأرضِ تُخاطِبُ الكافرينَ بأنَّ النَّاسَ كانوا لا يُؤمِنون بآياتِ اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى المبدأَ والمعادَ؛ ذَكَر ما يَتعلَّقُ بالنُّبوَّةِ، وكان المعتمَدُ الكبيرُ في إثباتِ نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو القرآنَ، ومِن جملةِ إعجازِه إخبارُه بما

تضمَّنَ مِن القَصَصِ الموافِقِ لِمَا في التَّوراةِ والإنجيلِ[١].

وأيضًا فللآيةِ مُناسَبةٌ بقولِه: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]؛ فإنَّ القرآنَ وحْيٌ مِن عندِ اللهِ إلى رسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فكلُّ ما فيه فهو مِن آثارِ عِلْمِ اللهِ تعالى، فإذا أراد اللهُ تَعليمَ المسلمينَ شيئًا ممَّا يَشتمِلُ عليه القرآنُ، فهو العِلْمُ الحقُّ إذا بلَغَتِ الأفهامُ إلى إدراكِ المُرادِ منه. ومِن ذلك ما اشتمَلَ عليه القرآنُ مِن تَحقيقِ أُمورِ الشَّرائعِ الماضيةِ والأُمَمِ الغابرةِ ممَّا خَبَطَتْ فيه كُتُبُ بني إسرائيلَ خبْطًا، ولِمَا في القرآنِ مِن الأصولِ الصَّريحةِ في الإلهيَّاتِ ممَّا يَكشِفُ سُوءَ تأويلِ بني إسرائيلَ لِكَلِماتِ كِتابِهم[٢].

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ يُبيِّنُ لبني إسرائيلَ الحَقَّ في أكثَرِ ما يختَلِفونَ فيه، فلو اتَّبَعوه لاهتَدَوا[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٣).

وممَّا اختلفوا فيه: أمرُ عيسى عليه السَّلامُ، وقِصَّةُ عُزَيرٍ، وأحوالُ الجنَّةِ والنَّارِ، إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٢).

تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٢ - ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم: ٣٤].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بان بما سبَق دليلُ عِلْمِه؛ أتْبَعه دليلَ فضْلِه وحِلْمِه[1].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أي: وإنَّ القرآنَ لهُدًى من كلِّ ضلالةٍ، ومُوصِلٌ إلى المقصودِ، ورحمةٌ للمُؤمنينَ العامِلينَ به، في دينِهم ودُنياهم وأُخْراهم[2].

كما قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا سَبَق ذِكْرُ المشركين بطَعْنِهم في القرآنِ، وتكذيبِهم بوعيدِه، وذِكْرُ بني

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

إسرائيلَ بما يقتضي طعْنَهم فيه، وذِكْرُ المؤمنينَ بأنَّهم اهتَدَوْا به؛ وكان لهم رحمةً فهُم مُوقِنونَ بما فيه؛ تَمَخَّض الكلامُ عن خلاصةٍ هي افتراقُ الناسِ في القرآنِ فريقَينِ: فريقٍ طاعِنٍ، وفريقٍ موقنٍ، فلا جَرَمَ اقتضى ذلك حدوثَ تدافُعٍ بيْنَ الفريقينِ، وهو ممَّا يُثيرُ في نفوسِ المؤمنينَ سؤالًا عن مدَى هذا التَّدافُعِ والتَّخالُفِ بينَ الفريقينِ، ومتى يَنكشِفُ الحقُّ[1]؟

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ سبحانه دليلَ فَضلِه؛ أتبَعَه دليلَ عَدلِه، فقال مستأنِفًا لجوابِ مَن ظَنَّ أنَّ فضْلَه دائمُ العمومِ على الفريقَينِ[2]:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- سيَحكُمُ يومَ القيامةِ بيْنَ عِبادِه المُختَلِفينَ[3] بحُكمِه العادِلِ، ويُجازيهم بما يَستحِقُّون[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣).

(٣) قيل: المرادُ بهم هنا: بنو إسرائيلَ الذين اختلفوا. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٠، ٤٣١).

وقال يحيى بن سلام: (قولُه عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ﴾ بيْنَ المؤمنينَ والكافرين في الآخرة؛ فيُدخِلُ المؤمنينَ الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافرين النَّارَ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٦٣).

وقال السعدي: (إنَّ اللهَ تعالى سيَفصِلُ بيْنَ المُختصِمينَ، وسيَحكُمُ بيْنَ المُختلِفينَ بحُكمِه العدل، وقضائِه القِسْط، فالأمورُ وإنْ حصَل فيها اشتباهٌ في الدُّنيا بيْنَ المُختلفينَ لخفاءِ الدَّليلِ أو لبعضِ المَقاصِدِ، فإنَّه سيَبِينُ فيها الحقُّ المُطابِقُ للواقِعِ حينَ يَحكُمُ اللهُ فيها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٠، ٤٣١).

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان القضاءُ يَقتضي تنفيذَ ما يَقضي به، والعِلمَ بما يَحكُمُ به؛ جاءت هاتان الصِّفتانِ عقِبَه(١)، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ في انتِقامِه، الغالِبُ القاهِرُ لعبادِه، المُمتَنِعُ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، العليمُ بكلِّ شَيءٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِ العبادِ ونيَّاتِهم وغيرِ ذلك، ويَعلَمُ ما يحكُمُ به بيْنَهم، ويُجازيهم بما يَستَحِقُّونَ(٢).

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَت له العِلمُ والحِكمةُ، والعَظَمةُ والقُدرةُ؛ تسَبَّب عن ذلك قَولُه(٣):

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

أي: فاعتَمِدْ -يا محمَّدُ- على اللهِ وَحْدَه، وثِقْ به، وفوِّضْ جميعَ أمورِك إليه(٤).

﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾.

أي: إنَّك -يا محمَّدُ- على الحقِّ الظَّاهِرِ الواضِحِ غايةَ الوُضوحِ، فلا خَفاءَ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٦).

ولا اشتِباهَ، وإنْ خالَفَك مَنْ خالَفَك فلا يَحزُنْك تكذيبُ المُعرِضينَ وخِلافُهم، ولا يَضُرَّك ضَلالُهم، وامْضِ لِما أُمِرْتَ به؛ فإعراضُهم ليس عن خَلَلٍ في دعوتِك، وإنَّما الخَلَلُ في عقولِهم وإدراكِهم[1].

﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾.

أي: إنَّك -يا محمَّدُ- لا تَهدي الكُفَّارَ الَّذين ماتت قلوبُهم بعْدَ أن خَتَم اللهُ عليها، فلا تَقدِرُ على إسماعِهم سَماعَ هُدًى ونَفعٍ وقَبولٍ يَستَجيبون معه للحَقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المُرادَ بـ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: الواضحُ البَيِّنُ الظَّاهِرُ: مقاتلُ بن سليمان، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٩).

وقيل: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ أي: المُظهِرِ لِمَن تدبَّر وجْهَ الصَّوابِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي: البَيِّن في نفْسِه، الموضحِ لغيرِه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢١٤).

لكنْ ذكر ابنُ عثيمين أنَّ الأنسَبَ تفسيرُ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ بالبَيِّنِ، على أنَّه مِن بانَ يَبِينُ فهو بَيِّنٌ، فهذا الحقُّ بَيِّنٌ ظاهرٌ، لا تفسيرُه على أنَّه مِن أبانَ يُبِينُ فهو مُبِينٌ بمعنَى مُظهِر. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٩، ٤٤٠).

ويَنقادونَ إليه، إلَّا أن يَشاءَ اللهُ هِدايتَهم[١].

كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَسْمَعُ الصُّمُّ﴾ بالرَّفعِ، بجَعلِ المُعرِضينَ هم الفاعلينَ، أي: لا يَنقادُون للحقِّ؛ لِعِنادِهم[٢].

٢- قِراءةُ ﴿تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ بالنَّصبِ، على الخِطابِ لِرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: إنَّك -يا محمَّدُ- لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ دُعاءَك الصُّمَّ المُعرِضينَ عنك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٩٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((أهوال القبور)) لابن رجب (ص: ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٤ - ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٥).

قيل: المرادُ أنَّهم موتى القلوبِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٤).

وقيل: هذا تشبيهٌ بالموتى في عدَمِ سماعِهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٤).

(٢) قرأ بها ابنُ كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٦٥، ١٦٦).

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ -يا محمَّدُ- أن تُسمِعَ الحَقَّ الكفَّارَ الَّذين أصَمَّ اللهُ آذانَهم، إذا أعرَضوا عن سَماعِ الحَقِّ وتدَبُّرِه[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١)﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

أي: وما أنتَ -يا محمَّدُ- بهادي الكُفَّارِ الَّذين عَمُوا عن الحَقِّ، فتُخرِجَهم مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أي: لا تَقدِرُ -يا محمَّدُ- على أن تُفهِمَ الحَقَّ أحَدًا إلَّا الذين يُؤمِنونَ بآياتِنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨، ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

فيَسمَعونَها ويتفَكَّرونَ فيها، ويَنقادونَ للعَمَلِ بها بإخلاصٍ وخُضوعٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٦].

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فَرَغ سُبحانَه من عظيمِ زجْرِهم بتَسليتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ في أمْرِهم، وخَتَم بالإسلامِ؛ عَطَفَ عليه ذِكْرَ ما يُوعَدونَ مِمَّا تقَدَّمَ استِعجالُهم له استهزاءً به، وبدَأَ منه بالدَّابَّةِ الَّتي تُميِّزُ المسلمَ مِن غَيرِه[(٢)].

وأيضًا فبَعْدَ أنْ ذكَرَ سُبحانَه ما يدُلُّ على كمالِ عِلمِه وقُدرتِه، وأبانَ بعدَئذٍ إمكانَ البَعثِ والحَشرِ والنَّشرِ، ثمَّ فَصَّل القَولَ فى إعجازِ القُرآنِ، ونبَّه بذلك إلى إثباتِ نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ- أردَفَ ذلك ذِكرَ مُقَدِّماتِ القيامةِ وما يحدُثُ مِنَ الأهوالِ حينَ قيامِها[(٣)].

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وإذا حلَّ الوَعدُ بالعذابِ والسَّخَطِ على الكافِرينَ[(٤)]، أخرَجْنا لهم دابَّةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٢١).

(٤) وممَّن قال: إنَّ المرادَ بوُقوعِ القولِ: هو حلولُ العذابِ والسَّخَطِ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٩). =

مِنَ الأرضِ[1].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

= وممَّن اقتصر في تفسيرِه على العذابِ: مقاتلُ بن سليمان، والسمعاني، وابن عطية، وابن جُزَي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨).

وممَّن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ: العذابُ: ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وابنُ جريجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٩).

قال ابنُ جزي: (﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا حانَ وقتُ عذابِهم الَّذي تضَمَّنه القولُ الأزَليُّ مِنَ اللهِ في ذلك، وهو قضاؤُه، والمعنَى: إذا قرُبَتِ السَّاعةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧).

وقال الشوكاني: (واختُلِفَ في معنَى وُقوعِ القولِ عليهم؛ فقالَ قتادةُ: وَجَب الغضبُ عليهم. وقالَ مجاهدٌ: حَقَّ القولُ عليهم بأنَّهم لا يؤمنونَ. وقيلَ: حَقَّ العذابُ عليهم. وقيلَ: وجَب السُّخْطُ. والمعاني مُتقاربةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٤).

ثمَّ قال مستكملًا باقيَ الأقوالِ: (وقيلَ: المرادُ بالقولِ ما نَطَق به القرآنُ مِنْ مجيءِ السَّاعةِ، وما فيها مِن فنونِ الأهوالِ الَّتي كانوا يَستعجِلونها، وقيل: وَقَع القولُ بموتِ العلماءِ وذهابِ العلمِ. وقيلَ: إذا لم يأمُروا بالمعروفِ ويَنهَوْا عن المنكَرِ). ((المصدر السابق)). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

قال ابن عاشور: (رُوِيَت في وَصفِ هذه الدَّابَّةِ ووقتِ خروجِها ومكانِه: أخبارٌ مُضطَرِبةٌ ضَعيفةُ الأسانيدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩).

((ثلاثٌ إذا خرَجْنَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إيمانُها لم تكُنْ آمَنَت مِن قَبْلُ أو كَسَبَت في إيمانِها خيرًا: طُلوعُ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، والدَّجَّالُ، ودابَّةُ الأرضِ))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((بادِروا بالأعمالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ، والدُّخانَ، ودابَّةَ الأرضِ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، وأمْرَ العامَّةِ[2]، وخُوَيْصَّةَ أحَدِكم[3]))[4].

وعن حُذيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: اطَّلَعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ علينا ونحن نَتَذاكَرُ، فقال: ((ما تَذاكَرون؟ قالوا: نَذْكُرُ السَّاعةَ، قال: إنَّها لن تَقومَ حتَّى تَرَوْنَ قَبْلَها عَشْرَ آياتٍ، فذكَرَ: الدُّخانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، ونُزولَ عيسى ابنِ مريمَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويَأجوجَ ومَأجوجَ، وثلاثةَ خُسوفٍ: خَسفٌ بالمشرِقِ، وخَسفٌ بالمغرِبِ، وخَسفٌ

(١) رواه مسلم (١٥٨).

قال الشنقيطي: (طلوعُ الشَّمسِ والدَّابَّةُ مُترادِفانِ، بيْنَهما قليلٌ، جاء في بعضِ الأحاديثِ أنَّ الشَّمسَ إذا طلَعت مِن مَغْرِبِها خرَجت الدَّابَّةُ ضُحًى [ينظر ما أخرجه مسلم (٢٩٤١) من حديث عبد الله بن عَمرٍو رضي الله عنهما، مرفوعًا]،... قال بعضُ العلماءِ: والحكمةُ في إتيانِ الدَّابَّةِ بعدَ الشَّمسِ: أنَّ الشمسَ إذا طلَعت مِن مَغرِبِها خُتِم على الأعمالِ، ولم يُقبَلْ مِن كافرٍ إيمانٌ، ولم يُقبلْ مِن عاصٍ توبةٌ، وانقطع تجديدُ إيمانٍ جديدٍ، أو تَوبةٍ جديدةٍ، فيُرسِلُ اللهُ بعدَ ذلك الدَّابَّةَ، فتَكتُبُ على جبهةِ كلِّ إنسانٍ: «سعيد» أو «شقي» يَعرِفُه مَن يَراه؛ لِتُبيِّنَ حالَ النَّاسِ عندَ انقطاعِ أعمالِهم: مَن هو الكافرُ منهم، ومَن هو السعيدُ؟). ((العذب النمير)) (٢/ ٥٩٧).

(٢) أمْرَ العامَّةِ: قيل: أي: الفِتنة الَّتي تَعُمُّ النَّاسَ، وقيل: القيامة؛ لأنَّه يَعُمُّ الخلائقَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٨٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٥٠).

(٣) خُوَيْصَّة: تصغيرُ خاصَّة، أي: الوقعة الَّتي تخُصُّ أحدَكم؛ قيل: يريدُ الموتَ، وقيل: هي ما يختصُّ به الإنسانُ مِن الشَّواغلِ المُتعلِّقةِ في نفْسِه ومالِه وما يهتَمُّ به، وصُغِّرَتْ؛ لاستِصغارِها في جنبِ سائرِ الحَوادثِ مِنَ البعثِ والحسابِ وغيرِ ذلك. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) (٨/ ٣٤٥٠).

(٤) رواه مسلم (٢٩٤٧).

بجزيرةِ العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ تخرُجُ مِنَ اليَمَنِ، تَطرُدُ النَّاسَ إلى مَحْشَرِهم))[(١)].

﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

أي: تخاطِبُ الدَّابَّةُ الكافرينَ[(٢)] بأنَّ[(٣)] النَّاسَ لا يُؤمِنونَ بآياتِ اللهِ تعالى إيمانًا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠١).

(٢) ممَّن نصَّ على أنَّ معنى ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾: تُحَدِّثُهم: مقاتِلُ بن سليمان، والفَرَّاء، والسمرقندي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وابنُ عباسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠).

وقيل: معنى ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾: تَجرَحُهم، مِنَ الكَلْمِ: وهو الجَرْحُ، والتَّشديدُ على معنى التَّكثيرِ.

وممَّن ذكر هذا المعنى: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٥).

وأنكر ابنُ عثيمين هذا المعنى وردَّه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٩).

وذكر الأزهريُّ أن قراءة (تَكْلِمُهُم) مِن الكَلْمِ: شاذَّةٌ لا يُعرَّجُ عليها. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٤٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ١٤٧)، ((الكامل في القراءات)) للهذلي (ص: ٦١٣).

قال ابن كثير: (وقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ: تَجْرَحُهم. وعنه روايةٌ: قالَ: كُلًّا تَفعَلُ، يعني هذا وهذا. وهو قولٌ حسنٌ، ولا مُنافاةَ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٢٦).

(٣) اختلف المفسِّرون في تفسير قَولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ ...﴾ فقيل: هو مِن كلام الدَّابَّةِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتِلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسعدي، ونسبه ابن عثيمين إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٠).

وممَّن رُوِيَ عنه أنَّه قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وابنُ عباس، وقتادة، وعطاء الخراساني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠). =

تامًّا لا شكَّ فيه ولا شُبهةَ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إنَّما قصَّ عليهم أكثَرَ ما اختلَفوا، وهو ما في بيانِ الحَقِّ منه نفعٌ للمُسلِمينَ، وأعرَض عمَّا دُونَ ذلك، وأكثَرُ الَّذي يختَلِفونَ فيه هو ما جاء في القُرآنِ مِن إبطالِ قَولِهم فيما يَقتضي إرشادُهم إلى الحَقِّ أن يُبيَّنَ لهم، وغيرُ الأكثَرِ ما لا مَصلَحةَ في بيانِه لهم[2]، وما لا فائدةَ مِن ذِكْرِه، أو ما لا داعيَ

= لكنْ قال ابنُ كثير: (وفي هذا القولِ نظرٌ لا يخفَى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠).

وممَّن جعَله تعليلًا لخروج الدَّابَّةِ، أي: أنَّا أخرَجْناها؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يوقِنون: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٨).

وفي ﴿أَنَّ﴾ قراءاتان: قراءةٌ بفتحِ الهمزةِ، وقرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ، وقراءةٌ بكسر الهمزة، وقرأ بها الباقون، قال السمرقنديُّ: (فمَن قرَأ بالنَّصبِ، يكونُ حكايةَ قولِ الدَّابَّةِ، ومعناه: تُكلِّمُهم بأنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يوقِنونَ، أي: لا يؤْمِنون بآياتِ ربِّهم، وهي خروجُ الدَّابَّةِ. ومَن قرَأ بالكسرِ يكونُ بمعنَى الابتِداءِ، ويتِمُّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾، ثمَّ يقولُ الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((المحتسب)) لابن جِنِّي (٢/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

مِنَ المفسِّرينَ مَن قصَرَ معنى الآياتِ هنا على خروجِ الدَّابَّةِ. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢).

وقال ابنُ جُزَي: (يحتَمِلُ قَولُه: ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ بخروجِ الدَّابَّةِ، ولا يوقِنونَ بالآخرةِ وأمورِ الدِّينِ، وهذا أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٠، ٣١).

لِذِكْرِه، ويُستفادُ مِن ذلك أنَّه ينبغي أنْ يُعتنَى بما هو مهمٌّ؛ ويُترَكَ ما لا فائدةَ منه؛ لأنَّه إضاعةٌ للوقتِ، وتطويلٌ للكلامِ بلا فائدةٍ؛ لأنَّه لم يَقُصَّ عليهم جميعَ ما يَختلفون فيه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ بيانُ أنَّ المُحِقَّ حقيقٌ بنُصرةِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يُخذَلُ(٢). وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الَّذي يَعلَمُ أنَّ الحقَّ في جانِبِه حقيقٌ بأنْ يَثِقَ بأنَّ اللهَ مُظهِرٌ حقَّه ولو بعْدَ حينٍ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ أنَّ كَوْنَ العبدِ على الحقِّ يقتضي تحقيقَ مقامِ التَّوكُّلِ على اللهِ، والاكتِفاءَ به، والإيواءَ إلى رُكنِه الشَّديدِ؛ فإنَّ اللهَ هو الحقُّ، وهو وَلِيُّ الحقِّ وناصرُه ومُؤيِّدُه، وكافي مَن قام به(٤).

٤- في ذِكْرِ أمْرِه سُبحانَه بالتَّوكُّلِ، مع إخبارِه بأنَّه على الحقِّ في قَولِه تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾، دَلالةٌ على أنَّ الدِّينَ بمَجموعِه في هذَينِ الأمْرينِ: أنْ يَكونَ العبدُ على الحقِّ في قولِه وعملِه واعتقادِه ونيَّتِه، وأنْ يكونَ متوكِّلًا على اللهِ واثقًا به؛ فالدِّينُ كلُّه في هذَينِ المقامَينِ(٥).

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ فيه شهادةُ اللهِ تعالى لِمَا جاء به الرسولُ بأنَّه حَقٌّ، ومِن هذه الفائدةِ نستفيدُ فائدةً أخرى، وهي: التَّرغيبُ في سُلوكِ طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ما دام حقًّا؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ عاقلٍ يختارُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٢٧).

الحقَّ على الباطلِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ تعالى، والشَّاهدُ قولُه: ﴿يَقُصُّ﴾؛ والقصصُ لا يكونُ إلَّا قولًا، فإذا كان القرآنُ هو الذي يَقُصُّ؛ فهو كلامُ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الذي قَصَّ هذه القصصَ؛ قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]؛ وحينَئذٍ يكونُ القرآنُ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أنَّه يجوزُ أنْ يُخَصَّ طائفةٌ ممَّن يُخاطَبون؛ مِن أجْلِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم؛ فإنَّ ﴿ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وغيرِهم، لكنَّ بني إسرائيلَ اعتنى بهم هنا؛ لأنَّ الموضوعَ فيما يتعلَّقُ بهم(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه لا يَنالُ هذا الهدى وتلك الرَّحمةَ إلَّا المؤمنون، ولا مُعارَضةَ بيْنَ هذه الآيةِ وبيْنَ قولِه تعالى في وصْفِ القرآنِ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والجمعُ بيْنَهما: أنَّ الإثباتَ هنا والإثباتَ هناك مُختَلِفَا الجهةِ؛ فهناك ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ بمعنى: دليلٍ لهم، فهو دليلٌ لكلِّ الناسِ، فهو نَفْسُه صالحٌ للهدايةِ لجميعِ البشرِ، ففي حالةِ العمومِ معناه: دالٌّ، ومَوضِعُ دَلالةٍ، وفي حالةِ التَّقييدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٤).

بالمؤمنينَ والمُتَّقينَ: فمعناه أنَّهم المُنتفِعونَ به، المُوَفَّقونَ للاهتِداءِ به[(١)].

فالهدى يُستعمَلُ في القرآنِ استِعمالَينِ: أحدُهما عامٌّ، والثَّاني خاصٌّ؛ أمَّا الهدى العامُّ فمعناه إبانةُ طريقِ الحقِّ وإيضاحُ المَحَجَّةِ، سواءٌ سَلَكها المُبَيَّنُ له أمْ لا، ومنه بهذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: بَيَّنَّا لهم طريقَ الحقِّ على لسانِ نبيِّنا صالح عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّهم لم يَسلُكوها؛ بدليلِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

ومنه أيضًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، أي: بَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وأمَّا الهدى الخاصُّ فهو تفضُّلُ اللهِ بالتَّوفيقِ على العبدِ، ومنه بهذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٩٠]، وقولُه سُبحانَه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإذا عَلِمتَ ذلك، فاعلَمْ أنَّ الهدى الخاصَّ بالمُتَّقينَ والمؤمنينَ هو الهدى الخاصُّ، وهو التفضُّلُ بالتَّوفيقِ عليهم، والهدى العامَّ للنَّاسِ هو الهدى العامُّ، وهو إبانةُ الطَّريقِ وإيضاحُ المَحَجَّةِ، وبهذا يرتفِعُ الإشكالُ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا، كان أقوى اهتِداءً بالقُرآنِ، وهذا مأخوذٌ مِن قاعدة: «إنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ، قَوِيَ ذلك الحُكمُ بقوَّةِ ذلك الوصفِ، وضَعُفَ بضَعفِ ذلك الوصفِ»، فما دامتِ الهدايةُ والرَّحمةُ مُعلَّقةً بوصفِ الإيمانِ؛ فكلَّما ازداد هذا الوصفُ ازداد الهدى وازدادتِ الرَّحمةُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٨، ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٩).

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾؛ في قوله: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أضاف الحُكْمَ إلى اللهِ سبحانه وتعالى لأمورٍ:

الأمرِ الأولِ: أنه حُكْمٌ متضمنٌ للعدلِ.

والأمرِ الثاني: أنه حُكْمٌ لا يُعقَّبُ، بل لا بُدَّ أنْ ينفُذَ[١].

والأمرِ الثالثِ: الإصلاحُ، يعني ما دام حُكْمًا مضافًا إلى اللهِ سبحانه وتعالى -وقد عُلِمَ أنَّه سبحانه وتعالى حكيمٌ-؛ فإنَّ هذا الحُكْمَ لا بُدَّ أنْ يكونَ مناسبًا وموافقًا لمحَلِّه، وكلُّ حُكْمٍ وافقَ مَحَلَّه فهو إصلاحٌ، وهذا بخلافِ حُكمِ غيره[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يؤخَذُ مِن جمْعِ هذَينِ الوصفَينِ لله سُبحانَه وتعالى عَقِبَ ذِكرِ الحُكمِ: تمامُ حُكْمِ اللهِ، حيث كان مَبنيًّا على العِزَّةِ والعِلمِ؛ فبالعِزَّةِ يَكونُ التَّنفيذُ، وبالعِلمِ يكونُ الصَّوابُ، فمِن شُروطِ الحُكمِ العِلمُ والعِزَّةُ؛ فالعِلمُ لِيَحكُمَ بالصَّوابِ، والعِزَّةُ لِينفذَ ما حكَم به، وإنَّ خَلَلَ الحُكمِ يأتي إمَّا مِنَ الجهلِ، وإمَّا مِنَ الضَّعفِ؛ إمَّا لجهلِ الحاكمِ فيحكُم بغيرِ الصَّوابِ، وإمَّا لِضَعفِه فلا يستطيع أن ينفذَ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، في قَولِه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ سؤالٌ: ما الحِكمةُ في تقديم «العِزَّة» هنا على «العلم»، مع أنَّ العِلمَ سابقٌ مِن حيثُ التَّرتيبُ الحُكمِيُّ؛ إذ إنَّه يَعلمُ ثمَّ يَحكمُ ثمَّ يُنَفِّذُ، والعِزَّةُ تَتعلَّقُ بالتَّنفيذِ الَّذي يكونُ بعدَ الحُكمِ؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣٥).

الجوابُ: لأنَّ المقامَ هنا يقتضي بيانَ قوَّةِ حُكمِ اللهِ سُبحانه وتعالى، وأنَّ هذا الحُكمَ لا بُدَّ أنْ يُنَفَّذَ؛ لِكَونِه صادرًا عن عزيزٍ، فكان مِن المناسِبِ تقديمُ «العِزَّةِ» على «العِلم»[١].

٨- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ فيه فضيلةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ حيثُ كان مَسلَكُه الحقَّ المبِينَ؛ ، فهذا فيه شهادةٌ مِن اللهِ وتزكيةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أنَّ كلَّ ما خالَفَ ما كان عليه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فهو باطلٌ؛ لأنَّنا لو قُلْنا: إنَّه حقٌّ لَلَزِمَ الجمْعُ بينَ النَّقيضَينِ! فلا بُدَّ أنَّ أحدَهما هو الحقُّ؛ ولهذا يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ويقولُ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ -إحداها- ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فإنْ كانتِ المخالَفةُ تامَّةً فهو باطلٌ كلُّه، وإنْ كانتِ المخالفةُ جزئيَّةً كان فيه مِن الباطلِ بقدرِ ما خالفَ ما كان عليه الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أنَّ بيانَ الحقِّ لا يَلْزَمُ منه أنْ يكونَ بَيِّنًا لكلِّ أحدٍ، فإنَّ الخفافيشَ تَعمى بضياءِ النَّهارِ! فلا يلزمُ مِن كَونِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على الحقِّ المبينِ ألَّا يُعرِضَ عنه أحدٌ! ولهذا أعقبَه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعني: لا تَظُنَّ أنَّ هؤلاء الَّذين أَعرَضوا أَعرَضوا لأنَّك على باطلٍ، بل لِعَدَمِ قابليَّةِ المَحَلِّ، وكما هو معروفٌ أنَّ الشَّيءَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

-وإنْ كان تامًّا- إذا لم يَجِدْ محلًّا قابلًا لم يكُنْ له تأثيرٌ، فما كان عليه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الحقِّ المُبِينِ، وهو حقٌّ مُبِيْن بلا شكٍّ؛ بَيِّنٌ ظاهرٌ، وعدَمُ سماعِ هؤلاء له ليس لخللٍ فيه؛ فالسَّببُ تامٌّ، لكنَّ الخللَ في المَحَلِّ، فهو غيرُ قابلٍ لهذا الحقِّ[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حَسُنَ جعْلُه سببًا للأمرِ بالتَّوكُّلِ؛ لأنَّ الإنسانَ ما دام يَطْمَعُ في أحدٍ أنْ يأخُذَ منه شَيئًا فإنَّه لا يقوى قلْبُه على إظهارِ مُخالَفتِه، فإذا قَطَعَ طمَعَه عنه قَوِيَ قلْبُه على إظهارِ مخالَفتِه، فاللهُ سبحانه وتعالى قَطَعَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ عنهم بأنْ بَيَّنَ له أنَّهم كالموتى وكالصُّمِّ وكالعُمْيِ؛ فلا يَفهَمون ولا يَسمَعون ولا يُبصِرون ولا يَلتَفِتون إلى شَيءٍ مِنَ الدَّلائلِ، وهذا سببٌ لقوَّةِ قلْبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على إظهارِ الدِّينِ كما ينبغي[2].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ بيانُ أنَّ مُجرَّدَ دعائك وتبليغِك وحِرصِك على هُدى النَّاسِ، ليس بموجِبٍ ذلك، وإنَّما يَحصُلُ ذلك إذا شاء اللهُ هُداهم، فشَرَح صدورَهم للإسلامِ[3].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا ولَّى مُدْبِرًا عن الشَّرعِ فإنَّه قد يُعاقَبُ بالصَّمَمِ عن سَماعِ الحقِّ، بحيثُ إنَّه لا يَنتَفِعُ بمَوعظةٍ ولا نصيحةٍ، وهذا هو الغالِبُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَملِكُ هدايةَ الخلْقِ، ولا يُعارِضُ هذا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأنَّ الهدايةَ المُثبَتةَ غيرُ الهدايةِ المنفيَّةِ؛ الهدايةُ المُثبَتةُ هدايةُ الدَّلالةِ والعِلمِ والبيانِ، فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُعَلِّمٌ ومُبَيِّنٌ ودالٌّ للخلْقِ على الحقِّ، وأمَّا التَّوفيقُ لذلك فهو بيدِ اللهِ، فالجمْعُ بيْنَ الهدايةِ المُثْبَتةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمَنْفيَّةِ عنه أن نقولَ: ما أُثبِتَ للرَّسولِ فهو هدايةُ العِلمِ والبيانِ، وما نُفِيَ عنه فهو هدايةُ التَّوفيقِ والعملِ، فلا يستطيعُ هذا أبدًا[1].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أنَّه كُلَّما قَوِيَ إيمانُ الإنسانِ بآياتِ اللهِ قوِيَ انتفاعُه بها؛ لأنَّه عُلِّقَ على وصْفِ الإيمانِ بهذه الآياتِ؛ فكُلَّما قَوِيَ هذا الوصفُ قَوِيَ الانتفاعُ[2].

١٦- قال الله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ في قَولِه: ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ يَستلزِمُ الإسلامَ[3].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ من أشراطِ الساعةِ الكبرى خروجَ الدَّابَّةِ[4].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ كانت هذه الدَّابَّةُ تُكَلِّمُ الناسَ بكلامٍ يَفهمونه؛ مع أنَّ الحيواناتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٢).

تَتكلَّمُ بكلامٍ لا يَفْهَمُه الإنسُ إلَّا مَن عَلَّمَه اللهُ تعالى مَنْطِقَها، كما في قِصَّةِ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ[(١)].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أنَّ عدَمَ اليقينِ بآياتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى سببٌ للهَلاكِ، وأنَّه لا يكفي التَّردُّدُ أو الإيمانُ الضَّعيفُ، بل لا بُدَّ مِن إيقانٍ؛ فالمتَرَدِّدُ بما يجبُ الإيمانُ به ليس بمؤمنٍ، فلا بُدَّ مِن اليقينِ بما يجبُ الإيمانُ به[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ إبطالٌ لقولِ الذين كَفَروا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]، ومَوقِعُ هذه الآيةِ استكمالُ نَواحي هَدْيِ القرآنِ للأُمَمِ؛ فإنَّ السُّورةَ افتُتِحَتْ بأنَّه هُدًى وبُشرى للمؤمنينَ، وأنَّ المشركين الَّذين لا يُؤمِنون بالآخرةِ يَعْمَهون في ضَلالِهم، فلمْ يَنتفِعوا بهَدْيِه؛ فاسْتَكمَلَتْ هذه الآيةُ ما جاء به مِن هَدْيِ بني إسرائيلَ لِمَا يُهِمُّ ممَّا اخْتَلفوا فيه[(٣)].

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) مَنظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقِعَ التَّعريضِ بهم[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تَعريضٌ كالتَّذييلِ[(٥)]، وهذا راجعٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨٠).

إلى قولِه في طالعِ السُّورةِ: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]؛ ذُكِرَ هنا لاستيعابِ جِهاتِ هَدْيِ القرآنِ[(١)].

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّام أيضًا مَنظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقِعَ التَّعريضِ بهم[(٢)].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ، فيُعلَمُ أنَّ القضاءَ يَقْتضي مُختَلِفينَ، وأنَّ كلمةَ (بيْن) تَقْتضي مُتعدِّدًا، فأفاد أنَّ اللهَ يَقْضي بيْنَ المؤمنينَ بالقرآنِ والطَّاعنينَ فيه قضاءً يُبيِّنُ المُحِقَّ مِنَ المُبطِلِ. وهذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وللمؤمنينَ عن اسْتبطائِهم النَّصرَ؛ فإنَّ النَّبيَّ أوَّلُ المؤمنينَ، وإنَّما تَقلَّدَ المؤمنون ما أنْبَأهم به؛ فالقضاءُ للمؤمنينَ قضاءٌ له باديَ ذي بَدْءٍ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في تَوجيهِ الخِطابِ إلى جنابِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وإسنادِ القضاءِ إلى اللهِ في شأْنِه بعُنوانِ أنَّه ربٌّ له: إيماءٌ بأنَّ القضاءَ سَيكونُ مُرْضِيًا له وللمؤمنينَ -فجُعِلَ الرَّسولُ في هذا الكلامِ بمَقامِ المُبلِّغِ، وجُعِلَ القضاءُ بيْنَ أُمَّتِه مؤمنِهم وكافرِهم-، وتَعجيلٌ لِمَسَرَّةِ الرَّسولِ بهذا الإيماءِ[(٤)].

- وإسنادُ القضاءِ إلى اللهِ، وتَعليقُ حُكمٍ مُضافٍ إلى ضَميرِه به في قولِه: ﴿يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، يعني: أنَّ ربَّك يَقْضي بيْنَهم بحُكمِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المعروفِ المُشتهِرِ، اللَّائقِ بعُمومِ عِلْمِه واطِّرادِ عَدْلِه. أو يكونُ الحُكْمُ بمعنى الحِكمةِ، وهو إطلاقٌ شائعٌ؛ قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، ولم يكُنْ يَحيى عليه السلامُ حاكِمًا، وإنَّما كان حَكيمًا نَبيًّا؛ فيكونُ المعنى على هذا: إنَّ ربَّك يَقْضي بيْنَهم بحِكمتِه، أي: بما تَقْتضيه الحِكمةُ، أي: من نَصْرِ المُحِقِّ على المُبطِلِ. ومآلُ التَّأويلَين إلى معنًى واحدٍ، وبه يَظهَرُ حُسنُ مَوقِعِ الاسمينِ الجليلينِ في تَذييله بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ فإنَّ العزيزَ لا يُصانِعُ، والعليمَ لا يَفوتُه الحقُّ، ويَظهَرُ حُسنُ مَوقِعِ التَّفريعِ بقولِه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ كأنَّه قِيل له صَلَواتُ اللهِ عليه: أَعرِضْ عنهم وتارِكْهم؛ لأنَّك بالَغْتَ في الإنذارِ وأعْذَرْتَ، وأنَّهم لا يُؤمنون الْبتَّةَ، ولم يَبْقَ لك إلَّا الاستِنصارُ، والتَّوكُّلُ على الغالبِ القاهرِ لأعدائِه، النَّاصرِ والمُتولِّي لِأوليائِه؛ لأنَّ الأصلَ: فتَوكَّلْ عليه؛ لقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾؛ فوُضِعَ اسمُ الذَّاتِ ﴿ٱللَّهِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ فأفاد في هذا المقامِ هذا المعنى[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لتَرتيبِ الأمْرِ على ما ذُكِرَ من شُؤونه عزَّ وجلَّ؛ فإنَّها مُوجبةٌ للتَّوكُّلِ عليه، وداعيةٌ إلى الأمْرِ به[3]، وفُرِّعَت الفاءُ على الإخبارِ بأنَّ ربَّ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَقْضي بيْنَ المُختلِفينَ في شأْنِ القرآنِ أمْرًا للرَّسولِ بأنْ يَطْمئِنَّ بالًا، ويَتوكَّلَ على ربِّه فيما يَقْضي به؛ فإنَّه يَقْضي له بحَقِّه، وعلى مُعانِدِه بما يَستحِقُّه؛ فالأمْرُ بالتَّوكُّلِ مُستعمَلٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٢، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٩).

كِنايتِه وصَريحِه؛ فإنَّ مِن لازِمِه أنَّه أدَّى رِسالةَ ربِّه، وأنَّ إعراضَ المُعرِضينَ عن أمْرِ اللهِ ليس تَقصيرًا مِن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وهو معنًى تكرَّرَ في القرآنِ؛ كقولِه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الكهف: ٦]، وقولِه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾(١) [النمل: ٧٠].

- قولُه: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التَّوكُّلُ: تَفعُّلٌ مِن: وكَلَ إليه الأمْرَ: إذا أسنَدَ إليه تَدبيرَه ومُباشَرتَه؛ فالتَّفعُّلُ للمُبالَغةِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جِيءَ في فِعلِ التَّوكُّلِ بعُنوانِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ ذلك الاسمَ يَتضمَّنُ معانيَ الكمالِ كلَّها، ومِن أعلاها العدْلُ في القضاءِ ونَصرُ المُحِقِّ، وذلك بعْدَ أنْ عُجِّلَتْ مَسرَّةُ الإيماءِ إلى أنَّ القضاءَ في جانبِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بإسنادِه القضاءَ إلى عُنوانِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ الرَّسولِ(٣).

- وجاءت جُملةُ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ مَجيءَ التَّعليلِ للأمْرِ بالتَّوكُّلِ على اللهِ؛ إشعارًا بأنَّه على الحقِّ، فلا يَترقَّبُ مِن تَوكُّلِه على الحَكَمِ العدْلِ إلَّا أنْ يكونَ حُكمُه في تأييدِه ونفْعِه، وشأْنُ (إنَّ) إذا جاءت في مَقامِ التَّعليلِ أنْ تكونَ بمعنى (الفاءِ)؛ فلا تُفيدُ تأْكيدًا، ولكنَّها للاهتِمامِ(٤).

- ووَقَعت ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ مَوقِعًا لم يُخاطِبِ اللهُ تعالى أحدًا مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٣، ٣٤).

رُسلِه بمِثْلِه؛ فكان ذلك شَهادةً لرسولِه بالعَظَمةِ الكاملةِ المُنزَّهةِ عن كلِّ نقْصٍ؛ لِمَا دلَّ عليه حرفُ (على) مِن التَّمكُّنِ، وما دلَّ عليه اسمُ (الحقِّ) مِن معنًى جامعٍ لحقائقِ الأشياءِ، وما دلَّ عليه وصْفُ (مُبين) مِن الوُضوحِ والنُّهوضِ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ جوابًا عمَّا يَخطُرُ في بالِ السَّامعِ عقِبَ قولِه: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، مِن التَّساؤلِ عن إعراضِ أهْلِ الشِّركِ لِمَا عليه الرَّسولُ مِن الحقِّ المُبِينِ(٢).

- وهو أيضًا تعليلٌ آخَرُ للأمْرِ بالتَّوكُّلِ على اللهِ -الذي هو عبارةٌ عن التَّبتُّلِ إلى اللهِ تعالَى، وتَفويضِ الأمرِ إليهِ، والإعراضِ عن التَّشبُّثِ بما سِواهُ-؛ فمَوقِعُ حرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) فيه كمَوقعِه في التَّعليلِ بالجُملةِ التي قبْلَه، وهذا عُذْرٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وتَسليةٌ له، ولكونِه تَعليلًا لجانبٍ مِن التَّركيبِ -وهو الجانبُ الكِنائيُّ- غيرَ الذي عُلِّلَ بجُملةِ ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]؛ لم تُعطَفْ هذه الجُملةُ على التي قبْلَها؛ تَنبيهًا على استِقلالِها بالتَّعليلِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ شُبِّهوا بالمَوتى وهم أحياءٌ صِحاحُ الحَواسِّ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ما يُتْلى عليهم مِن آياتِ اللهِ لا تَعيهِ آذانُهم، فكانت حالُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٤).

-لانتفاءِ جَدْوى السَّماعِ- كحالِ المَوتى الَّذين فَقَدوا الحياةَ، وكذلك تَشبيهُهم بالصُّمِّ الَّذين يُنعَقُ بهم فلا يَسْمَعون. ولعلَّ المُرادَ تَشبيهُ قُلوبِهم بالمَوتى فيما ذُكِرَ مِن عدَمِ الشُّعورِ؛ فإنَّ القلبَ مَشْعَرٌ مِن المُشاعِرِ أُشيرَ إلى بُطلانِه بالمرَّةِ، ثمَّ بُيِّن بُطلانُ مَشْعَرَيِ الأُذنِ والعَينِ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وإلَّا فبَعْدَ تَشبيهِ أنفُسِهم بالمَوتى لا يَظهَرُ لتَشبيهِهم بالصُّمِّ والعُمْيِ مَزيدُ مَزِيَّةٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ لَمَّا كان المَيتُ لا يُمكِنُ أنْ يَسمَعَ لم يُذكَرْ له مُتعلَّقٌ، بلْ نفَى الإسماعَ، أي: لا يقَعُ منك إسماعٌ لهم الْبتَّةَ؛ لعَدَمِ القابليَّةِ. وأمَّا الأصَمُّ فقد يكونُ في وقْتٍ يُمكِنُ إسماعُه وسماعُه؛ فأتى بمُتعلَّقِ الفِعلِ، وهو الدُّعاءُ[٢].

- وقولُه: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ مِن بابِ التَّتميمِ[٣]؛ فتَقييدُ الصُّمِّ بزَمانِ تَوَلِّيهم مُدْبرينَ؛ لأنَّ تلك الحالةَ أوغَلُ في انتفاءِ إسماعِهم؛ لأنَّ الأصمَّ إذا كان مُواجِهًا للمُتكلِّمِ قد يَسمَعُ بعضَ الكلامِ بالصُّراخِ ويَستفيدُ بَقيَّتَه بحَركةِ الشَّفتينِ، فأمَّا إذا ولَّى مُدبِرًا فقد ابتَعَدَ عن الصَّوتِ، ولم يُلاحِظْ حَركةَ الشَّفتينِ؛ فذلك أبعَدُ له عن السَّمعِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٣) تقدم تعريفه.

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠)، ((الجدول في إعراب =

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ شُبِّهوا بالعُمْيِ حيثُ يَضِلُّون الطَّريقَ، ولا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يَنزِعَ ذلك عنهم، وأنَّ يَجعَلَهم هُداةً بُصراءَ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ففي الآيةِ حَصرٌ مُستفادٌ مِن تَقديمِ الضَّميرِ (أنت) وذِكْرِ حَرفِ النَّفيِ (ما) بعْدَه[1].

- وعُدِلَ في هذه الجُملةِ عن صِيغتَيِ النَّفْيَيْنِ السَّابقَينِ في قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠] الواقعَينِ على مُسندَينِ فِعليَّينِ، إلى تَسليطِ النَّفيِ هنا على جُملةٍ اسميَّةٍ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ النَّفيِ. وأُكِّدَ ذلك الثَّباتُ بالباءِ المَزيدةِ لتأكيدِ النَّفيِ. ووَجْهُ إيثارِ هذه الجُملةِ بهذينِ التَّحقيقينِ: هو أنَّه لَمَّا أفْضى الكلامُ إلى نفْيِ اهتِدائِهم، وكان اهتِداؤُهم غايةَ مَطمَحِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ كان المَقامُ مُشعِرًا ببَقيَّةٍ مِن طَمَعِه في اهتدائِهم حِرْصًا عليهم؛ فأُكِّدَ له ما يَقلَعُ طمَعَه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾[2] [ق: ٤٥].

- وقولُه: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لِترَقُّبِ السَّامعِ

= القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٥، ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٧).

مَعرفةَ مَن يَهْتَدون بالقرآنِ[١]. وإيرادُ الإسماعِ في النَّفيِ والإثباتِ دونَ الهِدايةِ مع قُرْبِها، بأنْ يُقالَ: إنْ تَهْدي إلَّا مَن يُؤمِنُ... إلخ؛ لِمَا أنَّ طريقَ الهِدايةِ هو إسماعُ الآياتِ التَّنزيليَّةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أُوثِرَ التَّعبيرُ بالمُضارِعِ؛ لِيَشمَلَ مَن آمَنوا مِن قبْلُ؛ فيُفيد المُضارِعُ استمرارَ إيمانِهم ومَن سيُؤْمِنون[٣].

- وفرَّعَ على قولِه: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ قولَه: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ المُفيدَ للدَّوامِ والثَّباتِ؛ لأنَّهم إذا آمَنوا فقد صار الإسلامُ راسخًا فيهم، ومُتَمَكِّنًا منهم، وكذلك الإيمانُ حين تُخالِطُ بَشاشَتُه القلوبَ[٤]. وقيل: هو تَعليلٌ لإيمانِهم بها، كأنَّه قِيلَ: فإنَّهم مُنقادونَ للحقِّ، وقيلَ: مُخلِصون للهِ تعالى[٥].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ بيانٌ لِمَا أُشيرَ إليه بقولِه تعالى: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢] مِن بقيَّةِ ما يَستعجِلونَهُ مِن السَّاعةِ ومَبادِيها[٦]. وانتِقالٌ إلى التَّذكيرِ بالقيامةِ وما ادُّخِرَ لهم مِن الوعيدِ؛ فهذه الجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ قبْلَها عطْفَ قِصَّةٍ على قصَّةٍ[٧].

- وقولُه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ فيه التَّعبيرُ عن وُقوعِه بصِيغةِ الماضي؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٨).

لتَقريبِ زَمنِ الحالِ مِن المُضِيِّ، أي: أشرَفَ وُقوعُه، على أنَّ فِعلَ المُضِيِّ مع (إذا) يَنقلِبُ إلى الاستِقبالِ(١).

- قولُه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ المُرادُ بـ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ ما نطَقَ مِن الآياتِ الكريمةِ بمَجيءِ السَّاعةِ وما فيها مِن فُنونِ الأَهوالِ التي كانُوا يَستعجِلُونها، وبوُقوعِه قِيامُها وحُصولُها -وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-؛ عبَّرَ عن ذلكَ به للإيذانِ بشِدَّةِ وقْعِها وتأْثيرِها، وإسنادُه إلى القولِ؛ لِمَا أنَّ المُرادَ بَيانُ وُقوعِها مِن حيثُ إنَّها مِصْداقٌ للقولِ النَّاطقِ بمَجيئِها(٢).

- قولُه: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ في التَّعبيرِ عنها باسمِ الجِنسِ ﴿دَآبَّةً﴾ وتأكيدِ إبهامِه بالتَّنوينِ التَّفخيميِّ، مِنَ الدَّلالةِ على غَرابةِ شأنِها، وخُروجِ أوصافِها عن طَورِ البَيانِ: ما لا يَخْفى(٣).

- وجُملةُ ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تَعليلٌ لإظهارِ هذا الخارِقِ للعادةِ؛ حيث لم يُوقِنِ المُشرِكون بآياتِ القرآنِ، فجُعِلَ ذلك إلجاءً لهم حينَ لا يَنفَعُهم(٤)، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- وفي قولِه: ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وصَفَهم بعَدمِ الإيقانِ بها مع أنَّهم كانُوا جاحِدينَ بها؛ للإيذانِ بأنَّه كان مِن حقِّهم أنْ يُوقِنوا بها ويَقْطَعوا بصِحَّتِها، وقد اتَّصَفوا بنَقيضِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٣٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠١).

الآيات (٨٢-٨٥)

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَوْجًا﴾: أي: زُمْرةً وجماعةً، والفَوجُ: الجماعةُ مِن الناسِ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجمُّعٍ[1].

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُدفَعونَ، ويُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، وأصلُ (الوَزْع): الكفُّ والمنعُ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبَيِّنًا بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ نجمَعُ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

قال الشنقيطيُّ: (﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُرَدُّ أوَّلُهم إلى آخِرِهم، ويلحقُ آخِرُهم بأوَّلِهم، حتَّى يجتمِعوا جميعًا، ثمَّ يُدفَعون في النَّارِ، وهو مِن قولِ العربِ: وَزَعْتُ الجَيشَ؛ إذا حبسْتَ أوَّلَه على آخِرِه حتَّى يَجتمِعَ. وأصلُ الوَزْعِ: الكَفُّ، تقولُ العربُ: وَزَعَه يَزَعُه وَزْعًا فهو وازِعٌ له؛ إذا كفَّه عن الأمرِ... وبما ذكَرْنا تَعلَمُ أنَّ أصلَ معنَى ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يُكَفُّ أوَّلُهم عن التَّقدُّمِ، وآخِرُهم عن التَّأخُّرِ حتَّى يَجتمِعوا جميعًا. وذلك يدُلُّ على أنَّهم يُساقُون سَوقًا عنيفًا، يُجمَعُ به أوَّلُهم مع آخِرِهم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥).

كلِّ أمةٍ جماعةً كثيرةً ممَّن يُكذِّبُ بآياتِ القُرآنِ وحُجَجِه، فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم حتَّى يجتَمِعوا جَميعًا، فلمَّا جاؤوا قال اللهُ لهم مُوبِّخًا: أكذَّبتُم بآياتي وأنتم جاهِلونَ بها لم تَعرِفوها حقَّ مَعرفتِها، أم ما الَّذي كنتُم تَعملونَه؟!

ونزَل عذابُ اللهِ وغضَبُه يومَ القيامةِ على أولئك المكَذِّبينَ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم، فهم لا يَنطِقونَ بحُجَّةٍ أو عُذرٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن فِعلِ الدَّابَّةِ التَّمييزُ بيْنَ المؤمِنِ والكافِرِ بما لا يَستطيعون دَفْعَه، تلاه بتمييزِ كُلِّ فَريقٍ منهما عن صاحِبِه بجَمعِهم يومَ القيامةِ في ناحيةٍ، وسَوقِهم مِن غيرِ اختلاطٍ بالفريقِ الآخَرِ، فقال عاطفًا على العامِلِ في ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾[1]:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: واذكُرْ[2] يومَ نَجمَعُ مِن كُلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ جماعةً كثيرةً مِمَّن[3] يُكذِّبُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٨).

(٢) قال الشوكاني: (﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ العاملُ في الظَّرفِ، فِعلٌ محذوفٌ خُوطِب به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ...، ومعنَى الآيةِ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ نجمعُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ...). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٧).

(٣) قيل ﴿مِن﴾ هنا بيانيَّةٌ، فيكونُ فَوجُ كُلِّ أمةٍ هو جماعةَ المكذِّبينَ منها، أي: يُحشَرُ مِن الأمَّةِ كُفَّارُها، ويبقَى صالحوها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٧).

وقيل: يجوزُ جَعْلُ (مِن) تبعيضيَّةً؛ بأن يكونَ المعنى إخراجَ فَوجٍ مِن المكذِّبينَ مِن كُلِّ أمَّةٍ، وهذا الفَوجُ هو زُعَماءُ المكَذِّبين وأئمَّتُهم، فيكونون في الرَّعيلِ الأوَّلِ إلى العذابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠).

بآياتِ القُرآنِ وحُجَجِنا الدَّالَّةِ على الحَقِّ[1].

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾.

أي: فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، فيَجتَمِعونَ جميعًا[2].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨٤﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾.

أي: فلمَّا جاؤوا إلى الموضِعِ الذي أراده اللهُ لِتَبكيتِهم، قال لهم مُوبِّخًا: أكذَّبتُم بآياتِ كِتابي وحُجَجي، والحالُ أنَّكم جاهِلونَ بها لم تَعرِفوها حقَّ مَعرِفتِها[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).
قيل: المرادُ: يُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم لِيَجتَمِعوا ثُمَّ يُساقون إلى النَّارِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والرازي، والعليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥).
وقيل: إنَّما يُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم حتَّى يَجتمِعوا ثُمَّ يُساقون إلى مَوضِعِ الحِسابِ لِيَعُمَّهم السُّؤالُ والتَّوبيخُ واللَّومُ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والنسفي، وأبو السعود، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير =

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: أم ما الَّذي كنتُم تَعمَلونَه[١]؟!

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥﴾.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾.

أي: ووجَبَ عذابُ اللهِ وغَضَبُه يومَ القيامةِ على أولئك المكَذِّبينَ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم في الدُّنيا بتكذيبِهم آياتِ اللهِ سُبحانَه[٢].

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

أي: فلا يَستطيعُ أولئك المكَذِّبونَ أن يَنطِقوا بحُجَّةٍ أو عُذرٍ يَدفَعُ عنهم العَذابَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذه الآيةُ تُوجِبُ أنَّ الإنسانَ لا يُكذِّبُ إلَّا بخبرٍ يعلَمُ ويَعرِفُ أنَّه كَذِبٌ،

= ابن عاشور)) (٢٠/ ٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٠، ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢).

والخبَرُ المجهولُ يَسكُتُ عنه، كقَولِه تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، فلا يُكذِّبُ به ولا يَقْفُوه ويَتْبَعُه، كما أمَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما حدَّثَنا أهلُ الكِتابِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ سؤالٌ: هذه الآيةُ يدُلُّ ظاهِرُها على أنَّ الحشرَ خاصٌّ بهؤلاءِ الأفواجِ المكَذِّبةِ، وقولُه بعدَ هذا بقليلٍ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] يدُلُّ على أنَّ الحشرَ عامٌّ، كما صرَّحتْ به الآياتُ القرآنيةُ عن كثرةٍ؟

الجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] يُرادُ به الحشرُ العامُّ، وقولَه: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ﴾ أي: بعْدَ الحشرِ العامِّ يَجمَعُ اللهُ المكذِّبين للرُّسُلِ مِن كلِّ أُمَّةٍ؛ لأجْلِ التَّوبيخِ المنصوصِ عليه بقَولِه: ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، فالمرادُ بالفَوجِ مِن كلِّ أُمَّةٍ: الفَوجُ المكذِّبُ للرُّسلِ يُحشَرُ للتَّوبيخِ حَشرًا خاصًّا؛ فلا يُنافي حشرَ الكلِّ لفَصلِ القَضاءِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا﴾ عِظَمُ الإمامةِ في السُّوءِ، كما أنَّها أيضًا عَظيمةٌ في الخيرِ؛ فالإمامُ في الخَيرِ له أجرُ مَن اتَّبَعَه، والإمامُ في الشَّرِّ عليه وِزرُ مَنِ اتَّبعَه؛ فالإمامةُ في الخَيرِ أو في الشَّرِّ هي أمرٌ عَظيمٌ، وخيرُ النَّاسِ مَن دَلَّهم إلى الخَيرِ، وشَرُّ النَّاسِ مَن دَلَّهم على الشَّرِّ(٣)، وذلك على أحدِ الأقوالِ

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (٨/ ٢٨٨).

ويُنظر ما أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٢).

في التَّفسير.

٣- قولُه تعالى: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ فيه مِن الدَّلالةِ على كَثرةِ عَدَدِهم وتَباعُدِ أطْرافِهم ما لا يَخْفى(١).

٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿قَالَ أَكَذَّبۡتُم﴾، وأنَّه بحَرفٍ؛ لأنَّ الجُمَلَ الَّتي هي مَقولُ القولِ حُروفٌ، وأنَّه بصوتٍ؛ لأنَّهم لولا أنَّهم يَسمَعونَ لم يكُنْ لهذا فائدةٌ، ولا سماعَ إلَّا بصَوتٍ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾ ذَمٌّ لِمَن كذَّبَ بما لم يُحِطْ بعِلمِه(٣)، والتَّكذيب يزدادُ قُبْحُه إذا لم يُحِطِ الإنسانُ علمًا بما كَذَّبَ به(٤).

٦- قَولُه تعالى: ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ فيه إثباتُ السَّببِ؛ لأنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ، وإثباتُ الأسبابِ هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وأنَّ الأمورَ مَقرونةٌ بأسبابِها(٥).

٧- قولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ ظاهِرُه أنَّ الكفَّارَ لا يَنطقونَ يومَ القيامةِ، كما يُفهَمُ ذلك مِن قولِه تعالَى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦]، وقولِه تعالَى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ الآيةَ [الإسراء: ٩٧]، مع أنَّه بَيَّنَتْ آياتٌ أُخَرُ من كتابِ اللهِ أنَّهم يَنطِقونَ يومَ القيامةِ ويَعتذِرونَ؛ كقولِه تعالَى عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٦).

كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله تعالَى عنهم: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ [النحل: ٢٨]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ الآيةَ [السجدة: ١٢]، وقوله تعالَى عنهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧]، وقوله تعالَى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ ﴾ [الزخرف: ٧٧]؟

فالجوابُ عن ذلك: أنَّ القيامةَ مواطِنُ؛ ففي بعضِها يَنطِقونَ، وفي بعضِها لا يَنطِقونَ، فإثباتُ النُّطقِ لهم ونفْيُه عنهم كِلاهما منزَّلٌ على حالٍ ووقتٍ غيرِ حالِ الآخَرِ ووقتِه.

وقيل: إنَّ نُطقَهم المُثبَتَ لهم خاصٌّ بما لا فائدةَ لهم فيه، والنُّطْقَ المَنفيَّ عنهم خاصٌّ بما لهم فيه فائدةٌ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ بَيانٌ إجماليٌّ لحالِ المُكذِّبينَ عندَ قِيامِ السَّاعةِ بعدَ بَيانِ بعضِ مَبادِيها[2]. وتَوجيهُ الأمْرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ -مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ-؛ لِمَا أنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكْرِ ما وقَعَ فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها، فإذا استُحضِرَ كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[3].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٣، ١٤٤)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوۡجًا﴾ على وَجْهِ انتصابِ (يَوْمَ) على أنَّه ظرفٌ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿قَالَ أَكَذَّبۡتُم﴾ [النمل: ٨٤]؛ فيكونُ مُقدَّمًا عليه للاهتمامِ به[1].

٢- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ لم يُذكَرِ المَوضِعُ الذي جاؤوه؛ لِظُهورِه، وهو مكانُ العذابِ، أي: جهنَّم، كما قال في الآيةِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾[2] [فصلت: ٢٠].

- قولُه: ﴿قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ فيه التِفاتٌ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ لتَربيةِ المَهابةِ[3].

- يجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ ﴿أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ تَوبيخيًّا مُستعمَلًا في لازِمِه، وهو الإلجاءُ إلى الاعترافِ بأنَّ المُستفهَمَ عنه واقعٌ منهم تَبْكيتًا لهم، ولهذا عُطِفَ عليه قولُه: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ فحَرْفُ (أَمْ) فيه بمَعنى (بلْ) للانتقالِ، ومُعادِلُ همْزةِ الاستفهامِ المُقدَّرةِ مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه قولُه: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، والتَّقديرُ: أكذَّبْتُم بآياتي أمْ لم تُكذِّبوا، فماذا كُنتم تَعمَلون إنْ لم تُكذِّبوا؛ فإنَّكم لم تُوقِنوا، فماذا كُنتم تَعمَلون في مدَّةِ تَكريرِ دَعوتِكم إلى الإسلامِ؟ ومِن هنا حصَلَ الإلجاءُ إلى الاعترافِ بأنَّهم كذَّبوا. ومِن لطائفِ البلاغةِ أنَّه جاء بالمُعادِلِ الأوَّلِ مُصرَّحًا به؛ لأنَّه المُحقَّقُ منهم، فقال:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾، وحُذِفَ مُعادِلُه الآخَرُ؛ تَنبيهًا على انتفائِه، كأنَّه قيل: أهوَ ما عُهِدَ منكم مِن التَّكذيبِ أمْ حدَثَ حادثٌ آخَرُ؟ فجُعِلَ هذا المُعادِلُ مُتردِّدًا فيه، وانتَقَلَ الكلامُ إلى استفهامٍ، وهذا تبْكيتٌ لهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقْريريًّا، وتكونَ (أَمْ) مُتَّصِلةً، وما بعْدَها هو مَعادِلَ الاستفهامِ باعتبارِ المعنى، كأنَّه قيل: أكذَّبْتم أمْ لم تُكَذِّبوا، فماذا كُنتم تعمَلون إنْ لم تُكذِّبوا؛ فإنَّكم لم تَتَّبِعوا آياتي[1]؟!

- وفِعلُ ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ هو صَدرُ الجُملةِ في التَّقديرِ، وما قبْلَه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ مُقدَّمٌ مِن تأخيرٍ للاهتمامِ، والتَّقديرُ: وقال: أكذَّبْتُم بآياتي يومَ نَحشُرُ مِن كلِّ أُمَّةٍ فوجًا، وحين جاؤوا...[2].

- قولُه: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: لم يُحِطْ عِلْمُكم بها؛ فعُدِلَ عن إسنادِ الإحاطةِ إلى العلْمِ إلى إسنادِها إلى ذواتِ المُخاطَبينَ؛ لِيَقَعَ تأكيدُ الكلامِ بالإجمالِ في الإسنادِ، ثمَّ التَّفصيلِ بالتَّمييزِ. وإحاطةُ العِلْمِ بالآياتِ مُستعمَلةٌ في تَمكُّنِ العِلمِ، حتَّى كأنَّه ظَرفٌ مُحِيطٌ بها، وهذا تَعييرٌ لهم وتَوبيخٌ بأنَّهم كذَّبوا بالآياتِ قبْلَ التَّدبُّرِ فيها[3].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، مُفيدةٌ لزِيادةِ شَناعةِ التَّكذيبِ وغايةِ قُبْحِه، ومُؤكِّدةٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ

(١) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠).

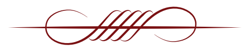
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

الواوُ للحالِ، والمعنى: يُقال لهم: أكذَّبْتم بآياتي وقد وقَعَ القولُ عليهم. وهذا القولُ هو القولُ السَّابقُ في آيةِ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٨٢]؛ فإنَّ ذلك القولَ مُشتمِلٌ على حوادثَ كثيرةٍ، فكُلَّمَا تحقَّق شَيءٌ منها فقد وقَعَ القولُ، والتَّعبيرُ بالماضي ﴿وَقَعَ﴾ هنا على حَقيقتِه، وأُعِيدَ ذِكْرُه تَعظيمًا لِهَولِه. ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ عاطفةً، والقولُ هو القولَ الأوَّلَ، وعُطِفَت الجُملةُ على الجُملةِ المُماثِلةِ لها؛ لِيُبْنَى عليها سبَبُ وُقوعِ القولِ، وهو أنَّه بسَببِ ظُلْمِهم، ولِيُفرَّعَ عليه قولُه: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾. والتَّعبيرُ بِفعلِ المُضِيِّ على هذا الوجْهِ؛ لأنَّه مُحقَّقُ الحصولِ في المُستقبَلِ، فجُعِلَ كأنَّه حصَلَ ومَضى[1].

- وجُملةُ ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ مُفرَّعةٌ على ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾، أي: وقَعَ عليهم وُقوعًا يَمنَعُهم الكلامَ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٨٦-٨٨)

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الصُّورِ﴾: أي: القرنُ يَنفخُ فيه إسرافيلُ[1].

﴿دَاخِرِينَ﴾: أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ، وأصلُ (دخر): يدُلُّ على الذُّلِّ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى منبِّهًا على قدرتِه التَّامَّةِ، وسلطانِه العظيمِ: ألم يَرَ أولئك المكَذِّبون بآياتِنا أنَّا جعَلْنا اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِيَستريحوا فيه مِنَ النَّصَبِ والتَّعَبِ، وجعَلْنا النَّهارَ ضياءً؛ لِيَنتَشِروا فيه طَلَبًا لمعايشِهم؟ إنَّ في خَلقِ اللَّيلِ والنَّهارِ واختِلافِهما لَدَلالاتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ باللهِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى أهوالَ يومِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُنفَخُ في البُوقِ فيَفزَعُ كُلُّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن شاء اللهُ، وكُلُّهم جاؤوا اللهَ خاضِعينَ ذليلينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

وترى الجبالَ تَظُنُّها ثابتةً، ولكِنَّها في الحقيقةِ تتحرَّكُ كالسَّحابِ، خَلْقَ اللهِ الَّذي أجاد وأحكَمَ كُلَّ شَيءٍ، إنَّ اللهَ يعلَمُ ما تفعَلون وسيُجازيكم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خوَّفَهم اللهُ سُبحانَه وتعالى بأحوالِ القيامةِ؛ ذَكَرَ كلامًا يَصلُحُ أنْ يكونَ دليلًا على التَّوحيدِ وعلى الحَشرِ وعلى النُّبوَّةِ؛ مبالغةً في الإرشادِ إلى الإيمانِ والمنعِ مِن الكُفرِ، فقال[1]:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾.

أي: ألم يَرَوا[2] أنَّا جعَلْنا اللَّيلَ مُظلِمًا لِتَسكُنَ فيه أبدانُهم عن الحَركةِ، ويَستريحوا فيه مِن النَّصَبِ والتَّعَبِ؛ وجعَلْنا النَّهارَ ضياءً لِيَنتشِروا فيه؛ طلبًا لمعايشِهم وغيرِها، فجعَلْناهما مختَلِفَينِ ومُتعاقِبَينِ لمصالِحِهم[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣).

(٢) قيل: المرادُ: ألم يَرَ أولئك المكَذِّبون بآياتِنا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠، ١٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٧٣).

وذهَب مقاتلُ بنُ سليمانَ والسمرقنديُّ إلى أنَّ المرادَ كفَّارُ مكةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٤).

والرُّؤيةُ هنا قيل: يجوزُ أن تكونَ عِلميَّةً، ويجوزُ أن تكونَ بصَريَّةً. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: الرُّؤيةُ العِلميَّةُ والبصَريَّةُ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا * وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا * وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ [النبأ: ٩ - ١١].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في خَلقِ اللَّيلِ والنَّهارِ واختِلافِهما على تلك الصِّفةِ لَدَلالاتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ بالله، ومِن ذلك الدَّلالةُ على توحيدِه وقُدرتِه على إحياءِ الموتى(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦].

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الحَشرَ الخاصَّ، والدَّليلَ على مُطلَقِ الحَشرِ والنَّشرِ؛ ذكَرَ الحَشرَ العامَّ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه إنما يُحشَرُ الكافِرُ، فقال مُشيرًا إلى عُمومِهم بالموتِ كما عَمَّهم بالنَّومِ، وعُمومِهم بالإحياءِ كما عَمَّهم بالإيقاظِ(٢):

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

= كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢١).

أي: واذكُرْ[١] يومَ يَنفُخُ المَلَكُ بأمرِ اللهِ في البُوقِ[٢] فيَنزعِجُ ويَرتاعُ كُلُّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ، إلَّا مَن شاء اللهُ ألَّا يَفزَعَ[٣].

---

(١) قال الألوسي: (و«يَوْمَ» منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ، خُوطِب به نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: اذكُرْ يومَ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٣٦).

(٢) ممَّن اختار أنَّهما نفختان: نفخةُ الفزعِ والصَّعقِ، ونفخة البَعثِ: القرطبيُّ، وابن حجر، وابن باز، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٤٦)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة النمل)) (ص: ٤٨٦).

ومنهم مَن رجَّح أنَّها ثلاثُ نَفَخاتٍ: نفخةُ الفَزَعِ أوَّلًا، وهي للأحياءِ الذين بَقُوا في آخِرِ ساعاتِ الدُّنيا، ثمَّ نفخةُ الصَّعقِ والموتِ لهم، ثمَّ نفخةُ البعثِ والقيامِ مِن القبورِ لرَبِّ العالمينَ، وهي لجميعِ الخلائق. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ تيميَّةَ، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٨).

ومنهم مَن رجَّح أنَّ النَّفَخاتِ أربعٌ: اثنتان قبْلَ يومِ القيامةِ، واثنتانِ في يومِ القيامةِ؛ فأمَّا النَّفختانِ قبْلَ القيامةِ فهُما نفخةٌ للموتِ، ونفخةٌ للبعثِ -قيل: هما المذكورتان في سورةِ (يس)-. وأمَّا النَّفختانِ يومَ القيامةِ: فنَفخةُ الفَزَعِ والصَّعقِ الَّتي يغشى فيها الخلائِقُ -ولا يموتون- إلَّا مَن شاء اللهُ، ثمَّ نفخةٌ أخرى لقيامِهم وإفاقتِهم. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٢٢، ٢٢٣) و(١٦/ ٥٥١، ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٤، ١٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩، ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦).

قيل: إنَّ الَّذين استثناهم اللهُ تعالى في هذا الموضِعِ مِن أن يَنالَهم الفَزَعُ يومَئذٍ: هم الشُّهداءُ؛ وذلك أنَّهم أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزَقون، وإن كانوا في عِدادِ الموتى عندَ أهلِ الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبيُّ، وابن كثير، ونسبه الرسعني لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٠٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: أبو هريرةَ، وابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٢).

وقيل: الاستثناءُ مجمَلٌ يبيِّنُه قولُه تعالى بعْدَه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] إلى =

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾.

أي: وكُلُّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ جاؤوا إلى اللهِ بذُلٍّ وخُضوعٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ۝٨٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى دخورَهم، أتبَعَه بدُخُورِ ما هو أعظمُ منهم، بقَولِه تعالى[2]:

﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾.

أي: وترَى[3] ....

= قولِه: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤١).

قال ابن عثيمين: (وهذا المبهَمُ في الآيةِ الصَّحيحُ أنَّه ليس معلومًا لنا؛ ولذلك أشكَلَ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: هل كان موسى ممَّن صَعِقَ أو ممَّن استثنى اللهُ، فدلَّ هذا على أنَّه ليس معلومًا للنَّاسِ مَن هم المُستثنَون، وهذا يرجِعُ إلى كمالِ ربوبيَّةِ الله سُبحانَه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٤٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٧).

(٣) قيل: المخاطَبُ هو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبي، =

الجِبالَ تظُنُّها ثابتةً ساكِنةً، ولكِنَّها في الحقيقةِ تتحرَّكُ كالسَّحابِ[1].

= ومكِّي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٩).

وقيل: المخاطَبُ هو الإنسانُ عُمومًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٩٤).

وقال القاسمي: (إنه خِطابٌ لجَنابِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وإيذان الأمرِ له بالأصالةِ مع اشتراكِ غيرِه في هذه الرُّؤيةِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٤، ١٤٥).

ممَّن ذهب إلى أنَّ هذا الأمرَ يقَعُ يومَ القيامةِ: ابنُ عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٩٤).

وممَّا يدُلُّ على أنَّ قولَه: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يكونُ يومَ القيامةِ، أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَفَزِعَ﴾، وذلك المعطوفُ عليه مُرَتَّبٌ بالفاءِ على قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآيةَ، أي: ويومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، فيَفزَعُ مَن في السَّمواتِ وتَرى الجِبالَ؛ فدلَّتْ هذه القرينةُ القُرآنيَّةُ الواضحةُ على أنَّ مَرَّ الجبالِ مَرَّ السَّحابِ كائنٌ يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، لا الآنَ. فالجبالُ في الدُّنيا راكدةٌ ثابتةٌ، أرساها اللهُ وجعَلَها أوْتادًا للأرضِ، وأمَّا يومَ القيامةِ فتَسيرُ الجبالُ وتذهَبُ وتَضمَحِلُّ؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، وهذا المعنى هو الغالبُ في القرآنِ؛ لأنَّ جميعَ الآياتِ الَّتي فيها حرَكةُ الجبالِ كلُّها في يوم القيامةِ.

وأمَّا قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، فقد جاء نحوُه في آياتٍ كثيرةٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقولِه تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وتسييرُ الجبالِ وإيجادُها ونصْبُها قبْلَ تسييرِها، كلُّ ذلك =

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

أي: ذلك مِن فِعْلِ وخَلْقِ اللهِ الذي أجاد وأوثَقَ وأحكَمَ كُلَّ شَيءٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يعلَمُ ما تَفعلونَه مِن خيرٍ وشرٍّ، وسيُجازيكم على جَميعِ أعمالِكم؛ فلْتَحذَروا مُخالَفةَ أمرِه(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أنَّه ينبغي للعاقلِ أنْ يَعتبرَ بهذه الآياتِ، وأنَّ الاعتبارَ بها مِن الإيمانِ؛ لقولِه تعالى

= صُنْعٌ مُتْقَنٌ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٦)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٢٧/ ٣٢٤).

وذهب بعضُ المفسِّرينَ المعاصرين -كابن عاشور، والشعراوي، والجزائري- إلى أنَّ هذا واقعٌ في الدُّنيا، وأنَّه إشارةٌ إلى دوَرانِ الأرضِ حولَ الشَّمسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٨ - ٥٠)، ((تفسير الشعراوي)) (١٧/ ١٠٨٥٧ - ١٠٨٥٩)، ((أيسر التفاسير)) للجزائري (٤/ ٤٧).

ونسَبَ القاسميُّ هذا القولَ إلى بعضِ علماءِ الفلكِ، وذكر ما احتجُّوا به على قولِهم. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٠٨-٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

بعدَها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تحذيرُ المرءِ أن يَعمَلَ ما يُخالِفُ حُكمَ اللهِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ سؤالٌ: لَمَّا قال: ﴿جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾، فلِمَ لم يَقُلْ: «والنَّهارَ لِيُبصِروا فيه»؟!

الجوابُ: لأنَّ السُّكونَ في اللَّيلِ هو المقصودُ مِن اللَّيلِ، وأمَّا الإبصارُ في النَّهارِ فليس هو المقصودَ، بل هو وسيلةٌ إلى جَلبِ المنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الانتفاعَ بالآياتِ هو بقَدْرِ ما مع الإنسانِ مِن الإيمانِ؛ لأنَّها رُتِّبَت على وصْفٍ، والمرتَّبُ على وصفٍ يَزيدُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ فيه كمالُ الرُّبوبيَّةِ والسُّلطانِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ ووجْهُ ذلك أنَّ العظيمَ إذا أَبْهَم ما يَتصَرَّفُ به دلَّ هذا على أنه لا مُعارِضَ له[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ سؤالٌ: كيف قال ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ بعْدَ البعثِ، مع أنَّ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءَ والصَّالحينَ يأتون عَزيزينَ مُكرَّمينَ؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩٢).

الجوابُ: المرادُ صَغارُ العبوديَّةِ والرِّقِّ وذُلُّهما، لا ذُلُّ المعاصي والذُّنوبِ، وذلك يَعُمُّ الخلْقَ كلَّهم، كما في قولِه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾[1] [مريم: ٩٣].

٥- قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ (كُلٌّ) لَفْظُها لفظُ واحدٍ، ومعناها معنى جمْعٍ؛ فلذلك عاد إليها ضميرُ جمْعٍ هنا: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾، وعاد إليها ضميرُ واحدٍ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وأُفرِدَ خبَرُها في قولِه تعالى: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٥]، وجُمِع في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾[2].

٦- قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ بظاهِرها على أنَّ الجبالَ يَظنُّها الرَّائي ساكنةً وهي تسيرُ، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على أنَّ الجبالَ راسيةٌ، والرَّاسي هو الثابتُ في مَحَلٍّ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥]، وقولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الحجر: ١٩]، وقولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ [المرسلات: ٢٧]!

ووجْهُ الجمعِ ظاهِرٌ، وهو أنَّ قولَه: ﴿أَرۡسَىٰهَا﴾ ونحوَه يعني في الدُّنيا، وقولَه: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يعني: في الآخرةِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ثمَّ عَطَف على ذلك قولَه: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ﴾. وممَّا يدُلُّ على ذلك النُّصوصُ القرآنيَّةُ على أنَّ سيرَ الجبالِ في يومِ القيامةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ [الكهف: ٤٧]، وقولِه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٥٩).

فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[١] [النبأ: ٢٠].

٧- قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فيه جوازُ إضافةِ الصُّنعِ إلى اللهِ ، ولا يؤخَذُ منه إثباتُ اسمِ الصانعِ للهِ، لكنْ يُخبَرُ به عن اللهِ، فيقالُ: إنَّ اللهَ تعالى صانِعُ كلِّ شيءٍ -على سبيلِ الخبريَّةِ-، وأمَّا إثباتُ اسمِ الصَّانعِ فلا[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ إثباتُ الحِكمةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه لا إتقانَ إلَّا بحكمةٍ، فلا يمكِنُ أنْ يُتقَنَ الشَّيءُ إلَّا بعِلمٍ مِن المُتقِنِ كيف يُتقِنُه، والثَّاني: بحِكمةٍ؛ بحيثُ يُنزِلُ كلَّ شيءٍ مَنزلتَه، وإلَّا فاتَ الإتقانُ، فلا يُتقِنُ الشَّيءَ مَن لا يَعلَمُ كيف يُتقِنُه، فهذا ليس بمُمكنٍ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قطعُ اعتراضِ كلِّ معترِضٍ على ما يَحدثُ في الكونِ مِن تدبيراتٍ أو تشريعاتٍ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ أتقَنَه، واللهُ تبارك وتعالى أعلَمُ وأحكَمُ مِن عبادِه، فأنت متى عَلِمْتَ هذا الشَّيءَ انقطعَ عنك كلُّ اعتراضٍ، سواءٌ سَمِعتَه مِن غيرِك أو أورَدْتَه على نفْسِك[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ كمالُ عِلمِ اللهِ سبحانه وتعالى، وذلك بالخبرةِ الَّتي هي أخَصُّ مِن مُطلَقِ العِلمِ؛ لأنَّ الخبرةَ هي العِلمُ ببواطنِ الأمورِ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ سؤالٌ؛ وهو أنَّه كان مقتضى

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٣).

السِّياقِ ألَّا تُختَمَ الآيةُ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، بل تُختَمُ بقولِه: «إنَّه عليمٌ حكيمٌ» أو «إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ» وما أشبَهَ ذلك؛ لقولِه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾، وهذا يقتضي أنْ تُختَمَ الآيةُ بما يدُلُّ على القدرةِ والحكمةِ؛ ولكنها خُتِمَتْ بما يدُلُّ على العِلمِ والخبرةِ -العِلمِ بما يفعلُ العِبادُ-. فما الجوابُ عن هذا العدولِ؛ عن الأوَّلِ إلى الثَّاني؟

الجوابُ -واللهُ أعلمُ-: أنَّ الحكمةَ مِن ذلك هي أنَّ قولَه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ جملةٌ معترِضةٌ بالنِّسبةِ للمعنى، لا بالنِّسبةِ للإعرابِ، وأنَّ المقامَ يقتضي الإخبارَ بأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَعْلَمُ ما يَفعلون؛ لأنَّ يومَ القيامةِ هو يومُ الجزاءِ، والجزاءُ مُرَتَّبٌ على العِلمِ؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]، فيكونُ هنا ذِكْرُ العلمِ بما يفعلُ النَّاسُ في سياقِ يومِ القيامةِ للإشارةِ إلى أنَّ هذا اليومَ هو يومُ الجزاءِ الَّذي يجبُ على المرءِ أن يَعمَلَ له ويَحتاطَ له(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ [النمل: ٨٥]، أي: بما أشْرَكوا، فذَكَّرَهم بدَلائلِ الوَحدانيَّةِ بذِكْرِ أظْهَرِ الآياتِ وأكثَرِها تَكرارًا على حَواسِّهم، وأجدَرِها بأنْ تكونَ مُقنِعةً في ارْعوائِهم عن شِرْكِهم. وهي آيةٌ مُلازِمةٌ لهم طولَ حَياتِهم، تَخطُرُ ببالِهم مرَّتَينِ كلَّ يومٍ على الأقلِّ. وفيها تَذكيرٌ بتَمثيلِ الموتِ والحياةِ بعْدَه، بسُكونِ اللَّيلِ وانبثاقِ النَّهارِ عَقِبَه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٩٨).

والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ [النمل: ٨٥] وجُملةِ ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [النمل: ٨٧]؛ لِيُتَخلَّلَ الوعيدُ بالاستِدلالِ.

- والاستفهامُ في ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ كِنايةٌ عن التَّعجُّبِ مِن حالِهم؛ لأنَّها لِغَرابتِها تَستلزِمُ سُؤالَ مَن يَسأَلُ عن عَدمِ رُؤيتِهم؛ فهذه عَلاقةٌ أو مُسوِّغُ استِعمالِ الاستفهامِ في التَّعجُّبِ[1].

- والرُّؤيةُ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يجوزُ أنْ تكونَ قلْبيَّةً، وجُملةُ ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ سادَّةً مَسَدَّ المفعولينِ، أي: كيف لم يَعلَموا أنَّا جعَلْنا اللَّيلَ لِيَسكُنوا فيه والنَّهارَ مُبصِرًا، مع أنَّ ذلك واضحُ الدَّلالةِ على هذا الجَعلِ؟! واختِيرَ مِن أفعالِ العِلْم فِعلُ الرُّؤيةِ؛ لِشَبَهِ هذا العِلمِ بالمعلوماتِ المُبصَرة. ويجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصَريَّةً، والمصدرُ المُنسبِكُ مِن الجُملةِ مَفعولَ الرُّؤيةِ، والمعنى: كيف لم يُبصِروا جَعْلَ اللَّيلِ للسُّكونِ والنَّهارِ للإبصارِ، مع أنَّ ذلك بمَرأًى من أبصارِهم؟! والجَعلُ مُرادٌ منه أثَرُه، وهو اضطرارُ النَّاسِ إلى السُّكونِ في اللَّيلِ وإلى الانتشارِ في النَّهارِ؛ فجُعِلَت رُؤيةُ أثَرِ الجَعلِ بمَنزلةِ رُؤيةِ ذلك الجَعلِ، وهذا واسعٌ في العربيَّةِ: أنْ يُجعَلَ الأثرُ مَحَلَّ المُؤثِّرِ، والدَّالُّ مَحَلَّ المَدلولِ[2].

- وجاء ما في اللَّيلِ مِن الخُصوصيَّةِ بصِيغةِ التَّعليلِ باللَّامِ بقولِه: ﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾، وما في النَّهارِ بصِيغةِ مَفعولِ الجَعلِ بقولِه: ﴿مُبْصِرًا﴾؛ تفنُّنًا، ولِمَا يُفيدُه ﴿مُبْصِرًا﴾ مِن المُبالَغةِ، والمعنى على التَّعليلِ، والمفعولُ واحدٌ في المآلِ؛ ففي الآيةِ ما يُعرَفُ في عِلْمِ البديعِ بالاحتِباكِ؛ حيثُ حُذِفَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢، ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٤٣).

كُلِّ جُملةٍ ما دلَّ عليه المذكورُ في الجُملةِ الأخرى، مع التَّقابُلِ؛ إذ المعنى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ مُظلِمًا ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، فالَّذي حُذِفَ مِن هذا (مُظلِمًا)، وذُكِرَ مُقابِلُه ﴿مُبْصِرًا﴾، وحُذِفَ مِن قولِه: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (لِيَنتشِروا ولِيَتصرَّفوا فيه)، وذُكِرَ مُقابِلُه ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾[1].

- وجُعِلَ الإبصارُ للنَّهارِ، وهو لأهلِه؛ تنبيهًا على كمالِ هذه الصِّفةِ فيه[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تَعليلٌ للتَّعجُّبِ مِن حالِهم؛ إذ لم يَستدِلُّوا باختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ على الوَحدانيَّةِ ولا على البعثِ[3].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعدِ دَرجتِه في الفضلِ[4].

- ووَجْهُ جَعلِ ذلك آياتٍ، ولم يُجعَلْ آيتينِ، وكَوْنُ الآياتِ في ذلك كثيرةً -كما اقتضاهُ الجمْعُ-: هو أنَّ في نِظامِ اللَّيلِ آياتٍ على الانفرادِ بخلْقِ الشَّمسِ وخلْقِ نُورِها الخارقِ للظُّلماتِ، وخلْقِ الأرضِ، وخلْقِ نِظامِ دَورانِها اليوميِّ تُجاهَ أشِعَّةِ الشَّمسِ، وهي الدَّورةُ التي تُكوِّنُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وفي خلْقِ طبْعِ الإنسانِ بأنْ يَتلقَّى الظُّلمةَ بطَلبِ السُّكونِ؛ لِمَا يَعْتري الأعصابَ مِن الفُتورِ دونَ بعضِ الدَّوابِّ التي تَنشَطُ في اللَّيلِ؛ كالهَوامِّ والخفافيشِ، وفي ذلك أيضًا دَلالةٌ على تعاقُبِ الموتِ والحياةِ. فتلك آياتٌ، وفي كلِّ آيةٍ منها دقائقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣).

ونُظُمٌ عظيمةٌ، لو بُسِطَ القولُ فيها لَأوعَبَ مُجلَّداتٍ مِن العلوم. وفي جَعلِ النَّهارِ مُبصِرًا آياتٌ كثيرةٌ على الوَحدانيَّةِ ودِقَّةِ صُنعٍ تُقابِلُ ما تقدَّمَ في آياتِ جَعلِ اللَّيلِ سكنًا. وفيه دَلالةٌ على أنْ لا إحالةَ ولا استبعادَ في البعثِ بعدَ الموتِ، وأنَّه نظيرُ بَعثِ اليقظةِ بعدَ النَّومِ، وفي جليلِ تلك الآياتِ ودَقيقِها عِدَّةُ آياتٍ[١].

- ومعنى ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾: لِناسٍ شأْنُهم الإيمانُ والاعترافُ بالحُجَّةِ؛ ولذلك جُعِلَ الإيمانُ صِفةً جاريةً على (قوم)؛ لأنَّ إناطةَ الحُكْمِ بلفظِ (قوم) يُومِئُ إلى أنَّ ذلك الحُكْمَ مُتمكِّنٌ منهم، حتَّى كأنَّه مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، أي: في ذلك آياتٌ لِمَن شِعارُهم التَّدبُّرُ والإنصافُ، أي: فهؤلاء ليسوا بتِلك المنزلةِ. ولِكَونِ الإيمانِ مَقصودًا به أنَّه مَرْجُوٌّ منهم، جِيءَ فيه بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ إذ ليس المقصودُ: إنَّ في ذلك لآياتٍ لِلَّذينَ آمَنوا؛ لأنَّ ذلك حاصلٌ بالفَحوى والأَولويَّةِ، فصار المعنى: إنَّ في ذلك لآياتٍ للمُؤمنينَ ولِمَن يُرجَى منهم الإيمانُ عندَ النَّظرِ في الأدلَّةِ[٢].

- ولَمَّا كان لا يَنتفِعُ بالفِكرِ في هذه الآياتِ إلَّا المؤمنون؛ خُصُّوا بالذِّكْرِ، وإنْ كانت آياتٍ لهم ولغَيرِهم[٣]. وكذلك لِمَّا كان مِن مَباني السُّورةِ تَخصيصُ الهِدايةِ بالمؤمنينَ؛ خَصَّهم بالآياتِ لاختِصاصِهم بالانتفاعِ بها، وإنْ كان الكلُّ مُشترِكينَ في كَونِها دَلالةً لهم[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ خُولِفَ بيْنَ ما هنا وبيْنَ ما في سُورةِ (يُونسَ)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٢).

إذْ قال هنا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[يونس: ٦٧]. ووَجْهُه: أنَّ آيةَ سُورةِ (يُونسَ) مَسوقةٌ مَساقَ الاستدلالِ والامتنانِ؛ فخاطَبَ بها جميعَ النَّاسِ من مُؤمنٍ وكافرٍ؛ فجاءتْ بصِيغةِ الخِطابِ، وجُعِلَتْ دَلالتُها لكلِّ مَن يَسمَعُ أدلَّةَ القرآنِ، فمنهم مُهتَدٍ وضالٌّ؛ ولذلك جِيءَ فيها بفِعْلِ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ المُؤْذِنِ بالامتثالِ والإقبالِ على طَلَبِ الهُدى. وأمَّا هذه الآيةُ فمَسوقةٌ مَساقَ التَّعجيبِ والتَّوبيخِ، فجُعِلَ ما فيها آياتٍ لِمَنِ الإيمانُ من شأْنِهم؛ لِيُفيدَ بمَفهومِه أنَّه لا تَحصُلُ منه دَلالةٌ لِمَن ليس من شأْنِهم الإنصافُ والاعترافُ؛ ولذلك أُوثِرَ فيه فِعلُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾[النمل: ٨٣]؛ عاد به السِّياقُ إلى المَوعظةِ والوعيدِ؛ فإنَّهم لَمَّا ذُكِّروا بـ (يومَ يُحشَرون إلى النَّارِ)، ذُكِّروا أيضًا بما قبْلَ ذلك، وهو يومُ النَّفخِ في الصُّورِ؛ تَسجيلًا عليهم بإثباتِ وُقوعِ البَعثِ، وإنذارًا بما يَعقُبُه ممَّا دلَّ عليه قولُه: ﴿أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾، وقولُه: ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[2].

- وجِيءَ بصِيغةِ الماضي ﴿فَفَزِعَ﴾ مع أنَّ النَّفخَ مُستقبَلٌ؛ للإشعارِ بتَحقُّقِ الفزَعِ، وأنَّه واقعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ الفعلَ الماضي يدُلُّ على وُجودِ الفعلِ وكَونِه مقطوعًا به، فصِيغةُ الماضي كِنايةٌ عن التَّحقُّقِ، وقرينةُ الاستقبالِ ظاهرةٌ من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُضارِعِ في قولِه: ﴿يُنفَخُ﴾[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي (الزُّمَرِ): ﴿فَصَعِقَ﴾ [الزمر: ٦٨]؛ فخُصَّتْ هذه السُّورةُ بقولِه: ﴿فَفَزِعَ﴾ مُوافَقةً لقولِه: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وخُصَّتِ سُورةُ (الزُّمَرِ) بقولِه: ﴿فَصَعِقَ﴾ مُوافَقةً لقولِه: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ لأنَّ معناه: ماتَ[2].

- ولعلَّ تأخيرَ بَيانِ الأحوالِ الواقعةِ عندَ ابتداءِ النَّفخةِ عن بَيانِ ما يقَعُ بعْدَها مِن حَشرِ المُكذِّبينَ مِن كلِّ أُمَّةٍ -يعني في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٣ - ٨٥]-؛ لِتَثنيةِ التَّهويلِ بتكريرِ التَّذكيرِ؛ إيذانًا بأنَّ كلَّ واحدٍ منهما طامَّةٌ كُبْرى وداهيةٌ دَهْياءُ، حقيقةٌ بالتَّذكيرِ على حِيالِها، ولو رُوعِيَ التَّرتيبُ الوُقوعيُّ لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ الكلَّ داهيةٌ واحدةٌ قد أُمِرَ بذِكْرِها[3].

- وحُذِف الضَّميرُ مِن (كُلٍّ)، والتَّقديرُ: وكلُّهم، كما قال: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[4] [مريم: ٩٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٦)، ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٣٥٠).

- والتَّعبيرُ بالمُضِيِّ في ﴿أَتَوْهُ﴾؛ للإشعارِ بتَحقُّقِ الإتيانِ، فكأنَّه قد وقَع حتَّى عُبِّر عنه بلفظِ الماضي[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾

- قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ مَنشأُ الحِسْبانِ المَذكورِ أنَّ الأجرامَ المُجتمِعةَ المُتكاثِرةَ العددِ على وجهِ الالتِصاقِ إذا تحرَّكَتْ نحوَ سَمْتٍ لا تَكادُ تَبِينُ حرَكتُها، والمشهورُ في وجْهِ الشَّبَهِ السُّرعةُ[2].

- قد أُدمِجَ في هذا التَّشبيهِ حالُ الجِبالِ بحالِ السَّحابِ في تَخلْخُلِ الأجزاءِ وانتفاشِها، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[3] [القارعة: ٥].

- في قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ طِباقٌ عجيبٌ بيْنَ الجُمودِ والحركةِ السَّريعةِ؛ حيث جُعِلَ ما يَبْدو لِعَينِ النَّاظرِ كالجبلِ في جُمودِه ورُسوخِه، ولكنَّه سريعٌ يمُرُّ مُرورًا حَثيثًا كما يمُرُّ السَّحابُ[4].

- وقولُه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[5]، أي: صنَعَ اللهُ ذلك

---

(١) يُنظر: ((عروس الأفراح)) للبهاء السبكي (١/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٤).

(٥) وهو من إضافةِ المصدرِ المؤكدِ إلى الفاعلِ، أي: صَنَعَ اللهُ صُنْعًا، كقولِه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، فإنَّه لَمَّا قال جلَّ وعزَّ: ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، وقال: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ عُلِم أنَّه خَلْقٌ وصُنْعٌ، ولكنَّه وكَّدَ وثبَّتَ للعِبادِ. ومِثلُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [النساء: ١٢٢]، أي: وَعَدَ اللهُ وعدًا حقًّا. يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٣٥٩).

صُنعًا، على أنَّه عبارةٌ عمَّا ذُكِرَ مِن النَّفخِ في الصُّورِ وما ترتَّبَ عليهِ جميعًا، قُصِدَ به التَّنبيهُ على عِظَمِ شأنِ تلك الأفاعيلِ وتَهويلُ أمْرِها، والإيذانُ بأنَّها ليستْ بطريقِ إخلالِ نِظامِ العالَمِ وإفسادِ أحوالِ الكائناتِ بالكُلِّيَّةِ من غيرِ أنْ يَدعوَ إليها داعيةٌ أو يكونَ لها عاقبةٌ، بلْ هي مِن قَبِيلِ بدائعِ صُنعِ اللهِ تعالى المَبْنيَّةِ على أساسِ الحِكمةِ المُستتبِعةِ للغاياتِ الجميلةِ، الَّتي لِأَجْلِها رُتِّبَت مُقدِّماتُ الخلْقِ ومَبادئُ الإبداعِ على الوجهِ المَتينِ والنَّهجِ الرَّصينِ[١].

- ووَصْفُ اللهِ تعالى بـ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ تعميمٌ؛ قُصِدَ به التَّذييلُ، أي: ما هذا الصُّنعُ العجيبُ إلَّا مُماثِلًا لأمثالِه مِن الصَّنائعِ الإلهيَّةِ الدَّقيقةِ الصُّنعِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تَعليلٌ لِكَونِ ما ذُكِرَ صُنْعًا مُحْكَمًا له تعالى، ببَيانِ أنَّ عِلمَهُ تعالى بظَواهرِ أفعالِ المُكلَّفينَ وبواطنِها ممَّا يَدْعو إلى إظهارِها، وبَيانِ كَيفيَّاتِها على ما هي عليه مِن الحُسنِ والسُّوءِ، وتَرتيبِ أجْزِيَتِها عليها بعْدَ بَعثِهم وحَشْرِهم، وجَعْلِ السَّمواتِ والأرضِ والجِبالِ على وَفْقِ ما نطَقَ به التَّنزيلُ؛ لِيَتحقَّقُوا بمُشاهَدةِ ذلك أنَّ وعْدَه حقٌّ لا ريبَ فيه[٣]. وقيل: قولُه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تَذييلٌ أو اعتراضٌ في آخِرِ الكلامِ؛ للتَّذكيرِ والوعظِ والتَّحذيرِ، عقِبَ قولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ لأنَّ إتقانَ الصُّنعِ أثَرٌ من آثارِ سَعةِ العلْمِ، فالَّذي بعِلْمِه أتقَنَ كلَّ شَيءٍ هو خبيرٌ بما يَفعَلُ الخلْقُ؛ فلْيَحْذَروا أنْ يُخالِفوا عن أمْرِه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ تَنبيهٌ على الشُّروعِ في الحسابِ والأخذِ في الجزاءِ على سبيلِ الاستئنافِ، وأنَّه جوابٌ لقولِ مَن يَسأَلُ: فماذا يكونُ بعْدَ هذه القَوارِعِ؟ فقِيل: إنَّ اللهَ خبيرٌ بعَمَلِ العامِلينَ، فيُجازِيهم على أعمالِهم؛ حَسَنِها وسَيِّئِها[1].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٩٥).

الآيات (٨٩-٩٣)

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿فَكُبَّتْ﴾: أي: أُلقِيَتْ وطُرِحَتْ، والكبُّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجْهِه، وأصلُ (كَبَبَ): يدُلُّ على جَمعٍ وتَجمُّعٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا جزاءَ مَن أحسَن، وجزاءَ مَن أساء: مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ فله ثوابٌ عظيمٌ عندَ اللهِ، وهم آمِنون مِنَ الفَزَعِ الواقِعِ يومَ القيامةِ، ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ فيُلْقَوْنَ على وُجوهِهم في النَّارِ، ويُقالُ لهم: لا تُجْزَوْنَ إلَّا بأعمالِكم الَّتي كنتُم تعمَلونها في الدُّنيا.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يُبيِّنَ منهجَه في دعوتِه، فيقولُ: وقلْ -يا محمَّدُ- لقَومِك مِن قُرَيش: إنَّما أمَرَني اللهُ أن أعبُدَه وَحْدَه، هو رَبُّ هذه البَلْدةِ -مكَّةَ- الَّذي جعَلَها حَرَمًا آمِنًا، وله كُلُّ الأشياءِ خَلْقًا ومِلكًا وتصَرُّفًا، وأمَرَني أن أكونَ مِن المُستسلِمينَ له بالتَّوحيدِ، وأن أقرأَ القُرآنَ وأتَّبِعَ ما فيه، فمَنْ آمَنَ بالقُرآنِ واتَّبَعِ الحَقَّ فإنَّما ثوابُ اهتدائِه راجِعٌ إليه، ومَن كفَرَ بالقُرآنِ وأعرَضَ، فقُلْ له:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).

إنَّما أنا مِن المُنذِرينَ عذابَ اللهِ وسَخَطِه.

ثُمَّ يقولُ الله تعالى: وقُلْ -يا محمَّدُ-: الحمدُ لله، سيُريكم في الدُّنيا آياتِ عَذابِه ودَلائلَ وحدانيَّتِه وقدرتِه، فتَعرِفونَها، وما ربُّك بغافِلٍ عمَّا تعملونَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تكلَّمَ سُبحانَه في علاماتِ القيامةِ؛ شرَحَ بعْدَ ذلك أحوالَ المكلَّفِينَ بعدَ قيامِ القيامةِ، فقال تعالى[1]:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

أي: مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ[2] ....

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٤).

(٢) والمرادُ بالحَسَنةِ هنا: الحَسَنةُ الكاملةُ، وهي الإيمانُ والتَّوحيدُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي. وحكى القرطبيُّ الإجماعَ عليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وعلي ابن الحسين، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وأبو صالح، ومحمد بن كعب، والنَّخَعي، والضَّحَّاك، والزُّهْريُّ، وعِكْرِمةُ، وزيد بن أسلَمَ، وقَتادةُ، وإبراهيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٣٤).

قال القرطبي: (هو إجماعٌ مِن أهل التَّأويلِ في أنَّ الحَسَنةَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ السَّيِّئةَ: الشِّركُ، في هذه الآيةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).

قال ابنُ تيميَّة معلِّلًا هذا القولَ، وأنَّهم إنَّما (قالوه؛ لأنَّ أعمالَ البرِّ داخلةٌ في التَّوحيدِ؛ فإنَّ عبادةَ الله بما أمَر به كما قالَ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الآيةَ [البقرة: ١١٢]. وقالَ تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٢٤]. =

فله ثَوابٌ عظيمٌ عندَ اللهِ[(١)].

= فالكلمةُ الطَّيِّبةُ التَّوحيدُ، وهي كالشَّجرةِ، والأعمالُ ثمارُها في كلِّ وقتٍ، وكذلك السَّيِّئةُ هي العملُ لغيرِ اللهِ، وهذا هو الشِّركُ؛ فإنَّ الإنسانَ حارثٌ همَّامٌ، لا بُدَّ له مِنْ عملٍ، ولا بُدَّ له مِن مقصودٍ يعملُ لأجلِه. وإنْ عَمِل للهِ ولغيرِه فهو شركٌ. والذُّنوبُ مِنَ الشِّركِ؛ فإنَّها طاعةٌ للشَّيْطانِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٤٤٠).

وقيل: المرادُ بالحَسَنةِ هنا: جِنسُ الحَسَناتِ، فأيُّ حَسنةٍ مِن الحسناتِ فهي مرادةٌ في الآيةِ. وممَّن قال بذلك: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٥). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٥، ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٦).

اختلف المفسِّرون في معنى قَولِه تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾؛ فقيل: خيرٌ هنا صيغةُ تفضيلٍ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ رجب، والنيسابوري، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣٠). ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ لِزَيدِ بنِ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٣).

وقيل في بيانِ الخَيريَّةِ: إنَّها بمُضاعَفةِ الحَسَناتِ، وبأنَّ العَمَلَ مُنقَضٍ والثَّوابَ دائمٌ، ولأنَّ العَمَلَ فِعلُ العبدِ، والثَّوابَ فِعلُ اللهِ تعالى. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٤٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

وقيل: خيرٌ هنا ليست صيغةَ تفضيلٍ، وإنَّما المعنى: أنَّ مَن جاء بالحَسَنةِ فله منها خيرٌ حاصلٌ بسَبَبِها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عباس، والحسن، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وقتادة، =

﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

أي: وهم آمِنونَ يومَ القيامةِ مِن الفَزَعِ الحاصِلِ للخَلقِ(١).

كما قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقال سُبحانه: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

= وابن جُرَيج، وعِكْرِمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٦).

قيل: يحتَمِلُ أنَّهم لا يفزَعون مطلقًا، ويحتَمِلُ أنهم يَفزَعون ولكِنَّهم آمِنون، فيَكونُ هذا الفزَعُ مجرَّدَ شعورٍ بما يُفزَعُ منه فقط. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٨، ٥٠٩).

ممَّن اختار أنَّهم آمِنُونَ مِن فزَعِ يومِ القيامةِ وأهوالِه: الماتريدي، والسمرقندي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٦).

وذكر ابنُ جريرٍ أنَّهم يَأْمَنون مِن فزَعِ الصَّيحةِ الكبرى، وهي النَّفخُ في الصُّورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩).

وممَّن قال بأنَّهم يَأمنون وإن كانوا يَفزَعون مع الخَلقِ: الرازي، والبيضاوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

وذكر الرازيُّ أنَّ الفزعَ المنفيَّ هو الخَوفُ مِنَ العذابِ، أمَّا الفزعُ المُثبَتُ في قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو ما لا يخلو منه أحدٌ عندَ الإحساسِ لشِدَّةٍ تقعُ، وهو يَفجأ مِن رعبٍ وهَيْبة، وإن كان المُحسِنُ يَأمن وُصولَ ذلك الضَّررِ إليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥).

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾.

أي: ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ[(١)] فيُلْقَوْنَ في النَّارِ على وُجوهِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: يُقالُ لهم[(٣)]: ....

(١) المرادُ بالسيِّئةِ هنا: الشِّرْكُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي، وحكى القرطبيُّ الإجماعَ عليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوجيز)) (ص: ٨١١)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).
وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: أبو هريرة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وأنس بن مالك، وأبو وائل، وعطاء، والحسن، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وعِكْرِمة، والنَّخَعي، وأبو صالح، والزُّهْري، وزيد بن أَسْلَمَ، ومحمد بن كعب القُرَظي، والسُّدِّيُّ، وقتادة، والضَّحَّاك، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٣٥).
وقيل: المرادُ: جِنسُ السِّيئاتِ عُمومًا، فتشمَلُ أيَّ عَمَلٍ سَيِّئٍ. وممَّن قال بذلك: السعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٢، ٥٣).
قال ابنُ عثيمين بناءً على القولِ بأنَّ المرادَ بالسَّيِّئةِ جنسُ السيئات: (إنَّ قولَه: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ لا يلزمُ منه الخلودُ، بل قد تُكَبُّ وُجوهُهم في النَّارِ ثمَّ يَنجُون. فإذا قال قائلٌ: إذا كانوا عُصاةً فإنَّ مَوضِعَ السُّجودِ لا تأكُلُه النَّارُ، فكيف نقولُ: كُبَّت وُجوهُهم في النَّارِ؟ قُلنا: إذا كُبَّ على وجهِه أصابَتْه النَّارُ إلَّا موضِعَ السُّجودِ، وهذا لا يَمنَعُ أن يُكَبَّ على وجهِه وتُحمى مواضِعُ السُّجودِ مِن النَّارِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٣).

(٣) قيل: يجوزُ أن يكونَ مِن قَولِ الله. ويجوزُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكة. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).
وذكر البغويُّ أنَّه مِن قَولِ خَزَنةِ جهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٠). =

لا تُجازَونَ إلَّا بحَسَبِ أعمالِكم الَّتي كنتُم تَعمَلونَها في الدُّنيا[١].

كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أَتَمَّ سبحانه الدِّينَ بذِكرِ الأصولِ الثَّلاثةِ: المبدأِ والمعادِ، والنُّبوَّة، ومقَدِّماتِ القيامةِ وأحوالِها، وبعضِ صفتِها وما يكونُ مِن أهوالِها، وذلك كمالُ ما يَتعلَّقُ بأصولِ الدِّينِ على وجوهٍ مُرَغِّبةٍ أَتَمَّ ترغيبٍ، مُرَهِّبةٍ أعظَمَ ترهيبٍ؛ أوجَبَ هذا التَّرغيبُ والتَّرهيبُ لكلِّ سامعٍ أن يقولَ: فما الذي نعملُ؟ ومَن نعبُدُ؟ فأجابَه المخاطَبُ بهذا الوحيِ، المأمورُ بإبلاغِ هذه الجوامعِ، الدَّاعي لِمَن سمِعَه، الهادي لِمَنِ اتَّبعَه؛ بأنَّه يَرضى له ما رَضيَ لنَفْسِه، وهو ما أمَرَه به ربُّه، فقال[٢]:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِقَومِك مِن قُرَيشٍ: إنَّما أمرَني اللهُ أن أعبُدَ رَبَّ هذه البلدةِ

= وذكر ابنُ جريرٍ أنَّ هذا يُقالُ لهم ذلك وقتَ كَبِّهم في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٣، ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٧).

-مكَّةَ- الذي جعَلَها حَرَمًا آمِنًا؛ حرَّم فيها على خَلقِه أن يَسفِكوا دمًا حرامًا، أو يَظلِموا أحدًا، أو يَصيدوا فيها، أو يَقطَعوا شَجَرَها[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١، ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ٣، ٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يومَ افتتَحَ مَكَّةَ: لا هِجرةَ، ولكِنْ جِهادٌ ونِيَّةٌ، وإذا استُنفِرتُم فانفِروا[2]؛ فإنَّ هذا بلدٌ حَرَّمَ اللهُ يومَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ، وإنَّه لم يَحِلَّ القِتالُ فيه لأحدٍ قَبْلي، ولم يَحِلَّ لي إلَّا ساعةً مِن نهارٍ؛ فهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ: لا يُعضَدُ شَوكُه[3]، ولا يُنفَّرُ صَيدُه، ولا يَلتَقِطُ لُقَطَتَه إلَّا مَن عَرَّفَها، ولا يُختَلى خَلاها[4]، قال العبَّاسُ: يا رسولَ اللهِ، إلَّا الإذخِرَ؛ فإنَّه لِقَيْنِهم[5] ولِبُيوتِهم، قال: إلَّا الإذخِرَ))[6].

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٦).

(٢) إذا استُنفِرتُم فانفِروا: أي: إذا طُلِبَ منكم النُّصرةُ، فأجيبوا وانفِروا خارجينَ إلى الإعانةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٩٢).

(٣) لا يُعضَدُ شَوكُه: أي: لا يُقطَعُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٠٤).

(٤) لا يُختلى خَلاها: أي: لا يُقطَعُ نباتُها الرَّطبُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٠٩).

(٥) قَيْنِهم: هو الحَدَّاد والصَّائغ، ومعناه: يَحتاجُ إليه القَيْنُ في وَقودِ النَّارِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٢٧).

(٦) رواه البخاري (١٨٣٤) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٣).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت إضافةُ البلدةِ إليه إنَّما هي لمحضِ التَّشريفِ، قال احتراسًا عمَّا لعلَّه يُتوَهَّمُ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: مِن غيرِها ممَّا أشرَكْتُموه به وغيرِه خلقًا ومُلْكًا ومِلْكًا[1]!

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾.

أي: ولله- رَبِّ مَكَّةَ- الأشياءُ كُلُّها خَلقًا ومِلكًا وتصرفًا[2].

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِنَ المُستسلِمينَ له بالتَّوحيدِ، المنقادينَ له بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه[3].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ ما أُمِرَ به في نَفْسِه؛ أتبَعَه ما تَعُمُّ فائِدتُه غيرَه، فقال[4]:

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٨).

﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أقرأَ القرآنَ وأتَّبعَ ما فيه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾.

أي: فمَنْ آمَنَ بالقرآنِ وعَمِلَ به واتَّبَع الحَقَّ الَّذي فيه، فإنَّما ثَوابُ ذلك ونَفْعُه يعودُ إليه[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٨].

﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

قال أبو السعود: (﴿وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أواظِبَ على تلاوتِه؛ لتنكَشِفَ لي حقائقُه الرَّائعةُ المخزونةُ في تضاعيفِه شَيئًا فشيئًا، أو على تلاوتِه على النَّاسِ بطريقِ تكريرِ الدَّعوةِ وتثنيةِ الإرشادِ؛ فيكونَ ذلك تنبيهًا على كفايتِه في الهدايةِ والإرشادِ من غيرِ حاجةٍ إلى إظهارِ مُعجزةٍ أخرى). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

أي: ومَن كفَرَ بالقُرآنِ وأعرَضَ عن العمَلِ بما فيه، فقُلْ له: إنَّما أنا مِن الرُّسُلِ المخَوِّفينَ عذابَ اللهِ وسَخَطَه وعواقِبَ ضَلالِكم؛ فليس علَيَّ إلَّا البلاغُ المُبينُ، وقد أبلَغْتُكم وخوَّفتُكم، وهدايتُكم ليسَت بيدي، ولا وَبالُ ضَلالِكم علَيَّ[1].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: المتَّصِفُ بالكَمالِ هو اللهُ تعالى الذي أنعَمَ علينا وهدانا، وبيَّن آياتِه وأقام الحُجَّةَ على عبادِه، سيُريكم في الدُّنيا آياتِ عذابِه ودلائِلَ وحدانيَّتِه وقُدرتِه، فيتبيَّنُ لكم صِدقُ ما أخبَرَكم اللهُ به، وصِدقُ ما دَعوتُكم إليه وتوعَّدتُكم به[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨، ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٧، ٥٣٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالآياتِ آياتُ عذابِه وسخطِه: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٨٠).

وممَّن اختار أنَّ الآياتِ المرادُ بها العذابُ في الدُّنيا: مقاتلُ بن سليمان، والثعلبي، وهو =

كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على الخِطابِ. قيل: المعنى: عمَّا تعمَلُه أنت وأتباعُك

= ظاهر اختيار مكِّي، واختاره البغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: العذابُ في الدُّنيا والآخرةِ: ابنُ عطية، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٦٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الآياتُ في الأنفُسِ وفي جميعِ ما خلَقَ اللهُ: الزجَّاجُ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٠).

قال القرطبي: (﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: في أنفُسِكم وفي غيرِكم، كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: دَلائلَ قُدرتِه ووَحْدانيَّتِه في أنفُسِكم وفي السَّمواتِ وفي الأرضِ، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦).

واختار ابنُ عثيمينَ العُمومَ، وأنَّ الآياتِ تشملُ الآياتِ الدَّالَّةَ على صِدقِ ما وعَدَ به الرَّسولُ وما توعَّدَ به مِنَ الآياتِ الكونيَّةِ، وتشملُ أيضًا الآياتِ الشَّرعيَّةَ الدَّالَّةَ على كمالِ شريعتِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٨).

-يا محمَّدُ- مِن الطَّاعةِ، وما يَعمَلُه أولئك المُشرِكون مِن المعصيةِ[١].

٢- قِراءةُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما يَعمَلُه أولئك المُشرِكون المكَذِّبون[٢].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وما ربُّك بغافلٍ عمَّا تعملونَه، بل هو شَهيدٌ على كلِّ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها، ولا يَحزُنْك -يا محمَّدُ- تكذيبُهم لك؛ فإنِّي لهم بالمِرْصادِ، ولك الغَلَبةُ والنَّصرُ، ولهم الذُّلُّ والخِزْيُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الثوابَ أفضَلُ مِن العَمَلِ[٤]، وذلك على أحدِ القولَينِ في التَّفسيرِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ سؤالٌ، وهو: كيف يُؤتَى بالحَسَناتِ وهي أعمالٌ مَضَتْ، والأعمالُ مَعانٍ وليست أجسامًا؟!

الجواب: أنَّ اللهَ تبارك وتعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، يَقْلِبُ هذه المعانيَ إلى

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وحفصٌ، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٤٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٥١٠).

أجسام مِثلَما قَلَبَ الموتَ -وهو معنًى- إلى جسم، وهو الكَبشُ[(١)]؛ فاللهُ تعالى على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأصحابِه: ((مَن تَعُدُّون المُفلِسَ فيكم؟ قالوا: مَن لا دِرْهمَ عندَه ولا مَتاعَ، فقال: المُفلِسُ مَن يأتي يومَ القيامةِ بحَسَناتٍ أمثالِ الجبالِ...)) إلى آخرِ الحديث[(٢)]، فالمجيءُ بالأعمالِ يومَ القيامةِ ليس بمُمتنِعٍ؛ لأنَّ الله تعالى على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أنَّ العِبرةَ بالمجيءِ بالحَسَنةِ لا بعَمَلِها؛ وذلك لأنَّ عامِلَ الحسنةِ في الدُّنيا قد لا يأتي بها يومَ القيامةِ؛ حيثُ يحصلُ ما يُبطِلُها؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فقد يعمَلُ الإنسانُ الحَسَنةَ، لكنْ يأتي بشَيءٍ يُبْطِلُها فلا يأتي بها يومَ القيامةِ، والمدارُ على الإتيانِ بها يومَ القيامةِ[(٤)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ سؤالٌ: أليس قال تعالى في أوَّلِ الآيةِ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فكيف نفى الفَزَعَ هاهنا؟!

الجوابُ: أنَّ الفزعَ الأوَّلَ لا يَخلو منه أحدٌ عندَ الإحساسِ بشدَّةٍ تقعُ أو هَولٍ يَفجَأُ إلَّا ما استُثنِي -وإنْ كان المحسِنُ آمنًا مِن لَحاقِ الضَّررِ-، وأمَّا الثَّاني فهو الخَوفُ مِن العَذابِ[(٥)].

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٨).

٥- أنَّ مَن جاء بالسَّيِّئةِ فإنه لا يأمنُ مِن الفَزَعِ، وهو مأخوذٌ مِن مَفهومِ قولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ يعني: أمَّا مَن جاء بالسَّيِّئةِ فإنَّه لا يأمنُ؛ ولهذا تُكَبُّ وُجوهُهم في النارِ(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه كمالُ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فالمعنى: ما ظَلَمْناكم، بل أنتم الَّذين ظلَمْتُم أنفُسَكم، فعَمِلتُم ما استَحْقَقْتُم به هذا العذابَ(٢).

٧- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ عذابَ أهلِ النارِ -والعياذُ باللهِ- عذابٌ نفْسيٌّ وبَدَنيٌّ؛ بَدَنيٌّ حيثُ تُكَبُّ وجوهُهم في النَّارِ، ونفْسيٌّ حيثُ يُوَبَّخون ويُقرَعون: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وجوبُ العبادةِ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِقَولِه: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾، كما تجِبُ العبادةُ على غيرِه، ويجبُ عليه هو -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يَشهدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّه رسولُ اللهِ، فهذا مقتضى الإسلامِ، وفي الآيةِ بُطلانُ القولِ بأنَّ الوليَّ يَصِلُ إلى دَرَجةٍ يَسقطُ بها عنه التَّكليفُ، وهذا موجودٌ عندَ الصُّوفيةِ وغيرِهم؛ يقولون: هذه العباداتُ التي نُكَلَّفُ بها وسائلُ إلى غايةٍ، والغايةُ: اليقينُ، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فإذا وَصَلَ الإنسانُ إلى اليقينِ سقطتْ عنه العبادةُ! فإذا كان الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أُمِرَ أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يعبُدَ اللهَ، فغَيرُه من بابٍ أَولى[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ في قَولِه: ﴿حَرَّمَهَا﴾ تعديدُ نِعمتِه على قُريشٍ في رَفعِ الله تعالى عن بلَدِهم الغاراتِ والفِتَنَ الشَّائعةَ في جميعِ بلادِ العَرَبِ[٢].

١٠- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ فيه فضيلةُ مكَّةَ مِن وَجهَينِ: مِن إضافةِ الرُّبوبيَّةِ إليها ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾، ومِن كونِه تعالى حَرَّمَها ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾؛ ففيه فضيلةُ مكَّةَ على سائرِ البلادِ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ الذي حَرَّمَ مكةَ هو اللهُ، ألَا يُعارِضُ ذلك ما ثَبَت عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن قولِه: ((إنَّ إبراهيمَ حَرَّمَ مكَّةَ))[٤]؟!

الجوابُ: أنَّه أُضيفَ في هذه الآيةِ التَّحريمُ إلى اللهِ تعالى من حيثُ ذلك بقَضائِه وسابِقِ عِلمِه، وأضافه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى إبراهيمَ عليه السلامُ في قَولِه: ((إنَّ إبراهيمَ حرَّم مكَّةَ)) مِن حيث كان ظهورُ ذلك بدُعائِه ورَغبتِه وتبليغِه لأمَّتِه؛ فليس بيْنَ الآيةِ والحديثِ تعارُضٌ[٥].

١٢- في قَولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الرَّدُّ على المعتزلة والقَدَريَّة الذين يقولون: إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٣).
(٤) أخرجه البخاري (٢١٢٩)، ومسلم (١٣٦٠) من حديث عبد الله بنِ زيدٍ رضي الله عنه.
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٣).

الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه، فإنَّه على قَولِهم يَخرجُ بعضُ الأشياءِ عن مُلْكِ اللهِ! واللهُ تعالى يقولُ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾[1].

١٣- في قَولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ ثم قوله بعدَ ذلك: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ سؤالٌ، وهو: أليسَتِ العبادةُ هي الإسلامَ؟

الجوابُ: بلى، العبادةُ هي الإسلامُ، لكنَّه قال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، والعِبادةُ هي التَّذلُّلُ له بالطَّاعةِ، ثمَّ قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أيْ: أنْ أُحَقِّقَ هذه العِبادةَ بالاستِسلامِ التَّامِّ لأوامرِ الله تبارك وتعالى، فالإنسانُ قد يكونُ عابدًا في الأصلِ لَكِنِ الانقيادُ التَّامُّ بجميعِ مشروعاتِ الإسلامِ يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: مِنَ المُنقادينَ لحُكمِ الله سبحانه وتعالى انقيادًا تامًّا، لا مُعارَضةَ عندَهم ولا استكبارَ[2].

١٤- أنَّ الإسلامَ والإيمانَ شَيءٌ واحدٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لا شكَّ أنَّ ما أُمِرَ به هو أعلى الحالاتِ، وهو الإيمانُ. والإسلامُ عندَ الإطلاقِ يشملُ الإيمانَ، والإيمانُ عند الإطلاقِ يشملُ الإسلامَ، وأمَّا عندَ التَّقييدِ وأن يُقرَنَ بيْنَهما فإنَّ الإيمانَ يكونُ ما وقَرَ في القَلبِ، والإسلامَ ما قامت به الجوارِحُ؛ لأنَّ الإسلامَ مِنَ الاستِسلامِ، وهو عدَمُ المعارَضةِ، بل الموافَقةُ؛ فالمنافقون الَّذين لا يُظهِرونَ مُعارَضةً نُسَمِّيهم مُسلِمينَ، لكِنْ لا نُسَمِّيهم مُؤمِنينَ؛ لعدَمِ وُجودِ الإيمانِ في قلوبِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢٠، ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢٧).

١٥- في قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ هناك مُسلِمينَ، فهل اليهودُ والنَّصارى مسلمون؟

الجواب: حينَ كانت شرائعُهم قائمةً فهم مسلمون، أمَّا بعدَ أن نُسِختْ فإنَّهم إذا لم يَلتزِموا بالشَّريعةِ النَّاسخةِ لم يكونوا مُسلِمينَ، فالإسلامُ هو الدِّينُ عندَ الله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وبعدَ بَعثةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا إسلامَ إلَّا باتِّباعِ شريعتِه، وإلَّا فأصلُ الإسلام -كما هو معروفٌ- مِنَ الاستِسلامِ، وهو الانقيادُ، وهذا يشملُ كلَّ انقيادٍ لله سبحانه وتعالى، سواءٌ في عصرِ هذه الأُمَّةِ أو قبْلَها، فنوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، مِثلَما قيل للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقال عن يعقوبَ: إنَّه قال لِبَنيهِ: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقالت بِلْقيسُ: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١) [النمل: ٤٤].

١٦- قَولُه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيه وُجوبُ تبليغِ القرآنِ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

١٧- حقيقةُ التِّلاوةِ في قولِه: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وغيرِه مِنَ المَواضِعِ كقولِه تعالي: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] هي التِّلاوةُ المُطْلَقةُ التَّامَّةُ، وهي تلاوةُ اللَّفظِ والمعنى؛ فتِلاوةُ القرآنِ تتناوَلُ تِلاوةَ لفظِه ومعناه، وتِلاوةُ اللَّفظِ جُزءُ مُسمَّى التِّلاوةِ المُطْلَقةِ، وحقيقةُ اللَّفظِ إنَّما هي الاتِّباعُ، فتِلاوةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٣٦).

اللَّفظِ وسيلةٌ وطريقٌ، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيَّةُ، وهي تلاوةُ المعنى واتِّباعُه؛ تصديقًا بخبرِه، وائتِمارًا بأمرِه، وانتهاءً عن نَهْيِه، وائتمامًا به، حيثُما قادك انقَدْتَ معه، فتِلاوةُ المعنى أشرَفُ مِن مجرَّدِ تلاوةِ اللَّفظِ، وأهلُها هم أهلُ القرآنِ الَّذين لهم الثَّناءُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّهم أهلُ مُتابَعةٍ وتِلاوةٍ حقًّا[١].

١٨- قولُه تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ﴾، أي: أُواظِبَ على تِلاوتِه على النَّاسِ بطَريقِ تكريرِ الدَّعوةِ وتَثنيةِ الإرشادِ؛ فيكونُ ذلك تَنبيهًا على كِفايتِه في الهِدايةِ والإرشادِ مِن غَيرِ حاجةٍ إلى إظْهارِ مُعجزةٍ أُخرى[٢]؛ ففيه فَضيلةُ القرآنِ وشَرَفُه[٣].

١٩- كان ما أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَه للمُعاندين مُشتمِلًا على أنَّ اللهَ هداهُ للدِّينِ الحقِّ مِن التَّوحيدِ وشرائعِ الإسلامِ، وأنَّ اللهَ هدَى به النَّاسَ بما أنزَلَ اللهُ عليه مِن القرآنِ المَتلُوِّ، وأنَّه جعَلَه في عِدادِ الرُّسلِ المُنذِرينَ؛ فكان ذلك مِن أعظَمِ النِّعمِ عليه في الدُّنيا، وأبْشَرِها بأعظَمِ دَرجةٍ في الآخرةِ؛ مِن أجْلِ ذلك أُمِرَ بأنْ يَحمَدَ اللهَ بالكلمةِ الَّتي حمِدَ اللهُ بها نفْسَه، وهي كلمةُ (الحمدُ للهِ) الجامعةُ لِمَعانٍ مِن المحامدِ؛ قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ كلامٌ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٨).

مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّمهيدِ لِختامِ السُّورةِ بإجمالِ مَصيرِ المُحسِنِ والمُسيءِ[(١)].

وقِيل: بيانٌ لِمَا أُشيرَ إليه بإحاطةِ عِلْمِه تعالى بأفعالِهم مِن تَرتيبِ أَجْزيتِها عليها[(٢)].

- قولُه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ ...﴾ بيانٌ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؛ لأنَّ الفزَعَ مُقتَضٍ الحشرَ والحضورَ للحسابِ[(٣)].

- وقَولُه: ﴿فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ﴾ فأضاف الفَزَعَ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّه فَزَعٌ لا نظيرَ له في الدُّنيا[(٤)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ خُصَّتِ الوُجوهُ بالذِّكرِ هنا؛ لأنَّها أشرَفُ الأعضاءِ، ويلْزَمُ مِن كَبِّها في النَّارِ كبُّ الجميعِ. أو عُبِّرَ بالوجْهِ عن جُملةِ الإنسانِ، كما يُعبَّرُ عنها بالرَّأسِ والرَّقَبةِ، كما قال: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾ [الشعراء: ٩٤]، فكأنَّه قِيل: فكُبُّوا في النَّارِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ذِكْرُ الوُجوهِ إيذانًا بأنَّهم يُكَبُّون على وُجوهِهم فيها مَنكوسينَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ذلك كِنايةً عن طرْحِهم في النَّارِ[(٥)].

- في قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝ وَمَن

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١، ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٣).

جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ احتباكٌ[١]؛ حيث ذَكَرَ الخيريَّةَ والأمْنَ أوَّلًا دليلًا على حذْفِ المِثْلِ؛ وعلى الخوفِ ثانيًا، وذَكَر الكَبَّ في النَّارِ ثانيًا دليلًا على الإكرامِ عنه أوَّلًا[٢].

- قولُه: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ للزَّواجرِ المُتقدِّمةِ؛ فالخِطابُ للمُشركين الذين يسْمَعون القرآنَ على طَريقةِ الالتفاتِ مِن الغَيبةِ بذِكْرِ الأسماءِ الظَّاهرةِ -وهي مِن قَبيلِ الغائبِ- وذِكْرِ ضَمائرِها ابتداءً مِن قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] وما بعْدَه مِن الآياتِ إلى هنا. ومُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: هلْ يُجْزَون إلَّا ما كانوا يعْمَلون؛ فكانت هذه الجُملةُ كالتَّلخيصِ لِمَا تقدَّمَ، وهو أنَّ الجزاءَ على حسَبِ عقائدِهم وأعمالِهم، وما العقيدةُ إلَّا عمَلُ القلْبِ؛ فلذلك وُجِّهَ الخِطابُ إليهم بالمُواجَهةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ مَقولًا لقولٍ مَحذوفٍ يُوجَّهُ إلى النَّاسِ يومَئذٍ، أي: يُقالُ لكلِّ فريقٍ: هلْ تُجْزَون إلَّا ما كُنتم تعْمَلون[٣]؟

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ استفهامٌ في مَعنى النَّفيِ؛ بقَرينةِ الاستثناءِ. ولعلَّ أصلَ ذلك أنَّه استفهامٌ عن النَّفيِ لقَصدِ التَّقريرِ بالنَّفيِ، والتَّقديرُ: هلْ لا تُجْزَون إلَّا ما كُنتم تعْمَلون، فلمَّا اقترَن به الاستثناءُ

---

(١) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٣).

غالبًا والحرفُ الزَّائدُ في النَّفيِ في بعضِ المواضعِ، حَذَفوا النَّافيَ، وأشْرَبوا حرفَ الاستفهامِ معنى النَّفيِ؛ اعتمادًا على القرينةِ، فصار مُفادُ الكلامِ نفْيًا، وانسلَخَتْ (هل) عن الاستفهامِ، فصارت مُفيدةً النَّفيَ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ هذه الخاتمةُ كالمُتاركةِ للمُشركينَ، وهي خاتمةٌ تُدهِشُ العقولَ، وتُحيِّرُ الأفهامَ؛ فإنَّه تعالى لَمَّا ختَمَ الآياتِ الواردةَ في أمْرِ البعثِ والحشرِ على أتمِّ ما يَنْبغي بقولِه: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ على الحصرِ، ووضَعَ مَوضِعَ حَرفِ النَّفيِ الاستفهامَ تأكيدًا؛ أمَرَ حَبيبَه صلواتُ اللهِ عليه بخُوَيْصَّةِ نفْسِه مِن الاشتغالِ بعِبادةِ ربِّه، فاختار له مِن الأمكنةِ أفضَلَ البِقاعِ، وخصَّها مِن الأوصافِ ما كلُّ وَصفٍ دونَها، وجعَلَ دخولَ كلِّ شَيءٍ تحتَ مَلكوتِه كالتَّابعِ لدُخولِها تحتَه. ومِن المِلَّةِ خيرَ المِلَلِ وأقْومَها؛ ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ومِن الكُتبِ أسْمى الكُتبِ وأسْناها؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ثمَّ أمَرَ بعدَ ذلك كلِّه بالتَّحميدِ حمْدًا على ما أَولاهُ مِن نِعَمِ التَّبليغِ، واستفراغِ الطَّوقِ والجُهدِ فيه، ومِن اختصاصِ اللهِ بالعِبادةِ في أشرَفِ البقاعِ، ومِن الدُّخولِ في المِلَّةِ الحنيفيَّةِ، ومِن تِلاوةِ هذا الكتابِ الكريمِ، ثمَّ طبَعَ الكتابَ بالتَّهديدِ بقولِه: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، يعني: حينَ أعْرَضوا عن واعظِ اللهِ، وأمَرْنا الرَّسولَ بالمُتارَكةِ، سنَفرُغُ لهم وحْدَنا، ونُلجِئُهم إلى المعرفةِ والإقرارِ بآياتِنا حينَ لا تَنفَعُهم المعرفةُ، كقولِه تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١، ٣٢]، واللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٤).

يقولُ الحقَّ، وهو يَهْدي السَّبيلَ[١].

- وقد اسْتُؤنِفَ الكلامُ استئنافًا يكونُ فَذْلَكةَ الحسابِ، وخِتامًا للسُّورةِ وفصْلَ الخِطابِ؛ أفسَدَ به على المُشركينَ ازدهاءَهم بما يَحسَبون أنَّهم أفْحَموا الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما ألْقَوه عليه، ويَزيدُ الرَّسولَ تَثبيتًا وتطْمينًا بأنَّه أرْضى ربَّه بأداءِ أمانةِ التَّبليغ؛ وذلك بأنْ أمَرَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يقولَ لهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾، فهذا تلْقينٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. والجُملةُ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ما عُطِفَ عليه في هذه الآيةِ مرَّتينِ، وهو ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۞ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٩٢، ٩٣]؛ فإنَّ الأوَّلَ مُفرَّعٌ عليه، فهو مُتَّصلٌ به، والثَّانيَ معطوفٌ على أوَّلِ الكلامِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بأداةِ الحصْرِ؛ لإفادةِ حَصرٍ إضافيٍّ باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه مُحاوَراتُهم السَّابقةُ مِن طَلبِ تعجيلِ الوعيدِ، وما تَطاوَلوا به مِن إنكارِ الحشرِ[٣].

- وأدْمَجَ في خلالِ هذا الكلامِ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾؛ تَنويهًا بشأْنِ مكَّةَ، وتَعريضًا بهم بكُفرِهم بالَّذي أسْكَنَهم بها وحرَّمَها، فانتَفَعوا بتَحريمِها، وأشْعَرَهم بأنَّهم لا يَملِكُون تلك البلدةَ؛ فكاشَفَهم اللهُ بما تُكنُّه صُدورُهم مِن خواطرِ إخراجِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ مِن مكَّةَ؛ وذلك مِن جُملةِ ما اقتضاهُ قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٠١، ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُعۡلِنُونَ ﴾ [النمل: ٧٤]؛ فلهذه النُّكتِ أُجْرِيَ على اللهِ صِلَةُ حرَمِ تلك البلدةِ، دونَ أنْ يكونَ المَوصولُ للبلدةِ؛ فلذا لم يَقُلْ: الَّتي حرَّمَها اللهُ؛ لِمَا تَتضمَّنُه الصِّلةُ من التَّذكيرِ بالنِّعمةِ عليهم، ومِن التَّعريضِ بضَلالِهم؛ إذ عَبَدوا أصنامًا لا تَملِكُ مِن البلدةِ شيئًا، ولا أكسَبَتْها فضْلًا ومَزِيَّةً، وهذا كقولِه: ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾[1] [قريش: ٣].

- قولُه: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ البلدةُ هي مكَّةُ المُعَظَّمةُ، وتَخصيصُها بالإضافةِ؛ لتَفخيمِ شأْنِها، وإجلالِ مكانِها، والتَّعرُّضُ لتَحريمِه تعالى إيَّاها: تَشريفٌ لها بعدَ تَشريفٍ، وتعظيمٌ إثْرَ تَعظيمٍ، مع ما فيه مِن الإشعارِ بعلَّةِ الأمرِ ومُوجِبِ الامتثالِ به، ومِن الرَّمزِ إلى غايةِ شَناعةِ ما فعَلُوا فيها؛ ألَا تَرى أنَّهم مع كَونِها مُحرَّمةً مِن أنْ تُنتهَكَ حُرمَتُها باختِلاءِ خَلاها، وعَضدِ شَجَرِها، وتَنفيرِ صَيدِها، وإرادةِ الإلحادِ فيها بوَجهٍ مِن الوجوهِ؛ قد استمَرُّوا فيها على تَعاطي أفجَرِ أفرادِ الفُجورِ، وأشنعِ آحادِ الإلحادِ؛ حيثُ ترَكُوا عِبادةَ ربِّها، ونصَبُوا فيها الأوثانَ وعكَفُوا على عِبادتِها[2]؟!

- وإنَّما اختَصَّها مِن بيْنِ سائرِ البلادِ بإضافةِ اسْمِه إليها؛ لأنَّها أحَبُّ بِلادِه إليه، وأكرَمُها عليه، وأعظَمُها عندَه، وأشار إليها إشارةَ تَعظيمٍ لها وتقْريبٍ، دالًّا على أنَّها مَوطِنُ نبيِّه ومَهْبطُ وَحْيِه، ووصَفَ ذاتَه بالتَّحريمِ الَّذي هو خاصُّ وَصْفِها، فأجزَلَ بذلك قَسْمَها في الشَّرفِ والعُلوِّ، وجعَلَ دُخولَ كلِّ شيءٍ تحتَ رُبوبيَّتِه ومَلكوتِه كالتَّابعِ لدُخولِها تحتَهما؛ فأضافَ الرَّبَّ إلى البلدةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦).

إضافةَ تمْليكٍ، وهو بمعنى مالكٍ، ثمَّ عقَّبَ ذلك بقولِه: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٍ﴾ على وَجهِ التَّتميم؛ لِيُؤذِنَ بالفرْقِ بيْنَ المِلْكين، وأنَّ أحدَهما كالتَّابع، والآخَرَ كالمتبوعِ. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ مَلِكًا قد ملَكَ مِثلَ هذه البلدةِ عظيمُ الشَّأنِ قد ملَكَها، وملَكَ إليها كلَّ شَيءٍ[١]. وقيل: تحتَ قولِه: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٍ﴾ فائدةٌ أُخرى سِوى ذلك؛ ففيهِ احتراسٌ بَديعٌ، فقد أضاف سُبحانه اسْمَه إلى مكَّةَ تَشريفًا لها وذِكرًا لتَحريمِها، ولَمَّا أضاف اسمَه إلى البلدةِ المَخصوصةِ بهذا التَّشريفِ أتبَعَ ذلك إضافةَ كلِّ شَيءٍ سِواها إلى مِلْكِه؛ قطْعًا لتَوهُّمِ اختصاصِ ملكِه بالبلدةِ المُشارِ إليها، وتَنبيهًا على أنَّ الإضافةَ الأُولى إنَّما قُصِدَ بها التَّشريفُ، لا لأنَّها مِلكُ اللهِ تعالى خاصَّةً[٢].

- والعُدولُ عن ذِكرِ مكَّةَ باسْمِها العَلمِ إلى طَريقةِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾؛ لِمَا تَقْتضيهِ الإشارةُ مِن التَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فيه تَكريرُ (أُمِرْتُ)؛ للإشارةِ إلى الاختلافِ بيْنَ الأمْرَينِ؛ فإنَّ الأوَّلَ أمْرٌ يَعمَلُه في خاصَّةِ نفْسِه، وهو أمْرُ إلْهامٍ؛ إذ عصَمه اللهُ مِن عِبادةِ الأصنامِ مِن قبْلِ الرِّسالةِ. والأمْرُ الثَّاني أمْرٌ يَقْتضي الرِّسالةَ، وقد شمَلَ دعوةَ الخلْقِ إلى التَّوحيدِ. ولهذه النُّكتةِ لم يُكرِّرْ (أُمِرْت) في قولِه: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النمل: ٩٢]؛ لأنَّ كلًّا مِن الإسلامِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٦).

والتِّلاوةِ مِن شُؤونِ الرِّسالةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تَنويهٌ بهذه الأُمَّةِ؛ إذ جعَلَ اللهُ رسولَه مِن آحادِها، وذلك نُكتةُ العُدولِ عن أنْ يقولَ: (أن أكونَ مُسلِمًا)[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ﴾ فيه حذْفُ مُتعلَّقِ التِّلاوةِ؛ لظُهورِه، أي: أنْ أتلُوَ القرآنَ على النَّاسِ.

- قولُه: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ فرَّعَ على التِّلاوةِ ما يَقْتضي انقسامَ النَّاسِ إلى مُهتَدٍ وضالٍّ، أي: مُنتفِعٍ بتلاوةِ القرآنِ عليه وغيرِ مُنتفِعٍ، مُبيِّنًا أنَّ مَن اهْتَدى فإنَّما كان اهتداؤُه لفائدةِ نفْسِه. وهذا زِيادةٌ في تَحريضِ السَّامعينَ على الاهتداءِ بهَدْيِ القرآنِ؛ لأنَّ فيه نَفْعَهم كما آذنَتْ به اللَّامُ[٣].

- قولُه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ فيه إظهارُ فِعلِ القولِ؛ لتأكيدِ أنَّ حظَّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن دَعوةِ المُعرِضين الضَّالِّين أنْ يُبلِّغَهم الإنذارَ؛ فلا يَطْمَعوا أنْ يَحمِلَه إعراضُهم على أنْ يُلِحَّ عليهم في قَبولِ دَعوتِه[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يَحمَدَ اللهَ بالكلمةِ التي حمِدَ اللهُ بها نفْسَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ثمَّ استأنَفَ بالاحتراسِ ممَّا يَتوهَّمُه المُعانِدون حين يسْمَعون آياتِ التَّبرُّؤِ مِن مَعرفةِ الغيبِ، وقصْرِ مَقامِ الرِّسالةِ على الدَّعوةِ إلى الحقِّ مِن أنْ يكونَ في ذلك نقْضٌ للوعيدِ بالعذابِ؛ فختَمَ الكلامَ بتَحقيقِ أنَّ الوعيدَ قريبٌ لا مَحالةَ، وأنَّ اللهَ لا يُخلِفُ وعْدَه، فتَظهَرُ لهم دَلائلُ صِدقِ اللهِ في وعْدِه؛ ولذلك عبَّرَ عن الوعيدِ بالآياتِ إشارةً إلى أنَّهم سيَحُلُّ بهم ما فيه تَصديقٌ لِمَا أخْبَرَهم به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ حينَ يُوقِنون أنَّ ما كان يقولُ لهم هو الحقُّ؛ فمعنى ﴿فَتَعۡرِفُونَهَا﴾: تَعرِفون دَلالتَها على ما بلَّغَكم الرَّسولُ مِن النِّذارةِ؛ لأنَّ المعرفةَ لَمَّا عُلِّقَت بها بعُنوانِ أنَّها آياتُ اللهِ، كان مُتعلَّقُ المعرفةِ هو ما في عُنوانِ الآياتِ مِن معنى الدَّلالةِ والعلامةِ[(١)].

- قولُه: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَا﴾ تَهديدٌ لأعدائِه بما سَيُريهم اللهُ مِن آياتِه التي تُلجِئُهم إلى المعرفةِ والإقرارِ بأنَّها آياتُ اللهِ، وذلك حينَ لا تَنفعُهم المعرفةُ. وقيل: هو كقولِه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣] الآيةَ، وكلُّ عمَلٍ يَعمَلونه فاللهُ عالِمٌ به، غيرُ غافلٍ عنه؛ لأنَّ الغفلةَ والسَّهوَ لا يَجوزانِ على اللهِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ كلامٌ مَسوقٌ مِن جِهتِه تعالى بطَريقِ التَّذييلِ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مُتضمِّنٌ للوعدِ والوعيدِ، كما يُنبِئُ عنه إضافةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وتَخصيصُ الخِطابِ أوَّلًا به صلَّى الله عليه وسلَّمَ وتَعميمُه ثانيًا للكَفَرةِ تغْليبًا. وعلى قِراءةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على الغَيبةِ فهُو وَعيدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٧).

مَحضٌ، والمعنى: وما ربُّك بغافلٍ عن أعمالِهم، فسَيُعذِّبُهم الْبَتَّةَ[(١)].

- وقولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن تَمامِ ما أُمِرَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ يقولَه للمُشرِكين، وفيه زِيادةُ إنذارٍ بأنَّ أعمالَهم تَستوجِبُ ما سيَرونَه مِن الآياتِ. والمُرادُ: ما يَعمَلونه في جانبِ تلقِّي دَعوةِ رَسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وقُرآنِه؛ لأنَّ نفْيَ الغفلةِ عن اللهِ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بأنَّه منهم بالمرصادِ، لا يُغادِرُ لهم مِن عمَلِهم شيئًا. وعلى قِراءةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ، فهو عطْفٌ على (قُلْ)، والمقصودُ تَسليةُ الرَّسولِ عليه السَّلامُ بعْدَما أُمِرَ به مِن القولِ بأنَّ اللهَ أحْصى أعمالَهم، وأنَّه مُجازِيهم عنها؛ فلا يَيأسُ مِن نَصرِ اللهِ[(٢)].

- وقد جاءت هذه الآيةُ خاتمةً جامعةً بالِغةً أقصَى حَدٍّ من بلاغةِ حُسنِ الخِتامِ[(٣)].



تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّاني والعشرونَ

ويليه المجلدُ الثَّالثُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ القَصصِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).



الفهرس







الفهرس


تـم الـصـف والإخـــراج فــي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net
٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠